القصيدة التائية

في القدر

لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية

دراسة وتحقيق وشرح

د. محمد بن إبراهيم الحمد

دار ابن خزيمة

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم

القصيدة التائية في القدر ـ الرياض

٢٤ × ١٧ سم .

ردمك ٨ ـ ٦٩ ـ ٨٨٣ ـ ٩٩٦٠

١ ـ القضاء والقدر (الإسلام) (أ) ـ الحمد محمد بن إبراهيم (محقق) (ب) ـ العنوان

ديوي ٢٤١ ١٤٢٣/٤٦٥٨

رقم الإيداع: ١٤٢٣/٤٦٥٨

ردمك: ٨ـ٦٩ـ٨٨٣ـ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

دار ابن خزيمة

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض

الملز - شارع الأحساء - غرب حديقة الحيوان

هاتف: ٤٧٣٠٧٨٨ - ٤٧٦٩٩٣٢ - فاكس: ٤٧٦٠٧٩٥

تقرير

بسم الله الرحمن الرحيم

البحث المقدم من الباحث محمد بن إبراهيم الحمد؛ لنيل درجة الدكتوراه بعنوان (**القصيدة التائية في القدر**) لشيخ الإسلام ابن تيمية/ تحقيق ودراسة وشرح.

من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان، ولي شرف أن كنت أحد أعضاء لجنة المناقشة، والحكم على هذا البحث.

أولاً: يحمد للباحث كونه قد اختار موضوعاً كثر الخلاف حوله، وتشعبت أقوال العلماء فيه، وقد أصاب الباحث فيه المحز، وأجمل فيه ما تشعب من أقوال العلماء، ولا أزكي الباحث على الله -تعالى- فهو أعلم بمن اتقى.

ثانياً: الدراسة مع صعوبتها نادرٌ فيها الأخطاء مما يدل على الباحث قد فرغ نفسه تماماً لدراسته؛ فالعلم عزيز، ولا يقبل المشاركة.

ثالثاً: ما قرأت طوال حياتي واشتراكي في لجان التحكيم مثل هذا العمل من حيث تمام المعنى، وسلامة اللغة، وتوجيه الأدلة وجمعها من أصول الكتب

وإيرادها في موضعها؛ فأسأل الله ـتعالى ـ أن ينفع بالباحث وبعلمه، وأن يقبل قولنا فيه، ويغفر له ما لا نعلم عنه، والله الهادي إلى سواء السبيل.

د. محمد السيد شريف[1]
عميد معهد العلوم والبحوث الإسلامية
جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا

---

(١) هو د. محمد السيد شريف عميد معهد العلوم والبحوث الإسلامية في جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا حالياً، تخرج في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة في المملكة العربية السعودية كلية الدعوة وأصول الدين (١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م) ثم نال درجة ماجستير الشريعة فرع العقيدة في جامعة أم القرى بمكة المكرمة (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م) ثم حصل على درجة الدكتوراه من جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية قسم العقيدة (١٩٩٦م).

شغل العديد من المناصب في العديد من الجامعات، كجامعة القرآن الكريم في أم درمان، وجامعة القرآن الكريم، وجامعة الجزيرة، وجامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا.

المقــدّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً كثيراً ـ وبعد:

فإن الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان، وقاعدة أساس الإحسان؛ وهو قطب رحى التوحيد ونظامه، ومبدأ الدين القويم وختامه[1].

وإن هذا الباب لمن أعظم أبواب العقيدة، وإن شأنه لشأنُ غيره من الأبواب من حيث الوضوح والفلاسفة والبيان، بل إن له شأناً عجيباً؛ لأن عامة الناس أعلم به من المتكلمين؛ لأنه مسألة بديهية، والبديهي كلما زاد التعمق فيه بعد عن الإدراك[2] لذلك فإن الإيمان به أمر فطري يدرك ببادئ الرأي، وأول النظر.

ولهذا كانت العرب في جاهليتها وإسلامها تعرف القدر، ولم تكن تنكره ـ

---

(1) انظر طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن قيم الجوزية، ضبط نصه وخرج أحاديثه عمر ابن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، ط1، 1409هـ. ص170.

(2) أشار إلى هذا المعنى اللطيف الشيخ محمد رشيد رضا، انظر منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة، تامر محمد محمود متولي، دار ماجد عسيري، جدة، ط1، 1425هـ ـ 2004م، ص568.

كما صرَّح بذلك أحد أئمة اللغة وهو الإمام أحمد بن يحيى ثعلب بقوله: «ما في العرب إلا مثبت القدر خيره وشره أهل الجاهلية وأهل الإسلام»[(١)].

وإثباتهم للقدر مبثوث في ثنايا أشعارهم وخطبهم -كما سيأتي عند الحديث عن أدلة القدر- فهم يثبتون القدر ولا ينكرونه، وإن كان هذا الإثبات قد يشوبه بعض التخبط والجهل في فهم حقيقة القدر.

فنجد -على سبيل المثال- زهير بن أبي سلمى يقول في معلقته المشهورة:

فلا تكتُمنَّ الله ما في نفوسكم ... ليخفى ومهما يُكْتَمِ الله يعلمِ

يؤخر فيوضع في كتاب فَيُدَّخَرْ ... ليوم الحساب أو يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ[(٢)]

ثم تراه في موضع آخر من تلك المعلقة يقول:

رأيت المنايا خبطَ عشواءَ من تُصِبْ ... تُمِتْهُ ومن تخطيء يُعَمَّرْ فيهرمِ[(٣)]

فهو لا ينكر القدر، وإنما يرى أن الأقدار كالناقة العشواء -ضعيفة البصر- تسير في الطريق، فمن أصابته مات، ومن أخطأته عاش.

وهذا جهل وتخبط في باب القدر؛ ذلك أن المنايا مكتوبة مقدرة، كما صرح بذلك غيره من أهل الجاهلية، كعمرو بن كلثوم أحد شعراء المعلقات حيث قال:

وأنَّا سوف تدركنا المنايا ... مقدرةً لنا ومقدرينا[(٤)]

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي، تحقيق: د.أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة، الرياض، ٤/٧٠٤-٧٠٥.

(٢) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، المكتبة الثقافية، بيروت، ط١، ١٩٦٨م، ص ٢٥.

(٣) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ص٣٢.

(٤) شرح القصائد المشهورات، لابن النحاس، دار الكتب العالمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ٢/٩١.

وكما قال لبيد بن ربيعة العامري رضي الله عنه في معلقته المشهورة يصف البقرة الوحشية وحالها مع الوحوش الضارية:

صادفن منها غِرَّةً فأصبنها إن المنايا لا تطيش سهامها[1]

وعندما بعث النبي ﷺ بيَّن هذا الأمر -كغيره من أمور الشرع- غاية البيان؛ فإن كلماتِه الجوامعَ النوافع في هذا الباب وغيره كفت وشفت، وجمعت وفرقت، وأوضحت وبينت، وحلَّت محل التفسير والبيان لما تضمنه القرآن.

ثم تلاه أصحابه من بعده، وتلقوا ذلك عنه، فاتبعوا طريقه القويم، وساروا على نهجه المستقيم، فجاءت كلماتهم كافية شافية، مختصرة نافعة؛ لقرب العهد، ومباشرة التلقي من مشكاة النبوة، التي هي مظهر كل نور، ومنبع كل خير، وأساس كل هدى؛ فكانوا بذلك أعظم الناس فهماً وفقهاً لهذا الباب، وأكثرهم إيماناً به وعملاً بمقتضاه، فأثَّر ذلك فيهم أيما تأثير، فكانوا -رضوان الله عليهم- أتقى الناس، وأكرم الناس، وأشجع الناس بعد الأنبياء -عليهم السلام-.

ثم سلك أثرهم التابعون لهم بإحسان، فاقتفوا طريقهم، واهتدوا بهداهم، ودعوا إلى ما دعوا إليه، ومضوا إلى ما كانوا عليه[2].

ثم بعد ذلك دبَّ في هذه الأمة داء الأمم، فركبت سنن من كان قبلها،

---

(١) شرح المعلقات العشر، للزوزني، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣م، ص١٧٦، وديوان لبيد بن ربيعة العامري، دار صادر، بيروت ص١٧١.

(٢) انظر شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن قيم الجوزية، تحرير الحساني حسن عبدالله، مكتبة دار التراث، القاهرة، ص٤.

فدخلت الفلسفات اليونانيةُ، والهنديةُ، والفارسيةُ، وغيرُها بلادَ المسلمين، وظهرت بدعة القدرية في البصرة ودمشق، فوقع أول شرك في هذه الأمة، وهو نفي القدر، وكان ذلك في عهد أواخر الصحابة -رضي الله عنهم- الذين أنكروا تلك البدعة، وأعلنوا البراءة منها ومن أهلها.

ثم جاء من بعدهم علماء السلف، فتصدوا لتلك البدعة، وبينوا زيفها، وهتكوا سجفها، ودحضوا باطلها، وأظهروا الحق ونشروه، ودعوا الأمة إليه.

ومن أولئك العلماء الأجلاء شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم ابن عبدالسلام بن تيمية الحراني رحمه الله فله في هذا الباب وغيرِه يدٌ طولى، وقِدْحٌ مُعلّىً؛ حيث تعرض لباب القدر، وبيَّنه، وانتصر لمذهب السلف فيه، وأجاب عن أدق مسائله، وتفاصيله، وكشف عن وجه الصواب فيما أثير حوله من شبهات، وصاول الفرق الضالة والمذاهب المنحرفة، وقارعهم بالحجة والبيان.

وكلامه في القدر مبثوث في ثنايا كثير من كتبه، وخصوصاً المجلد الثامن من مجموع الفتاوى الذي جمعه الشيخ عبدالرحمن بن قاسم، وابنه الشيخ محمد -عليهما رحمة الله-.

وإن من أبدع ما خطته يراعة شيخ الإسلام من الأجوبة في هذا الباب - ما أجاب به عن السؤال الذي أورده بعض علماء الذمة، أو على لسان علماء الذمة -كما سيأتي بيان ذلك-.

حيث أُورد ذلك السؤال في ثمانية أبيات تتضمن شبهاً عظيمة في هذا الباب، يقول مطلعها:

أيا علماءَ الدينِ ذميٌّ دينكم   تحير دُلُّوه بأوضح حجة

فأجابه شيخ الإسلام على البديهة مرتجلاً بمائة وخمسة وعشرين بيتاً فصَّل من خلالها الرد على هذا السائل، وأتى بالعجب العجاب في باب القدر، ومطلعُ تلك القصيدة يقول:

سؤالك يا هذا سؤالُ معاندٍ   مخاصم رب العرش باري البرية

فهذه القصيدة في القدر هي موضوع البحث.

أما عنوان البحث فهو:

القصيدة التائية في القدر لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية
دراسة، وتحقيق، وشرح

أهمية موضوع الرسالة:

من خلال ما مضى يتبين لنا شيء من شأن موضوع الرسالة، وفيما يلي مزيد بيان لأهميته:

١ـ أن موضوعها موضوع شريف، وباب من أبواب العلم لطيف؛ إذ هو يدور حول القدر، والقدر مرتبط بالإيمان بالله؛ فالمؤمن به مؤمن بقدرة الله، والمكذب به مكذب بقدرة الله.

٢ـ كثرة وروده في أدلة الشرع: فنصوص الكتاب والسنة حافلة ببيان حقيقة القدر، وتجلية أمره، وإيجاب الإيمان به.

وهذا ما سيتضح في ثنايا هذا البحث.

٣ـ أنه من الموضوعات الكبرى: التي خاض فيها جميع الناس على اختلاف طبقاتهم وأديانهم؛ والتي شغلت أذهان الفلاسفة، والمتكلمين، وأتباع الطوائف من أهل الملل وغيرهم.

٤ـ ارتباط القدر بحياة الناس وأحوالهم: فهو مرتبط بحياتهم اليومية وما فيها من أحداث وتقلبات ليس لهم في كثير منها إرادة أو تأثير.

ولو لم يكن هناك إلا مسألة الحياة والموت، وتفاوت الناس في الأعمال والمواهب، والغنى والفقر، والصحة والمرض، والهداية والإضلال ـ لكان ذلك كافياً في أن يفكر الإنسان في القدر.

٥ـ كونه أعوصَ أبواب العقيدة: فمع أن باب القدر معلوم بالفطرة ـكما مرـ وأن نصوص الشرع قد بينته غاية البيان إلا أنه يظل أعوص أبواب العقيدة؛ فدقة تفاصيله، وتشعب مسائله، وكثرة الخوض فيه، وتنوع الشبهات المثارة حوله ـ كل ذلك يوجب صعوبة فهمه، وتعسر استيعابه.

فلا غرو أن يحار الناس في شأنه في القديم والحديث؛ فلقد سلك العقلاء في هذا الباب كل واد، وأخذوا في كل طريق، وتولجوا كل مضيق، وقصدوا إلى الوصول إلى معرفته، والوقوف على حقيقته؛ فلم يرجعوا بفائدة، ولم يعودوا بعائدة، لأنهم التمسوا الهدى من غير مظانّه، فتعبوا وأتعبوا، وحاروا وتحيروا، وضلوا وأضلوا.

٦ـ ما يترتب على الإيمان به على الوجه الصحيح: فذلك يثمر السعادة في الدنيا والآخرة، ويورث اليقين، ويكسب الأخلاق الفاضلة، والهمم العالية،

والإرادات القوية.

٧ـ ما يترتب على الجهل به: فالجهل به، أو فهمه على غير الوجه الصحيح يورث الشقاء، والعذاب في الدنيا والآخرة.

والواقع يشهد بذلك في أمم الكفر؛ إذ يشيع فيها قلة التحمل، والانتحار، والقلق.

٨ـ أن هذه القصيدة اشتملت على مباحث دقيقة في باب القدر.

٩ـ أنها صدرت من عالم رباني، فهي تُبِينُ عن قوة علمه، ودقة فهمه، وعظيم منزلته، كيف وقد كتبها على البديهة مرتجلاً؟

هذه بعض الأمور التي تبين أهمية موضوع البحث.

أسباب البحث في هذا الموضوع:

مما دفعني إلى البحث في هذا الشأن أمور منها:

١ـ أن موضوع هذه القصيدة ـوهو القدرـ كان يشغل بالي منذ مدة طويلة؛ فكنت أكثر البحث فيه، والقراءة حوله، والكتابة في شأنه.

٢ـ أن هذه القصيدة اشتملت على الإجابة عن كثير من الإشكالات، وأنها تضمنت الإشارة إلى عدد غير قليل من المصطلحات؛ فرغبت في الوقوف عليها، وشرح ما جاء فيها.

٣ـ أن هذه القصيدة لم تأخذ حظها الكافي من الذيوع، والشرح ـكما سيأتي بيان ذلك في الفصل الثاني من القسم الأول عند الحديث عن شروح القصيدةـ.

٤ـ ما يوجد من الاختلاف بين نسخها المخطوطة والمطبوعة؛ فكانت الرغبة في

تحري التوصل إلى النص الصحيح الذي وضعه المؤلف.

٥ـ أن هذه القصيدة تجيب عن كثير من الشبهات، وترد على كثير من الطوائف، وتبين المذهب الحق في القدر.

٦ـ التيسير على طلاب العلم الذي يرغبون في دراسة هذه القصيدة، أو تدريسها.

فهذه بعض الأسباب الحاملة على البحث في هذه القصيدة.

الدراسات السابقة:

أـ الدراسات في موضوع القدر: أما القدر فقد ألف فيه العلماء في القديم والحديث؛ فالعلماء الأوائل أَوْدَعوا مصنفاتهم الحديثَ عن القدر، وكان ذلك ضمن أبواب العقيدة الأخرى، كما في صنيع الإمام عبدالله بن أحمد في كتابه السنة، والإمام البخاري في كتابه خلق أفعال العباد، والإمام الآجري في الشريعة، والإمام اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة وغيرهم.

وَقلَّ أن يفردوا كتاباً يتعلق بالقدر وحده، ومن القليل من ذلك كتابُ القدر للفريابي وهو يُعنى ـ في غالبه ـ بذكر الآثار المروية في القدرِ.

ومن ذلك رسائلُ وفتاوى كثيرة لشيخ الإسلام ابن تيمية وهي مبثوثة في كثير من كتبه خصوصاً المجلد الثامن من مجموع الفتاوى.

ومن أجمع الكتب في القدر شفاء العليل لابن القيم.

أما في العصور المتأخرة فظهرت كتب في القدر منها الكبير، ومنها الرسائل

الصغيرة، ومنها ما يتناول جزئية معينة من هذا الموضوع، ومن الكتب المؤلفة في ذلك ما يلي:

١ـ القضاء والقدر للعلامة الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله وهي رُسَيِّلَةٌ في صفحات معدودة.

٢ـ القضاء والقدر للشيخ الدكتور عمر الأشقر، وهو كتاب متوسط نافع.

٣ـ القضاء والقدر للشيخ الدكتور عبدالرحمن المحمود، وهو مجلد كبير ويكاد يكون أحسن ما كُتب في هذا الباب.

ب ـ الدراسات السابقة للقصيدة التائية في القدر: لا أعلم أن أحداً تعرض لشرح هذه القصيدة إلا اثنين هما العلامة سليمان بن عبدالقوي الحنبلي المعروف بـ: الطوفي رحمه الله والعلامة الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله.

وسيأتي الحديث عن هذين الشرحين في الفصل الثاني من القسم الأول عند الحديث عن شروح القصيدة.

خطة البحث:

أما خطة البحث فقد اشتملت على المقدمة السابقة، وعلى تمهيد، وقسمين، وخاتمة وذلك كما يلي:

المقدمة

وفيها بيان مجمل لموضوع البحث، وأهميته، والسبب من وراء البحث فيه، كما أنها اشتملت على الخطة.

تمهيد

ويحتوي على ترجمة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

القسم الأول

دراسة عامة لموضوع القدر، وللقصيدة التائية

ويحتوي على فصلين:

الفصل الأول: دراسة عامة لموضوع القدر:

وتحته تمهيد، وستة مباحث:

تمهيد: مسألة في حكم الحديث عن القدر:

وفيه حديث عن مسألة حكم البحث في القدر، وتفصيل القول فيها، وبيان متى يجوز، ومتى لا يجوز، مع توجيه النصوص الواردة في ذلك.

المبحث الأول: تعريف القضاء والقدر، والعلاقة بينهما:

وتحته حديث عن تعريف القضاء، والقدر في اللغة والشرع، وعن إطلاقات كل واحد منهما، وعن العلاقة والفرق بينهما.

المبحث الثاني: أدلة الإيمان بالقضاء والقدر:

وتحته بيان لأدلة القضاء والقدر من الكتاب، والسنة، والإجماع، والفطرة، والعقل، والحس.

المبحث الثالث: مراتب القدر، وأقسامه:

وتحته ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مراتب القدر:

وفيه حديث عن مراتب القدر الأربع : العلم ، والكتابة ، والمشيئة ، والخلق مع ذكر لأدلة كل منها.

المطلب الثاني : وفيه بيان لمسألة : خلق أفعال العباد ، وذكر الأدلة على ذلك.

المطلب الثالث : أقسام التقدير :

وفيه حديث عن أقسام التقدير الخمسة : وهي التقدير العام ، والإلهي لعموم البشر ، والتقدير العمري ، والتقدير السنوي ، والتقدير اليومي.

المبحث الرابع: الإرادة الربانية:

وفيه تفصيل ، وتفريق بين الإرادة الكونية ، والشرعية.

المبحث الخامس: خلاصة القول في الحكمة والتعليل، والضلال في القدر.

وتحته مطلبان :

المطلب الأول : خلاصة القول في الحكمة والتعليل.

المطلب الثاني : خلاصة القول في الضلال في القدر.

المبحث السادس: نشأة القول في القدر في الإسلام.

الفصل الثاني : دراسة عامة للقصيدة التائية في القدر:

وتحته ستة مباحث :

المبحث الأول: تعريف بالقصيدة التائية:

وتحته بيان باسم القصيدة ، وبحرها ، ونسبتها إلى شيخ الإسلام ابن تيمية ، وسبب إنشاء القصيدة.

المبحث الثاني: اسم السائل، وعدد أبيات السؤال، والجواب:

وتحته بيان بالأقوال التي قيلت في اسم السائل، وبيان الراجح منها.

وتحته ـ كذلك ـ بيان بعدد أبيات السؤال، وعدد أبيات الجواب.

المبحث الثالث: شروح القصيدة.

المبحث الرابع: مجمل ما احتوت عليه القصيدة التائية.

المبحث الخامس: وصف النسخ.

المبحث السادس: ملحوظات، وتنبيهات حول نسختي مجموع الفتاوى، والدرة البهية.

القسم الثاني
تحقيق وشرح القصيدة التائية

عملي في التحقيق والشرح:

أولاً: حرصت في البحث والشرح على ما يلي:

١ـ ترقيم الآيات القرآنية، وبيان سورها بعد ذكر الآية مباشرة في أعلى الصفحة؛ حتى لا تكثر الهوامش.

٢ـ تخريج الأحاديث النبوية، وبيان ما ذكره أهل الاختصاص في شأنها إن لم تكن في الصحيحين أو أحدهما؛ فإن كانت كذلك اكتفيت بالعزو إليهما أو إلى أحدهما، واكتفيت بالعزو إلى رقم الحديث إذا كان الكتاب الحديثي مرقماً؛

فأكتفي برقمه، ووضعه بين قوسين.

أما إذا كان غير مرقم فأشير إلى الجزء والصفحة إذا كان ثمَّ أجزاء؛ هكذا على سبيل المثال ١/٢٠، أو إلى رقم الصفحة إذا لم يكن ذا أجزاء؛ هكذا ص٢٠.

٣ـ العناية بإخراج البحث في حلة قشيبة منظمة.

٤ـ العناية بسلامة الأسلوب، وتيسيره، وسيره على قواعد اللغة العربية، والحرص على جعله حالاً بين حالين: بين الوحشي الغريب، والسوقي القريب.

٥ـ مراعاة قواعد الإملاء من علامات ترقيم ونحوها مما ييسر فهم المقصود، وإبعاد اللبس.

٦ـ الترجمة للأعلام غير المشهورين ممن لهم صلة وثيقة بموضوع البحث.

٧ـ الاقتصار على ذكر اسم الكتاب، والمؤلف، والناشر، وتاريخ الطبعة، ورقمها عند أول رجوع للكتاب.

وإذا كان هناك اشتباه بين الكتب، وخُشي اللبس أُعيد ذكر المؤلف فحسب.

٨ـ إلحاق البحث بالفهارس الآتية:

أـ فهرس الآيات القرآنية.

ب ـ فهرس الأحاديث النبوية.

جـ ـ فهرس الأقوال المأثورة.

د ـ فهرس قوافي الأشعار.

هـ ـ فهرس الأعلام المترجم لهم.

و ـ فهرس المذاهب والطوائف والفرق.

ز ـ فهرس المصطلحات.

ح- فهرس الكلمات الغريبة.

ط ـ فهرس الأماكن والبلدان.

ي ـ فهرس المصادر والمراجع.

ك ـ فهرس الموضوعات.

ثانياً: طريقة الشرح: الطريقة التي سار عليها شرح هذه القصيدة تتلخص فيما يلي:

١ـ كتابة أبيات القصيدة في أعلى الصفحة، وكتابة الشرح تحتها مباشرة.

٢ـ شرح وتحليل الألفاظ في الأبيات إن كانت غريبة، أو ترتب على شرحها تيسيرُ فهمِ المقصود.

٣ـ شرح الأبيات بيتاً بيتاً، وقد تُجمع بعض الأبيات إلى بعض بحسب السياق، أو لكون بعضها مرتبطاً ببعض.

٤ـ أنه قد يزاد بعض المسائل في شرح بعض الأبيات؛ ليتم المقصود من الشرح.

٥ـ الاستعانة بكتب اللغة، والغريب، والمعاجم، والشروح على تحليل الألفاظ، وشرحها.

٦ـ الحرص على الرجوع إلى كتب شيخ الإسلام ابن تيمية في الشرح؛ إذ خير ما يفسر كلامَ المؤلف كلامُه في المواضع الأخرى خصوصاً وأن آثار ابن تيمية كثيرة، وغالباً ما يجمل الكلام في موضع، ويبسطه في موضع آخر.

٧ـ قد يطول شرح بعض الأبيات، وقد يَقْصُر في بعضها الآخر، وذلك

بحسب المقام.

٨ـ يذكر العزو والفروق بين النسخ في أسفل الصفحة كما سيأتي بيان ذلك عند الحديث عن وصف النسخ.

وفي الختام أتوجه بالشكر الجزيل لجامعة أم درمان الإسلامية في جمهورية السودان التي تكرمت بقبول الالتحاق بها، وأخص بالشكر كلية أصول الدين، وعميدها البروفيسور عمر يوسف حمزة.

وأشكر أستاذي البروفيسور شوقي بشير عبدالمجيد الذي تكرم بقبول الإشراف على هذا البحث، وفتح لي قلبه، وغمرني بحلمه، وتواضعه، وعلمه؛ فجزاه الله خير الجزاء، وجعله مباركاً أينما كان.

كما أشكر أصحاب الفضيلة حضرات المشايخ الذين تكرموا بقبول مناقشة هذه الرسالة، وهما:

١ـ الدكتور/ محمد السيد الشريف الأستاذ المشارك ورئيس قسم الدراسات الإسلامية بجامعة السودان عميد معهد العلوم والبحوث الإسلامية بجامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا.

٢ـ الدكتور/ محمد إبراهيم أحمد الأستاذ المساعد في كلية أصول الدين قسم العقيدة في جامعة أم درمان الإسلامية.

والشكر موصول لكل من أعان على إخراج هذه الرسالة.

وأخيراً فإنني أسأل الله ـعز وجلـ أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأسأله ـتبارك وتعالىـ أن يغفر لوالدي، وأن يرحمهما كما

ربياني صغيراً.

كما أشكر كلَّ من أعان على إخراج هذا البحث، وأخص بالشكر الإخوة الأساتذة: محمد البحر، وعبدالله الجبر، وخالد السبت.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

د. محمد بن إبراهيم الحمد

الزلفي: ص.ب: ٤٦٠

١٤٢٨/٨/٢٠هـ

جامعة القصيم ـ كلية الشريعة وأصول الدين

قسم العقيدة

www.toislam.net

alhamad@toislam.net

تمهيد

ترجمة لشيخ الإسلام ابن تيمية



تمهيد: ترجمة لشيخ الإسلام أحمد ابن تيمية

أولاً: نبذة عن نشأته وأخباره في صباه

هو تقي الدين، أبو العباس، أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية الحراني، ولد سنة ٦٦١هـ، وتوفي سنة ٧٢٨هـ.

ذلك الإمام الحبر، والعلامة البحر، الذي دنت له قطوف العلوم، ودانت له نواصي الحكمة، والذي طبقت شهرته الخافقين، وسار بحديثه الركبان، فهو أُمَّةٌ في الخير، وقدوة في الهدى والتقوى.

والحديث عن جوانب النبوغ والألمعية في سيرة هذا الإمام يطول، والمقام لا يتسع للإسهاب والإطناب؛ لأن جوانب العظمة في شخصيته كثيرة جداً، يصعب حصرها، والوقوف عليها.

وإليك فيما يأتي نبذة عن نشأته وبعض أخباره في صباه:

قال العلامة محمد بن عبدالهادي في كتابه الماتع العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية: «قيل: إن جده محمد بن الخضر حج على درب تيماء، فرأى هناك طفلة، فلما رجع وجد امرأته قد ولدت له بنتاً، فقال: يا تيمية يا تيمية؛ فلقب بذلك.

قال ابن النجار ذكر لنا أن جده محمداً كانت أمه تسمى تيمية، وكانت واعظة؛ فنسب إليها، وعرف بها.

ولد شيخنا أبو العباس بـ: حران يوم الاثنين عاشر، وقيل: ثاني عشر شهر

ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ إحدى وستين وستمائة، وسافر والداه به، وبإخوته إلى الشام عند جور التتار؛ فساروا بالليل ومعهم الكتب على عجلة؛ لعدم الدواب، فكاد العدو يلحقهم، ووقفت العجلة؛ فابتهلوا إلى الله، واستغاثوا به؛ فنجوا وسلموا.

وقدموا دمشق في أثناء سنة سبع وستين وستمائة؛ فسمعوا من الشيخ زين الدين أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسي جزء ابن عرفة كله، ثم سمع شيخنا الكثير من ابن أبي اليسر، والكمال ابن عبد، والمجد بن عساكر، وأصحاب الخشوعي، ومن الجمال يحيى بن الصيرفي، وأحمد بن أبي الخير، والقاسم الأربلي، والشيخ فخر الدين بن البخاري، والكمال عبدالرحيم، وأبي القاسم بن علان، وأحمد بن شيبان، وخلق كثير»[1].

ثم قال ابن عبدالهادي متحدثاً عن شيوخ ابن تيمية، والكتب التي سمعها وقرأها والعلوم التي برع فيها في بداية طلبه، وعن فرط ذكائه، وسيلان ذهنه، وقوة حافظته: «وشيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتي شيخ.

وسمع مسند الإمام أحمد بن حنبل مرات، وسمع الكتب الستة الكبار، والأجزاء، ومن مسموعاته: معجم الطبراني الكبير، وعني بالحديث، وقرأ، ونسخ، وتعلم الخط، والحساب في المكتب، وحفظ القرآن، وأقبل على الفقه، وقرأ العربية على ابن عبدالقوي، ثم فهمها، وأخذ يتأمل كتاب سيبويه؛ حتى فهم في النحو، وأقبل على التفسير إقبالاً كلياً؛ حتى حاز فيه قصب السبق،

---

(١) العقود الدرية ص٤-٦.

وأحكم أصول الفقه وغير ذلك.

هذا كله وهو بعد ابن بضع عشرة سنة؛ فانبهر أهل دمشق من فرط ذكائه، وسيلان ذهنه، وقوة حافظته، وسرعة إدراكه.

واتفق أن بعض مشايخ العلماء بحلب قدم إلى دمشق، وقال: سمعت في البلاد بصبي يقال له أحمد بن تيمية، وأنه سريع الحفظ، وقد جئت قاصداً لعلي أراه، فقال له خياط: هذه طريق كُتَّابه، وهو إلى الآن ما جاء؛ فاقعد عندنا الساعة يجيء يعبر علينا ذاهباً إلى الكتاب، فجلس الشيخ الحلبي قليلاً، فمر صبيان، فقال الخياط للحلبي: هذاك الصبي الذي معه اللوح الكبير هو أحمد بن تيمية، فناداه الشيخ، فجاء إليه، فتناول الشيخ اللوح، فنظر فيه، ثم قال: يا ولدي امسح هذا؛ حتى أملي عليك شيئاً تكتبه، ففعل، فأملى عليه من متون الأحاديث أحد عشر أو ثلاثة عشر حديثاً، وقال له: اقرأ هذا، فلم يزد على أن تأمله مرة بعد كتابته إياه، ثم دفعه إليه، وقال: اسمعه علي، فقرأه عليه عرضاً كأحسن ما أنت سامع، فقال له يا ولدي: امسح هذا، ففعل فأملى عليه عدة أسانيد انتخبها، ثم قال: اقرأ هذا، فنظر فيه كما فعل أول مرة، فقام الشيخ وهو يقول: إن عاش هذا الصبي؛ ليكونن له شأن عظيم؛ فإن هذا لم ير مثله أو كما قال»[1].

وأورد ابن ناصر الدين الدمشقي قول أبي المظفر السرمري في المجلس السابع والستين من أماليه في الذكر والحفظ: «ومن عجائب ما وقع في الحفظ في أهل

---

(١) العقود الدرية ص٦-٧.

زماننا شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية؛ فإنه كان يمر بالكتاب، فيطالعه مرة، فينتقش في ذهنه، فيذاكر به، وينقله في مصنفاته بلفظه ومعناه.

ومن أعجب ما سمعته عنه ما حدثني به بعض أصحابه: أنه لما كان صبياً في بداية أمره أراد والده أن يخرج بأولاده يوماً إلى البستان على سبيل التنزه، فقال له: يا أحمد تخرج مع إخوتك تستريح؛ فاعتلَّ عليه، فألحَّ عليه والده؛ فامتنع أشد الامتناع، فقال: أشتهي أن تعفيني من الخروج، فتركه وخرج بإخوته، فظلوا يومهم في البستان، ورجعوا آخر النهار، فقال: يا أحمد أوحشت إخوتك اليوم، وتكدّر عليهم بسبب غيبتك عنهم؛ فما هذا؟

فقال: يا سيدي! إنني اليوم حفظت هذا الكتاب؛ لكتاب معه، فقال: حفظته؟! كالمنكر المتعجب من قوله.

فقال له: استعرضه عليَّ، فاستعرضه؛ فإذا به قد حفظه جميعه، فأخذه وقبَّله بين عينيه، وقال: يا بني لا تخبر أحداً بما قد فعلت؛ خوفاً عليه من العين، أو كما قال»[١].

وقال **الحافظ الذهبي**[٢] رحمه الله -متحدثاً عن نشأة ابن تيمية-: «نشأ في تصوّن تام، وعفاف، وتألُّه، وتعبد، واقتصاد في الملبس والمأكل، وكان يحضر

---

(١) الرد الوافر لابن ناصر الدين ص٢١٨-٢١٩.

(٢) هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الأصل الدمشقي الذهبي الإمام العلامة المحدث المؤرخ الناقد، صاحب التصانيف الكثيرة كتاريخ الإسلام، وميزان الاعتدال، وسير أعلام النبلاء، توفي سنة ٧٤٨هـ. انظر شذرات الذهب ص١٥٣.

المدارس، والمحافل في صغره، ويناظر، ويفحم الكبار، ويأتي بما يتحير منه أعيان البلد في العلم؛ فأفتى وله تسع عشرة سنة، بل أقلّ، وشرع في الجمع، والتأليف من ذلك الوقت، وأكب على الاشتغال ومات والده، وكان من كبار الحنابلة وأئمتهم، فدرس بعده بوظائفه وله إحدى وعشرون سنة، واشتهر أمره، وبَعُدَ صيتُه في العالم، وأخذ في تفسير الكتاب العزيز في الجُمَعِ على كرسي من حفظه، فكان يورد المجلس، ولا يتلعثم، وكذا كان الدرس بتؤدة، وصوت جهوري فصيح»[1].

وقال ابن عبدالهادي رحمه الله متحدثاً عن نشأة ابن تيمية: «وقال بعض قدماء أصحاب شيخنا ـ وقد ذكر نبذة من سيرته ـ: أما مبدأ أمره ونشأته فقد نشأ من حين نشأ في حجور العلماء راشفاً كؤوس الفهم، راتعاً في رياض التفقه، ودوحات الكتب الجامعة لكل فن من الفنون، لا يلوي إلى غير المطالعة، والاشتغال، والأخذ بمعالي الأمور خصوصاً علم الكتاب العزيز، والسنة النبوية ولوازمها.

ولم يزل على ذلك خلفاً صالحاً سلفياً متألهاً عن الدنيا صَيِّناً تقياً، براً بأمه، ورعاً عفيفاً، عابداً ناسكاً، صواماً قواماً، ذاكراً لله ـتعالىـ في كل أمر، وعلى كل حال، رجاعاً إلى الله ـتعالىـ في سائر الأحوال والقضايا، وقافاً عند حدود الله ـتعالىـ وأوامره ونواهيه، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر بالمعروف، لا تكاد نفسه تشبع من العلم؛ فلا تروى من المطالعة، ولا تمل من الاشتغال، ولا تكل

(١) العقود الدرية ص٧ـ٨.

من البحث، وقَلَّ أن يدخل في علم من العلوم من باب من أبوابه إلا ويفتح له من ذلك الباب أبواب، ويستدرك مستدركات في ذلك العلم على حذاق أهله، مقصودُه الكتاب والسنة.

ولقد سمعته في مبادىء أمره يقول: إنه ليقف خاطري في المسألة والشيء، أو الحالة التي تشكل عليَّ، فأستغفر الله -تعالى- ألف مرة أوأكثر أو أقل؛ حتى ينشرح الصدر، وينحل إشكال ما أشكل.

قال: وأكون إذ ذاك في السوق، أو المسجد، أو الدرب، أو المدرسة لا يمنعني ذلك من الذكر، والاستغفار إلى أن أنال مطلوبي.

قال هذا الصاحب: ولقد كنت في تلك المدة، وأول النشأة إذا اجتمعت به في ختم، أو مجلس ذكر خاص مع أحد المشايخ المذكورين، وتذاكروا، وتكلم مع حداثة سنه أجد لكلامه صولة على القلوب، وتأثيراً في النفوس، وهيبة مقبولة، ونفعاً يظهر أثره، وتنفعل له النفوس التي سمعته أياماً كثيرة بعقبه حتى كان مقالُه بلسان حالِه وحالُه ظاهر له في مقاله شهدت ذلك منه غير مرة.

قلت: ثم لم يبرح شيخنا رحمه الله في ازدياد من العلوم، وملازمة الاشتغال، والإشغال، وبث العلم ونشره، والاجتهاد في سبل الخير حتى انتهت إليه الإمامة في العلم، والعمل، والزهد، والورع، والشجاعة، والكرم، والتواضع، والحلم، والإنابة، والجلالة، والمهابة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسائر أنواع الجهاد مع الصدق، والعفة، والصيانة، وحسن القصد، والإخلاص، والابتهال إلى الله، وكثرة الخوف منه، وكثرة المراقبة له، وشدة

التمسك بالأثر، والدعاء إلى الله، وحسن الأخلاق، ونفع الخلق، والإحسان إليهم، والصبر على من آذاه، والصفح عنه، والدعاء له، وسائر أنواع الخير.

وكان رحمه الله سيفاً مسلولاً على المخالفين، وشجى في حلوق أهل الأهواء المبتدعين، وإماماً قائماً ببيان الحق، ونصرة الدين، وكان بحراً لا تكدره الدلاء، وحبراً يقتدي به الأخيار الألباء، طنت بذكره الأمصار، وضنت بمثله الأعصار»[1].

---

(١) العقود الدرية ص٨ـ٩.

ثانياً: علم ابن تيمية

إذا بحثت في علم ابن تيمية وجدت العباب الزاخر، والبحر المتلاطم، وذلك لما وهبه الله من سعة العلم وغزارته، وقد مر شيء من ذلك.

قال عنه الإمام الحافظ الذهبي رحمه الله: «قرأ القرآن، والفقه، وناظر، واستدل وهو دون البلوغ، وبرع في العلم والتفسير، وأفتى، ودرس وله نحو العشرين سنة، وصنف التصانيف، وصار من كبار العلماء في حياة شيوخه، وله من المصنفات الكبار التي سارت بها الركبان، ولعل تصانيفه في هذا الوقت تكون أربعة آلاف كراس وأكثر، وفسر كتاب الله -تعالى- مدة سنتين من صدره أيام الجمع، وكان يتوقد ذكاءً، وسماعاته من الحديث كثيرة، وشيوخه أكثر من مائتي شيخ، ومعرفته بالتفسير إليها المنتهى، وحفظه للحديث ورجاله وصحته وسقمه، فما يلحق فيه، وأما نقله للفقه، ومذاهب الصحابة والتابعين فضلاً عن المذاهب الأربعة - فليس له فيه نظير.

وأما معرفته بالملل، والنحل، والأصول، والكلام - فلا أعلم له فيه نظيراً، ويدري جملة صالحة من اللغة، وعربيته قوية جداً، ومعرفته بالتاريخ والسير فعجب عجيب»[١].

وقال في موضع آخر: «كان آية في الذكاء، وسرعة الإدراك، رأساً في معرفة الكتاب والسنة والاختلاف، بحراً في النقليات، هو في زمانه فريد عصره، علماً وزهداً، وشجاعة وسخاء، وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وكثرة تصانيف.

---

(١) العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية لابن عبدالهادي ص٢١-٢٢.

وقرأ وحصل وبرع في الحديث، والفقه، وتأهل للتدريس، والفتوى وهو ابن سبع عشرة سنة، وتقدم في علم التفسير، والأصول، وجميع علوم الإسلام أصولها، وفروعها، ودقها، وجلها سوى علم القراءات؛ فإن ذكر التفسير فهو حامل لوائه، وإن عد الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق، وإن حضر الحفاظ نطق وخرسوا، وسرد وأبلسوا، واستغنى وأفلسوا، وإن سمي المتكلمون فهو فردهم، وإليه مرجعهم، وإن لاح ابن سينا يقدم الفلاسفة فلَّسهم وتَيَّسهم، وهتك أستارهم، وكشف عوارهم.

وله يد طولى في معرفة العربية، والصرف، واللغة، وهو أعظم من أن يصفه كلمي، أو ينبه على شأوه قلمي؛ فإن سيرته، وعلومه، ومعارفه، ومحنه، وتنقلاته تحتمل أن ترصع في مجلدتين.

وهو بشر من البشر له ذنوب؛ فالله ـتعالى ـ يغفر له، ويسكنه أعلى جنته؛ فإنه كان رباني الأمة، وفريد الزمان، وحامل لواء الشريعة، وصاحب معضلات المسلمين، وكان رأساً في العلم يبالغ في إطراء قيامه في الحق والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مبالغة ما رأيتها ولا شاهدتها من أحد، ولا لحظتها من فقيه»[١].

وقال في مكان آخر: «وله خبرة تامة بالرجال، وجرحهم، وتعديلهم، وطبقاتهم، ومعرفة بفنون الحديث، وبالعالي والنازل، وبالصحيح والسقيم مع حفظه لمتونه الذي انفرد به، فلا يبلغ أحد في العصر رتبته، ولا يقاربه، وهو عجب

---

(١) العقود الدرية ص٢٢ـ٢٣.

في استحضاره، واستخراج الحجج منه، وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة، والمسند بحيث يصدق عليه أن يقال كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث، ولكن الإحاطة لله غير أنه يغترف من بحر، وغيره من الأئمة يغترفون من السواقي.

وأما التفسير فَمُسَلَّم إليه، وله في استحضار الآيات من القرآن وقت إقامة الدليل بها على المسألة قوة عجيبة، وإذا رآه المقرىء تحير فيه.

ولفرط إمامته في التفسير، وعظمة اطلاعه يبين خطأ كثير من أقوال المفسرين، ويوهي أقوالاً عديدة، وينصر قولاً واحداً موافقاً لما دل عليه القرآن والحديث»[(١)].

وقال عنه الحافظ البزار[(٢)] رحمه الله: «أما غزارة علومه فمنها ذكر معرفته بعلوم القرآن المجيد، واستنباطه لدقائقه، ونقله لأقوال العلماء في تفسيره، واستشهاده بدلائله، وما أودعه الله -تعالى- فيه من عجائبه، وفنون حكمه، وغرائب نوادره، وباهر فصاحته، وظاهر ملاحته؛ فإنه فيه الغاية التي ينتهى إليها، والنهاية التي يُعَوّل عليها.

ولقد كان إذا قُرىء في مجلسه آيات من القرآن يشرع في تفسيرها، فينقضي

---

(١) العقود الدرية ص٢٣.

(٢) هو الفقيه المحدث سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن موسى الخليل البغدادي الأزجي الحنبلي البزار.

ولد في بغداد سنة ٦٨٨هـ تقريباً، عني بالقرآن الكريم، كما عني بالفقه، وقرأ على كثير من علماء عصره، واتصل بشيخ الإسلام ابن تيمية، فرعاه أعظم رعاية، فقرأ عليه البزار بعض مؤلفاته، ولازمه؛ فأثر فيه شيخ الإسلام أعظم تأثير، وقد توفي البزار عام ٧٤٩هـ. انظر ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب الحنبلي، مطبعة السنة المحمدية، تحقيق: محمد حامد الفقي، ١٣٧٢هـ، ٢/٤٤٤-٤٤٥، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، لعبدالحي بن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ، ٦/١٦٣.

المجلس بجملته، والدرس برُمَّتِه، وهو في تفسير بعض آية منها.

وكان مجلسه مُقَدَّراً بقدر ربع النهار، يفعل ذلك بديهة من غير أن يكون له قارئ معين يقرأ له شيئاً معيناً يبيِّته؛ ليستعد لتفسيره.

بل كان كل من حضر يقرأ ما تيسر له، ويأخذ هو في القول على تفسيره.

وكان غالباً لا يقطع إلا ويفهم السامعون أنه لولا مضي الزمن المعتاد لأورد أشياء أخر في معنى ما هو فيه من التفسير، لكن يقطع نظراً في مصالح الحاضرين.

ولقد أملى في تفسير ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الإخلاص: ١، مجلداً كبيراً.

وقوله ـتعالى ـ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ طه: ٥ نحو خمس وثلاثين كراساً»[1].

ثم قال البزار رحمه الله: «وأما معرفته، وبصره بسنة رسول الله ﷺ وأقواله، وأفعاله، وقضاياه، ووقائعه، وغزواته، ومعرفته بصحيح المنقول عنه وسقيمه، وبقية المنقول عن الصحابة ـرضي الله عنهم ـ في أقوالهم، وأفعالهم، وفتاويهم، وأحوالهم، وأحوال مجاهداتهم في دين الله، وما خصوا به من بين الأمة؛ فإنه كان رضي الله عنه من أضبط الناس لذلك، وأعرفهم فيه، وأسرعهم استحضاراً لما يريده منه؛ فإنه قل أن ذكر حديثاً في مصنف أو فتوى، أو استشهد به، أو استدل به إلا وعزاه في أي دواوين الإسلام هو، ومن أي قسم من الصحيح، أو الحسن، أو غيرهما، وذكر اسم راويه من الصحابة.

---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية للبزار ص٢٢ـ٢٣.

وقلَّ أن يسأل عن أثر إلا وبيَّن في الحال حاله، وحال أمره، وذاكره»[١].

وقال -أيضاً-: «ومن أعجب الأشياء في ذلك أنه في محنته الأولى بمصر لما أخذ وسجن، وحيل بينه وبين كتبه صنف عِدَّةَ كتبٍ صغاراً وكباراً، وذكر فيها ما احتاج إلى ذكره من الأحاديث والآثار، وأقوال العلماء، وأسماء المحدثين، والمؤلفين، ومؤلفاتهم، وعزا كل شيء من ذلك إلى ناقليه وقائليه بأسمائهم، وذكر أسماء الكتب التي ذكر فيها، وأي موضع هو منها كل ذلك بديهة من حفظه؛ لأنه لم يكن عنده حينئذ كتاب يطالعه.

ونُقِّبت، واختُبرت، واعتبرت فلم يوجد فيها -بحمد الله- خلل ولا تغيير»[٢].

وقال البزار -أيضاً-: «حكى من يوثق بنقله أنه كان يوماً بمجلس، ومحدثٌ يقرأ عليه بعض الكتب الحديثية، وكان سريع القراءة، فعارضه الشيخ في اسم رجل عن سند الحديث، وقد ذكره القارئ بسرعة، فذكر الشيخ أن اسمه فلان بخلاف ما قرأ، فاعتبروه فوجدوه كما قال الشيخ»[٣].

«ولقد سئل يوماً عن الحديث «**لعن الله المحلّل والمحلّل له**»[٤] فلم يزل يورد فيه وعليه حتى بلغ كلامه فيه مجلداً كبيراً»[٥].

---

(١) الأعلام العلية ص٢٣-٢٤.

(٢) الأعلام العلية ص٢٤.

(٣) الأعلام العلية ص٣٢.

(٤) أخرجه أحمد ٤٤٨/١، ٤٦٢، والدارمي باب في وجوب نفقة الرجل على أهله (٢٣٠٥) والترمذي ٤٢٨/٣ (١١٢٠) وقال: «حسن صحيح».

(٥) الأعلام العلية ص٣٣.

وقال ابن عبدالهادي رحمه الله: «وقال العلامة كمال الدين بن الزملكاني كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله، وكان الفقهاء من سائر الطوائف، إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك، ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه، ولا تكلم في علم من العلوم سواء أكان من علوم الشرع، أم غيرها إلا فاق فيه أهله، والمنسوبين إليه، وكانت له اليد الطولى في حسن التصنيف، وجودة العبارة والترتيب، والتقسيم والتبيين.

ووقعت مسألة فرعية في قسمة جرى فيها اختلاف بين المفتين في العصر، فكتب فيها مجلدة كبيرة.

وكذلك وقعت مسألة في حد من الحدود، فكتب فيها مجلدة كبيرة، ولم يخرج في كل واحدة عن المسألة، ولا طول بتخليط الكلام، والدخول في شيء والخروج من شيء، وأتى في كل واحدة بما لم يكن يجري في الأوهام، والخواطر، واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها»[1].

وقال ابن عبدالهادي: «وقال الشيخ الحافظ فتح الدين أبو الفتح بن سيد الناس اليعمري المصري بعد أن ذكر ترجمة شيخنا الحافظ جمال الدين أبي الحجاج المزي، وهو الذي حداني على رؤية الشيخ الإمام شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن الحليم بن عبدالسلام بن تيمية؛ فألفيته ممن أدرك من العلوم حظاً، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظاً، إن تكلم في التفسير فهو

---

(١) العقود الدرية ص٩-١٠.

حامل رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر بالحديث فهو صاحب علمه، وذو روايته، أو حاضر بالنِّحل والملل لم يُرَ أوسعَ من نحلته في ذلك، ولا أرفع من درايته، برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم تَرَ عَينُ مَنْ رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه، كان يتكلم في التفسير فيحضر مجلسه الجم الغفير، ويردون من بحر علمه العذب النمير، ويرتعون من ربيع فضله في روضة وغدير»[١].

وقال عنه الأستاذ محمد كرد علي[٢] رحمه الله: «ومع ما حاول أعداؤه أن ينغصوا عيشه دَأَبَ في كل زمان على التأليف، فألف ثلاثمائة مجلد، وكلها في الشرع، وفي

---

(١) العقود الدرية ص١١.

(٢) هو الأستاذ العلامة محمد بن عبدالرزاق بن محمد كرد علي المولود عام١٢٩٣هـ.

ترك العديد من المؤلفات منها: مجلة المقتبس ثمانية مجلدات وجزآن، وخطط الشام ستة مجلدات، وأمراء البيان، وكنوز الأجداد، وقد ترجم فيه لعدد من علماء وأدباء الأمة، وبدأهم بترجمة مطولة لشيخه طاهر الجزائري، وترجم كذلك لعدد من الأدباء كابن المقفع والجاحظ، ولعدد من العلماء كشيخ الإسلام ابن تيمية.

وله ـ أيضاً ـ المذكرات وهي أربعة أجزاء وسيأتي الحديث عنها.

كان ـكما يقول عنه الزركليـ: من أصفى الناس سريرة، وأطيبهم لمن أحب عشرة، وأحفظهم وداً.

تولى تحرير جريدة الشام الأسبوعية الحكومية سنة١٣١٥ـ١٣١٨هـ، ووالى الكتابة في مجلة المقتطف خمس سنوات ابتدأت بها شهرته، وزار مصر سنة ١٣١٩هـ فتولى تحرير جريدة الرائد المصري عشرة شهور، وعاد إلى دمشق.

أنشأ مجلة المقتبس ١٣٢٤هـ.

ويعد عمله في رئاسة المجمع العلمي العربي بدمشق أبرز ما قام به في حياته؛ حيث تولى رئاسته من ١٩١٨م إلى أن توفي عام ١٣٧٢هـ.

حل مسائل عويصة من الدين تَقْرأ فيما وصلنا منها مثالاً من علمه النفيس، وعمله الذي عقمت القرون أن يأتي رجل بما يماثله.

كثرت تآليفه؛ لأنه كان يؤلف من صدره، حفظ الكتاب والسنة، وما دون في شروحهما، وما قاله العلماء في تفسيرهما، وقد ساعدته كثرة محفوظه، وفيض خاطره، وسعة بيانه على تدوين حقائق لم يكتب لعالم مثله في موضوعه، ولو لم يكن له إلا منهاج السنة؛ لكفاه على الأيام فخراً لا يبلى؛ ففيه مثال من علمه، وقوة حجته، ومعرفته بالملل والنحل.

وإذا قلنا: إنه لم يؤلف نظيره في الرد على المخالفين لأهل السنة لصدَّقنا كل مُنْصف من أهل القبلة.

وكتاب منهاج السنة من أصح الشهادات على علو كعبه في معرفة الشرع وما تقلب عليه، وما حاول بعض أهل الأهواء من العبث به، وفيما أورده الموافقون والمخالفون من صحيح الآراء وبهرجها، وكان عنوان مداركه الواسعة بتاريخ الإسلام، وتاريخ الملل والنحل.

ولو ادعينا أنه لم يأت عالم[1] يعرف ما طرأ على الدين، ومذاهب أهله فيه ساعة ساعة، ويوماً يوماً ما قدر أحد على ردِّ دعوانا.

رد على المعتزلة، وعلى الجهمية، وعلى الشيعة، وعلى الفلاسفة، وعلى غيرهم، فجاء بالعجيب من الآراء التي استخرجها من روح الشريعة، واستنبطها ببعد نظره، وشدة بحثه، فما كتب لإمام من الأئمة في عصره، وبعد

(١) كأن في الكلام سقطاً وربما كان: لم يأت عالم مثله، أو بعده...

عصره أن يناقضه، ويرد أقواله.

وعلى كثرة ما حرص الشافعية للتفوق على هذا الحنبلي، وإقناع العلماء بفتاويهم، وتزييف فتاويه ـ ما كانوا معه إلا كالأطفال أمام الرجال، وفي مقدمتهم المشايخ بنو السبكي، وما كان لهم في دولة مصر، والشام من السلطان، اعتقلوه في القاهرة والإسكندرية أشهراً لم تمنعه عن التأليف، والتدريس، والوعظ، وما حالوا دون إعجاب المنصفين من العلماء به، وقول الحق فيه، ولادون تقديس الأمة له يوم موته، وهي التي عرفته سباقاً إلى كل خير، يقصد منه صلاح دنياها ودينها.

وكان له في انتصار دولة المماليك على التتار اليد الطولى التي لا تنكر، ودل أنه في السياسة كما هو في الدين إمام عظيم، وأن الدين لا ينفصل عن السياسة في نظره»[1].

---

(١) كنوز الأجداد لمحمد كرد علي ص٣٦٥ـ٣٦٦.

ثالثاً: مؤلفات ابن تيمية

أما مؤلفاته ومصنفاته وفتاويه فيقصر دونها العد والإحصاء، والبحث والاستقصاء، وقد مرت الإشارة إلى كثرة تصانيفه.

ولهذا قلَّ أن تجد باحثاً منذ عصر ابن تيمية إلى عصرنا هذا إلا ويعول على ابن تيمية، ويأخذ بأقواله، سواء كان ذلك في العقائد أو الفقه، أو الحديث، أو الفلسفة، أو المنطق، أو التربية، أو السلوك، أو السياسة، أو الاقتصاد أو غيرها.

قال ابن عبدالهادي نقلاً عن الذهبي: «ويكتب في اليوم والليلة من التفسير، أو من الفقه، أو من الأصولين، أو من الرد على الفلاسفة والأوائل، نحواً من أربعة كراريس، أو أزيد، وما أُبْعِدُ أن تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلدة، وله في غير المسألة مصنف مفرد في مجلد، ثم ذكر بعض تصانيفه، وقال: ومنها كتاب في الموافقة بين المعقول والمنقول في مجلدين.

قلت[1]: هذا الكتاب، وهو كتاب (درء تعارض العقل والنقل) في أربع مجلدات كبار، وبعض النسخ به في أكثر من أربع مجلدات، وهو كتاب حافل عظيم المقدار، رد الشيخ فيه على الفلاسفة والمتكلمين.

وله كتاب في نحو مجلد أجاب فيه عما أورده كمال الدين بن الشريسي على هذا الكتاب.

وللشيخ رحمه الله من المصنفات، والفتاوى، والقواعد، والأجوبة، والرسائل،

---

(١) القائل هو ابن عبدالهادي.

وغير ذلك من الفوائد، مالا ينضبط، ولا أعلم أحداً من متقدمي الأمة، ولا متأخريها جمع مثل ما جمع، ولا صنف نحو ما صنف، ولا قريباً من ذلك، مع أن أكثر تصانيفه إنما أملاها من حفظه، وكثير منها صنفه في الحبس، وليس عنده ما يحتاج إليه من الكتب»(١).

وبعد ذلك شرع ابن عبدالهادي في ذكر مصنفات ابن تيمية(٢).

وقال ابن عبدالهادي رحمه الله في أثناء سرده لكتب ابن تيمية: «وله أجوبة في أحاديث يسأل عنها من صحيحٍ شَرَحه، وضعيف بين ضعفه، وباطل بين بطلانه.

وله من الأجوبة والقواعد شيء كثير غير ما تقدم ذكره يشق ضبطه وإحصاؤه، ويعسر حصره واستقصاؤه.

وسأجتهد إن شاء الله -تعالى- في ضبط ما يمكنني من ضبط مؤلفاته في موضع آخر غير هذا، وأبين ما صنفه منها بمصر، وما ألفه منها بدمشق، وما جمعه وهو في السجن، وأرتبه ترتيباً حسناً غير هذا الترتيب بعون الله -تعالى- وقوته ومشيئته»(٣).

إلى أن قال: «قال الشيخ أبو عبدالله(٤): لو أراد الشيخ تقي الدين رحمه الله أو غيره حصرها -يعني مؤلفات الشيخ- لما قدروا؛ لأنه ما زال يكتب، وقد من الله

---

(١) العقود الدرية ص٢٣-٢٤.

(٢) انظر العقود الدرية ص٢٤-١٩٢.

(٣) العقود الدرية ص٧٢.

(٤) يعني به ابن رشَيِّق وهو من أخص أصحاب ابن تيمية، وأكثرهم كتابة لكلامه، وحرصاً على جمعه. انظر العقود ص٢٥.

عليه بسرعة الكتابة، ويكتب من حفظه من غير نقل.

وأخبرني غير واحد أنه كتب مجلداً لطيفاً في يوم، وكتب غير مرة أربعين ورقة في جلسة وأكثر، وأحصيت ما كتبه وبيَّضه في يوم، فكان ثمان كراريس في مسألة من أشكل المسائل، وكان يكتب على السؤال الواحد مجلداً.

وأما جواب يكتب فيه خمسين ورقة وستين وأربعين وعشرين ـ فكثير.

وكان يكتب الجواب؛ فإن حضر من يُبَيِّضه وإلا أخذ السائل خطه وذهب.

ويكتب قواعد كثيرة في فنون من العلم في الأصول، والفروع، والتفسير، وغير ذلك، فإن وجد من نقله من خطه، وإلا لم يشتهر، ولم يعرف، وربما أخذه بعض أصحابه، فلا يقدر على نقله، ولا يرده إليه؛ فيذهب.

وكان كثيراً ما يقول: قد كتبت في كذا وفي كذا.

ويُسأل عن الشيء فيقول: قد كتبت في هذا، فلا يدري أين هو، فيلتفت إلى أصحابه، ويقول: ردوا خطي وأظهروه؛ لينقل، فمن حرصهم عليه لا يردونه، ومن عجزهم لا ينقلونه، فيذهب، ولا يعرف اسمه.

فلهذه الأسباب وغيرها تَعَذَّرَ إحصاء ما كتبه وما صنفه.

وما كفى هذا إلا أنه لما حبس تفرق أتباعه، وتفرقت كتبه، وخوَّفوا أصحابه من أن يظهروا كتبه، ذهب كل أحد بما عنده، وأخفاه، ولم يظهروا كتبه؛ فبقي هذا يهرب بما عنده، وهذا يبيعه أو يهبه، وهذا يخفيه ويودعه، حتى إن منهم من تسرق كتبه أو تجحد؛ فلا يستطيع أن يطلبها، ولا يقدر على تخليصها، فبدون هذا تتمزق الكتب، والتصانيف.

ولولا أن الله -تعالى- لطف، وأعان، ومَنَّ، وأنعم، وجرت العادة في حفظ أعيان كتبه، وتصانيفه - لما أمكن لأحد أن يجمعها.

ولقد رأيت من خرق العادة في حفظ كتبه، وجمعها، وإصلاح ما فسد منها، ورد ما ذهب منها - ما لو ذكرته لكان عجباً يعلم به كل منصف أن لله عنايةً به وبكلامه؛ لأنه يذب عن سنة نبيه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»[1].

(١) العقود ص٧٢-٧٣.

رابعاً: تعبد ابن تيمية

أما عبادته وأحواله رحمه الله فكان عجباً من العجاب، وذلك لما آتاه الله من جلد باهر، ورغبة ومحبة للعبادة، وقد مر شيء من ذلك.

قال تلميذه ابن القيم(١) رحمه الله: «وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر، ثم جلس يذكر الله -تعالى- إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إليَّ وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغدَّ سقطت قوتي، أو كلاماً قريباً من هذا.

وقال لي مرة: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحتها؛ لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر، أو كلاماً هذا معناه»(٢).

وقال البزار رحمه الله: «أما عن تعبده رضي الله عنه فإنه قلَّ أن سُمِعَ بمثله؛ لأنه قد قطع جُلَّ وقته وزمانه فيه، حتى إنه لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن الله -تعالى- ما يراد له لا من أهل، ولا من مال.

---

(١) هو الإمام الفقيه الأصولي المفسر النحوي الحافظ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي أبو عبدالله شمس الدين المعروف بابن القيم، أو ابن قيم الجوزية.

ولد في دمشق سنة ٦٩١هـ، وتوفي فيها سنة ٦٥١هـ، سمع عن جماعة من العلماء، وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيمية، فكان أبرز تلاميذه، وكان حسن الخلق، محبوباً للناس، ذا عبادة وورع، ونهم بالعلم، وله مؤلفات كثيرة منها إغاثة اللهفان، ومدارج السالكين، وبدائع الفوائد، وأقسام القرآن، والفوائد، وغيرها. انظر ذيل طبقات الحنابلة ٤٤٧/٢-٤٥٢، و الأعلام، لخير الدين الزركلي، ط٢، بدون تاريخ، ط٤، دار العلم للملايين، ١٩٧٩م، ٢٨٠/٦.

(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب للإمام ابن قيم الجوزية، دراسة وتحقيق حمد عبدالرحمن عوض، دار الكتاب العربي، بيروت ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ص٦٣.

وكان في ليله متفرداً عن الناس كلهم، خالياً بربه -عز وجل- ضارعاً، مواظباً على تلاوة القرآن العظيم، مكرراً لأنواع التعبدات الليلية والنهارية.

وكان إذا ذهب الليل، وحضر مع الناس بدأ بصلاة الفجر يأتي بسنتها قبل إتيانه إليهم.

وكان إذا أحرم بالصلاة تكاد تنخلع القلوب؛ لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام.

فإذا دخل في الصلاة ترتعد أعضاؤه، حتى يميله يمنة ويسرة»[١].

وقال الذهبي رحمه الله في أثناء كلام في ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية:

«بل يقول الحق المر الذي أداه إليه اجتهاده، وحدة ذهنه، وسعة دائرته في السنن والأقوال، مع ما اشتهر عنه من الورع، وكمال الفكرة، وسرعة الإدراك، والخوف من الله، والتعظيم لحرمات الله، فجرى بينه وبينهم حملات حربية، ووقائع شامية ومصرية، وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة، فينجيه الله؛ فإنه دائم الابتهال، كثير الاستغاثة، قوي التوكل، ثابت الجأش، له أوراد وأذكار يدمنها بكيفية وجمعية.

وله من الطرف الآخر محبون من العلماء والصلحاء، ومن الجند والأمراء، ومن التجار والكبراء، وسائر العامة، تحبه؛ لأنه منتصب؛ لنفعهم ليلاً ونهاراً بلسانه، وقلمه»[٢].

---

(١) الأعلام العلية ص٣٨.

(٢) العقود الدرية ص١٠٩.

خامساً: سمته وهديه وخلقه

أما عن سمته وهديه وحسن خلقه فكان ضرباً من الخيال، وقد مر شيء من ذلك.

قال ابن القيم رحمه الله في معرض حديث له عن حسن الخلق، والعفو، ومقابلة الإساءة بالإحسان: «وما رأيت أحداً أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ـقدَّس الله روحهـ.

وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه.

وما رأيته يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم، وجئت يوماً مبشراً له بموت أكبر أعدائه، وأشدهم عداوةً وأذىً له، فنهرني، وتنكر لي، واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله، فعزَّاهم، وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجونه فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه، ونحو هذا الكلام، فسرُّوا به، ودعوا له، وعظموا هذه الحال منه، فرحمه الله ورضي عنه»[١].

وقال ابن عبدالهادي رحمه الله: «وسمعت الشيخ تقي الدين رحمه الله يذكر أن السلطان لما جلسا بالشباك أخرج من جيبه فتاوى لبعض الحاضرين في قتله، واستفتاه في قتل بعضهم.

قال[٢]: ففهمت مقصوده، وأن عنده حنقاً شديداً عليهم؛ لما خلعوه وبايعوا

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، للإمام ابن القيم الجوزية، تحقيق وتعليق المعتصم بالله البغدادي، توزيع دار النفائس، الرياض ط١، ١٤١٠هـ ٢/٣٢٨ـ٣٢٩.

(٢) القائل هو ابن تيمية.

الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير؛ فشرعت في مدحهم، والثناء عليهم، وشكرهم، وأن هؤلاء لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك، أما أنا فهم في حل من حقي، ومن جهتي، وسكَّنت ما عنده عليهم.

قال: فكان القاضي زيد الدين ابن مخلوف قاضي المالكية يقول بعد ذلك: ما رأينا أتقى من ابن تيمية؛ لم نُبْقِ ممكناً في السعي فيه، ولما قدر علينا عفا عنا.

ثم إن الشيخ بعد اجتماعه بالسلطان نزل إلى القاهرة، وسكن بالقرب من مشهد الحسين، وعاد إلى بث العلم، ونشره، والخلق يشتغلون عليه، ويقرأون، ويستفتونه، ويجيبهم بالكلامِ، والكتابةِ، والأمراءُ، والأكابرُ، والناسُ يترددون إليه، وفيهم من يعتذر إليه ويتنصل مما وقع.

فقال: قد جعلت الكل في حل مما جرى»[١].

وقال البزار عن زهده: «ولقد اتفق كل من رآه خصوصاً من أطال ملازمته أنه ما رأى مثله في الزهد في الدنيا، حتى لقد صار ذلك مشهوراً؛ بحيث قد استقر في قلب القريب والبعيد من كل من سمع بصفاته على وجهها.

بل لو سُئل عامي من أهل بلد بعيد من الشيخ: من كان أزهد أهل هذا العصر، وأكملهم في رفض فضول الدنيا، وأحرصهم على طلب الآخرة؟ لقال: ما سمعت بمثل ابن تيمية ـرحمة الله عليهـ»[٢].

وقال عن تواضعه: «أما تواضعه فما رأيت ولا سمعت بأحد من أهل عصره

---

(١) العقود الدرية ص٢٢١.

(٢) الأعلام العلية ص٤٧ـ٤٨.

مثله في ذلك؛ كان يتواضع للكبير، والصغير، والجليل، والحقير، والغني الصالح، والفقير.

وكان يدني الفقير الصالح، ويكرمه، ويؤنسه، ويباسطه بحديثه المُسْتَحْلَى زيادة على مثله من الأغنياء، حتى إنه ربما خدمه بنفسه، وأعانه بحمل حاجته؛ جبراً لقلبه، وتقرباً بذلك إلى ربه.

وكان لا يسأم ممن يستفتيه، أو يسأله، بل يقبل عليه ببشاشة وجه، ولين عريكة، ويقف معه حتى يكون هو الذي يفارقه كبيراً أو صغيراً، رجلاً أو امرأة، حُرًّا أو عبداً، عالماً أو عاميًّا، حاضراً أو بادياً.

ولا يجبهه، ولا يحرجه، ولا ينفره بكلام يوحشه، بل يجيبه، ويفهمه، ويعرفه الخطأ من الصواب بلطف وانبساط»[1].

وقال عن كرمه: «كان رحمه الله مجبولاً على الكرم، لا يتطبعه ولا يتصنعه؛ بل هو له سجية، وقد ذكرت فيما تقدم أنه ما شد على دينار ولا درهم قط، بل كان مهما قدر على شيء من ذلك يجود به كله.

وكان لا يرد من يسأله شيئاً يقدر عليه من دراهم ولا دنانير، ولا ثياب ولا كتب ولا غير ذلك، بل ربما كان يسأله بعض الفقراء شيئاً من النفقة، فإن كان حينئذ متعذراً لا يَدَعُه يذهب بلا شيء، بل كان يعمد إلى شيء من لباسه فيدفعه إليه، وكان ذلك المشهور عند الناس من حاله»[2].

---

(١) الأعلام العلية ص٥٢.

(٢) الأعلام العلية ص٦٥.

وقال: «وحدثني من أثق به: أن الشيخ رحمه الله كان لا يرد أحداً يسأله شيئاً كَتَبَهُ، بل يأمره أن يأخذ هو بنفسه ما يشاء منها.

وأُخْبِرْنا أنه جاءه يوماً إنسان يسأله كتاباً ينتفع به، فأمره أن يأخذ كتاباً يختاره، فرأى ذلك الرجل بين كتب الشيخ مصحفاً قد اشتُري بدراهمَ كثيرةٍ، فأخذه ومضى، فلام بعض الجماعة الشيخ في ذلك، فقال: أيحسن بي أن أمنعه بعدما سأله؟ دعه فلينتفع به.

وكان الشيخ رحمه الله ينكر إنكاراً شديداً على من يُسأل شيئاً من كتب العلم ويمنعها من السائل، ويقول: ما ينبغي أن يمنع العلم ممن يطلبه»[1].

أما عن خشوعه، ومسكنه، وتذلله، وافتقاره إلى الله ـعز وجلـ فكان يقضى منه العجب، وتقدم شيء من ذلك.

يقول تلميذه العلامة ابن القيم رحمه الله في معرض حديث له في منزلة الخشوع في كتابه الماتع مدارج السالكين: «فلا شيء أنفع للصادق من التحقق بالمسكنة، والفاقة والذل، وأنه لا شيء، وأنه ممن لم يَصِحَّ له بعدُ الإسلام حتى يدَّعي الشرف فيه.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ من ذلك أمراً لم أشاهده من غيره، وكان يقول كثيراً: مالي شيء، ولا مني شيء، ولا فيَّ شيء، وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

أنـــا المكـــدِّي وابـــن المكـــدي   وهكـــذا كـــان أبـــي وجـــدي

---

(١) الأعلام العلية ص٦٨.

وكان إذا أُثني عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدِّد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً.

وبعث إليَّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه، وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

أنا الفقير إلى رب البريات	أنا المسيكين في مجموع حالاتي
أنا الظلومُ لنفسي وهي ظالمتي	والخيرُ إن يأتِنا من عنده ياتي
لا أستطيع لنفسي جَلب منفعةٍ	ولا عن النفس لي دفع المضراتِ
وليس لي دونه ربٌّ يدبرني	ولا شفيعٌ إذا حاطت خطيئاتي
إلا بإذن من الرحمن خالقِنا	إلى الشفيع كما قد جا في الآياتِ
ولست أملك شيئاً دونه أبداً	ولا شريكٌ أنا في بعض ذراتِ
ولا ظهير له كي يستيعن به	كما يكون لأرباب الولاياتِ
والفقر لي وصفُ ذاتٍ لازمٌ أبداً	كما الغنى أبداً وصفٌ له ذاتي
وهذه الحالُ حال الخلقِ أجمعهم	وكلهم عنده عبد له آتي
فمن بغى مطلباً من غير خالقه	فهو الجهول الظلوم المشرك العاتي
والحمد لله ملءُ الكون أجمعه	ما كان منه وما مِنْ بَعْدُ قد ياتي[1]

(١) مدارج السالكين لابن القيم ١/٥٢٠ ـ ٥٢١.

سادساً: شجاعته

أما عن شجاعته، وقوة قلبه، ورباطة جأشه فحدث ولا حرج.

قال الحافظ الذهبي رحمه الله في ترجمته لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله متحدثاً عن شجاعته: «وأما شجاعته فبها تضرب الأمثال، وببعضها يتشبه أكابر الأبطال؛ فلقد أقامه الله في نوبة غازان، والتقى أعباء الأمر بنفسه، وقام وقعد، وطلع وخرج، واجتمع بالملك مرتين، وبخطلوشاه، وببولاي، وكان قبجق يتعجب من إقدامه وجرأته على المغول، وله حدة قوية تعتريه في البحث؛ حتى كأنه ليث حرب، وهو أكبر من أن ينبه مثلي على نعوته؛ فلو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أني ما رأيت بعيني مثله، ولا والله ما رأى هو مثل نفسه في العلم»[(١)].

قال ابن القيم رحمه الله: «وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس، والتهديد، والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسَرِّهم نفساً، تلوح نضرة النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض ـ أتيناه، فما هو إلا أن نراه، ونسمعَ كلامه فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحاً، وقوة، ويقيناً، وطمأنينة.

فسبحان من أشهد عباده جَنَّتَهُ قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل،

---

(١) العقود الدرية ص١٠٩ـ١١٠.

فآتاهم من رَوْحها، ونسيمها، وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها، والمسابقة إليها»(١).

وقال ابن عبدالهادي رحمه الله: «وفي أول شهر رمضان من سنة اثنتين وسبعمائة، كانت وقعة شقحب المشهورة، وحصل للناس شدة عظيمة، وظهر فيها من كرامات الشيخ، وإجابة دعائه، وعظيم جهاده، وقوة إيمانه، وشدة نصحه للإسلام، وفرط شجاعته، ونهاية كرمه، وغير ذلك من صفاته ما يفوق النعت، ويتجاوز الوصف.

ولقد قرأت بخط بعض أصحابه، وقد ذكر هذه الواقعةَ وكثرةَ مَنْ حضرها مِنْ جيوش المسلمين قال: واتفقت كلمة إجماعهم على تعظيم الشيخ تقي الدين ومحبته، وسماع كلامه، ونصيحته، واتعظوا بمواعظه، وسأله بعضهم مسائل في أمر الدين، ولم يبق من ملوك الشام تركي ولا عربي إلا واجتمع بالشيخ في تلك المدة، واعتقد خيره، وصلاحه، ونُصْحَه لله ولرسوله وللمؤمنين»(٢).

وقال البزار رحمه الله: «كان رضي الله عنه من أشجع الناس، وأقواهم قلباً.

ما رأيت أحداً أثبت جأشاً منه، ولا أعظم عناءً في جهاد العدو منه، كان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده، ولا يخاف في الله لومة لائم.

وأخبَرَ غيرُ واحدٍ أن الشيخ رضي الله عنه كان إذا حضر مع عسكر المسلمين في جهاد يكون بينهم واقيتَهُم، وقطبَ ثباتهم، إنْ رأى من بعضهم هلعاً، أو رِقَّةً، أو جبانةً

---

(١) الوابل الصيب ص٧٠.

(٢) العقود الدرية ص١٤٦.

شَجَّعَه، وثبَّته، وبشره، ووعده بالنصر والظفر والغنيمة، وبيَّن له فضل الجهاد والمجاهدين، وإنزال الله عليهم السكينة.

وكان إذا ركب الخيل يتَحَنَّك[1] ويجول في العدو كأعظم الشجعان، ويقوم كأثبت الفرسان، ويكبر تكبيراً أنكى في العدو من كثير من الفتك بهم، ويخوض فيهم خوض رجل لا يخاف الموت.

وحدثوا أنهم رأوا منه في فتح عكة أموراً عظيمة يعجز الواصف عن وصفها.

قالوا: ولقد كان السبب في تملك المسلمين إياها بفعله، ومشورته، وحسن نظره»[2].

وقال ابن عبدالهادي رحمه الله: «ولقد أخبرني حاجب من الحجاب الشاميين -أمير من أمرائهم- ذو دين متين، وصدق لهجة معروف في الدولة، قال: قال لي الشيخ يوم اللقاء، ونحن بمرج الصفر، وقد تراءى الجمعان: يا فلان، أوقفني موقف الموت، قال: فسقته إلى مقابلة العدو، وهم منحدرون كالسيل تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم.

ثم قلت له: يا سيدي، هذا موقف الموت، وهذا العدو قد أقبل تحت هذه الغبرة المنعقدة، فدونك وما تريد.

قال: فرفع طرفه إلى السماء، وأشخص بصره، وحرك شفتيه طويلاً، ثم انبعث، وأقدم على القتال، وأما أنا فَخُيِّل إلي أنه دعا عليهم، وأن دعاءه

---

(١) التحنيك: هو وضع العمامة تحت الذقن، ولف طرفيها على الرأس.

(٢) الأعلام العلية ص٦٩-٧٠.

استجيب منه في تلك الساعة.

قال: ثم حال القتال بيننا والالتحام، وما عدت رأيته؛ حتى فتح الله ونصر، وانحاز التتار إلى جبل صغير؛ عصموا نفوسهم به من سيوف المسلمين تلك الساعة، وكان آخر النهار.

قال: وإذا أنا بالشيخ، وأخيه يصيحان بأعلى صوتيهما؛ تحريضاً على القتال، وتخويفاً للناس من الفرار.

فقلت: يا سيدي، لك البشارة بالنصر؛ فإنه قد فتح الله، ونصر، وهاهم التتار محصورون بهذا السفح، وفي غد -إن شاء الله تعالى- يؤخذون عن آخرهم.

قال: فحمد الله -تعالى- وأثنى عليه بما هو أهله، ودعا لي في ذلك الموطن دعاءً وجدت بركته في ذلك الوقت وبعده.

هذا كلام الأمير الحاجب»[1].

وكما أنه ضرب أروع الأمثلة في الشجاعة في ميادين الوغى؛ فقد ضرب أروعها في الشجاعة الأدبية، وذلك في إنكار المنكر، والرد على المخالفين بقوة علم وبيان، وسعة صدر، وسلامة برهان، وقوة احتمال وصبر على معاناة الأهوال؛ فكان لذلك أبلغ الأثر في تجديد الدين، ونفي ما ألصق به من تحريف الغالين، وزيف المبطلين.

يقول الأستاذ محمد كرد علي رحمه الله **في ترجمته لشيخ الإسلام ابن تيمية**: «وما سُمع لأحد علماء الدين في عصره صوت مثل صوته في إحقاق الحق، ونصرة

---

(١) العقود الدرية ص١٤٧-١٤٨.

سلطان الإسلام»[١].

وقال: «إن استعانة خصوم ابن تيمية بقوة رجال الدولة في مسألة شد الرحال إلى قبور الأنبياء، والأولياء، والصالحين وفي غير ذلك من البدع التي أقروها، والشريعةُ تنكرها إنكاراً ظاهراً كما يفهم من آي الكتاب العزيز، وهدي الصحابة، والتابعين، والعلماء العاملين، واغتباطهم بما ظنوه ظفراً لهم في تلك المعركة الشديدة ـ قد كان من نتائجه مسخ الشريعة عند المتأخرين، وبقيت الأمة على إقرار الخرافات، والبدع إلى يوم الناس هذا في بلاد المسلمين كافة، وكأنهم اخترعوا شريعة أخرى استمالوا بها العوام، ومزجوها بالشريعة الأصلية رغم أنوف الخواص؛ فركبوا عار الأبد، ولعنوا بما بدلوا وحرفوا، هو لم يأت ببدع، وهو سلموا بكل البدع، فكان العالِمُ العاملُ حقاً، وكانوا عَبَدَة أوهام وضلالات.

أراد شرعاً نقياً من الأدران، وهم تساوت عندهم النقاوة والنفاية؛ لأنهم يقصدون بمناقشاتهم الظهور، وكسب قلوب الغوغاء على أي حال.

لو عمت دعوة ابن تيمية ـولِدعوته ما يماثلها في المذاهب الإسلامية، ولكنها عنده كانت حارة، وعند غيره فاترةـ لسلم هذا الدين من تخريف المخرفين على الدهر، ولما سمعنا أحداً في الديار الإسلامية يدعو لغير الله، ولا ضريحاً تشد إليه الرحال بما يخالف الشرع، ولا يعتقد بالكرامات على ما ينكره دين أتى للتوحيد لا للشرك، ولسلامة العقول لا للخبال والخيال»[٢].

---

(١) كنوز الأجداد ص٣٦٦.

(٢) كنوز الأجداد ص٣٦٦ـ٣٦٧.

سابعاً: فراسته الصادقة

الفراسة هي التأمل، والتثبت، وصحة النظر.

وسببها ـ كما يقول ابن القيم ـ نور يقذفه الله في قلب عبده، يفرق بين الحق والباطل، والحالي والعاطل، والصادق والكاذب.

وحقيقتها أنها خاطر يهجم على القلب ينفي ما يضاده، يثب على القلب وثوب الأسد على الفريسة.

وهذه الفراسة على حسب قوة الإيمان؛ فمن كان أقوى إيماناً فهو أحدُّ فراسة[١].

ولقد كان لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قِدْحٌ مُعَلَّى، ونصيب أوفى من الفراسة، وله أخبار في ذلك يطول ذكرها.

ولندع الكلام لتلميذه العلامة ابن القيم رحمه الله يتحدث عن ذلك، يقول:

«ولقد شاهدت من فراسة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أموراً عجيبة، وما لم أشاهده منها أعظم وأعظم، ووقائع فراسته تستدعي سفراً ضخماً.

أخبر أصحابه بدخول التتار الشام سنة تسع وتسعين وستمائة، وأن جيوش المسلمين تُكْسَر، وأن دمشق لا يكون بها قَتْلٌ عامّ ولا سَبْي عام، وأن كَلَب الجيش وحدته في الأموال، وهذا قبل أن يَهِمَّ التتار بالحركة.

ثم أخبر الناس والأمراء سنة اثنتين وسبعمائة لما تحرك التتار وقصدوا الشام: أن الدَّائرة والهزيمة عليهم، وأن الظفر والنصر للمسلمين، وأقسم على ذلك أكثر من

---

(١) انظر مدارج السالكين لابن القيم ٢/٤٥٣ـ٤٥٤.

سبعين يميناً، فيقال له: قل إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً.

وسمعته يقول ذلك، قال: فلما أكثروا علي، قلت: لا تكثروا، كتب الله -تعالى- في اللوح المحفوظ: أنهم مهزومون في هذه الكَرَّة، وأن النصر لجيوش الإسلام، قال: وأطعمتُ بعض الأمراء والعسكر حلاوة النصر قبل خروجهم إلى لقاء العدو.

وكانت فراسته الجزئية في خلال هاتين الواقعتين مثل المطر.

ولما طُلبَ إلى الديار المصرية، وأريد قتله -بعدما أنضجت له القدور، وقُلِّبت له الأمور- اجتمع أصحابه لوداعه، وقالوا: قد تواترت الكتب بأن القوم عاملون على قتلك، فقال: والله لا يَصِلُون إلى ذلك أبداً، قالوا: أفتحبس؟ قال: نعم، ويطول حَبْسي، ثم أخرج، وأتكلم بالسنة على رؤوس الناس، سمعته يقول ذلك.

ولما تولى عدوه الملقب بالجاشنكير المُلْك أخبروه بذلك، وقالوا: الآن بلغ مراده منك، فسجد لله شكراً وأطال، فقيل له: ما سبب هذه السجدة؟ فقال: هذا بداية ذُله، ومفارقة عزه من الآن، وقرب زوال أمره، فقيل: متى هذا؟ فقال: لا تربط خيول الجند على القرط حتى تُغلب دولته، فوقع الأمر مثل ما أخبر به، سمعت ذلك منه.

وقال مرة: يدخل عليَّ أصحابي وغيرهم، فأرى في وُجُوههم وأعينهم أموراً لا أذكرُها لهم.

فقلت له -أو غيري- لو أخبرتهم؟ فقال: أتريدون أن أكون معرّفاً كمعرف الولاة؟

وقلت له يوماً: لو عاملتنا بذلك لكان أدعى إلى الاستقامة والصلاح، فقال: لا تصبرون معي على ذلك جمعة، أو قال: شهراً.

وأخبرني غير مرة بأمور باطنة تختص بي مما عزمت عليه، ولم ينطق به لساني.

وأخبرني ببعض حوادث كبار تجري في المستقبل، ولم يعين أوقاتها، وقد رأيت بعضها، وأنا أنتظر بقيتها.

وما شاهده كبار أصحابه من ذلك أضعاف ما شاهدته، والله أعلم»[1].

---

(١) انظر مدارج السالكين لابن القيم ٢/٤٥٨-٤٥٩.

ثامناً: ابن تيمية والشعر

لم يكن ابن تيمية رحمه الله متمحمضاً للشعر؛ وإنما كان يستروح له، ويستشهد به، ويقوله إذا احتاج إلى ذلك إما جواباً لسؤال جاء شعراً، أو يبتدئ ذلك في بعض الأحيان.

ومن الأبيات التي كان يستشهد بها قول أبي تمام:

من لم يقد فيطير في خيشومه ... رهجُ الخميس فلن يقود خميسا

وكذلك قول المتنبي:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ... ولا يهيضون عظماً أنت جابره

وكان ـ كما يقول الصفدي ـ كثيراً ما ينشد:

تموت النفوس بأوصابها ... ولم تدرِ عوادها ما بها

وما أنصفت مهجة تشتكي ... إلى غير أحبابها ما بها[1]

وأما شعره فله قصائد، وقد مضى ذكر لقصيدته التائية في الافتقار إلى الله ـ عز وجل ـ.

ومن أشهر ما يثبت من الشعر الذي قاله ما يلي:

---

(١) البيتان الأخيران لابن صُرَّدُرَّ. انظر (أعيان العصر وأعوان النصر) لصلاح الصفدي ضمن الرسائل الموجودة في كتاب: (الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون) جمعه ووضع فهارسه الشيخ محمد عزير شمس والشيخ علي بن محمد العمران إشراف وتقديم الشيخ بكر أبو زيد، دار عالم الفوائد مكة، ط٢، ١٤٢٢هـ، ص٢٥٢.

القصيدة الأولى: قصيدته التائية في القدر: وهي موضوع هذه الرسالة، وسيرد الحديث عنها مفصلاً.

القصيدة الثانية: وهي القصيدة العينية التي أجاب فيها عن لغز العلامة الفارقي، وكان ابن تيمية في مقتبل عمره.

وهذه القصيدة أوردها الحافظ ابن عبدالهادي في كتابه العقود الدرية.

قال رحمه الله نقلاً عن الحافظ البرزالي رحمه الله: «كان ـ يعني ابن تيمية ـ قد نظم شيئاً يسيراً في صغره، وكتبت عنه إذ ذاك، ثم إنه ترك ذلك، وأعرض عنه، وسئل عن مسألة القدر بنظم؛ فأجاب فيها بنظم، وقد قرئ عليه، وسمع منه، وحل لغز الرشيد الفارقي بأبيات تشتمل على نحو مائة بيت على وزن اللغز، وذلك في حياة والده ـ رحمه الله تعالى ـ وله نحو العشرين من العمر، وكان حله في أسرع وقت.

قلت[1]: هذا اللغز الذي أشار إليه الشيخ علم الدين نظمه الشيخ الإمام العلامة رشيد الدين أبو حفص عمر بن اسماعيل بن مسعود الفارقي في اسم ألغزه بوصف أبرزه في لفظ أوجزه لفهم أعجزه.

مــا اســمٌ ثلاثــيُّ الحــروفِ فَثُلْثُــهُ	**مِثْــلٌ لــهُ والثلــثُ ضِـعْفُ جَمِيعِـهِ**
والثلــثُ الآخـرُ جـوهرٌ حلـت بـه الـ	**أعـراضُ جمعـاً فـأعجبوا لبديعـه**
وهــو المُثَلَّــثُ جَــذْرُهُ مثــلٌ لـــه	**وإذا يُرَبَّـــعُ بـــان في تربيعـــه**
جـــزءٌ مـــن الفلــكِ العَلِــيِّ وإنمـــا	**باقيـــه خـــوفٌ أو أمـــانُ مَرَوعِـــه**

(١) القائل ابن عبدالهادي.

حـــيٌّ جمـــادٌ ســـاكنٌ متحـــركٌ — إن كنـــت ذا نظـــرٍ إلى تنويعـــه

وتـــراه مـــع خُمْـسِيْه عِلَـةُ كونِـه — معلولُـــه سِـــرًّاً بغـــير مذيعـــه

ويغـير خُمْـسِيْه جميـعُ النحـو مـو — جـودٌ ومحمـولٌ علـى موضـوعه

وبحالـــه فِعْـــلٌ مـــضى مـــستقبلاً — حُمِـدَتْ صـناعتُه لحمـد صـنيعه

قيـدٌ لمطلقـــه خـــصوصُ عمومِـــهِ — زيـــدٌ لمفـــرده علـــى مجموعـــه

شـــيءٌ مقـــيمٌ في الرحيـــل وممكـــنٌ — كالمـــستحيل بطيئُـــه كـــسريعه

وأهـــم مـــا في الـــشرعِ والـــدينِ اسمُـــهُ — ومـــضافُه بأصـــوله وفروعـــه

ودقيـــقُ معنـــاهُ الجليـــلِ مناســـبٌ — عِلْـمَ الخليـل ولـيس مـن تقطيعـه

وإذا عروضـــي تطلّـــب حلّـــهُ — ألفـــاه في المفـــروق أو مجموعـــه

وإذا تَرَصَّـــعه بـــدُرٍّ فريـــدِه — عِقْـــداً يـــزين الـــدرّ في ترصـــيعه

للمنطقـــيِّ وللحكـــيم نتاجُـــه — وعلاجُـــه بذهابـــه ورجوعـــه

ولـــه شـــعارٌ أشـــعريٌّ واعتقـــا — دٌ حنبلـــيٌّ فـــاعجبوا لوقوعـــه

وتمامُـــه في قـــول شـــاعر كنـــدةٍ — مـــا حـــافظٌ للعهـــد مثـــلُ مـــضيعه

يُرْويـــك في ظمـــأ نـــدىً بـــورودهِ — ويريـــك في ظُلَـــمٍ هـــدى بطلوعـــه

ولقـــد حَلَلْـــت اللغـــزَ إجمـــالاً وفي — تفـــصيله تفـــصيلُ روضِ ربيعـــه

فاسْـتَجْلِ بِكْـراً مـن ولـيٍّ بـالحلى — تهـدى لكُـفْءِ الفـضل بـين ربوعـه

فأجاب العبد الفقير إلى ربه أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية حلاً

لمعضله، وفصلاً لمجمله، وفتحاً لمقفله، وشرحاً لمشكله[١].

يا عالماً قد فاق أهل زمانه ... بفنونه وبيانه وبديعه
وَغَدا لأعلام العلوم منارَهم ... يهدي الهداةَ إلى منير ربوعه
وأجاد نظماً عِقْدَ جيدِ عَقيلةٍ ... مِنْ دُرِّ بحرِ العلم في ترصيعه
وجلا المعارف في عوارف لفظه ... أخذاً لعرف العلم من ينبوعه
وأبان عَمَّا قد حوى من كل فَنْـ ... ـنٍ قد أحاط بأصله وفروعه
ببيانه السحرِ الحلالِ ولفظِه ... العذبِ الزلالِ ولفظِ حسنِ صنيعه
بغزيرِ علمٍ وافتنان واسعٍ ... ألغزت علماً في فنون وسيعه
حليته بدقيق وصفٍ صُنْتَه ... بجليل لفظ ناء عن موضوعه
ووصفته بحلى العلوم وأهلها ... ونعتَّه بضروبه وضروعه
وجمعتَ في أوصافه الأضداد حتَّـ ... ـى استيأس الطلاب من تتبيعه
والعبدُ لما أن تأمل نَظْمَكم ... بنظامه أُلْقِيْ له في رُوْعه
أن الذي ألغزتم عِلْمٌ ولمـ ... ـا يجعل المظنون من مقطوعه
لكنه أمسى يُحَلِّيه بما ... حلَّيْتَهُ ويغوص في توقيعه
حتى تجلى الحقُّ من ظلمائه ... في ليلة من قبل وقت هجوعه
فإذا الذي قد عَنَّ أولَ مرةٍ ... حق تبلَّج فجرُه بطلوعه
ورأيتُ فيه الوصفَ إما بادياً ... أو خافياً معناه في مسموعه

---

(١) هذه القصيدة لو شرحت لجاءت في مجلد كبير أو أكثر، ولاحتاجت إلى مجموعة من المتخصصين في الشريعة، واللغة، والأدب، وعلم الرياضيات، والمنطق وغيرها من العلوم.

لـــدقيقِ مغـــزاهُ ولطـــفِ إشـــارةٍ فيـــه ويُعْـدُ حُـلاه عـــن موضـوعه
فغدوت أكشف عنه كشفاً موجزاً باشـــإرة تهـــدي لـــشطر بقيعـــه
فـــاسمَعْ لحـــلِّ حُـــلاهُ في تفـصيله واشـــهد بقَلْـــبٍ مقبـــل بهطوعـــه
العلـــم لفـــظ ذو ثلاثـــة أحـــرفٍ وهجـاء كُـلٍّ مثـلُ مـا مجموعِـه
فـــإذا يكـــون مركبـــاً مـــن تـــسعة جـــذراً لهـــا فـــانظر إلى تربيعـــه
ومُرَبَّعـــاً ســـاواه جَـــذْرُ حـــسابه ومثلثـــاً بحـــدوده وضـــلوعه
ويكـــون أثلاثـــاً فَثُلْـــثٌ مثلُـــه هـــو لامـــه إن خُـــضْتَ في توزيعـــه
والمـــيم في الجُمَـــلِ الكـبيرِ حـــسابُه هـــو أربعـــون بقـــول أهـــل ربيعـــه
والعلـم في الجمـل الـصغير حـسابه عـشرون هـذا الثلـث ضعف جميعـه
والثلـــث عـــينٌ عـــينُ كـــلٍّ ذاتُـــه هـو جـوهر والوصـف في موضـوعه
إذ كانـت الأعيـان قائمـة بهـا الـ أعـراضُ جمعـاً فـافطنوا لجموعـه
حكـمٌ يخـص العـين حرفـاً واحـداً مـن بـين جـنس الحـرف في تنويعـه
هـو تـسعةٌ في أصـله والعـالمُ العلـ ويُّ منـــــه تـــــسعةٌ برقيعـــــه
العـرش والكرسـي والـسبع الـسمـ وات الطبـاق فالاسـم جـزء رفيعـه
مـن عـالم الملكـوت أعنـي الغيـب إذ عنـه كنـى لعلـو شـأن ضـليعه
لم يبـــق إلا جنـــةٌ أو جـــاحمٌ فيـــه المخافـــةُ أو أمـــانُ مَرُوعـــه
بـــالعلم يحيـــى اللهُ قلبـــاً ميتـــاً يـسريْ كنـورٍ ضـاءَ حـين سطوعِهِ
فلأنـــه يحيـــى اسمـــه حـــي إذ الـــ أحيـــاء فـــرع حيـــاةِ ربٍّ صـنيعه
ولأنـــه يـــسري اسمـــه متحـــرك لوحـــاً تَنَقَّلَـــهُ بـــذهن قريعـــه

ذا الوصـــفُ عقلـــيٌّ وفي حـــسيِّه هــو جامــدٌ هــو ســاكنٌ بربوعــه

إذ كــان نــوعُ العلــمِ معنــى جنــسهِ عَــرَضٌ يقــوم بمــستوى موضــوعه

والحــيُّ والمتحــركُ الوصــفان يخــ تــصان شخــصاً جــوهراً ببقيعــه

إذ كــان في المحــسوس لــيس بقــائم عـــرضٌ بـــآخرَ مِثْلِـــهِ وتبيعـــه

أمـــا إذا مـــا جُـــرِّد المعقـــولُ فالـــ وصـــفان في المعنـــى لـــه بربيعـــه

ثلثـــاه حرفـــا العـــينِ والمـــيمِ همـــا في اللفـــظ مـــن عـــدم وفي تنويعـــه

لـــو إذ جمعـــت حـــسابه في أكثـــر وأضـــفت خُمْـــسَيه إلى مجموعـــه

فمربعـــاً يـــضحى ويـــضحى جـــذرُه مـــع أربـــع عـــشراً لـــذي تربيعـــه

فالجـــذرُ عِلَّتُـــه ومعلـــولٌ لـــه مـــن حيـــث مـــا هـــو علـــةٌ لوقوعـــه

فالجـــذر معلـــولٌ لجـــذر كـــائن معلولـــه فـــافهم مـــدارَ رجيعـــه

فلكونـــه معلـــولُ معلـــولٍ لـــه قـــد صـــار معلـــولاً لـــه برجوعـــه

ويقـــول إن العلـــم منـــه النحـــو هـــ ذا إن تـــرد حمـــلاً علـــى موضـــوعه

فـــإذا يكـــون الـــضمُّ علـــةَ كـــون هـــ ـــذا الجمـــع علـــة نفـــسه وجميعـــه

ويغـــير خُمْـــسيْه يعـــود لأصـــله علمـــاً وعلـــمُ النحـــو بعـــضُ فروعـــه

وإذا اعتـــبرت حروفَـــه ألفيتَـــه فعـــلاً مـــضى لغـــةً وفي موضـــوعه

حكـــمٌ علـــى المـــسْتَقْبلات وغيرهـــا لعمومـــه متعلقـــاً وذيوعـــه

إذ مـــن خصائـــصه تعلقـــه بكـــ لِّ محقـــقٍ مـــع ســـبقه لوقوعـــه

أكـــرم بـــه أمـــراً عظيمـــاً نفعُـــه حُمِـــدَتْ صـــناعته بحمـــد صـــنيعه

والفعـــل فيـــه مـــصدرٌ وزمانُـــه وضـــعاً وملـــزومٌ لـــرب صـــنيعه

فلذاك كان مقيداً ومخصصاً ... لعموم جنس العلم في تنويعه

هو مفرداً نوعٌ حوى أشخاصه ... فإذا تركب خَصَّ في تجميعه

فيصح حينئذ مقالةُ قائلٍ ... قد زاد مفرده على مجموعه

هو ثابتٌ في كلّ حالٍ ممكن ... ذو عزة صَعْبٌ على مُسْطيعه

حتى يُنالَ فيحمد القوم السُّرى ... وإذا يقال بطيئه كسريعه

فالبطءُ والإسراع ليس بنفسه ... بل في الطريق وفي اقتناص منيعه

والعلمُ بالرحمن أولُ صاحبٍ ... وأهمُّ فرض الله في مشروعه

وأخو الديانةِ طالبٌ لمزيده ... أبداً ولما يُنْهِهِ بقطوعه

والمرء فاقتُه إليه أشد من ... فقر الغذاء لعلم حكم صنيعه

في كل وقت والطعام فإنما ... يحتاجه في وقت شدة جوعه

وهو السبيل إلى المحاسن كلها ... والصالحات فَسَوأةٌ لمضيعه

وإليه يسند كلُّ فنٍّ نافع ... بل فارغٌ بأصوله وفروعه

لجلالة المعلوم واللطف الذي ... للعلم كان مناسباً لبديعه

فالعلمُ ميزانُ الحقائق والعَرو ... ضُ كذاك ميزانٌ لدى تقطيعه

والإسمُ بالتحريك من مفروقه ... والفعل بالتسكين من مجموعه

هو واسطٌ عِقْدَ الفضائلِ كلّها ... وبه يزان الحَلْيُ في ترصيعه

وعلاجه بالجد في تحصيله ... بمقدمات نتاجه ويُنُوعه

ولكل قومٍ منه حظٌّ وافرٌ ... وحقائقٌ التحقيق في مشروعه

بشعائرٍ لمشاعرٍ وقواعدٍ ... لعقائدِ المعقولِ في مسموعه

وجميعُه متفرقٌ في قوله ... ما حافظٌ للعهد مثلُ مضيعه

فَلِعَيْنِه ولِلامه ولميمه ... من ذا الكلام الحظُّ في تبضيعه

يُروى بماء حياته في ورده ... ظمآنُ تحقيقٍ إلى ينبوعه
ويرى بنور هداه في تبيينه ... حيرانُ تدقيقٍ طلوع سطيعه
بطلوعه لما أبان بنوره ... قصد السبيل لحل عقد بديعه
جلى المجلي بَعْدَ بُعْدِ بُدُوِّه ... مع قرب مقفله وقُربِ مسوعه
وأبان مُجَمْلَه وفَصَّل عِقْده ... ولروضة الأُنُفِ ارتعى برتوعه
وحَلَى جمالَ البِكر في حَلْي الحُلى ... فافتضها كفؤٌ ثَوَتْ بربوعه
فخذ الجواب مخلصاً فيه اللبا ... ب ملخصاً في نظمه لسميعه
مع أن نظم الشعر غيرُ محصِّل ... لكمال مغزاه وشرحِ جميعه
من خاطرٍ مستعجلٍ مُستَوفز ... لم يمعنِ التفكيرَ في مرجوعه
لم يجعلِ التحليل من مصنوعه ... كلا ولا الفضلات من مصنوعه
إذ كان مخلوقاً لأكبر غاية ... دار القرار جميلِه وقطيعِه
وعليه من أمر الإله ونهيه ... ما يلفتُ المعقولَ عن تضييعه
لكنه لا بدَّ للمصدور من ... نَفْثٍ يريح فؤاده بنخوعه
مع أنه مُزجى البضاعة نظمُه ... غِرٌّ بحكم اللفظ في تسجيعه
عبدٌ ذليل عاجز متضعِّف ... في حال مبداه وحال رجوعه
لكنه لما استعان بربه ... ثم استكان له ببذل خضوعه
فأعانه يسر الجواب فإن يكن ... حقاً برفق الوصف في توقيعه
فالحمد والفضل العظيم لربنا ... شكراً على محمودِ حُسْنِ صنيعه
إذ ما بنا من نعمة فَبِمَنِّه ... والخيرُ منه جميعه بهموعه
أو إن يكن خطأً فمني حيث إن ... لم أستطع متناولاً لرفيعه
فالنقصُ للإنسان وصف لازم ... إن كان يعرف نفسه بنخوعه
والحمد لله الرحيم بخلقه البـ ... ـرِّ الودود بعبده ومطيعه
وميسر الخطب العسير بلطفه ... من بَعْد منعته وبُعْدِ منيعه

ثم الصلاة على النبي وآله ... والمصطفين من الأنام جميعه

وعليهم التسليم منا دائماً ... ما اهتز وجه الأرض بعد خشوعه[١]

وهذا ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مقطعات قصيرة غير ما ذكر، وقد ورد ذكر لشيء منها فيما مر.

---

(١) انظر العقود الدرية ص١٤ـ٢٠.

تاسعاً: نموذجان من مكاتبات ابن تيمية في سجنه

لما كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في السجن كان يكتب ويؤلف، ويجيب عن الأسئلة.

ومن ضمن ما أنشأه مكاتباتٌ كتبها إلى والدته، وإخوانه، وأحبابه.

وهذه المكاتبات تكشف عن جوانب البر، والمحبة، والصلة، والعفو، والصفح، والرضا، والحرص على تأليف القلوب، وجمع الكلمة إلى غير ذلك من المعاني السامية التي تنم عن نفس راضية، وهمة عالية، وديانة صادقة.

وفيما يلي نموذجان لتلك المكاتبات.

الأول: كتاب من الشيخ إلى والدته وغيرها:

يقول الحافظ ابن عبدالهادي رحمه الله: «وقد وقفت على عدة كتب بخط الشيخ، بعثها من مصر إلى والدته، وإلى أخيه لأمه: بدر الدين، وإلى غيرهما.

منها كتاب إلى والدته يقول فيه:

من أحمد بن تيمية إلى الوالدة السعيدة، أقر الله عينها بنعمه، وأسبغ عليها جزيل كرمه، وجعلها من خيار إمائه وخدمه.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وهو للحمد أهل، وهو على كل شيء قدير، ونسأله أن يصلي على خاتم النبيين، وإمام المتقين محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً.

كتابي إليكم عن نعم من الله عظيمة، ومنن كريمة، وآلاء جسيمة نشكر الله

عليها، ونسأله المزيد من فضله، ونعم الله كلما جاءت في نمو وازدياد، وأياديه جلت عن التعداد.

وتعلمون أن مقامنا الساعةَ في هذه البلاد إنما هو لأمور ضرورية متى أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا، ولسنا -والله- مختارين للبعد عنكم، ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم، ولكن الغائب عذره معه، وأنتم لو اطلعتم على باطن الأمور فإنكم -ولله الحمد- ما تختارون الساعة إلا ذلك، ولم نعزم على المقام والاستيطان شهراً واحداً، بل كل يوم نستخير الله لنا ولكم، وادعوا لنا بالخيرة، فنسأل الله العظيم أن يخير لنا ولكم وللمسلمين ما فيه الخيرة في خير وعافية.

ومع هذا فقد فتح الله من أبواب الخير والرحمة والهداية والبركة، ما لم يكن يخطر بالبال، ولا يدور في الخيال، ونحن في كل وقت مهمومون بالسفر، مستخيرون الله -سبحانه وتعالى- فلا يظن الظان أنا نُؤْثِرُ على قربكم شيئاً من أمور الدنيا قط، بل ولا نؤثر من أمور الدين ما يكون قربكم أرجح منه، ولكن ثَمَّ أمورٌ كبار نخاف الضرر الخاص والعام من إهمالها، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب.

والمطلوب كثرة الدعاء بالخيرة، فإن الله يعلم ولا نعلم، ويقدر ولا نقدر، وهو علام الغيوب، وقد قال النبي ﷺ: «من سعادة ابن آدم استخارته الله، ورضاه بما يقسم الله، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله، وسخطه بما يقسم الله له».

والتاجر يكون مسافراً؛ فيخاف ضياع بعض ماله، فيحتاج أن يقيم حتى يستوفيه، وما نحن فيه أمر يَجِلُّ عن الوصف، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كثيراً كثيراً، وعلى سائر من في البيت من الكبار والصغار، وسائر الجيران، والأهل والأصحاب واحداً، واحداً.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً»[١].

الثاني: كتاب بعثه الشيخ من مصر إلى دمشق:

قال فيه: «بعد حمد الله ـ تعالى ـ والصلاة على نبيه ﷺ.

أما بعد: فإن الله ـ وله الحمد ـ قد أنعم عليَّ من نعمه العظيمة، ومننه الجسيمة، وآلائه الكريمة، ما هو مستوجب لعظيم الشكر، والثبات على الطاعة، واعتياد حسن الصبر على فعل المأمور، والعبد مأمور بالصبر في السراء أعظم من الصبر في الضراء، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)﴾ هود.

وتعلمون أن الله ـ سبحانه ـ منَّ في هذه القضية من المنن التي فيها من أسباب نصر دينه، وعلو كلمته، ونصر جنده، وعزة أوليائه، وقوة أهل السنة والجماعة، وذل أهل البدعة والفرقة، وتقرير ما قرر عندكم من السنة، وزيادات على ذلك بانفتاح أبواب من الهدى والنصر، والدلائل، وظهور الحق لأمم لا يحصي عددهم إلا الله ـ تعالى ـ وإقبال الخلائق إلى سبيل السنة والجماعة، وغير ذلك من المنن ما لا بدَّ معه من عظيم الشكر، ومن الصبر وإن كان صبراً في سراء.

---

(١) العقود الدرية ص٢٠٠ـ٢٠١.

وتعلمون أن من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين: تأليف القلوب، واجتماع الكلمة، وصلاح ذات البين؛ فإن الله -تعالى- يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ الأنفال:١، ويقول: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾ آل عمران: ١٠٣، ويقول: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ آل عمران: ١٠٥.

وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة، والائتلاف وتنهى عن الفرقة والاختلاف.

وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة، كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة.

وجماع السنة: طاعة الرسول، ولهذا قال النبيﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أموركم».

وفي السنن من حديث زيد بن ثابت، وابن مسعود -فقيهي الصحابة- عن النبيﷺ أنه قال: «نضَّر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين؛ فإن دعوتهم تحيط من وراءهم».

وقوله: «لايغل»: أي لا يحقد عليهن، فلا يبغض هذه الخصال قلب المسلم، بل يحبهن ويرضاهن.

وأول ما أبدأ به من هذا الأصل: ما يتعلق بي، فتعلمون -رضي الله عنكم- أني لا أحب أن يُؤذَى أحد من عموم المسلمين -فضلاً عن أصحابنا- بشيء أصلاً، لا باطناً ولا ظاهراً، ولا عندي عتب على أحد منهم، ولا لوم أصلاً، بل لهم عندي من الكرامة، والإجلال والمحبة، والتعظيم أضعاف أضعاف ما كان، كل بحسبه، ولا يخلو لرجل إما أن يكون مجتهداً مصيباً، أو مخطئاً، أو مذنباً، فالأول: مأجور مشكور، والثاني: مع أجره على الاجتهاد: فمعفو عنه، مغفور له، والثالث: فالله يغفر لنا وله، ولسائر المؤمنين؛ فنطوي بساط الكلام المخالف لهذا الأصل.

كقول القائل: فلان قصَّر، فلان ما عمل، فلان أوذي الشيخ بسببه، فلان كان سبب هذه القضية، فلان كان يتكلم في كيد فلان، ونحو هذه الكلمات التي فيها مذمة لبعض الأصحاب، والإخوان؛ فإني لا أسامح من آذاهم من هذا الباب، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

بل مثل هذا يعود على قائله بالملام، إلا أن يكون له من حسنة، وممن يغفر الله له إن شاء، وقد عفا الله عما سلف.

وتعلمون -أيضاً-: أن ما يجري من نوع تغليظ، أو تخشين على بعض الأصحاب والإخوان ما كان يجري بدمشق، ومما جرى الآن بمصر، فليس ذلك غضاضة ولا نقصاً في حق صاحبه، ولا حصل بسبب ذلك تَغَيُّرٌ منا، ولا بغض، بل هو بعد ما عومل به من التغليظ والتخشين أرفع قدراً، وأنبه ذكراً، وأحب وأعظم، وإنما هذه الأمور هي من مصالح المؤمنين، التي يصلح الله بها بعضهم

ببعض؛ فإن المؤمن للمؤمن كاليدين، تغسل إحداهما الأخرى، وقد لا ينقلع الوسخ إلا بنوع من الخشونة، لكن ذلك يوجب من النظافة والنعومة، ما نحمد معه ذلك التخشين.

وتعلمون أنا جميعاً متعاونون على البر والتقوى، واجب علينا نصر بعضنا بعضاً أعظم مما كان وأشد؛ فمن رام أن يؤذي بضع الأصحاب، أو الإخوان؛ لما قد يظنه من نوع تخشين عومل به بدمشق، أو بمصر الساعة، أو غير ذلك ـ فهو الغالط.

وكذلك من ظن أن المؤمنين يبخلون عما أمروا به من التعاون والتناصر ـ فقد ظن سوءً و﴿ إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾.

وما غاب عنا أحد من الجماعة، أو قدم إلينا الساعة، إلا ومنزلته عندنا اليوم أعظم مما كانت، وأجل، وأرفع.

وتعلمون ـرضي الله عنكمـ أن ما دون هذه القضية من الحوادث يقع فيها من اجتهاد الآراء، واختلاف الأهواء، وتنوع أحوال أهل الإيمان، وما لا بد منه من نزغات الشيطان ـ مالا يتصور أن يعتري عنه نوع الإنسان، وقد قال ـتعالىـ: ﴿وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٧٣)﴾ الأحزاب.

بل أنا أقول ما هو أبلغ من ذلك؛ تنبيهاً بالأدنى على الأعلى، وبالأقصى على الأدنى فأقول:

تعلمون كثرة ما وقع في هذه القضية من الأكاذيب المفتراة، والأغاليط

المظنونة، والأهواء الفاسدة، وأن ذلك أمر يجل عن الوصف، وكل ما قيل: من كذب وزور فهو في حقنا خير ونعمة، قال ـتعالىـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١)﴾ النور.

وقد أظهر الله من نور الحق وبرهانه ما رد به إفك الكاذب وبهتانه.

فلا أحب أن يُنْتَصر من أحد بسبب كذبه علي، أو ظلمه وعدوانه؛ فإني قد أحللت كل مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد بكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي.

والذين كذبوا وظلموا فهم في حل من جهتي.

وأما ما يتعلق بحقوق الله فإن تابوا تاب الله عليهم، وإلا فحكم الله نافذ فيهم؛ فلو كان الرجل مشكوراً على سوء عمله لكنت أشكر كل من كان سبباً في هذه القضية؛ لما يترتب عليه من خير الدنيا والآخرة، لكن الله هو المشكور على حسن نعمه، وآلائه، وأياديه التي لا يقضى للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له.

وأهل القصد الصالح يشكرون على قصدهم، وأهل العمل الصالح يشكرون على عملهم، وأهل السيئات نسأل الله أن يتوب عليهم.

وأنتم تعلمون هذا من خلقي، والأمر أزيد مما كان، وأوكد لكن حقوق الناس بعضهم مع بعض، وحقوق الله عليهم هم فيها تحت حكم الله.

وأنتم تعلمون أن الصديق الأكبر في قضية الإفك التي أنزل الله فيها القرآن، حلف لا يصل مسطح بن أثاثة؛ لأنه كان من الخائضين في الإفك، فأنزل الله

ـتعالى ـ: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢)﴾ النور، فلما نزلت، قال أبو بكر: بلى، أحب أن يغفر الله لي، فأعاد إلى مسطح النفقة التي كان ينفق.

ومع ما ذكر من العفو والإحسان، وأمثاله، وأضعافه، والجهاد على ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة أمر لا بد منه، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْغَالِبُونَ (٥٦)﴾ المائدة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً»[١].

---

(١) العقود الدرية ص٢٠٢ـ٢٠٧.

عاشراً: وفاة شيخ الإسلام ابن تيمية

قال ابن عبدالهادي رحمه الله في معرض حديثه عن وفاة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ثم إن الشيخ -رحمه الله تعالى- بقي مقيماً بالقلعة سنتين وثلاثة أشهر وأياماً، ثم توفي إلى رحمة الله ورضوانه، وما برح في هذه المدة مكباً على العبادة، والتلاوة، وتصنيف الكتب، والرد على المخالفين.

وكتب على تفسير القرآن العظيم جملة كثيرة، تشتمل نفائس جليلة، ونكت دقيقة، ومعان لطيفة، وبين في ذلك مواضع كثيرة أشكلت على خلق من علماء أهل التفسير.

وكتب في المسألة التي حُبس بسببها عدة مجلدات:

منها: كتاب في الرد على ابن الإخنائي قاضي المالكية بمصر، تُعْرَف بالإخنائية، ومنها كتاب كبير حافل في الرد على بعض قضاة الشافعية، وأشياء كثيرة في هذا المعنى أيضاً»[١].

إلى أن قال ابن عبدالهادي: «وما زال الشيخ تقي الدين رحمه الله في هذه المدة معظماً مكرماً، يكرمه نقيب القلعة، ونائبها إكراماً كثيراً، ويستعرضان حوائجه، ويبالغان في قضائها.

وكان ما صنفه في هذه المدة قد خرج بعضه من عنده، وكتبه بعض أصحابه، واشتهر، وظهر.

---

(١) العقود الدرية ص٢٨٤.

فلما كان قبل وفاته بأشهر ورد مرسوم السلطان بإخراج ما عنده كله، ولم يبق عنده كتاب، ولا ورقة، ولا دواة، ولا قلم، وكان بعد ذلك إذا كتب ورقة إلى بعض أصحابه يكتبها بفحم، وقد رأيت أوراقاً عدة بعثها إلى أصحابه، وبعضها مكتوب بفحم»[1].

ثم أورد ابن عبدالهادي بعض هذه الأوراق التي كتبها ابن تيمية وفيها: «ونحن ولله الحمد والشكر في نعم عظيمة، تتزايد كل يوم، ويجدد الله -تعالى- من نعمه نعماً أخرى، وخروج الكتب كان من أعظم النعم؛ فإني كنت حريصاً على خروج شيء منها؛ لتقفوا عليه، وهم كرهوا خروج الإخنائية؛ فاستعملهم الله -تعالى- في إخراج الجميع، وإلزام المنازعين بالوقوف عليه، وبهذا يظهر ما أرسل الله به رسوله من الهدى ودين الحق؛ فإن هذه المسائل كانت خفية على أكثر الناس، فإذا ظهرت فمن كان قصده الحق هداه الله، ومن كان قصده الباطل قامت عليه حجة الله، واستحق أن يذله الله ويخزيه.

وما كتبت شيئاً من هذا؛ ليكتم عن أحد، ولو كان مبغضاً، والأوراق التي فيها جواباتكم غسلت.

وأنا طيب، وعيناي طيبتان أطيب ما كانتا.

ونحن في نعم عظيمة لا تحصى ولا تعد، والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه».

ثم ذكر كلاماً وقال:

«كل ما يقضيه الله -تعالى- فيه الخير والرحمة والحكمة، إن ربي لطيف لما

---

(١) العقود الدرية ص٢٨٦.

يشاء، إنه هو القوي العزيز العليم الحكيم، ولا يدخل على أحد ضرر إلا من ذنوبه، ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ النساء:٧٩، فالعبد عليه أن يشكر الله ويحمده دائماً على كل حال، ويستغفر من ذنوبه، فالشكر يوجب المزيد من النعم، والاستغفار يدفع النقم، ولا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له».

وهذه الورقة كتبها الشيخ وأرسلها بعد خروج الكتب من عنده بأكثر من ثلاثة أشهر: في شهر شوال، قبل وفاته بنحو شهر ونصف.

ولما أخرج ما عنده من الكتب والأوراق، حمل إلى القاضي علاء الدين القونوي، وجعل تحت يده في المدرسة العادلية.

وأقبل الشيخ بعد إخراجها على العبادة، والتلاوة، والتذكر، والتهجد؛ حتى أتاه اليقين.

وختم القرآن مدة إقامته بالقلعة ثمانين، أو إحدى وثمانين ختمة، انتهى في آخر ختمة إلى آخر اقتربت الساعة ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥)﴾ القمر، ثم كملت عليه بعد وفاته، وهو مسجى.

كان كل يوم يقرأ ثلاثة أجزاء، يختم في عشرة أيام، هكذا أخبرني أخوه زين الدين.

وكانت مدة مرضه بضعة وعشرين يوماً، وأكثر الناس ما علموا بمرضه، فلم يفجأ الخلق إلا نعيه، فاشتد التأسف عليه، وكثر البكاء والحزن، ودخل إليه

أقاربه، وأصحابه، وازدحم الخلق على باب القلعة، والطرقات، وامتلأ جامع دمشق، وصلوا عليه، وحمل على الرؤوس، رحمه الله ورضي عنه»(١).

وبعد وفاته رثي بقصائد كثيرة قالها جمع من أكابر علماء عصره وأدبائه، فرحمه الله رحمة واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

(١) العقود الدرية ص٢٨٩ـ٢٩١.

القسم الأول

دراسة عامة للقدر
وللقصيدة التائية



الفصل الأول

دراسة عامة لموضوع القدر

وتحته تمهيد، وستة مباحث:

تمهيد: مسألة في حكم الحديث عن القدر.

المبحث الأول: تعريف القضاء والقدر، والعلاقة بينهما.

المبحث الثاني: أدلة الإيمان بالقضاء والقدر.

المبحث الثالث: مراتب القدر، وأقسامه:

وتحته ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مراتب القدر.

المطلب الثاني: مسألة خلق أفعال العباد.

المطلب الثالث: أقسام التقدير.

المبحث الرابع: الإرادة الربانية.

المبحث الخامس: خلاصة القول في الحكمة والتعليل، والضلال في القدر.

وتحته مطلبان:

المطلب الأول: خلاصة القول في الحكمة والتعليل.

المطلب الثاني: خلاصة القول في الضلال في القدر.

المبحث السادس: نشأة القول في القدر في الإسلام.



تمهيد

مسألة في حكم الحديث عن القدر

قبل الدخول في تفاصيل الحديث عن القضاء والقدر ـ يحسن الوقوف عند مسألة أُثيرت قديماً، وتثار حديثاً، مفادها: أنه لا ينبغي الحديث في مسائل القدر مطلقاً، بحجة أن ذلك يبعث على الشك والحيرة، وأن هذا الباب زلّت به أقدام، وضلَّت به أفهام.

والكلام هكذا ـعلى إطلاقهـ غير صحيح، لأمور عديدة منها:

١ـ **أن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان**: ولا يتم إيمان العبد إلا به، فكيف يُعرف إذا لم يُتحدث عنه، ويُبيَّن للناس أمره؟!

٢ـ **أن القرآن الكريم مليءٌ بذكر القدر وتفاصيله**: والله ـعز وجلـ أمرنا بتدبر القرآن وعَقْلِه، كما في قوله ـتعالىـ: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ ص: ٢٩، وقوله: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ محمد: ٢٤.

فما الذي يخرج الآيات التي تتحدث في القدر عن هذا العموم؟!

٣ـ **أن الإيمان بالقدر ورد في أعظم حديث في الإسلام**: وهو حديث جبريل ـعليه السلامـ وكان ذلك في آخر حياة النبي ﷺ وقد قال ﷺ في آخر الحديث: «**فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**»[١].

(١) رواه مسلم (٨).

فمعرفته -إذاً- من الدين، وهي واجبة ولو على سبيل الإجمال.

٤- أن الصحابة سألوا النبي ﷺ عن أدق الأمور في القدر: كما جاء في حديث جابر في صحيح مسلم عندما جاء سراقة بن مالك بن جعشم إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله بيِّن لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، فيما العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت المقادير؟ أم فيما نستقبل؟

قال: «**لا، بل فيما جفت به الأقلام، وجرت المقادير**» قال: ففيم العمل؟ فقال: «**اعملوا فكل ميسر**».

وفي رواية «**كل عامل ميسر لعمله**»[1].

٥- أن الصحابة علَّموا تلاميذهم -من التابعين- ذلك: وسألوهم؛ ليختبروهم، وينظروا في فهمهم لهذا الباب، كما جاء في صحيح مسلم أن أبا الأسود الدؤلي قال: قال لي عمران بن الحصين: «أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قُضي عليهم، ومضى عليهم من قَدَرِ ما سبق؟ أو فيما يُستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟

فقلت: بل شيءٌ قُضي عليهم.

قال: فقال: أفلا يكون ظلماً؟

قال: ففزعت من ذلك فزعاً شديداً، قلت: كل شيء خلق الله، وملك يده، فلا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

---

(١) مسلم (٢٦٤٨).

فقال لي: يرحمك الله، إني لم أُرِدْ بما سألتك إلا لأَحْزُر[١] عقلك»[٢].

٦ـ أن أئمة السلف الصالح من العلماء كتبوا في هذا الباب: بل وأطنبوا فيه، فلو قلنا بمنع الحديث عن القدر لضللناهم، وسَفَّهْنَا أحلامهم.

٧ـ لو تركنا الحديث عن القدر لجهل الناس به: ولربما انفتح الباب لأهل البدعة والضلالة؛ ليروجوا باطلهم، ويَلبسوا على المسلمين دينهم.

٨ـ فوات العلم والخير: فلو تركنا الحديث عن القدر، وعن ثمراته لفاتنا علم غزير، وخير كثير.

فإن قيل: كيف نجمع بين هذا وبين ما ورد في ذم الخوض في القدر، كما في قوله ﷺ كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «**إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكر النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا**»[٣].

---

(١) الحَزْر: التقدير، والحَدْسُ، وإعمال الرأي، والمراد هنا: أني أردت أن أمتحن عقلَك، وأقدِّرَ ما وصلت إليه، وأعمل رأيي في معرفة مدى فهمك. انظر معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس، بتحقيق وضبط عبدالسلام هارون، طبعة دار الجيل، ط١، ١٤١١هـ، ٢/٥٥، ولسان العرب، لابن منظور الأفريقي، دار الفكر (ب ت) ٤/١٨٥ـ١٨٦، وصحيح مسلم بشرح النووي ١٦/١٩٩.

(٢) مسلم باب القدر (٢٦٥٠).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير، ط٢، ١٤٠٤هـ، ١٠/٢٤٣ (١٠٤٤٨) وأبو نعيم في حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت (ب ت) ٤/١٠٨، وقال أبو نعيم: «غريب من حديث الأعمش تفرد به عنه مسهر».

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ط٢، ١٤٠٢هـ ـ١٩٨٢م، دار الكتاب العربي، بيروت، ٧/٢٠٢: «وفيه مسهر بن عبدالملك وثقه ابن حبان وغيره وفيه خلاف وبقية رجاله رجال الصحيح». =

وكذلك ما ورد أن النبي ﷺ غضب غضباً شديداً، عندما خرج على أصحابه يوماً وهم يتنازعون في القدر، حتى احمرَّ وجهه، حتى كأنما فُقيء في وجنتيه حبُّ الرمان، فقال: «**أبهذا أمرتم؟ أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما أهلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر؛ عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه**»(١).

= وقال العراقي في المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، ٤١/١: «إسناده حسن».

وحسنه ابن حجر في الفتح ٤٨٦/١١، ورمز لحسنه السيوطي في الجامع الصغير فيض القدير ٣٤٨/١، وقال الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، أشرف عليه زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٦هـ، رقم(٥٤٥): «صحيح»

وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ: محمد ناصر الدين الألباني، ط٤، ١٤٠٥هـ، المكتب الإسلامي، ٤٢/١ (٣٤).

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للمباركفوري، دار الفكر، الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ، ٣٣٦/٦: «إسناده حسن».

وهذا الحديث جاء من حديث ثوبان ﷺ بلفظه عند الطبراني في الكبير ٩٦/٢ (١٤٢٧) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٠٢/٧: «وفيه يزيد بن ربيعة وهو ضعيف».

(١) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ من كتاب القدر باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر، (٢١٣٣) وقال: «وفي الباب عن عمر وعائشة وأنس، وهذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث صالح المري، وصالح المري له غرائب ينفرد بها لا يتابع عليها».

وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي، الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، (١٧٣٢ـ ٢٢٣١): «حسن».

وله شاهد من حديث عمر بن الخطاب ﷺ بلفظ: «لا تجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم».

أخرجه أحمد، ٣٠/١، وأبو داود في سننه، دار الدعوة، دار سحنون، ط٢ (٤٧١٠) و(٤٧٢٠) والحاكم، ٨٥/١.

فالجواب عن ذلك: أن النهي الوارد مُنْصَبٌّ على الأمور الآتية:

١ـ **الخوض في القدر بالباطل وبلا علم ولا دليل:** قال ـتعالى ـ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ الإسراء: ٣٦، وقال عن المجرمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ المدثر: ٤٢ـ٤٥.

٢ـ **الاعتماد في معرفة القدر على العقل البشري القاصر:** بعيداً عن هدي الكتاب والسنة؛ ذلك أن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ذلك على وجه التفصيل؛ لأن له حدوداً وطاقاتٍ يجب أن يقف عندها[١].

٣ـ **ترك التسليم والإذعان لله ـتعالى ـ في قدره:** ذلك لأن القدر غيب، والغيب مبناه على التسليم.

٤ـ **البحث عن الجانب الخفي في القدر:** الذي هو سر الله في خلقه، والذي لم يطَّلع عليه مَلَك مقرب، ولا نبي مرسل، وذلك مما تتقاصر العقول عن فهمه ومعرفته[٢].

٥ـ **الأسئلة الاعتراضية التي لا يجوز إيرادها:** كمن يقول مُتَعَنِّتاً: لماذا هدى الله فلاناً، وأضل فلاناً؟ ولماذا كلَّف الله الإنسان من بين سائر المخلوقات؟ ولماذا أغنى الله فلاناً، وأفقر فلاناً؟ وهكذا...

أما «من سأل مستفهماً فلا بأس به؛ فشفاء العي السؤال، أما من سأل متعنتاً

---

(١) انظر الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، لابن بطة العكبري، تحقيق ودراسة رضا بن نعسان معطي، ط٢، ١٤٠٩هـ، ١/٤٢١ـ٤٢٢.

(٢) انظر الدين الخالص، تأليف السيد محمد صديق حسن، مكتبة دار التراث، القاهرة، ٣/١٧١.

ـغير متفقه ولا متعلم ـ فهو الذي لا يحل قليلُ سؤاله ولا كثيرُهُ»[١].

٦ـ **التنازع في القدر**: الذي يؤدي إلى اختلاف الناس فيه، وافتراقهم في شأنه، فهذا مما نهينا عنه.

ولا يدخل في التنازعِ المذمومِ منازعةُ الفرق الضالة، وردُّ شبههم، ودحض حججهم؛ لأن في ذلك إحقاقاً للحق، وإبطالاً للباطل.

ومن هنا يتبين لنا أن النهي عن الحديث في القدر على إطلاقه غيرُ صحيح، وإنما النهي كان عن الأمور الآنفة الذكر.

أما البحث فيما يستطيع العقل البشري أن يجول فيه، ويفهمه من منطلق النصوص ـ كالبحث في مراتب القدر، وأقسام التقدير، وخلق أفعال العباد، إلى غير ذلك من مباحث القدر ـ فهذا ميسَّر واضح لا يمنع من البحث فيه، على أنه لا يستطيع كل أحد أن يفهمها على وجه التفصيل، إلا أن هناك من يعلمها ويكشف ما فيها.

ومما يؤيد ذلك ـ من أن النهي ليس على إطلاقه ـ أنه ورد في الحديثِ السابقِ، حديثِ ابن مسعود، مع الأمر بالإمساك عن القدر ـ الإمساكُ عن الصحابة.

والإمساكُ عن الصحابة إنما المقصودُ به الإمساكُ عما شجر بينهم، والكف عن ذكر مساوئهم، وتنقصهم، وثلبهم.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٢٦٢، وانظر الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة، لابن قتيبة، قدم له، وعلق عليه، وخرَّج أحاديثه عمر بن محمود أبو عمر، دار الراية للنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م، ص٣٥، وشرح السنة للإمام أبي محمد الحسن بن علي ابن خلف البربهاري، تحقيق: د. محمد بن سعيد القحطاني، دار ابن القيم، ط١، ١٤٠٨هـ، ص٣٦.

أما ذكر محاسنهم، والثناء عليهم فهذا أمر محمود بلا أي خلاف؛ فقد أثنى الله عليهم في القرآن الكريم، وزكاهم، وكذلك الرسول ﷺ.

ومما يؤيد ذلك -أيضاً- أن سبب غضب النبي ﷺ كما في الحديث السابق -حديث الترمذي- إنما هو بسبب تنازع الصحابة في القدر.

«وهذا يعني أن الكلام في القدر، أو البحث فيه بالمنهج العلمي الصحيح غير محرم أو منهي عنه، وإنما الذي نهى عنه الرسول ﷺ هو التنازع في القدر»[1].

وخلاصة القول في هذه المسألة: أن الحديث عن القدر لا يفتح بإطلاق، ولا يغلق بإطلاق؛ فإن كان الحديث بحق فلا يمنع ولا ينهى عنه، بل قد يجب، وإن كان بباطل فيمنع، وينهى عنه.

---

(١) القضاء والقدر في الإسلام، د. فاروق أحمد الدسوقي، المكتب الإسلامي، بيروت، مكتبة الخاني، ط٢، ١٤٠٦هـ، الرياض، ١/٣٦٨.



المبحث الأول

تعريف القضاء والقدر، والعلاقة بينهما

المطلب الأول: القضاء:

١ـ تعريف القضاء لغة: القضاء في اللغة مصدر الفعل قضى يقضي قضاءً.

قال ابن فارس[(١)] رحمه الله في مادة (قضى): «القاف، والضاد، والحرف المعتل ـ

---

(١) ابن فارس: هو أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب القزويني المعروف بالرازي، والمشهور بابن فارس، ولد في أوائل القرن الرابع الهجري، ولم يذكر أحد من أصحاب التراجم الأقدمين تاريخاً محدداً لميلاده، لكنه يدور حول ٣١٢هـ، أما وفاته فكانت سنة ٣٩٥هـ على الرأي الصحيح، كما رجح ذلك العلامة عبدالسلام هارون رحمه الله، ولد بقزوين، ونشأ بهمذان، وكان أكثر مقامه في الري، لكن رحل إلى بلاد كثيرة؛ لتلقي العلم.

وقد أخذ عن كثيرين، أما علومه فكانت متنوعة شاملة، لاسيما اللغة التي أتقنها، وأكثر من التأليف في فروعها، وشُهر بها، ودُعي بـ: اللغوي، وكان فقيهاً شافعياً، ويناصر مذهب مالك، أما طريقته في النحو فطريقة الكوفيين، وكان يحسن الشعر، وكان نقّادة فيه، وكان ذا عقلية جبارة، وموهبة فذّة مبتكرة، وقد شهد له بذلك كثير من القدامى والمحدثين.

وقد امتاز بأخلاق العلماء حقاً من ورع، وتواضع، وكرم، ولابن فارس مؤلفات عديدة كثيرة تزيد على الستين منها المجمل، والمقاييس، والصاحبي، وأصول الفقه، وأخلاق النبي ﷺ، وجامع التأويل في تفسير القرآن، وحلية الفقهاء.

انظر ترجمته في إنباه الرواة على أنباه النحاة، للوزير علي بن يوسف القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية القاهرة، ١٣٦٩هـ ـ١٩٥٠م، ٢٩/٢، ويتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، لأبي منصور عبدالملك بن إسماعيل الثعالبي، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، دار الفكر بيروت، ط٢، ١٩٧٣م ـ ١٣٩٢هـ، ٤٠٢/٣، ومعجم الأدباء، أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، لياقوت الحموي، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١١هـ ـ١٩٩١م، ٥٣٥/١ـ٥٤٥، =

أصل صحيح يدل على إحكام أمر، وإتقانه، وإنفاذه لجهته.

قال الله -تعالى-: ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ فصلت: ١٢.

أي أحكم خلقهن، ثم قال أبو ذؤيب الهذلي[١]:

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو نَسَجُ السوابغ تُبَّعُ[٢]»

والقضاء: هو الحكم، والصنع، والحتم، والبيان.

وأصله القطع، والفصل، وقضاء الشيء، وإحكامه، وإمضاؤه، والفراغ منه؛ فيكون بمعنى الخلق[٣].

=ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ابن خلكان، حققه إحسان عباد، دار صادر بيروت، ١١٨/١، ومقدمة معجم المقاييس لعبدالسلام هارون ٣/١-٣٧، ودراسات في المعاجم العربية، د.أمين فاخر، ط١، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، مطبعة حسان، ص٨٣، ومقدمة كتاب الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، لابن فارس، علق عليه ووضع حواشيه أحمد حسن بسج، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، ص٥-٩.

(١) هو خويلد بن خالد بن محرز بن زبيد بن أسد الهذلي، شاعر مجيد مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، قدم المدينة عند وفاة النبي ﷺ فأسلم وحسن إسلامه، له قصائد جياد، وشعره كله على نمط في الجودة وحسن السبك، قال ابن شبة: «تقدم أبو ذؤيب جميع شعراء هذيل بقصيدته العينية التي يرثي فيها بنيه»، توفي في غزو إفريقية مع ابن الزبير.

انظر الشعر والشعراء، لابن قتيبة، حققه وضبط نصه د.مفيد قميحه، وراجعه الأستاذ نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ص٤٣٥-٤٣٧، وانظر معجم الأدباء ٣٠٦/٣-٣٠٩.

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٩٩/٥.

(٣) انظر تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، شرحه ونشره السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، بيروت، ص٤٤١-٤٤٢، وانظر المفردات لغريب القرآن للراغب الأصفهاني ص٤٢٣، وانظر لسان العرب لابن منظور ١٨٦/١٥، والقاموس للفيروزأبادي ص١٧٠٨.

٢ـ إطلاقات القضاء في القرآن الكريم: يطلق لفظ القضاء في القرآن إطلاقات عديدة منها[١]:

أـ الوصية والأمر: قال الله ـتعالى ـ: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ الإسراء: ٢٣، أي أمر وأوصى.

بـ الإخبار: قال ـتعالى ـ: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ الإسراء: ٤.

جـ الفراغ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾ البقرة: ٢٠٠.

وقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ الصَّلاَةَ﴾ النساء: ١٠٣.

دـ الفعل: قال ـتعالى ـ: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ طه: ٧٢.

هـ الوجوب والحتم: قال ـتعالى ـ: ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ البقرة: ٢١٠.

وقال ـتعالى ـ: ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ يوسف: ٤١.

وـ الكتابة: قال ـتعالى ـ: ﴿وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً﴾ مريم: ٢١.

زـ الإتمام: قال ـتعالى ـ: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ﴾ القصص: ٢٩.

وقال ـتعالى ـ: ﴿أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ القصص: ٢٨.

---

(١) انظر ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن، لأبي عُمَر محمد بن عبدالواحد البغدادي الزاهد المعروف بغلام ثعلب، حققه وقدم له د.محمد بن يعقوب التركستاني، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢، ض٢٥٣، ص٣٠٦، ص٥٧٦، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٤٤١ـ٤٤٢ ومعجم مقاييس اللغة ٩٩/٥، والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ضبط هيثم طعيمي، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م، ص٤٢٣ـ٤٢٤، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم مجمع اللغة العربية، دار الشروق (ب ت) ص٥٠٩ـ٥١١، والوجوه والنظائر في القرآن الكريم، دراسة وموازنة د.سليمان بن صالح القرعاوي، مكتبة الرشد، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م، ص٥٢٩ـ٥٣٦.

ح- **الفصل**: قال -تعالى-: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ الزمر: ٦٩.

ط- **الخلق**: قال -تعالى-: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ فصلت: ١٢.

ي- **القتل**: قال -تعالى-: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ القصص: ١٥.

المطلب الثاني: القدر:

١- **القدر في اللغة**: «مصدر الفعل قَدِرَ يقْدَرُ قدَراً، وقد تسكن دالُه»[١].

قال ابن فارس رحمه الله في مادة (قدر): «قدر: القاف، والدال، والراء، أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه، ونهايته؛ فالقدْر مبلغ كل شيء، يقال: قَدْرُه كذا أي مبلغه، وكذلك القدَرُ، وقدَرْت الشيء أقدِره وأقدُره من التقدير»[٢].

والقدَر محركة: القضاء، والحكم، وهو ما يقدِّره الله -عز وجل- من القضاء، ويحكم به من الأمور.

والتقدير: التروية، والتفكير في التسوية أمر، والقَدَرُ كالقَدْر وجميعها جمعها: أقدار[٣].

والفرق بين القدر والتقدير - كما يقول أبو هلال العسكري[٤]- «أن التقدير

---

(١) النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير، تحقيق: طاهر الزواوي ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ٢٢/٤.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٦٢/٥، وانظر ياقوتة الصراط ص٥٧٦، والنهاية ٢٣/٤.

(٣) انظر لسان العرب ٧٢/٥، والقاموس المحيط، للفيروزأبادي، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٧هـ، ص٥٩١.

(٤) هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى، المعروف بأبي هلال العسكري. =

يُستعمل في أفعال العباد، ولا يُستعمل القدر إلا في أفعال الله -عز وجل-»[(١)].

٢- إطلاقات القدر في القرآن الكريم: يطلق القدر في القرآن عدة إطلاقات منها:

أ- التضييق: قال -تعالى-: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ الفجر: ١٦.

= وقد أجمعت التراجم المختلفة على ذلك، كما اتفق الذين ترجموا له أنه ينسب إلى مدينة (عسكر مُكْرَم) من أعمال الأهواز.

وأبو هلال فارسي الأصل، ومع كثرة مؤلفاته وحسن تصانيفه إلا أن المراجع التي تحدثت عنه لم تذكر السنة التي ولد فيها، ولا التي مات فيها على وجه التحديد والإجماع.

وبعض الذين ترجموا له استنتجوا أنه ولد سنة ٣١٠هـ على وجه التقريب، وأما وفاته فمنهم من قال: إنه توفي عام ٣٩٥هـ، وهم الأكثر، ومال القفطي إلى أنه عاش حتى بعد سنة ٤٠٠هـ.

ويعزى خمول ذكره - مع طول باعه واتساع علمه - إلى أسباب لعل جلَّها يعود إلى غلبة شهرة أستاذه أبي أحمد العسكري الذي يحمل الاسم ذاته، واسم الأب، والنسبة، مما أثر سلباً على التلميذ.

ولأبي هلال مؤلفات كثيرة في الحديث، والتفسير، والتاريخ، واللغة، والأدب.

ومنها: كتاب التلخيص، وجمهرة الأمثال، والأوائل، وديوان المعاني، والصناعتين، والفروق اللغوية، والمعجم في بقية الأشياء، ورسالة في العزلة والاستئناس بالوحدة، وكتاب الحث على طلب العلم، والاجتهاد في جمعه وغيرها من الكتب.

انظر معجم البلدان لياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان (ب ت) ٦/٣٢٨، ومعجم الأدباء لياقوت ٨/٢٣٣، والوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، مطبعة دار صادر، بيروت، ١٣٩٣هـ، ١٢/٢٨، ومقدمة كتاب الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه، لأبي هلال العسكري، تحقيق د.مروان قباني، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٦هـ -١٩٨٦م، ص٧-١١.

(١) الفروق في اللغة، لأبي هلال العسكري، حققه وعلق على حواشيه ووضع فهارسه جمال عبدالغني مدغمش، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، ص٣٢٨.

ب- **التعظيم**: قال -تعالى-: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الأنعام: ٩١.

ج- **الاستطاعة، والتغلب، والتمكن**: قال -تعالى-: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ المائدة: ٣٤.

د- **التدبير**: قال -تعالى-: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ المرسلات: ٢٣، أي دبَّرنا الأمور، أو أردنا وقوعها بحسب تدبيرنا.

هـ- **تحديد المقدار، أو الزمان، أو المكان**: قال -تعالى-: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ سبأ: ١٨، وقال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ فصلت: ١٠.

و- **الإرادة**: قال -تعالى-: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ القمر: ١٢، أي دبِّر، وأريد وقوعه.

ز- **القضاء والإحكام**: قال -تعالى-: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ الواقعة: ٦٠.

أي قضينا، وحكمنا.

ح- **التمهل والتَّروي في الإنجاز**: قال -تعالى-: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ المدثر: ١٨، أي تمهَّل، وتروَّى؛ ليتبين ما يقوله في القرآن.

وقال: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ سبأ: ١١.

أي تمهلْ، وتروَّ في السرد؛ كي تحكمه.

ط- **الصنع بمقادير معينة**: قال -تعالى-: ﴿قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً﴾ الإنسان: ١٦[1].

---

(١) انظر بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروزبادي، تحقيق الأستاذ محمد علي النجار، المكتبة العلمية بيروت، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة (ب ت) ٤/٢٤٣-٢٤٥، =

المطلب الثالث: العلاقة بين القضاء والقدر، وتعريفهما في الاصطلاح:

المسألة الأولى: العلاقة بين القضاء والقدر:

من خلال ما سبق من تعريف القضاء والقدر في اللغة وبيان إطلاقاتهما في القرآن يتبين مدى العلاقةِ بينهما، والعلاقةِ بين المدلول اللغوي والشرعي -كما سيأتي-.

فكلٌّ مِن القضاء والقدر يأتي بمعنى الآخر؛ فمعاني القضاء تؤول إلى إحكام الشيء، وإتقانه، ونحو ذلك من معاني القضاء.

ومعاني القدر تدور حول ذلك، وتعود إلى التقدير، والحكم، والخلق، والحتم، ونحو ذلك.

ولهذا سيكون التعريف الشرعي شاملاً للقضاء والقدر، ثم بعد ذلك يكون الحديث عن الفروق بينهما.

المسألة الثانية: القضاء والقدر في الاصطلاح الشرعي:

هناك بعض ممن تطرق لتعريف القضاء والقدر يُعَرِّفُه ببعض أفراده، أو بعمومه دون تفصيل، أو إشارة إلى مراتبه وأركانه.

فهذا الجرجاني[1] رحمه الله يعرف القدر فيقول:

=وياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن ص٥٧٦، والمفرادت في غريب القرآن ص٤١٠-٤١٣، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم لمجمع اللغة العربية ص٤٩٥-٤٩٦.

(١) هو علي بن محمد بن علي الجرجاني المعروف بالشريف (٧٤٠هـ -٨١٦هـ) فيلسوف من كبار العلماء بالعربية، ولد في تاكو قرب استراباد، ودرس في شيراز، ولما دخلها تيمور سنة ٧٨٩ خرج الجرجاني إلى سمرقند ثم عاد إلى شيراز بعد موت تيمور، فأقام إلى أن توفي. =

«القدر: خروج الممكنات من العدم إلى الوجود واحداً بعد واحد مطابقاً للقضاء.

والقضاء في الأزل، والقدر فيما لا يزال»[1]

وقال رحمه الله في تعريف القضاء: «القضاء لغة: الحكم.

وفي الاصطلاح: عبارة عن الحكم الكلي الإلهي في أعيان الموجودات على ما هي عليه من الأحوال الجارية في الأزل إلى الأبد[2]»[3].

وهذا التعريف صحيح، ولكن ينقصه الشمول، واستيعابُ جميعِ الأفراد؛ وهي مراتب القدر الأربع.

ويمكن أن يعرف القضاء والقدر بأحد التعريفات التالية:

أ- هو: «ما سبق به العلم، وجرى به القلم مما هو كائن إلى الأبد، وأنه -عز وجل- قدر مقادير الخلائق، وما يكون من الأشياء قبل أن تقع في الأزل، وعلم -سبحانه وتعالى- أنها ستقع في أوقات معلومة عنده -تعالى- وعلى صفات

=له نحو خمسين مصنفاً، منها التعريفات، وشرح مواقف الإيجي، وتحقيق الكليات، وغيرها. انظر الأعلام للزركلي ٥/١٥٩-١٦٠.

(١) التعريفات، للجرجاني، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ١٤١٦هـ-١٩٥٥م، ص١٧٤.

(٢) الأزل: هو الشيء الذي لا بداية له، والأبد: هو الشيء الذي لا نهاية له.

أو يقال: الأزل: هو استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية من جانب الماضي، والأبد: هو استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية من جانب المستقبل. انظر التعريفات للجرجاني ص٧.

(٣) التعريفات للجرجاني ص١٧٧.

مخصوصة؛ فهي تقع على حسب ما قدرها»[١].

ب- وعُرِّف بأنه: تقدير الله للكائنات حسبما سبق به علمُه، واقتضته حكمته[٢].

وهو تعريف مختصر لطيف.

ج- هو تقدير الله -تعالى- للأشياء في القِدَم، وعلمه -سبحانه- أنها ستقع في أوقات معلومة وعلى صفات مخصوصة، وكتابته لذلك، ومشيئته له، ووقوعها على حسب ما قدرها، وخلقه لها.[٣]

وهذا التعريف من أجمع التعاريف، وأشملها.

د- ويمكن أن يعرف القضاء والقدر تعريفاً مختصراً جامعاً لمراتبه فيقال:

هو علم الله بالأشياء، وكتابته، ومشيئته، وخلقه لها.

المسألة الثالثة: الفروق بين القضاء والقدر:

اختلف العلماء في ذلك على أقوال، وفيما يلي ذكر لشيء من ذلك:

١- قيل: «المراد بالقدر: التقدير، وبالقضاء: الخلق كقوله -تعالى-:

---

(١) هذا تعريف السفاريني رحمه الله انظر لوامع الأنوار البهية، وسواطع الأسرار الأثرية، شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية، تأليف العلامة محمد بن أحمد السفاريني، المكتب الإسلامي، بيروت، مكتبة أسامة، الرياض، ط٢، ١٤٠٥هـ، ٣٤٨/١.

(٢) هذا تعريف الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله انظر كتابه رسائل في العقيدة، دار طيبة، الرياض، ط٢، ١٤٠٦هـ، ص٣٧.

(٣) هذا تعريف الدكتور عبدالرحمن المحمود. انظر كتابيه: القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة، ومذاهب الناس فيه، دار الوطن، ط٢، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، ص٣٩ وموقف ابن تيمية من الأشاعرة، مكتبة الرشد، الرياض ط٢، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م، ١٣١٠/٣.

﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ فصلت: ١٢، أي خلقهن.

فالقضاء والقدر أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء؛ فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه»[(١)].

وقال الراغب الأصفهاني[(٢)] رحمه الله: «والقضاء من الله أخص من القدر؛ لأنه الفصل بين التقدير؛ فالقدر هو التقدير، والقضاء هو الفصل والقطع.

وقد ذكر بعض العلماء أن القدر بمنزلة المُعَدِّ للكيل، والقضاء بمنزلة الكيل»[(٣)].

٢ـ وقيل العكس؛ فالقضاءُ هو العلم السابق الذي حكم الله به في الأزل، والقدرُ هو وقوع الخلق على وزن الأمر المقضي السابق[(٤)].

قال الجرجاني رحمه الله: «والفرق بين القدر والقضاء هو أن القضاء وجود جميع

---

(١) لسان العرب ١٨٦/٥، والنهاية ٧٨/٤، وانظر الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري ص٣٢٨.

(٢) هو أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني أو الأصبهاني، أديب حكيم، وصاحب تصانيف منها: المفردات في غريب القرآن، وكتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة، ومحاضرات الأدباء، وجامع التفاسير، وأفانين البلاغة، توفي سنة ٥٠٢هـ. انظر سير أعلام النبلاء، للإمام الذهبي، مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ٢٠/١٨، وكشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى عبدالله القسطنطي المعروف بحاجي خليفة، دار الفكر، ١٤٠٢هـ، ٣٦/١، والأعلام للزركلي ٢٥٥/٢.

(٣) المفردات ص٤٢٣-٤٢٤، وانظر بصائر ذوي التمييز ٢٧٨/٤.

(٤) انظر القضاء والقدر، د. عمر الأشقر، دار النفائس للنشر والتوزيع، الكويت، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٠هـ، ص٢٧.

الموجودات في اللوح المحفوظ مجتمعة، والقدر وجودها متفرقة في الأعيان بعد حصول شرائطها»[1].

وقال مثل ذلك عند تعريفه للقضاء والقدر -كما مر-.

٣- أنه لا فرق بين القضاء والقدر؛ فكل واحد منهما بمعنى الآخر؛ فإذا أطلق التعريف على أحدهما شمل الآخر؛ ويعبر عن كل واحد منهما كما يعبر عن الآخر؛ فهما -بهذا الاعتبار- مترادفان؛ فيقال: هذا قدر الله، ويقال: هذا قضاء الله، ويقال: هذا قضاء الله وقدره[2].

ولعل الأقرب -والله أعلم- أنهما إذا اجتمعا افترقا؛ بحيث يصبح لكل واحد منهما مدلول بحسب ما سبق في الأقوال السابقة.

وإذا افترقا اجتمعا؛ بحيث إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر[3].

وبالجملة فالأمر يسير، والخلاف فيها لا يترتب عليه شيء.

---

(١) التعريفات ص١٧٤.

(٢) انظر القضاء والقدر د.عبدالرحمن المحمود ص٤١.

(٣) انظر الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جمع الشيخ عبدالرحمن ابن قاسم، ط٥، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، ١/٥١٢-٥١٣.



المبحث الثاني

أدلة الإيمان بالقضاء والقدر

دلَّ على هذا الركن العظيم من أركان الإيمان ـ الكتابُ، والسنةُ، والإجماعُ، والفطرةُ، والعقلُ، والحسُّ.

المطلب الأول: الأدلة من القرآن الكريم: الأدلة من القرآن الكريم على الإيمان بالقضاء والقدر كثيرة جداً منها:

١ـ قوله ـتعالىـ: ﴿وكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾ الأحزاب: ٣٨.

ومعنى هذه الآية: أن الله ـعز وجلـ قدَّر أن يخلق خلقاً، ويأمرهم وينهاهم، ويجعل ثواباً لأهل طاعته، وعقاباً لأهل معصيته، فلما قدَّره كتب ذلك وغيَّبه، فسماه الغيب وأم الكتاب، وخلق الخلق على ذلك الكتاب: أرزاقهم، وآجالهم، وأعمالهم، وما يصيبهم من الأشياء من الرخاء والشدة، فكان أمر الله الذي مضى، وفرغ منه، وخلق الخلق عليه قدراً مقدوراً[(١)].

٢ـ قوله ـتعالىـ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ القمر: ٤٩.

ومعنى الآية: أن الله ـسبحانهـ قدر الأشياء، أي علم مقاديرها وأحوالها، وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجده على نحو ما سبق في علمه؛ فلا يحدث حدث في العالم العلوي والسفلي إلا وهو صادر عن علمه

---

(١) انظر تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت ١٤٠٥هـ، ١٢/١٥.

-تعالى- وقدرته، وإرادته[١].

٣- قوله -تعالى-: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ الحجر: ٢١.

وهذا عام في كل شيء، وذهب قوم من المفسرين إلى أن المراد به المطر خاصة[٢].

٤- وقوله -تعالى-: ﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ، فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ المرسلات: ٢٢-٢٣.

٥- قوله -تعالى-: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ طه: ٤٠.

٦- قوله -تعالى-: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ الفرقان: ٢.

٧- قوله -تعالى-: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ عبس: ١٩.

٨- قوله -تعالى-: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ الأعلى: ٣.

٩- قوله -تعالى-: ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ الأنفال: ٤٢.

١٠- قوله -تعالى-: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ الإسراء: ٤.

المطلب الثاني: الأدلة من السنة: لقد تظافرت الأدلة من السنة المطهرة على الإيمان بالقضاء والقدر، ومنها:

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، عام ١٩٦٦م، ١٤٨/١٧.

(٢) انظر زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، المكتب الإسلامي، ط٤، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، ٣٩٢/٤.

١ـ قال ﷺ كما في حديث جبريل ـ عليه السلام ـ: «**وتؤمن بالقدر خيره وشره**»[(١)].

٢ـ عن جابر بن عبدالله ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن عبدٌ حتى يؤمن بالقدر خيره وشره من الله، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه**»[(٢)].

٣ـ روى مسلم في الصحيح عن طاووس[(٣)] قال: «أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر، قال: وسمعت عبدالله ابن عمر يقول: كل شيء بقدر حتى العجز والكَيْس، أو الكيس والعجز»[(٤)].

٤ـ قال ﷺ: «**وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَرُ اللهِ وما شاء فعل**»[(٥)].

---

(١) رواه مسلم(٨).

(٢) رواه الترمذي (٢١٤٤) وقال: «وهذا حديث لا نعرفه إلا من حديث عبدالله بن ميمون، وعبدالله بن ميمون منكر الحديث، ولكن الحديث له شواهد تؤيده»، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٧٢٣) وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٤٣٩).

(٣) هو طاووس بن كيسان الفقيه القدوة عالم اليمن أبو عبدالرحمن الفارسي ثم اليمني الجندي، الحافظ، سمع من زيد بن ثابت وعائشة وأبي هريرة وزيد بن أرقم وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ ولازم ابن عباس مدة، وهو معدود في كبراء أصحابه، روى عنه عطاء ومجاهد وجماعة من أقرانه، توفي سنة ١٠٦هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٥/٣٨ـ٤٩.

(٤) مسلم (٢٦٥٥) ورواه مالك في الموطأ، محمد عبدالباقي، دار الحديث (ب ت) ٢/٨٧٩، ورواه أحمد في المسند، تحقيق: أحمد شاكر ٨/١٥٢ (٥٨٩٣).

(٥) رواه مسلم (٢٦٦٤).

هذا وسيمر بنا في تضاعيف البحث أدلة كثيرة من الكتاب والسنة زيادةً على ما مضى.

المطلب الثالث: الإجماع: فقد أجمع المسلمون على وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره من الله، قال النووي[(١)] رحمه الله: «وقد تظاهرت الأدلة القطعيات من الكتاب، والسنة، وإجماع الصحابة، وأهل الحل والعقد من السلف والخلف ـ على إثبات قدر الله ـ سبحانه وتعالى ـ»[(٢)].

وقال ابن حجر[(٣)] رحمه الله: «ومذهب السلف قاطبة أن الأمور كلها بتقدير الله

---

(١) النووي: هو الشيخ الإمام يحيى بن شرف بن حسن بن حسين بن حزام الحازمي العالم محيي الدين أبو زكريا النووي ثم الدمشقي الشافعي شيخ المذهب وكبير الفقهاء في زمانه ولد سنة ٦٣١هـ، وتوفي سنة ٦٧٦هـ، كان لا يضيع شيئاً من أوقاته، وكان يقرأ في كل يوم اثني عشر درساً على المشايخ، ثم اعتنى بالتصنيف، فجمع شيئاً كثيراً، منها ما أكمله ومنها ما لم يكمله، فمما أكمله شرح مسلم، والروضة، والمنهاج، ورياض الصالحين، والأذكار، وتهذيب الأسماء واللغات، ومما لم يتمه «المهذب» الذي سماه المجموع، وصل فيه إلى باب الربا، فأبدع وأجاد وأحسن الانتقاد ـ كما يقول ابن كثير رحمه الله ـ كان صواماً زاهداً أماراً بالمعروف نهَّاءً عن المنكر. انظر البداية والنهاية لابن كثير، تحقيق أحمد عبدالوهاب فتيح، دار زمزم، الرياض ١٤١٤هـ، وط دار الكتب العلمية، ط٣، ١٤٠٧هـ، تحقيق أحمد أبو ملحم وزملائه، ٢٩٤/١٣.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ١٥٥/١.

(٣) هو الحافظ العلامة أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، توفي سنة ٨٢٥هـ، له المصنفات البارعة أشهرها فتح الباري شرح صحيح البخاري، ولسان الميزان، والتقريب، وغيرها. انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ٢٧١/٧، و البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للشوكاني، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت، ٧٨/١.

ـتعالى ـ»[(١)].

المطلب الرابع: دلالة الفطرة: فالفطرة تدل على اتصاف الله ـعز وجل ـ بالقدرة، والعلم، والخلق، والمشيئة.

والقدر لم ينكره إلا الشواذُّ من المشركين من الأمم، ولم يقع الخطأ في نفي القدر وإنكاره، وإنما وقع في فهمه على الوجه الصحيح؛ ولهذا قال ـسبحانه ـ عن المشركين: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا﴾ الأنعام: ١٤٨[(٢)].

فهم أثبتوا المشيئة لله، لكنهم احتجوا بها على الشرك، ثم بيَّن ـسبحانه ـ أن هذا هو شأنُ من كان قبلهم، فقال: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الأنعام: ١٤٨.

وكانت العرب في الجاهلية تعرف القدر ولا تنكره، ولم يكن هناك من يرى أن الأمر مستأنف.

وهذا ما نجده مبثوثاً في أشعارهم كما مر في المقدمة، وكما في قول عنترة:

يا عبلُ أين من المنية مهربي … إن كان ربي في السماء قضاها[(٣)]

وكما في قول طرفة بن العبد:

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر العسقلاني، مكتبة ابن تيمية، ط١، ١٤٠٧هـ، ٢٨٧/١١ وانظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ٥٣٤/٣ـ٥٣٨ حيث نقل الإجماع على ذلك عن جمع غفير من السلف، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد، ٤٥٩/٨، ٤٥٢، ٤٤٩.

(٢) انظر جامع البيان لابن جرير ٧٩/٥.

(٣) ديوان عنترة، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٩٨هـ، ص٧٤.

فلو شاء ربي كنت قيسَ بن خالدٍ ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد[١]

وقول سويد بن أبي كاهل[٢]:

كتب الرحمنُ والحمد له سَعَةَ الأخلاقِ فينا والضَّلَعْ[٣]

وقول المثَقِّب العبدي[٤]:

فأيقنت إن شاء الإله بأنه سَيَبْلُغني أجلادُها وقصيدُها[٥]

وقول زهير:

فلا تَكْتُمَنَّ اللهَ ما في نفوسكم ليخفى ومهما يُكْتَمِ اللهُ يَعْلَمِ

يُؤَخَّرْ فيُوضَعْ في كتاب فَيُدَّخَرْ ليوم الحساب أو يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ[٦]

---

(١) شرح المعلقات العشر، للزوزني، ص١١٩.

(٢) هو سويد بن حارثة بن حسل بن مالك بن عبد سعد بن جشم بن ذبيان بن كنانة بن يشكر ابن بكر بن وائل بن قاسط، شاعر مقدم مخضرم، عاش في الجاهلية دهراً، وعُمِّر في الإسلام عمُراً طويلاً، عاش إلى ما بعد سنة ٦٠هـ، قرنه أبو عبيد بطرفة بن العبد، والحارث بن حِلِّزة، وعمرو بن كلثوم، وكان أبوه شاعراً. انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٢٧٠-٢٧١، والمفضليات، للمفضل بن محمد الضبي، تحقيق أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٦، ص١٩٠.

(٣) المفضليات للمفضل الضبي ص١٩٧.

(٤) هو عائذ الله بن حصن بن ثعلبة بن وائلة بن عدي بن عوف بن دهن بن عذرة بن منبه بن نكرة ابن لكيز بن أفصى بن عبدالقيس بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار، شاعر فحل قديم جاهلي، سُمِّي المُثقب لقوله في قصيدة له:

ظهرن بكلة وسدلن رقماً وثقّبن الوصاوص للعيون

والوصاوص: البراقع. انظر المفضليات تحقيق وشرح أحمد شاكر وعبدالسلام هارون ص١٤٩.

(٥) المفضليات ص١٥١.

(٦) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، ص٢٥.

كما نجد ذلك ـ أيضاً ـ في خطبهم، كما في قول هانئ بن مسعود الشيباني[١] في خطبته المشهورة في يوم ذي قار: «إنَّ الحذر لا يُنجي من القدر»[٢].

ولم يقل أحد منهم بنفيه إطلاقاً، كما صرح بذلك أحد كبار علماء العربية، وهو أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب[٣] رحمه الله بقوله: «لا أعلم عربياً قدرياً، قيل له: يقع في قلوب العرب القول بالقدر؟ قال: معاذ الله، ما في العرب إلا مثبت القدر خيره وشره أهل الجاهلية والإسلام، وكلامهم كثير بيِّن، ثم أنشد:

تجري المقادير على غرز الإبر ... ما تنفذ الإبرة إلا بقدر

قال: وأنشد لامرئ القيس:

إن الشقاء على الأشقين مكتوب»[٤].

وقال لبيد:

إن تقوى ربِّنا خير نفل ... وبإذن الله ريثي وعجلْ

---

(١) هو هانئ بن مسعود بن عمرو الشيباني، من سادات العرب، وأبطالهم في الجاهلية، ويوم ذي قار هو الذي هاج فيه القتال بين بني بكر وبين بني تميم وضبة والرباب، وهو أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم، وللشعراء قصائد كثيرة في وصف هذا اليوم. انظر الأعلام ٩/٥٢ـ٥٣.

(٢) الأمالي، لأبي الفداء علي القالي، منشورات المكتب الإسلامي (ب ت) ١/١٧١، و جمهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوت، البابي الحلبي، ط٢، ١٣٨١هـ ـ ١٩٦٢م، ١/٣٧ و تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، دار الثقافة العربية، بيروت، لبنان (ب ت) ص٣٣.

(٣) هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني بالولاء المشهور بثعلب، إمام الكوفيين في اللغة والنحو، كان مشهوراً بالحفظ وصدق اللهجة، وكان ثقة حجة، له مصنفات منها: الفصيح المعروف بفصيح ثعلب، ومعاني القرآن، توفي سنة ٢١٩هـ. انظر الأعلام للزركلي ١/٦٢٧.

(٤) انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي، ٣/٥٣٨، وانظر ٤/٧٠٤ـ٧٠٥ من الكتاب نفسه.

أحمد الله فلا ندَّ له ... بيديه الخير ما شاء فعل

من هداه سبلَ الخير اهتدى ... ناعمَ البال ومن شاء أضل[(١)]

وقال كعب بن سعد الغنوي[(٢)]:

ألم تعلمي ألا يراخي منيتي ... قعودي ولا يدني الوفاة رحيلي

مع القدرِ الموقوفِ حتى يصيبني ... حِمامي لو آنَّ النفسَ غيرُ عجولِ[(٣)]

المطلب الخامس: دلالة العقل: أما دلالة العقل فهي أن العقل الصحيح يقطع بأن الله هو خالق هذا الكون، ومدبره، ومالكه، ولا يمكن أن يوجد على هذا النظام البديع، والتناسق المتآلف، والارتباط الملتحم بين الأسباب والمسببات هكذا صدفة؛ إذ الموجود صدفة ليس له نظام في أصل وجوده، فكيف يكون منتظماً حال بقائه وتطوره؟

فإذا تقرر عقلاً أن الله هو الخالق لزم ألا يقع شيء في ملكه إلا ما قد شاءه وقدَّره[(٤)].

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي، ٤/٧٠٥، وانظر شعر لبيد بن ربيعة بين جاهليته وإسلامه، د. زكريا عبدالرحمن صيام، مطابع دار الشعب بالقاهرة، ١٣٩٦هـ، ص٩٥.

(٢) هو كعب بن سعد بن عمر بن عقبة بن عوف بن رفاعة الغنوي، يُقال له: كعب الأمثال؛ لكثرة ما في شعره من الأمثال، قيل: إنه شاعر إسلامي، والظاهر أنه تابعي. انظر الأصمعيات، لأبي سعيد الأصمعي عبدالملك بن قريب، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام محمد هارون، بيروت، لبنان، ط٥، ص٧٣.

(٣) الأصمعيات، للأصمعي عبدالملك بن قريب ص٧٤.

(٤) انظر الرياض الناضرة، والحدائق الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة، تأليف الشيخ عبدالرحمن بن سعدي، مؤسسة قرطبة، صححه واعتنى به وعلق عليه: أشرف بن عبدالمقصود ابن عبدالرحيم، ص١٩٤، ورسائل في العقيدة للشيخ محمد بن عثيمين ص١١-١٥.

ومما يدل على هذا التقرير قوله -تعالى-: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ الطلاق: ١٢.

ثم إن تفاصيل القدر لا ينكرها العقل، بل هي مما يتفق معه تمام الاتفاق، كما سيمر بنا قريباً.

المطلب السادس: دلالة الحس: فنحن نشاهد، ونسمع، ونقرأ أن الناس تستقيم أمورهم بالإيمان بالقضاء والقدر، وسيمر شيء من ذلك عند الحديث عن ثمرات الإيمان بالقدر، فالمؤمنون به على الوجه الصحيح هم أسعد الناس، وأصبرهم، وأشجعهم، وأكرمهم، وأكملهم، وأعقلهم.

ولو لم يكن الإيمان بالقدر حقاً لما حصل لهم ذلك.

ثم إن القدر «هو نظام التوحيد»[١] كما قال ابن عباس -رضي الله عنهما- والتوحيد هو نظام الحياة، فلا تستقيم حياة الناس استقامة حقيقية إلا بالتوحيد، والتوحيد لا يستقيم إلا بالإيمان بالقضاء والقدر.

ثم إن فيما أخبرنا الله ورسوله ﷺ من أمور الغيب المستقبلية التي وقعت -كما جاء في الخبر- دليلاً حسيًّا واضحاً على أن الإيمان بالقدر حق وصدق[٢].

---

(١) أخرجه الفريابي في كتاب القدر، تحقيق عمرو عبدالمنعم سليم، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ص١٥٩-١٦٠، وانظر مجموع الفتاوى ٣/١١٣.

(٢) انظر الشيخ عبدالرحمن بن سعدي وجهوده في العقيدة د. عبدالرزاق البدر ص٧٢-٧٣.



المبحث الثالث

مراتب القدر وأقسامه

المطلب الأول: مراتب القدر:

الإيمان بالقدر يقوم على أربعة أركان تُسمى مراتب القدر أو أركانه، وهي المدخل لفهم باب القدر، ولا يتم الإيمان به إلا بتحقيقها كلها؛ فبعضها مرتبط ببعض، فمن أقر بها جميعاً اكتمل إيمانه بالقدر، ومن انتقص واحداً منها أو أكثر اختل إيمانه بالقدر، وهذه الأركان هي:

١ـ العلم. ٢ـ الكتابة.

٣ـ المشيئة. ٤ـ الخلق.

وقد نظمها بعضهم بقوله:

عِلْمٌ كِتابةُ مولانا مشيئَتُهُ وخَلْقُهُ وهو إيجادٌ وتكوينُ

المرتبة الأولى: العلم: وهو الإيمان بأن الله عالم بكل شيء جملة وتفصيلاً، أزلاً، وأبداً، سواء كان ذلك مما يتعلق بأفعاله، أو بأفعال عباده؛ فعلمه محيط بما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

ويعلم الموجود، والمعدوم، والممكن، والمستحيل، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض.

وقد عَلِمَ جميع خلقه قبل أن يخلقهم، فعلم أرزاقهم، وآجالهم، وأقوالهم، وأعمالهم، وجميع حركاتهم، وسكناتهم، وأهل الجنة، وأهل النار.

وهذه المرتبة -وهي العلم السابق- اتفق عليها الرسل من أولهم إلى آخرهم، واتفق عليها جميع الصحابة، ومن تبعهم من هذه الأمة، وخالفهم مجوسُ هذه الأمة -القدرية الغلاة-[(١)].

والأدلة على هذه المرتبة من القرآن الكريم والسنة المطهرة كثيرة جداً منها:

١- قال -تعالى-: ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ طه:٧.

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: «السر ما حدث بين العبد وغيره في خفاء، وأخفى منه ما أضمره العبد في نفسه مما لم يحدِّث به غيره»[(٢)].

وقيل: السر ما أضمره العبد في نفسه، وأخفى منه ما لم يَكُنْ، ولا أضمره لأحد[(٣)].

٢- قوله -عز وجل-: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ الحشر: ٢٢.

أي عالم ما غاب من الإحساس وما حضر، وقيل: عالم السر والعلانية، وقيل: ما كان وما يكون، وقيل: الآخرة والدنيا.

وقدم الغيب على الشهادة؛ لكونه متقدماً وجوداً[(٤)].

---

(١) انظر شفاء العليل ص٦١.

(٢) أحكام القرآن، لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، ضبط نصه عبدالسلام محمد علي شاهين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ٣/٢٨٧.

(٣) قال بهذا القول سعيد بن جبير وقتادة. انظر أحكام القرآن للجصاص ٣/٢٨٧.

(٤) انظر فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، للإمام محمد بن علي الشوكاني، عالم الكتب، وطبعة دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، تحقيق عبدالرزاق المهدي، ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، ٥/٢٥١.

٣ـ قوله ـعز وجلـ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ٣٠.

قيل: إنه علم من إبليس المعصية وخلقه لها[١].

وقيل: كان علمه أنه سيكون من تلك الخليقة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة[٢].

٤ـ قوله ـتعالىـ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ الجاثية: ٢٣.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «علم ما يكون قبل أن يخلقه.

وقال ـأيضاًـ: على علم قد سبق عنده.

وقال ـأيضاًـ: يريد الأمر الذي سبق له في أم الكتاب»[٣].

٥ـ قوله ـتعالىـ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ الأنعام: ٢٨.

فهذا إضلال ناشئ عن علم الله السابق في عبده أنه لا يصلح للهدى، ولا يليق به، وأن محله غير قابل له؛ فالله أعلم حيث يضع هداه وتوفيقه كما هو أعلم حيث يجعل رسالته[٤].

---

(١) هذا القول لمجاهد بن جبر. انظر زاد المسير لابن الجوزي ١/٦٠، وشفاء العليل ص٦١.

(٣) هذا القول لقتادة بن دعامة السدوسي. انظر زاد المسير ١/٦٠، وشفاء العليل ص٦١.

(٣) انظر شفاء العليل ص٦٢.

(٤) انظر شفاء العليل ص٦٥.

والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً، ومنها:

قوله -تعالى-: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ الأنعام: ٥٩.

وقوله -تعالى-: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ التوبة: ٤٧.

وقوله -تعالى-: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ الأنفال: ٣٢.

وأما من السنة فمن ذلك ما يلي:

١- روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: سُئل النبي ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**»[١].

قال ابن حجر رحمه الله في شرح الحديث: «قال ابن قتيبة[٢]: معنى قوله: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**»: أي لو أبقاهم؛ فلا تحكموا عليهم بشيء.

وقال غيره: أي علم أنهم لا يعملون شيئاً، ولا يرجعون فيعملون، أو أَخْبَرَ بعلم شيء لو وجد كيف يكون مثل قوله: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا ﴾[٣].

---

(١) البخاري (٦٥٩٧).

(٢) هو أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، خطيب أهل السنة، من أئمة العلم والأدب، ومن المصنفين المكثرين، ولي قضاء الدينور مدة، فنُسب إليها، وتوفي ببغداد سنة ٢٧٦هـ، ومن كتبه: تأويل مختلف الحديث، وتأويل مشكل القرآن، وأدب الكاتب، والشعر والشعراء، وعيون الأخبار، والمعارف. انظر وفيات الأعيان ١/٢٥١، والأعلام ٤/١٣٧.

(٣) فتح الباري ٣/٢٤٧.

٢ـ قال ﷺ: «ما منكم من نفس إلا وقد عُلم منزلها من الجنة والنار»[١].

المرتبة الثانية: الكتابة: وهي الإيمان بأن الله كتب ما سبق به علمه من مقادير الخلائق إلى يوم القيامة في اللوح المحفوظ.

وقد أجمع الصحابة، والتابعون، وجميع أهل السنة والحديث على أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب[٢] التي هي اللوح المحفوظ، والذكر، والإمام المبين، والكتاب المبين.

والأدلة على هذه المرتبة كثيرة من الكتاب والسنة منها:

١ـ قال ـتعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ الحج: ٧٠.

فما كتبه الله ـعز وجل ـ وأثبته عنده كان في علمه قبل أن يكتبه، ثم كتبه كما في علمه، ثم وُجِدَ كما كتبه ـعز وجل ـ[٣].

٢ـ قوله ـتعالى ـ: ﴿وكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ يس: ١٢.

قوله: ﴿وكُلَّ شَيْءٍ﴾ أي من الأعمال والنيات وغيرها.

﴿أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ أي في كتاب هو أم الكتاب، وإليه مرجع الكتب التي تكون بأيدي الملائكة، وهو اللوح المحفوظ[٤].

٣ـ قوله: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ التوبة: ٥١.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٤٧).

(٢) انظر شفاء العليل ص٨٩.

(٣) انظر شفاء العليل ص٧٤.

(٤) انظر شفاء العليل ص٨٦، وتفسير السعدي ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ـ ٦/٣٣٧.

أي ما قدره الله، وأجراه في اللوح المحفوظ[1].

٤ـ قال ـسبحانه- عن موسى ـعليه السلام- دعاءه: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ الأعراف: ١٥٦.

أي من علم نافع، ورزق واسع، وعمل صالح[2].

٥ـ وقال ـتعالى- عن محاجة موسى ـعليه الصلاة والسلام- لفرعون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى، قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾ طه: ٥١-٥٢.

أي قد أحصى أعمالهم من خير وشر، وكتبه في كتابه، وهو اللوح المحفوظ، وأحاط به علماً وخُبْراً؛ فلا يضل عن شيء منها، ولا ينسى ما علمه منها[3].

٦ـ وقال ـعز وجل-: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ﴾ الأنبياء: ١٠٥.

أي كتبنا في الكتاب المزبور، والمراد: الكتب المنزلة كالتوراة ونحوها «من بعد الذكر» أي كتبناه في الكتب المنزلة بعدما كتبنا في الكتاب السابق، وهو اللوح المحفوظ، وأم الكتاب الذي توافقه جميع التقادير المتأخرة عنه[4].

---

(١) انظر تفسير السعدي ٣/٢٤٦.

(٢) انظر فتح القدير ٢/٣٠٦، وتفسير السعدي ٣/٩٨.

(٣) انظر تفسير السعدي ٥/١٦٣.

(٤) انظر شفاء العليل ص٨٤، والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، دار الفكر، ط١، ١٤٠٣هـ، وطبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ٤/٦١١-٦١٣، وتفسير السعدي ٥/٢٦٦-٢٦٧.

٧ـ وقال ـتعالى ـ: ﴿لَوْلا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الأنفال: ٦٨.

أي سبق به القضاء والقدر أنه قد أحل لكم الغنائم، وأن الله قد رفع عنكم ـأيتها الأمةـ العذاب «لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم»[١].

وأما السنة فمن ذلك ما يلي:

١ـ روى مسلم في صحيحه عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـرضي الله عنهماـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء**»[٢].

قال النووي رحمه الله: «قال العلماء: المراد تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ أو غيره لا أصل التقدير؛ فإن ذلك أزلي لا أول له».

وقوله: «وعرشه **على** الماء»: أي قبل خلق السموات والأرض والله أعلم»[٣].

٢ـ قال النبي ﷺ: «**ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة أو النار، إلا وقد كتبت شقية أو سعيدة**»[٤].

المرتبة الثالثة: المشيئة: وهذه المرتبة تقتضي الإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة، ولا سكون، ولا

---

(١) انظر تفسير السعدي ٢/١٩٠ـ١٩١.

(٢) مسلم (٢٦٥٣).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/٢٠٣.

(٤) رواه البخاري (١٣٦٢ و ٤٩٤٥ و ٤٩٤٦ و ٦٢١٧ و ٧٥٥٢) ومسلم (٢٦٤٧).

هداية، ولا إضلال إلا بمشيئته.

«وهذه المرتبة قد دل عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم، وجميع الكتب المنزلة من عند الله، والفطرة التي فطر الله عليها خلقه، وأدلة العقل والبيان»[١].

والنصوص الدالة على هذا الأصل كثيرة جداً من الكتاب والسنة، منها:

١ـ قوله ـتعالىـ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ القصص: ٦٨.

في هذه الآية دليل على عموم خلقه ـتعالىـ لسائر المخلوقات، ونفوذ مشيئته بجميع البريات، وانفراده ـعز وجلـ باختيار من يختاره ويختصه من الأشخاص، والأوامر، والأزمان، والأماكن، وأن أحداً ليس له من الأمر والاختيار شيء[٢].

٢ـ قوله ـتعالىـ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ التكوير: ٢٩.

٣ـ قوله ـتعالىـ: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً، إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ الكهف: ٢٣ـ٢٤.

٤ـ قوله ـتعالىـ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمْ الْمَلائِكَةَ وكَلَّمَهُمْ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ الله﴾ الأنعام: ١١١.

٥ـ قوله ـتعالىـ: ﴿مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الأنعام: ٣٩.

---

(١) شفاء العليل ص٩٢.

(٢) انظر شفاء العليل ص٦٦، وتفسير السعدي ٥٢/٦.

ومن الأدلة من السنة ما يلي:

١ـ قال ﷺ: «**إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يُصَرِّفه حيث يشاء**»(١).

٢ـ وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا جاءه السائل، أو طلبت إليه حاجة ـ قال: «**اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء**»(٢).

ومشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة يجتمعان فيما كان، وما سيكون، ويفترقان فيما لم يكن، ولا هو كائن، فما شاء الله كونه فهو كائن بقدرته لا محالة، وما لم يشأ كونه فإنه لا يكون؛ لعدم مشيئته له، لا لعدم قدرته عليه.

قال ـتعالىـ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ البقرة: ٢٥٣.

فعدم اقتتالهم ليس لعدم قدرة الله، ولكن لعدم مشيئته ذلك، ومثله قوله ـتعالىـ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ الأنعام: ٣٥، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ الأنعام: ١٠٧، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ يونس: ٩٩(٣).

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٥)

(٢) رواه البخاري (٧٤٧٦) ومسلم (٢٦٢٧)

(٣) انظر كتاب الصفدية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، ١٤٠٦هـ، ٢/١٠٩، وشفاء العليل ص٩٧ـ١٠٤، وعنوان المجد في تاريخ نجد، للعلامة عثمان بن بشر، مكتبة الرياض الحديثة (ب ت) ٢/٢٢، وفتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم، جمع وترتيب الشيخ محمد ابن قاسم، ط١، مطبعة الحكومة بمكة المكرمة، ١٣٩٩هـ، ١/٢٠٧، ومعجم المناهي اللفظية، للشيخ د. بكر بن عبدالله أبو زيد، دار ابن الجوزي، ط٢، ١٤١٠هـ، ص٢٣١.

المرتبة الرابعة: الخلق: وهذه المرتبة تقتضي الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة لله بذواتها، وصفاتها، وحركاتها، وبأن كل من سوى الله مخلوق مُوْجَدٌ من العدم، كائن بعد أن لم يكن.

وهذه المرتبة دلت عليها الكتب السماوية، وأجمع عليها الرسل -عليهم الصلاة والسلام- واتفقت عليها الفطر القويمة، والعقول السليمة[1] والأدلة على هذه المرتبة لا تكاد تحصرمنها:

١- قوله -تعالى-: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ الزمر: ٦٢.

٢- قوله -تعالى-: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ الأنعام: ١.

٣- قوله -تعالى-: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ الملك: ٢.

٤- قوله -تعالى-: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ النساء: ١.

٥- قوله -تعالى-: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ الأنبياء: ٣٣.

٦- قال -سبحانه-: ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ فاطر: ٣.

ومن الأدلة من السنة ما يلي:

١- أخرج البخاري في خلق أفعال العباد عن حذيفة ﵁ قال: قال النبي ﷺ:

---

(١) انظر شفاء العليل ص١٠٨.

« **إن الله يصنع كل صانع وصنعته** »[(١)].

٢ـ وعن زيد بن أرقم ﷺ قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول، كان يقول: « **اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكّاها، أنت وليها ومولاها** »[(٢)].

والشاهد من ذلك قوله ﷺ « **اللهم آت نفسي تقواها، وزكّها...** » فالفاعل هو الله ـتعالى ـ فهو الذي يطلب منه ذلك.

٣ـ عن ورّاد مولى المغيرة بن شعبة قال: كتب معاوية إلى المغيرة: اكتب إلي ما سمعت النبي ﷺ يقول خلف الصلاة، فأملى عليَّ المغيرة، قال: سمعت النبي ﷺ يقول خلف الصلاة: « **لا إله إلا الله وحده لا شريك له، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد** »[(٣)].

والشاهد من ذلك قوله: « **اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت** » فالمعطي والمانع هو الله ـتعالى ـ فهو الفاعل لذلك، وهذا يدل على أنَّ الخالق هو الله ـعز وجل ـ[(٤)].

---

(١) خلق أفعال العباد أو الرد على الجهمية وأصحاب التعطيل، للإمام البخاري، ط١، ١٤٠٤هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص٢٥، وأخرجه الحاكم في المستدرك ١/٣١٠، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه مسلم (٢٧٢٢)

(٣) رواه البخاري (٦٦١٥)

(٤) انظر القضاء والقدر د. عبدالرحمن المحمود ص٨٠، وانظر تفاصيل الحديث عن مراتب القدر في العقيدة الواسطية مع شرحها، الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية، للشيخ زيد بن فياض، ط٢، ١٣٨٨هـ، الناشر مكتبة الرياض الحديثة، ص٣٥٣، والتنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه العقيدة=

المطلب الثاني: مسألة خلق أفعال العباد:

أفعال العباد داخلة في عموم خلقه -تعالى- ولا يخرجها شيء من عموم قوله -تعالى-: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ الزمر: ٦٢، وإنما أفردت هنا لوقوع اللبس فيها.

وخلاصة القول في هذه المسألة: أن أفعال العباد كلّها من الطاعات، والمعاصي، داخلةٌ في خلق الله، وقضائه، وقدره؛ فقد علم الله -عز وجل- ما سيخلقه في عباده، وعلم ما هم فاعلون، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ، وخلقهم الله كما شاء، ومضى فيهم قدره، فعملوا على النحو الذي شاءه فيهم، وهدى الله من كتب لهم السعادة، وأضل من كتب عليهم الشقاوة، وعلم أهل الجنة ويسرهم لعمل أهلها، وعلم أهل النار ويسرهم لعمل أهلها.

=الواسطية من المباحث المنيفة للشيخ ابن سعدي مع تعليقات سماحة الشيخ ابن باز، تخريج الشيخ علي ابن حسن بن عبدالحميد الحلبي، ط١، ١٤٠٩هـ، دار ابن القيم، ٧٥-٨٠، وانظر شفاء العليل٦١-١١٦، ومعارج القبول لشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد، للشيخ حافظ الحكمي، مكتبة ابن تيمية، ط٢، ١٤٠٤هـ، ٢/٢٢٥-٢٣٨، و أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة، أو ٢٠٠ سؤال في العقيدة الإسلامية، تأليف الشيخ: حافظ الحكمي، خرَّج أحاديثه وعلَّق عليه مصطفى أبو النصر الشلبي، ط٣، ١٤١٠هـ، مكتبة السوادي جدة، ص١٢٦-١٢٩، ورسائل في العقيدة، للشيخ ابن عثيمين ص ٣٧، وتقريب التدمرية، لابن عثيمين، دار الوطن، ط١، ١٤١٢هـ، ص١٠٨-١٠٩، والقضاء والقدر، د. عمر الأشقر، ص٢٩-٣٦، والعقيدة الواسطية، شرح الشيخ د. صالح الفوزان، ط٥، ١٤١١هـ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ص١٥٠-١٥٦، وخلاصة معتقد أهل السنة، تأليف الشيخ عبدالله بن سليمان المشعلي، تحقيق الشيخ عبدالله بن جارالله الجارالله، وخرج أحاديثه، محمد بن صالح الدحيم، مكتبة ابن خزيمة الرياض، ط٣، ١٤١٠هـ، ص٢٩-٣٠.

فأفعال العباد هي من الله خلقاً وإيجاداً وتقديراً، وهي من العباد فعلاً وكسباً، فالله هو الخالق لأفعالهم، وهم الفاعلون لها، فنؤمن بجميع نصوص الكتاب والسنة الدالة على شمول خلق الله، وقدرته على كل شيء من الأعمال والأوصاف، كما نؤمن بنصوص الكتاب والسنة الدالة على أن العباد هم الفاعلون حقيقةً للخير والشر، وعلى هذا اتفق أهل السنة والجماعة[1].

---

(١) انظر المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة، جمع وتحقيق ودراسة عبدالإله الأحمدي، دار طيبة، ط١، ١٩٩١م - ١٤١٢هـ، ١/١٤٧-١٥٠، والإبانة عن أصول الديانة، لأبي حسن الأشعري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١٤١٠، ٢هـ، ص١٠٧-١٣٠، وأصول أهل السنة والجماعة، المسماة برسالة الثغر، لأبي الحسن الأشعري، تحقيق الدكتور محمد السيد الجليند، دار اللواء للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م، ص٧٥، ٧٨، ٨٣، والاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة، لابن قتيبة ص٢١-٢٣، وعقيدة السلف وأصحاب الحديث، للإمام أبي عثمان إسماعيل بن عبدالرحمن الصابوني، دراسة وتحقيق د. ناصر بن عبدالرحمن الجديع، ط١، دار العاصمة، ١٤١٩هـ -١٩٩٨م، ص٢٧٩-٢٨٠، والفرق بين الفرق، لعبدالقاهر البغدادي، مطبعة المدني، حقق أصوله وضبط مشكله وعلق عليه محمد محي الدين عبدالحميد، ص١١٥، و أصول الدين، لعبدالقاهر البغدادي، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ -١٩٨١م، ص١٣٤-١٣٧، الدرة فيما يجب اعتقاده، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم، دراسة وتحقيق وتعليق د.أحمد بن ناصر الحمد، وسعيد ابن عبدالرحمن القزقي، توزيع مكتبة التراث، مكة المكرمة، مطبعة المدني، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص٢٩٩-٣٠٠، والاعتقاد على مذهب السلف، أهل السنة والجماعة، للبيهقي، السلام العالمية للطبع والنشر والتوزيع؛ ص٧٣، وانظر لمعة الاعتقاد لابن قدامة ٢١، والنبوات، لشيخ الإسلام ابن تيمية، دراسة وتحقيق محمد عبدالرحمن عوض، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.، وط أضواء السلف، تحقيق د.عبدالعزيز الطويان، ط١، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م، ص٤٣٧، ودرء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، ط١، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١/٨٥-٨٦، ومنهاج السنة ٢/٢٩٨، ٣/١١٢، ١٢٨، ١٢٩، وشفاء=

والنصوص التي مرت بنا في المرتبة الرابعة من مراتب القدر تدل على ذلك، وهناك أدلة أصرح في الدلالة على هذه المسألة كقوله -تعالى-: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ الصافات: ٩٦.

قال المفسرون: في معنى ﴿ما﴾ في الآية وجهان:

«**أحدهما**: أن تكون بمعنى المصدر؛ فيكون المعنى: والله خلقكم وعملكم.

والثاني: بمعنى الذي؛ فيكون المعنى، والله خلقكم وخلق الذي تعملونه بأيديكم من الأصنام.

وفي هذه الآية دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله»[(١)].

وبعد بيان الحق في مسألة خلق أفعال العباد ينتهي الحديث في هذا المبحث عن مراتب القدر الأربع التي لا يتم الإيمان بالقدر إلا بها.

=العليل ص١٠٨-١٤٠، وتوضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم الموسومة الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (النونية) لأحمد بن إبراهيم بن عيسى، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٦هـ، ١٣٥/٢، وانظر المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن ابن سعدي، مركز صالح ابن صالح الثقافي، عنيزة، ١٤١١هـ، ٦٥/٣، والقضاء والقدر، لعمر الأشقر ص٣٧، وانظر كتاب القاضي أبي يعلى وكتاب مسائل الإيمان، دراسة وتحقيقاً، لسعود بن عبدالعزيز الخلف، دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤١٠هـ، ص٩٨-٩٩، وانظر العقيدة الواسطية، علق حواشيها وأشرف على تصحيحها الشيخ محمد ابن مانع، طبع بمطابع الإشعاع بالرياض، ص٥٠-٥١، ومعارج القبول ٢٣٨/٢-٢٤٠، والتعليقات على متن لمعة الاعتقاد، للشيخ عبدالله بن عبدالرحمن ابن جبرين، دار الصميعي، ط١، ١٤١٢هـ، ٦١-٦٤، ولمعة الاعتقاد بشرح ابن عثيمين ص٩٥.

(١) زاد المسير لابن الجوزي ٧٠/٧، وانظر جامع البيان، لابن جرير الطبري ٧٥/١٢، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ١٥/٤، وانظر خلق أفعال العباد للبخاري ص٢٦، وشفاء العليل ص١١٥-١١٧.

المطلب الثالث: أقسام التقدير[١]:

ينقسم التقدير باعتبار نسبته إلى الله -عز وجل- إلى خمسة أقسام، وهي:

١- التقدير العام: وهو تقدير الرب لجميع الكائنات، بمعنى علمه بها، وكتابته لها، ومشيئته، وخلقه لها. -

ويدل على هذا النوع أدلة كثيرة منها قوله -تعالى-: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ الحج: ٧٠.

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء**»[٢].

٢- التقدير الإلهي لعموم البشر: وهو التقدير الذي أخذ الله فيه الميثاق على جميع البشر بأنه ربهم، وأشهدهم على أنفسهم بذلك، والذي قدر الله فيه أهل السعادة وأهل الشقاوة، قال -تعالى-: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ الأعراف: ١٧٢.

وعن هشام بن حكيم أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: أَتُبْدَأُ الأعمال أم قد قُضِيَ القضاء؟ قال رسول الله ﷺ: «**إن الله أخذ ذرية آدم من ظهورهم، ثم أشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بهم في كفيه فقال: هؤلاء في الجنة، وهؤلاء**

---

(١) انظر أعلام السنة المنشورة ص١٢٩-١٣٣، وتعليق سماحة الشيخ ابن باز على الواسطية ص٧٨-٨٠.

(٢) رواه مسلم: (٢٦٥٣).

في النار؛ **فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة، وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار»**[(١)].

٣ـ التقدير العمري: وهو تقدير كل ما يجري على العبد في حياته إلى نهاية أجله، وكتابةُ شقاوته، أو سعادته.

وقد دل على ذلك حديث الصادق المصدوق في الصحيحين عن ابن مسعود مرفوعاً: **«إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل المَلَك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٌّ أو سعيدٌ»**[(٢)].

٤ـالتقدير السنوي: وذلك في ليلة القدر من كل سنة، ويدل عليه قوله ـتعالىـ: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ الدخان: ٤.

وقوله: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ، سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ القدر: ٤ـ٦.

قيل: يكتب فيها ـ أي هذه الليلة ـ ما يحدث في السنة من موت وحياة، وعز وذل، ورزق ومطر، حتى الحجاج يُقال: يحج فلان، ويحج فلان.

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب السنة بتحقيق الشيخ الألباني، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٠هـ، ٧٣/١، وقال الألباني: «إسناده صحيح ورجاله كلهم ثقات»، وقال السيوطي في الدر المنثور ٦٠٤/٣ «أخرجه ابن أبي جرير والبزار والطبراني والآجري في الشريعة، وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات».

(٢) رواه البخاري(٣٢٠٨ و ٣٣٣٢ و ٦٥٩٤ و ٧٤٥٤) ومسلم (٢٦٤٣) وابن ماجه (٧٦).

رُوي هذا عن ابن عمر، وابن عباس، وكذا الحسن[١] وسعيد ابن جبير[٢][٣].

٥ـ**التقدير اليومي**: ويدل عليه قوله ـتعالىـ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ الرحمن: ٢٩.

قيل في تفسيرها: شأنه أن يُعِزَّ ويُذِل، ويرفع ويخفض، ويُعطي ويمنع، ويُغني ويُفقر، ويُضحِكَ ويُبكي، ويُميت ويُحيي، إلى غير ذلك[٤].

---

(١) هو الإمام الزاهد سيد التابعين في زمانه في البصرة أبو سعيد الحسن بن يسار البصري مولى الأنصار، أبوه مولى زيد بن ثابت، أمه خيرة مولاة أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ ولد بالمدينة سنة ٢١هـ، وتوفي بمستهل رجب سنة ١١٠هـ. انظر وفيات الأعيان ٢/٧١ـ٧٢، الأعلام للزركلي ٢/٢٤٢.

(٢) هو سعيد بن جبير بن هشام الإمام التابعي الحافظ المقرئ أبو محمد ويُقال: أبو عبدالله الأسدي الوالبي بالولاءِ الكوفيُّ أحد الأعلام، روى عن بعض الصحابة كابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد وعائشة ـ رضي الله عنهم ـ قرأ القرآن على ابن عباس وحدَّث عنه أبو صالح السمَّان وعطاء ابن السائب والزهري وخلق كثير، كان فقيهاً عابداً فاضلاً ورعاً وكان لا يدع أحداً يغتاب عنده، وكان يحرم في كل سنة مرتين مرةً للحج ومرةً للعمرة، قتله الحجاج سنة ٩٥هـ، وعمره ٤٩سنة. انظر سير أعلام النبلاء ٤/٢١٣.

(٣) انظر زاد المسير لابن الجوزي ٧/٣٣٨، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/١٤٠، وفتح القدير للشوكاني ٤/٥٧٢، وانظر أعلام السنة المنشورة ص١٢٩ـ١٣٣.

(٤) انظر زاد المسير ٨/١١٤، وتفسير القرآن العظيم ٤/٢٧٥، وفتح القدير ٥/١٣٦.



المبحث الرابع

الإرادة الربانية

المطلب الأول: قسما الإرادة الربانية:

تنقسم الإرادة الربانية إلى قسمين:

١ـإرادة كونية قدرية: وهي مرادفة للمشيئة، وهذه الإرادة لا يخرج عن مرادها شيء؛ فالكافر والمسلم تحت هذه الإرادة الكونية سواء؛ فالطاعات، والمعاصي، كلها بمشيئة الرب، وإرادته.

ومن أمثلتها قوله ـتعالىـ: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ﴾ الرعد: ١١، وقوله: ﴿فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ الأنعام:١٢٥.

٢ـإرادة شرعية دينية: وتتضمن محبة الربّ، ورضاه.

ومن أمثلتها قوله ـتعالىـ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ البقرة: ١٨٥، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ النساء:٢٧، وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ المائدة: ٦[1].

---

(١) انظر منهاج السنة النبوية لابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، ط١، ١٤٠٦هـ، ١٥٦/٣ـ١٥٧، و الاستقامة، لابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، توزيع مكتبة السنة، القاهرة، ط٢، ١٤٠٩هـ، ٤٣٣/١، وانظر تعليق الشيخ ابن باز على الواسطية ص٤١.

المطلب الثاني: الفرق بين الإرادتين[1]:

بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية فروق تُميز كلَّ واحدة منهما عن الأخرى، ومن تلك الفروق ما يلي:

١ـ الإرادة الكونية قد يحبها الله ويرضاها، وقد لا يحبها ولا يرضاها.

أما الشرعية فيحبها الله ويرضاها؛ فالكونية مرادفة للمشيئة، والشرعية مرادفة للمحبة.

٢ـ الإرادة الكونية قد تكون مقصودة لغيرها كخلق إبليس مثلاً، وسائر الشرور؛ لتحصل بسببها محابّ كثيرة، كالتوبة، والمجاهدة، والاستغفار.

أما الشرعية فمقصودة لذاتها؛ فالله أراد الطاعة وأحبها، وشرعها، ورضيها لذاتها.

٣ـ الإرادة الكونية لابد من وقوعها؛ فالله إذا شاء شيئاً وقع ولابد، كإحياء أحد أو إماتته، أو غير ذلك.

أما الشرعية كالإسلام ـ مثلاً ـ فلا يلزم وقوعها، فقد تقع وقد لا تقع، ولو

---

(١) انظر منهاج السنة النبوية ٣/١٨٠ـ١٨٣، ٥/٣٦٠ و٤١٣ و٤١٤ و٧/٧٢، ٧٣، وانظر شفاء العليل ص٥٥٧، ومدارج السالكين ١/٢٦٤ـ٢٦٨، و تنبيه ذوي الألباب السليمة عن الوقوع في الألفاظ المبتدعة الوخيمة، تأليف الشيخ سليمان بن سحمان، دار العاصمة، الرياض، ص٦١ـ٦٢، وتعليق الشيخ ابن باز على الواسطية ص٤١، وشرح العقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تأليف الشيخ محمد خليل الهراس، ضبط نصه وخرج أحاديثه: الشيخ علوي السقاف، ط١، ١٤١١هـ، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، الثقبة، ص١٠٠، وشرح الواسطية للشيخ صالح الفوزان ص٤٢ـ٤٣، والقضاء والقدر للأشقر ص١٠٦٢، والتعليقات على لمعة الاعتقاد للشيخ عبدالله بن جبرين ص٦٠ـ٦١.

كان لابد من وقوعها لأصبح الناس كلهم مسلمين.

٤ـ الإرادة الكونية متعلقة بربوبية الله وخلقه، أما الشرعية فمتعلقة بألوهيته وشرعه.

٥ـ الإرادتان تجتمعان في حق المطيع، فالذي أدى الصلاة ـ مثلاً ـ جمع بينهما؛ وذلك لأن الصلاة محبوبة لله، وقد أمر بها، ورضيها، وأحبها، فهي شرعية من هذا الوجه، وكونها وقعت دلَّ على أنَّ الله أرادها كوناً؛ فهي كونية من هذا الوجه؛ فمن هنا اجتمعت الإرادتان في حق المطيع.

وتنفرد الكونية في مثل كفر الكافر، ومعصية العاصي، فكونها وقعت فهذا يدلُّ على أن الله شاءها؛ لأنه لا يقع شيء إلا بمشيئته، وكونها غير محبوبة ولا مرضية لله دليل على أنها كونية لا شرعية.

وتنفرد الشرعية في مثل إيمان الكافر، وطاعة العاصي، فكونها محبوبة لله فهي شرعية، وكونها لم تقع ـمع أمر الله بها ومحبته لهاـ هذا دليل على أنها شرعية فحسب؛ إذ هي مرادة محبوبة لم تقع.

٦ـ الإرادة الكونية أعمّ من جهة تعلّقها بما لا يحبه الله ولا يرضاه، من الكفر والمعاصي، وأخص من جهة أنها لا تتعلق بمثل إيمان الكافر، وطاعة الفاسق.

والإرادة الشرعية أعم من جهة تعلقها بكل مأمور به، واقعاً كان أو غير واقع، وأخص من جهة أن الواقع بالإرادة الكونية قد يكون غير مأمور به.

هذه فوارق بين الإرادتين، فمن عرف الفرق بينهما سلم من شُبهات كثيرة، زلَّت بها أقدام، وضلَّت بها أفهام، فمن نظر إلى الأعمال الصادرة عن العباد

بهاتين العينين كان بصيراً، ومن نظر إلى الشرع دون القدر أو العكس كان أعور[(١)].

المطلب الثالث: نماذج لأمور شرعية وكونية:

كما أن الإرادة منها ما هو كوني قدري، ومنها ما هو شرعي ديني ـ فكذلك الكتابة، والأمر، والإذن، والجعل، والكلمات، والبعث، والإرسال، والتحريم، والإيتاء، والكره، ونحوها، كل هذه الأمور منها ما هو شرعي ومنها ما هو كوني.

فمن أمثلة الكتابة الكونية قوله ـتعالىـ: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ المجادلة: ٢١، ومن أمثلة الكتابة الشرعية قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ﴾ البقرة: ١٨٣، والأمر الكوني قوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ القمر: ٥٠، والشرعي قوله: ﴿إنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ النحل: ٩٠، والإذن الكوني قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ البقرة: ١٠٢، والشرعي قوله: ﴿آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ يونس: ٥٩ وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنْ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ الشورى: ٢١، والجعل الكوني قوله: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام: ١٢٥، والشرعي: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ﴾ المائدة: ١٠٣، أما قوله: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ المائدة: ٩٧، فهذا يتناول الأمرين، فإن الله جعلها كذلك بقدره وبشرعه.

---

(١) انظر الاستقامة ٢/٧٨.

وكذلك الكلمات منها ما هو كوني كقوله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ يونس: ٣٣، ومنها الشرعي كقوله: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾ التوبة: ٦، واجتمع النوعان في قوله ـتعالى ـ: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ التحريم: ١٢، وكذلك البعث منه الكوني كقوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا﴾ الإسراء: ٥، والشرعي كقوله: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ البقرة: ٢١٣، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ﴾ الجمعة: ٢، وكذلك الإرسال منه الكوني كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ الأعراف: ٥٧، ومنه الديني كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ الصف: ٩، والتحريم الكوني كقوله: ﴿وحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ القصص: ١٢، والشرعي: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً﴾ المائدة: ٩٦، والإيتاء الكوني كقوله: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ البقرة: ٢٤٧، والديني كقوله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ البقرة: ٩٣، وقوله: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ البقرة: ٢٦٩، يشمل النوعين؛ فإنه يؤتيهما أمراً وديناً وتوفيقاً وإلهاماً.

والكره ـ كذلك ـ منه ما هو كوني كما في قوله ـتعالى ـ: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ التوبة: ٤٦، ومنه ما هو شرعي كما في قوله ـتعالى ـ: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾ الإسراء: ٣٨.

والفروق بين هذه الأمور ـ من جهة أن منها ما هو شرعي ديني، ومنها ما هو كوني قدري ـ كالفروق بين الإرادتين الكونية القدرية، والشرعية الدينية[1].

---

(١) انظر شفاء العليل ص ٥٥٨ـ٥٦٧.



المبحث الخامس

خلاصة القول في الحكمة والتعليل، والضلال في القدر

المطلب الأول: خلاصة القول في الحكمة والتعليل:

مسألة تعليل أفعال الله، وإثبات الحكمة فيها من أجل مسائل التوحيد المتعلقة بالخلق والأمر، والشرع والقدر.

والحديث في هذا المقام لا يسمح بالتفصيل.

وقد اختلف الناس فيها على أقوال شتى، ولكنَّها ترجع إلى قولين.

أحدهما: قول نفاة الحكمة، وهو قول الفلاسفة، والأشاعرة ومن وافقهم ممن يرى أن الله -عز وجل- قدر المقادير، وشرع الشرائع لغير علة، أو حكمة، بل فعل ذلك لمحض المشيئة، وصِرْف الإرادة.

الثاني: قول الجمهور الذين يثبتون الحكمة، وأنَّ لله في كل ما يقضيه حكمةً ورحمة.

وهذه الحكمة تتضمن شيئين:

أحدهما: حكمة تعود إليه -تعالى- يحبها ويرضاها.

والثاني: حكمة تعود إلى عباده، فهي نعمة عليهم يفرحون، ويلتذون بها.

وهذا يكون في المأمورات، والمخلوقات[1].

---

(١) انظر أصول الدين للبغدادي ص١٥٠-١٥١، ومجموع الفتاوى ٨/٣٥-٣٦، وبيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، أو نقض تأسيس الجهمية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، بتصحيح وتكميل وتعليق الشيخ محمد بن عبدالرحمن بن قاسم، ط٢، ١٤٢١هـ، دار القاسم، ١/١٩٧-٢٠٣، وشرح=

يقول ابن القيم رحمه الله مقرراً حكمة الله ـ تبارك وتعالى ـ فيما يقدره ويشرعه: «ولو ذهبنا نذكر ما يطلع عليه أمثالُنا من حكمة الله في خلقه لزاد ذلك على عشرة آلاف موضع مع قصور أذهاننا، ونقص عقولنا ومعارفنا، وتلاشيها، وتلاشي علوم الخلائق جميعهم كتلاشي ضوء السراج في عين الشمس، وهذا تقريب وإلا فالأمر فوق ذلك»[1].

وقال رحمه الله: «وكيف يتوهم ذو فطرة صحيحة خلاف ذلك، وهذا الوجود شاهد بحكمته، وعنايته بخلقه أتم عناية، وما في مخلوقاته من الحكمة، والمصالح، والمنافع، والغايات المطلوبة، والعواقب الحميدة ـ أعظم من أن يُحيطَ به وصفٌ، أو يحصرَه عقل؟!»[2].

وقال رحمه الله: «وجماع ذلك أن كمال الرب ـتعالىـ وجلاله، وحكمته، وعدله، ورحمته، وإحسانه، وحمده، ومجده، وحقائق أسمائه الحسنى ـ تمنع كون أفعاله صادرة منه لا لحكمة، ولا لغاية مطلوبة.

وجميع أسمائه الحسنى تنفي ذلك، وتشهد ببطلانه»[3].

وسيرد في شرح القصيدة في القسم الثاني تفصيل لمسألة الحكمة والتعليل.

=العقيدة الأصفهانية لشيخ الإسلام ابن تيمية، حققه سعيد ابن نصر بن محمد، مكتبة الرشد الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م، ص٢٦١ـ٢٦٣، والقضاء والقدر د.عبدالرحمن المحمود ٢٤٢ـ٢٤٨، وموقف ابن تيمية من الأشاعرة د. عبدالرحمن المحمود ٣/١٣١٠ـ١٣١٢.

(١) شفاء العليل ص٤١٩.

(٢) شفاء العليل، ص٤١٨.

(٣) شفاء العليل ص٤١٨.

المطلب الثاني: خلاصة أقوال أهل الضلال في القدر:

القدر -كما مر في مقدمة البحث- من الموضوعات الكبرى التي خاض فيها الناس، وشغلت أذهانهم في القديم والحديث؛ لأنه مرتبط بحياتهم وما فيها من تقلبات الأحوال من صحة ومرض، وفقر وغنى، وموت وحياة، وسعادة وشقاء، وما جرى مجرى ذلك.

ولا يوجد مذهب من المذاهب التي قال بها الفلاسفة[١] وأهل الكلام[٢]

---

(١) سيأتي الكلام على الفلسفة والفلاسفة في القسم الثاني عند شرح البيت التاسع والثلاثين.

(٢) الكلام هنا هو علم الكلام، وهو ما أحدثه المتكلمون في أصول الدين من إثبات العقائد بالطرق التي ابتكروها، وأعرضوا بها عما جاء بالكتاب والسنة. انظر فتح رب البرية بتلخيص الحموية للشيخ محمد بن صالح العثيمين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط٤، ١٤١٠هـ، ص٧٦.

ويعرفه أبو حيان التوحيدي بقوله: «وأما علم الكلام فإنه من باب الاعتبار في أصول يدور النظر فيه على محض العقل في التحسين والتقبيح، والإحالة والتصحيح، والإيجاب والتجويز، والاقتدار والتعجيز، والتعديل والتجوير، والتوحيد والتكفير، والاعتبارُ فيه ينقسم بين دقيق يتفرد العقل به، وجليل يفزع إلى كتاب الله -تعالى- فيه» رسالة أبي حيان في العلوم، لأبي حيان التوحيدي، مكتبة الثقافة الدينية ص٢١.

أو هو كما يقول ابن خلدون رحمه الله: «علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية» تاريخ ابن خلدون، لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٠هـ، ص٣٥٠.

أما سبب تسمية علم الكلام بهذا الاسم فقد تضاربت فيه الأقوال، ومما قيل في ذلك ما يلي:

١- أن عنوان مباحث المتكلمين في العقائد كان: «الكلام في كذا وكذا ......».

٢- لأنه يورث قدرة على الكلام في تحقيق الشرعيات، وإلزام الخصوم؛ فهو كالمنطق للفلسفةِ، والمنطقُ مرادفٌ للكلام.

٣- لأن هذا العلم لا يتحقق إلا بالمباحثة، وإدارة الكلام من الجانبين على حين أن غيره من العلوم قد يتحقق بالتأمل، ومطالعة الكتب.

٤- لأنه أكثر العلوم خلافاً ونزاعاً؛ فيشتد افتقاره إلى الكلام مع المخالفين والرد عليهم. =

والتصوف[(١)] إلا وقد قال بمثلها غيرهم ممن سبقهم، ويقول بها بعض علماء أوربا، وفلاسفة الغرب عموماً[(٢)].

والأقوال في القدر ـ بإجمال ـ لم تتغير قبل أو بعد، فهي ترجع إلى ثلاثة أقوال:

١ـ قول أهل الجبر: الذين يقولون: إن الإنسانَ مجبورٌ على أفعاله، وليس له

=٥ـ لأنه؛ لقوة أدلته صار كأنه هو الكلام دون ما عداه من الكلام.

٦ـ أنه؛ نظراً لقيامه على الأدلة القطعية المؤيد أكثرها بالأدلة السمعية كان أكثر العلوم تأثيراً في القلب، وتغلغلاً؛ فسمي الكلام بذلك مشتقاً من الكلم، وهو الجرح.

٧ـ أنه سمي بذلك لأن أول خلاف وقع في الدين كان في كلام الله ـعز وجلـ أمخلوق هو أم غير مخلوق؛ فتكلم الناس فيه؛ فسمي هذا النوع من العلم كلاماً، واختص به.

٨ـ لأن هذا العلم كلام صرف، وليس تحته عمل. انظر العقائد النسفية للنسفي ص٦، وتاريخ ابن خلدون ص٣٥٠ ـ ٥٧٥، والمعتزلة، لزهدي حسين جارالله، المكتبة الأزهرية للتراث، ص٣٤٦.

(١) التصوف والصوفية من حيث النسبة مُخْتَلف فيها على أقوال؛ فقيل: نسبة إلى الصفاء، أو إلى الصُفَّة، أو إلى الصُوفانة وهي بغلة صغيرة نُسبوا إليها لزهدهم، وقيل: نسبة إلى رجل يسمى صوفة، وقيل: من سوفيا وهي الحكمة بلغة اليونان، وقيل: نسبة إلى الصف؛ لأنهم في الصف الأول بارتفاع هممهم، ورجَّح شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره أنها نسبة إلى الصوف؛ لزهدهم ولبسهم الصوف.

أما تعريف التصوف في الاصطلاح فقد اختلف فيه اختلافاً كثيراً، فقيل: الإعراض عن الاعتراض، وقيل: هو صفاء المعاملة مع الله، وقيل: الأخذ بالحقائق، والكلام بالدقائق، والإياس مما في أيدي الخلائق.

وبالجملة فالصوفية كانت بداية للزهد ثم تطورت وصارت مذاهب شتَّى وطرائق قدداً منها ما يقرب من السنة ومنها ما يَبْعُد، بل منها ما يصل حدَّ الزندقة. انظر تعريفات الجرجاني ص٥٩ـ٦٠، ومجموع الفتاوى ٦/١١، وهذه هي الصوفية، تأليف الشيخ عبدالرحمن الوكيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ١٩٨٤م.

(٢) انظر موقف ابن تيمية من الأشاعرة ٣/١٣٠٨ـ١٣٠٩، ومنهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة ص٥٨٦.

إرادة ولا قدرة.

ويمثل هذا في الفرق الإسلاميةِ الجهميةُ(١) ومَنْ وافقهم، وهو ما يُسمَّى في العصور المتأخرة بالمذهب الحتمي(٢).

٢ـ قول أهل حريَّةِ الإرادة، واستقلال الإنسان في أفعاله عن خالقه، وأنَّ الإنسانَ له إرادة مستقلة عن إرادة الله، وأنه هو الذي يخلق أفعاله.

ويمثل هذا المذهبَ المعتزلةُ(٣) القدرية، ومن وافقهم.

---

(١) الجهمية هم أتباع الجهم بن صفوان ت١٢٨هـ، ومن أشهر بدعه نفي الصفات، وقوله بالإرجاء، وبالجبر، وفناء النار، وستأتي ترجمته. انظر مجموع الفتاوى ٨/٢٢٧ـ٢٣٠ ولسان الميزان، للحافظ ابن حجر، اعتنى به الشيخ عبد الفتاح أبوغدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢/١٤٢.

(٢) الحتمية هي التي حلت محل الجبرية القديمة في اصطلاح العلماء؛ فالقائلون بالحتمية يقولون بها لأنهم يؤمنون بالنظم الإلهية وحدها، ولا يؤمنون بإرادة إلهية تتعرض لتلك النظم بالتبديل والتحويل.

ومن ثم أصبح القول بالحتمية مناقضاً للجبرية في كلام علماء الأديان؛ لأن الجبرية تحصر الإرادة كلها في الإله المعبود، أما الحتمية فهي ـفي الأقل ـ لا تستلزم وجود إله إلى جانب القوانين التي يفسرون بها حركات الوجود.

ومما يوضح الفرق بينهما أن ضرورة حدوث الأشياء عند الجبريين ضرورة متعالية بمبدأ أعلى منها يسير كما يشاء، وهو قضاء الله وقدره على حين أن هذه الضرورة في نظر الحتميين كامنة في الأشياء سارية فيها وهي الطبيعة بعينها.

وإذا كان بعض الفلاسفة الحتميين يثبتون الحرية الإنسانية فَمَرَدُّ ذلك إلى محاولتهم التوفيق بين حتمية الحوادث النفسية وتلقائية الموجود العاقل. انظر المعجم الفلسفي، د.جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت (ب ت) ١/١٤٤، ومقدمة السايح والجميلي ص٢٠.

(٣) فرقة نشأت ما بين سنة ١٠٥هـ ـ ١١٠هـ، حين انفصل واصل بن عطاء عن الحسن البصري، حين خالف الحسنَ في حكم مرتكب الكبيرة وزعم أنه في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر، فسُمِّي هو ومن تابعه المعتزلة؛ لاعتزالهم الحسن، وقول الأمة في حكم مرتكب الكبيرة، =

٣ـ **وهناك قولٌ وسط بين هؤلاء وهؤلاء**؛ حيث يثبت القائلون به القدر، وأنَّ الله خالق كلِّ شيء، ويقولون ـ مع ذلك ـ: إنَّ للإنسان قدرةً يفعل بها، ومشيئةً يختار بها، وقدرته ومشيئته واقعتان بقدرة الله، ومشيئته تابعتان لهما.

وهذا هو قول السلف، وأتباع الأنبياء.

وبين هذه الطوائف الثلاثة قد تنشأ فرق أخرى تميل في بعض المسائل إلى طائفة، وفي المسائل الأخرى إلى طائفة أخرى، ويكون الحكم عليها بحسب ما يغلب على مذهبها، وهذا ما تقرر بعضه فيما مضى، وسيتقرر بعضه بما سيأتي.

=وزعمهم أن صاحب الكبيرة قد اعتزل الكافرين والمؤمنين. انظر الفرق بين الفرق ص٢٠ـ٢١، والمعتزلة وأصولهم الخمسة، وموقف أهل السنة منها، د. عواد بن عبدالله المعتق، دار العاصمة، الرياض، النشرة الأولى ١٤٠٩هـ، ص٢٨٣.

المبحث السادس

نشأة القول بالقدر في الإسلام

مر بنا أن الإيمان بالقدر أمر فطري، وأنه لم يكن في العرب من ينكر القدر لا في الجاهلية ولا في الإسلام.

وهكذا كان الأمر بعد البعثة النبوية؛ فلم يقع في عهد رسول الله ﷺ أي افتراق، أو ابتداع في أمور العقيدة ومنها القدر.

وهذا لا ينافي وقوع بعض الأسئلة التي يأتي جوابها حاسماً من الرسول ﷺ.

كما لا ينافي وقوع المخاصمة من جانب اليهود أو المشركين.

وقد مرَّ شيءٌ من ذلك عند الحديث عن مسألة حكم الحديث في القدر.

وبعدما انطوى عهد النبوة، وكثرت الفتوحات، واختلط المسلمون بغيرهم - ظهرت بدعة القدرية التي تُعد أول شرك في الإسلام.

وكان أول ظهورها في البصرة ودمشق، ولم تظهر في مكة ولا المدينة؛ لانتشار العلم.

وقد ظهرت في أواخر عهد الصحابة كابن عباس، وابن عمر، وأنس ابن مالك، وجابر بن عبدالله - رضي الله عنهم - فاشتد نكيرهم على تلك البدعة وأصحابها[1].

---

(١) انظر السنة للإمام عبدالله بن أحمد، تحقيق ودراسة د. محمد بن سعيد القحطاني، رمادي للنشر، والمؤتمن للتوزيع، ط٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، ٢/٤٢٠-٤٢١، والحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، إملاء: الحافظ قوام السنة أبي القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني، تحقيق=

وتكاد مصادر أهل السنة تجمع على أن أول من تكلم بالقدر رجل من أهل البصرة يعمل بقالاً ويقال له سوسن، وبعضهم يسميه: «سنسويه» وبعضهم يسميه: «سيسويه» وبعضهم يسميه «سسويه» وبعضهم «ستويه» وبعضهم: «سوسر» وبعضهم: «سوس» وبعضهم: «سسلوا» وبعضهم «سنهويه» والأول هو المشهور.(١)

ثم تلقفها عنه معبد الجهني(٢) وأخذ عن معبد غيلان الدمشقي(٣).

قال الإمام الأوزاعي إمام أهل الشام رحمه الله: «أول من نطق في القدر رجل من أهل العراق يقال له: «سوسن» كان نصرانياً فأسلم، ثم تنصر، فأخذ عنه معبد

=ودراسة د. محمد بن ربيع المدخلي ومحمد بن محمود أبو رحيم، ط١، ١٤١١هـ، دار الراية للنشر والتوزيع الرياض، ٢/١٥-١٦، وانظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤/٦٢٥ و ٦٩٤-٧٣٠، ولوامع الأنوار ١/٢٩٩.

(١) انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٣/٥٦٣، و٤/٧٤٩، وخلق أفعال العباد للبخاري ص٧٥.

(٢) هو معبد بن عويمر وقيل: ابن خالد، وقيل: ابن عبدالله بن عكيم الجهني من أهل البصرة، كان من الفقهاء، وهو أول من أظهر الكلام في القدر بالبصرة، وكان رأساً بالقدر، قدم المدينة فأفسد بها ناساً، قال عنه الحسن: إياكم ومعبد الجهني فإنه ضال مضل.

قتله عبدالملك سنة ٨٠هـ، وصلبه بدمشق. انظر تاريخ مدينة دمشق، للحافظ علي بن الحسين المعروف بابن عساكر، ١٤١٥هـ دار الفكر ببيروت، ٩/٣١٢، وسير أعلام النبلاء ١٨٥٤.

(٣) هو غيلان بن مسلم وقيل: ابن يونس الدمشقي القبطي النبطي، كان من البلغاء، تُنسب إليه فرقة الغيلانية من القدرية، قيل: إنه تاب عن القول في القدر على يد عمر بن عبدالعزيز، فلما مات عمر رجع إلى مذهبه، فطلبه هشام بن عبدالملك، وأحضر الأوزاعي لمناظرته فأفتى بقتله، فقتل على باب كيسان بدمشق.

انظر ميزان الاعتدال في نقد الرجال لأبي عبد الله محمد بن عثمان الذهبي، تحقيق محمد علي البجاوي، دار الفكر للطباعة والنشر، القاهرة ط٢، ١٤٠٧هـ، ٣/٣٣٨، والأعلام ٥/٣٢٠.

الجهني، وأخذ غيلان عن معبد»[١].

وبعد معبد وغيلان ظهر رؤوس الاعتزال كواصل بن عطاء[٢] وعمرو ابن عبيد[٣] فنقلوا هذه المقالات ونشروها -كما سيأتي بيان ذلك عند الحديث عن القدرية-.

والمقصود بالكلام في القدر في بداية الأمر إنما هو نفي القدر.

هذا هو المشهور من الأقوال في بداية القول بالقدر، ويشهد على ذلك ما جاء في قصة الحديث المشهور -حديث جبريل- في صحيح مسلم، فقد روي عن يحيى بن معمر قال: «كان أول من قال في القدر معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد ابن عبدالرحمن الحميري حاجين أو معتمرين فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب

---

(١) القدر للفريابي ص٢٤٠-٢٤١، والشريعة، للآجري، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ، ص٢٤٣، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ٤/٧٥٠.

(٢) هو واصل بن عطاء الغزال، المولود سنة ٨٠هـ، المتوفى سنة ١٣١هـ.

تتلمذ على الحسن البصري ولم يفارقه حتى أظهر مقالته في المنزلة بين المنزلتين، وهو من رؤوس الاعتزال، وهناك فرقة من فرق المعتزلة تُنسب إليه يُقال لها الواصلية، يُعد من أئمة البلغاء والمتكلمين، وكان يلثغ بالراء فيجعلها عيناً، فكان يتجنبها في كلامه ولا يُفطن لذلك؛ لقدرته على الكلام، وسهولة ألفاظه، من مؤلفاته: أصناف المرجئة، والمنزلة بين المنزلتين، والتوبة. انظر وفيات الأعيان ٦/٧، والفرق بين الفرق ص٢٠، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ١/١٨٢.

(٣) هو أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب البصري، مولى بني تميم، ولد سنة ٨٠ هـ، توفي ١٤٤هـ، جالس الحسن البصري وحفظ عنه، ثم اعتزل مجلسَه، يُعد شيخ المعتزلة في عصره، وكان ذا زهد وتأله، وهو رئيس الفرقة العمروية من المعتزلة. انظر وفيات الأعيان ٤/٨٥، وسير أعلام النبلاء ٦/١٠٤.

رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فَوُفِّقَ لنا عبدالله ابن عمر ابن الخطاب داخلاً المسجد؛ فاكتنفته أنا وصاحبي: أحدنا عن يمينه، والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سَيَكِل الأمر إلي، فقلت: أبا عبدالرحمن إنه قد ظهر قِبَلنا ناس يقرؤون القرآن، ويتَقَفَّرون[١] العلم (وذكر من شأنهم) وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأنَّ الأمرَ أُنف.... » الحديث[٢].

وهذا يفيد أن معبداً هو أول من قال بالقدر، وقبل ذلك تبين من كلام الأوزاعي أن معبداً أخذه عن النصراني سنسويه، أو سيسويه، أو سوسن.

وقد يكون من المحتمل أن أساس الفكرة كان عند ذاك الرجل النصراني الذي تظاهر بالإسلام، ولكنه لم يستطع أن يجاهر بها؛ لعدم ثقة الناس به، فتلقاها عنه معبد، ونشرها، فاشتهرت عنه[٣].

فهذا هو القول الأرجح في نشأة القول بالقدر.

وهناك قولان آخران في هذا الشأن:

أحدهما: أن أول ما حدث القول بالقدر بالحجاز قبل معبد الجهني، وأن ذلك وقع لما احترقت الكعبة لما كان عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ محصوراً بمكة؛

---

(١) يتقفرون العلم: يعني يطلبونه، ويتتبعونه. انظر غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، دار الكتاب العربي، ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م، ط١، طبعة مصورة عن السلسلة الجديدة من مطبوعات دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد، الدكن، الهند، ٢/٤٦٦ـ٤٦٧.

(٢) مسلم (٨).

(٣) انظر القضاء والقدر للمحمود ص١٦٤.

فقال أناس: احترقت بقدر الله ـتعالىـ وقال أناس: لم تحترق بقدر الله[١].

والقول الآخر: أن أول من نادى بالقدر في الشام عمرو المقصوص وكان عمرو هذا معلماً لمعاوية الثاني، وهو معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، فأثر فيه كثيراً، فاعتنق أقواله في القدر، حتى إنه لما تولَّى الخلافة كان عمرو هذا هو الذي أثر فيه؛ فاعتقدها حتى مات، ووثب بنو أمية على عمرو المقصوص، وقالوا: أنت أفسدته، ودفنوه حياً.

وهذا القول ـكما يقول الدكتور عبدالرحمن المحمود حفظه اللهـ: «ضعيف؛ لأن معاوية بن يزيد كان رجلاً صالحاً، وعمرو المقصوص لم أجد مَنْ ذكر قصته من المؤرخين غير ابن العبري»[٢].

وهكذا نشأ القول بالقدر، وضل بسببه فرق شتى، وكان منشأ ضلالهم كثرة الجدل، وتقديم العقل على النقل، والنظر إلى النصوص بعين عوراء.

وكردَّة فعل للقدرية النفاة ظهر أناس غلو في الإثبات؛ حيث نشأ في آخر عهد بني أمية أقوام قالوا بالجبر، وزعموا أنَّ العبد ليس له خيار فيما يأخذ أو يدع،

---

(١) انظر الإيمان، للإمام ابن مندة، حققه، وعلق عليه وخرج أحاديثه د. علي بن محمد الفقيهي، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م، ١/١٢٧ـ١٣٢، والفرق بين الفرق للبغدادي ص١١٧، وإكمال المعلم، شرح لصحيح مسلم، لأبي عبدالله محمد بن خليفة الوسناني الأبي المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ومكمل الإكمال، وهما شرحان لصحيح مسلم ١/٥، والإيمان لابن تيمية، دار الكتب العليمة، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ، ص٣٣٠ـ٣٣٢، و تاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ١٩٨٧م، ١/١١٢ـ١١٤، والقضاء والقدر للمحمود ص٦٦.

(٢) القضاء والقدر للمحمود ص١٦٦، وانظر مختصر الدول لمؤلفه غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري ص١١١.

وبعضهم يثبت للعبد قدرة غير مؤثرة.

وأول من أظهر هذا القول الشنيع: الجهم بن صفوان[١] وتفرع عن هذه البدعة أقوال شنيعة، وضلال كبير[٢].

هذه هي بدايات القول بالقدر، وقبل الدخول في تفاصيل أقوال الفرق في القدر يحسن تحديد الخلاف في القدر بإيجاز، **فالخلاف فيه يدور حول أمرين**:

أحدهما: ما يتعلق بالله -تعالى- وذلك في مراتب القدر الأربع: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق التي يثبتها أهل السنة لله -تعالى-.

الثاني: ما يتعلق بالعبد: هل له إرادة ومشيئة أَوْ لا؟ وهل له قدرة أَوْ لا؟ وهل هو فاعل لفعله حقيقة أَوْ لا؟

والطوائف ما بين غالٍ في إثبات القدر لله إلى حد أن قالوا بالجبر ونفي القدرة والإرادة عن العبد، ومُفَرِّطٍ في القدر إلى حدِّ نفي بعضه عن الله، وإثباته للعبد.

وأهل السنة وسط بين هاتين الطائفتين[٣].

وهذا ما سيتبين في شرح القصيدة؛ حيث سَيَرِد ذكرٌ لأقوال بعض الفرق التي ضلت في هذا الباب.

---

(١) هو أبو محرز الجهم بن صفوان الراسبي من موالي بني راسب السمرقندي رأس الجهمية وإليه تُنسب، له آراؤه المعروفة في الصفات والقدر، كان صاحب مجادلات ومخاصمات، قتله سلمة بن أحوز سنة ٢٨٨هـ. انظر لسان الميزان ٢/ ٥٠٠-٥٠١، والأعلام للزركلي ٢/ ١٣٨.

(٢) انظر القضاء والقدر د. عمر الأشقر ص٢٣.

(٣) انظر القضاء والقدر للمحمود ص٣٠١.

الفصل الثاني

دراسة عامة للقصيدة التائية في القدر

وتحته ستة مباحث:

المبحث الأول: تعريف بالقصيدة التائية.

المبحث الثاني: اسم السائل، وعدد أبيات السؤال، والجواب.

المبحث الثالث: شروح القصيدة.

المبحث الرابع: مجمل ما احتوت عليه القصيدة التائية.

المبحث الخامس: وصف النسخ.

المبحث السادس: ملحوظات، وتنبيهات حول نسختي مجموع الفتاوى، والدرة البهية.



المبحث الأول

تعريف بالقصيدة التائية

المطلب الأول: اسم القصيدة وبحرها:

هذه القصيدة تعرف بالتائية القدرية، أو بتائية ابن تيمية في القدر، أو المنظومة التائية.

وسميت تائية نسبة إلى رَوِيِّها وهو التاء المكسورة.

أما بحرها فهو الطويل.

وقد سماها قائلها شيخ الإسلام ابن تيمية بـ: (القصيدة) وذلك في قوله في البيت الخامس والعشرين:

هو المطلب الأقصى لوراد بحره   وذا عسر في نظم هذي القصيدةِ

وكذا سماها الشيخ حسين[1] بن محمد بن عبدالوهاب - رحمهم الله - في كتابه: (القول الأسنى في نظم الأسماء الحسنى).

---

(١) هو الشيخ العلامة حسين بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب بن سليمان التميمي.

ولد في الدرعية، وكان كفيف البصر، واعي البصيرة، فقرأ على والده، وعلى غيره من علماء الدرعية، وكان هو الإمام والخطيب في جامع الدرعية، وكان جهوري الصوت ذا شهامة وعبادة ووقار، وله مجالس عامرة بالفقهاء والمحدثين، وولي قضاء الدرعية، فَحُمِدَتْ سيرته.

وكان قرب بيته مدرسة لطلبة العلم من الغرباء، وكان متوقد الذكاء شديد الإحساس؛ فقد كان يتجول في شوارع الدرعية بلا قائد، ويَعْرِفُ بمجرد اللمسِ البلحَ هل هو أصفر اللون أو أحمره، ونقلوا عنه من أمثلة هذه الإدراكات أشياء عجيبة.

مات سنة ١٢٢٤هـ بالوباء الذي أصاب الدرعية، ومات منه خلق كثير. انظر علماء نجد خلال ثمانية قرون، تأليف الشيخ عبدالله البسام، دار العاصمة الرياض، ط٢، ١٤١٩هـ، ٢/٦٣-٦٥.

حيث قال: «قصيدة تائية في حل المشكلة القدرية نظمها شيخ الإسلام»[١].

وسماها الشيخ عبدالرحمن السعدي[٢] - يرحمه الله - بـ: (المنظومة).

حيث قال في مقدمة شرحه لتلك القصيدة: «أما بعد: فقد طلب مني بعض الإخوان أن أشرح المنظومة التائية في القدر لشيخ الإسلام».

كما أنه رَحِمَهُ اللهُ عنون لذلك الشرح في صفحة الغلاف بقوله: «الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية».

وعلى كل حال فإن المضمون واحد، سواء سميت قصيدة أو منظومة.

إلا أن لفظ القصيدة أعم من المنظومة؛ حيث إن القصيدة تطلق على الأبيات في المسائل العلمية وغيرها، في حين أن المنظومة تستعمل غالباً في المسائل العلمية.

هذا وقد سميت هذه القصيدة بأسماء أخرى جاءت على بعض أغلفة المخطوطات؛ ففي بعض النسخ جاء عنوانها: (مسألة القدر).

وفي بعضها (حكم مسألة القدر).

---

(١) ص١٥.

(٢) هو الشيخ العلامة المحقق أبو عبدالله عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله بن ناصر آل سعدي التميمي، ولد في عنيزة في القصيم سنة ١٣٠٧هـ، وتوفي سنة ١٣٧٦هـ، ترك جمعاً غفيراً من التلاميذ على رأسهم الشيخ محمد بن عثيمين والشيخ عبدالله بن بسام والشيخ عبدالعزيز السلمان - رحمهم الله- والشيخ عبدالله بن عقيل وغيرهم كثير، وترك مصنفات نافعة منها: تفسيره، وخلاصة التفسير، والقواعد الحسان، والفتاوى، وغيرها.

انظر الشيخ عبدالرحمن السعدي مفسراً للشيخ عبدالله بن سابح الطيار، وصفحات من حياة علامة القصيم الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي للشيخ الدكتور عبدالله بن محمد الطيار، والشيخ عبدالرحمن السعدي وجهوده في العقيدة للشيخ الدكتور عبدالرزاق العباد البدر.

وفي بعضها (سؤال بعض أهل الذميين اليهود في القضاء والقدر).

وفي بعضها (سؤال في القدر).

وسيأتي بيان ذلك عند وصف النسخ.

المطلب الثاني: نسبة القصيدة إلى شيخ الإسلام ابن تيمية:

ليس هناك شك في صحة نسبة هذه القصيدة إلى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

وأغلب من ترجم لشيخ الإسلام يذكر أن له منظومةً في القدر جواباً لسؤال حول القدر، وهذه بعضُ أقوالِ مَنْ ذكَر ذلك.

١ـ قال الحافظ البزار رحمه الله: «أخبرني الشيخ الصالح تاج الدين محمد المعروف بابن الدُّوري: أنه حضر مجلس الشيخ رضي الله عنه وقد سأله يهودي عن مسألة في القدر، قد نظمها شعراً في ثمانية أبيات.

فلما وقف عليها فكَّر لحظة يسيرة، وأنشأ يكتب جوابها، وجعل يكتب ونحن نظن أنه يكتب نثراً، فلما فرغ تأمله مَنْ حضر مِنْ أصحابه، وإذا هو نظم في بحر أبيات السؤال وقافيتها تقرب من مائة وأربعة وثمانين بيتاً.

وقد أبرز فيها من العلوم ما لو شرح بشرح لجاء شرحه مجلدين كبيرين.

هذا من جملة بواهره، وكم من جواب فتوى لم يسبق إلى مثله»[1].

٢ـ وقال الصفدي[2] رحمه الله: «وله أجوبة سؤالات كان يُسألها نظماً فيجيب

---

(١) الأعلام العلية ص٢٨ـ٢٩.

(٢) هو أبو الوفاء صلاح الدين بن أيبك بن عبدالله الصفدي الشافعي المؤرخ الأديب اللغوي، من مصنفاته: الوافي بالوفيات، وغيث الأدب شرح لامية العرب للطغرائي، توفي سنة٧٦٤هـ. انظر شذرات الذهب ٦/٢٠٠، ومعجم الأدباء ٤/١٤.

عنها نظماً ـأيضاًـ»[١].

وقال رحمه الله: «وله قصائد مطولة أجوبة عن مسائل كان يُسأل عنها نظماً مثل مسألة اليهودي»[٢].

ويعني بها هذه القصيدة.

٣ـ وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله في ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكان من أذكياء العالم، وله في ذلك أمور عظيمة، منها أن محمد ابن بكر السكاكيني عمل أبياتاً على لسان ذمي في إنكار القدر وأولها ـفذكر البيتينـ ثم قال:

فوقف عليها ابن تيمية، فثنى إحدى رجليه على الأخرى، وأجاب في مجلسه قبل أن يقوم بمائة وتسعة عشر بيتاً، أولها:

سؤالك يا هذا سؤال معاند ... يخاصم رب العرش باري البرية[٣]

المطلب الثالث: سبب إنشاء القصيدة:

مرت الإشارة إلى سبب إنشاء هذه القصيدة، وذلك أن سائلاً سأل شيخ الإسلام ابن تيمية مسألة في القدر على مذهب الجبرية.

وقد نظمها شعراً في ثمانية أبيات، فلما وقف عليها شيخ الإسلام رحمه الله فكّر

---

(١) الوافي بالوفيات ٣٠/٧، وانظر الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون ص٣٢٠.

(٢) أعيان العصر، وأعوان النصر، لصلاح بن الدين بن خليل الصفدي، تحقيق د. علي أبو زيد وزملائه، ط١، ١٤١٨هـ، دار الفكر دمشق، ٢٤٦/١، وانظر الجامع لسيرة شيخ الإسلام ص٢٩.

(٣) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة (ب ت) ١٦٦/١، وانتظر البدر الطالع للشوكاني ١٧/١.

لحظة يسيرة، ثم أنشأ يكتب جوابها نظماً على بحر الأبيات الواردة وقافيتها [١].

وجوابه هذا من الأمور العظيمة الدالة على ذكاء وفطنة خارقتين للعادة.

ويكْمُنُ حُسْنُ هذه القصيدة في شرف موضوعها، ودقة معانيها، وإصابتها للغرض، واحتوائها على علوم عظيمة.

كيف إذا كانت من إمام جليل كابن تيمية؟ وكيف إذا كان قد نظمها على البديهة؟

هذا وقد كان مقصدُ السائلِ الطعنَ في الشريعة.

ولما ورد هذا السؤال على علماء الإسلام، واشتهر بين الناس ـ انتدب غير واحد من الأعلام غير شيخ الإسلام من أكابر علماء مصر والشام، والأندلس لجواب ذلك السؤال نظماً.[٢]

ومنهم الشيخ علاء الدين الباجي [٣] رحمه الله في قصيدته التي يقول فيها:

أيــا عالمــاً أبــدى دلائــل حَيْــرةٍ ... يــروم اهتــداءً مــن أُهيــل فــضيلة

---

(١) انظر الأعلام العلية ص٢٨ـ٢٩.

(٢) انظر المنظومة التائية لشيخ الإسلام ابن تيمية وشرحها للطوفي للأخ الشيخ محمد نور الإحسان علي يعقوب، ص٣٣٨ وهذا البحث مرقوم على الآلة الكاتبة.

(٣) هو الشيخ علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبدالرحمن بن خطاب الباجي المصري الشافعي، ولد سنة ٦٣١هـ، تفقه بالشام على الشيخ عز الدين بن عبدالسلام، وكان من أئمة الأشاعرة في وقته، توفي سنة ٧١٤هـ. انظر طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، تحقيق محمود الطناحي، عبدالفتاح الحلو، ط١، ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٠/٣٤٠، والدرر الكامنة ٣/١٠١.

لقد سرني أن كنت للحق طالباً ... عسى نفحةٌ للحق من سُحْبِ رحمة

فبالحق نيلُ الحق فالجأ لِبَابِه ... كأهل النهى واترك حبائل حيلةِ

إلى أن يقول:

فكن راضياً نَفْسَ القضاء ولا تكن ... بمقضيٍّ كُفرٍ راضياً ذا خطيئةِ

وتكليفنا بالأمر والنهي قاطع ... لأعذارنا في يوم بعث البريةِ

إلى آخر ما قال في تلك القصيدة التي تبلغ خمسة عشر بيتاً.

ومنهم الأديب ناصر الدين شافع بن عبدالظاهر[1] في قصيدته التي يقول فيها:

سألت ولم تعرف وكم من مباحث ... جرت من أهيل العلم في ذي الحقيقةِ

وما أنت يا ذميُّ مبتكرٌ كما ... توهَّمْته من دون ماضي البرية

نعم كلُّ شيءٍ كائنٌ بقضائه ... وتقديره حتماً بأوضح حجة

وهل واقع ما لا يشاء بملكه ... لقد ضل من ذا رأيه في القضية

وإن الرضا غير القضاء فلا تكن ... تنازع فيما شاءه من مشيئة

له المحو والإثبات جل جلاله ... فلا تعترض في حكمه وتثبَّتِ

وكن بجوابي مُسلماً ومسلِّماً ... وكن باتباع الحق من خير أمة

ومنهم الشيخ شمس الدين بن اللبان[2] رحمه الله في قصيدته التي يقول فيها:

---

(١) هو الإمام الأديب شافع بن علي بن إسماعيل بن عساكر الكناني العسقلاني ثم المصري، ولد سنة ٦٤٩هـ، وتوفي سنة ٧٣٠هـ. انظر أعيان العصر ٢/٥٠١-٥٠٢، والدرر الكامنة ٢/٢٨١.

(٢) هو الإمام العلامة محمد بن أحمد بن عبدالمؤمن الأسعردي، ثم الدمشقي شمس الدين اللبان الشافعي نزيل القاهرة ولد سنة ٦٨٥ هـ تقريباً، وتوفي سنة ٧٤٩هـ. انظر طبقات الشافعية الكبرى ٩/٩٤، والدرر الكامنة ٥/٦٠-٦١.

ألا بعد حمد الله باري البرية ... على ما هدانا من كتاب وسنة

بأفضل مبعوث إلى خير أمة ... عليه من الرحمن أزكى تحية

فإن صحيحاً كون ما شاء ربنا ... ونفي سوى ما شاءه من مشيئة

ولم يرض كفر العبد أي لا يحبه ... له لا ولا يثني عليه بمدحة

وحيلة من لم يهده الله أنه ... يلاحظ وجهَ العجز في كل لحظة

وينفي القذى عن عين فكرته ولا ... يميل بأسباب الحجى عن محجة

ويجهد علَّ الجهد في قصد ربه ... بصدق وعزم وابتهال وحرقة

وحينئذٍ يرجى له فتحُ كلِّ ما ... غدا مُرْتَجًا من باب فضل ورحمة

فإن قضاء الله يطلق تارة ... بكفر وإيمان فيخفى لحكمة

وآونةً يجرى تَعَلُّقه بنا ... على سبب نعتاده كالشريطة

كَسُمٍّ لموت أو دواء لصحة ... وطوع وعصيانٍ لسَعْد وشقوة

وقد جعل الله الحكيم لعبد اخـ ... ـتياراً لأسباب الرضا والقطيعة

ويسَّره من بعد هذا لما قضى ... عليه ليمضي فيه حكم المشيئةِ

إلى آخر ما قاله في قصيدته التي تبلغ ثمانيةً وعشرين بيتاً.

ومنهم الشيخ نجم الدين أحمد بن محمد الطوسي[1] رحمه الله في قصيدته التي يقول فيها:

---

(١) كذا ذكره السبكي في طبقات الشافعية الكبرى ٣٥٩/١٠، وواضح من اسمه أنه من أهل طوس، وقد أشار هو إلى ذلك بقوله في قصيدته في الرد على الذمي:

إلهي تعطف وارحم العبد أحمدا ... بطوس بدت فيها له من إرادة

ألا أصْغ يا ذميٌّ إن كنت سامعاً جوابَ سؤالٍ رُمْتَه بالأدلة

ودبّر بعقل مدرك سر ما بدا بإنشاء رب الكون في كل حالة

إلى آخر ما قاله في قصيدته التي تبلغ مائة وخمسة أبيات.

ومنهم الشيخ علاء الدين القونوي[1] رحمه الله في قصيدته التي يقول فيها:

حمدت إلهي قبل كل مقالة وصليت تعظيماً لخير البرية

وحاولت إبداء النصيحة منصفاً لمن طلب الإيضاح في حل شبهة

فأول ما يلقى إلى كل طالب لتحقيق حق واتباع حقيقة

يروع الذي من كل عقد وشبهة يصد عن الإمعان في نظم حجة

وإلقاء سمع واجتناب تعنُّتٍ فلا خير في المستمحن المتعنت

إذا صح منك الجِدُّ في كشف غمة بليت بها فاسمع هديت لِرَشدة

إلى أن قال:

فمن جملة الأسباب فيما رفضته مع الأمر والإمكان لفظ شهادة

فأنت كمن لا يأكلُ الدهرَ قائلاً أموت بجوع إذ قضي لي بجوعة

إلى أن قال:

ولو كنت أدري أن ذهنك قابل لفهم كلام ذي غموض ودقة

---

(١) هو الإمام الفقيه علاء الدين علي بن إسماعيل بن يوسف القونوي الشافعي، كان من أهل التقوى، والعلم، والفضل، ولد بقونية من بلاد الروم سنة ٦٦٨هـ.

ولي قضاء الشام، وأقام بالقاهرة قريباً من ثلاثين سنة يلقي دروساً، وتوفي سنة ٧٢٩هـ. انظر طبقات الشافعية الكبرى ١٠/١٣٢ـ١٣٤، والدرر الكامنة ٤/٢٩ـ٣٣.

لأشبعت فيه القول بسطاً محققاً على نَمَطَيْ عِلْمَيْ كلام وحكمة

إلى آخر ما قاله في قصيدته التي تبلغ خمسة وعشرين بيتاً[١].

ومنهم الشيخ ابن لب الأندلسي[٢] رحمه الله وهذا جوابه:

قضى الرب كفر الكافرين ولم يكن ليرضاه تكليفاً لدى كل ملة

نهى خلقه عما أراد وقوعه وإنفاذه والملك أبلغ حجة

فنرضى قضاء الرب حُكماً وإنما كراهتنا مصروفةٌ للخطيئةِ

فلا تَرْضَ فِعْلاً قد نهى عنه شرعُه وسلِّم لتدبير وحكم مشيئةِ

دعا الكلَّ تكليفاً ووفَّق بعضهم فخصَّ بتوفيق وعمَّ بدعوةِ

فتعصي إذا لم تنتهج طُرْقَ شرعه وإن كنت تمشي في طريق المشيئة

إليك اختيارُ الكسب والله خالق مريدٌ بتدبير له في الخليقة

وما لم يرده الله ليس بكائن تعالى وجل الله ربُّ البريةِ

فهذا جواب عن مسائل سائل جهول ينادي وهو أعمى بصيرة:

أيا علماء الدين ذميٌّ دينكم تحير دُلُّوه بأوضح حجة[٣]

---

(١) هذه الأجوبة للعلماء المذكورين أوردها السبكي في طبقاته الكبرى ١٠/٣٥٣-٣٦٦.

(٢) هو العلامة أبو سعيد فرج بن قاسم بن أحمد بن لب الثعلبي الغرناطي الأندلسي المالكي، كان فاضلاً عالماً متفنناً من أكابر علماء المالكية توفي سنة ٧٨٣هـ. انظر شذرات الذهب ٢٨٠/٣، و نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد محمد المقري التلمساني، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الكتاب العربي، لبنان، ٥٤/٨.

(٣) الإفادات والإنشادات، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي الأندلسي تحقيق الدكتور محمد أبو الأجفان، ط١، ١٤٠٣هـ-١٩٩٨م، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص١٧٢-١٧٣.



المبحث الثاني

اسم السائل، وعدد أبيات السؤال والجواب

المطلب الأول: اسم السائل: أما السائل فقد اختلف فيه على أقوال[(١)]:

القول الأول: أن السائل هو السكاكيني الشيعي[(٢)]: وهذا هو الذي جزم به الحافظ ابن كثير[(٣)] وتابعه عليه الحافظ ابن حجر، والسخاوي[(٤)] والشوكاني[(٥)] ـرحمهم الله جميعاًـ.

---

(١) انظر المنظومة التائية ص٣٣٨ـ٣٤٣.

(٢) السكاكيني: هو محمد بن أبي بكر بن أبي القسم الهمذاني ثم الدمشقي الشيعي المعروف بالسكاكيني؛ لأنه كان يحترف صناعة السكاكين عند شيخ رافضي؛ فأفسد عقيدته.

ولد بدمشق سنة ٦٣٥هـ، وتوفي سنة ٧٢١.

وسيأتي مزيد حديث عنه. انظر ذيل تاريخ الإسلام، للذهبي، اعتنى به مازن بن سالم باوزير، ط١، ١٤١٩هـ ـ١٩٩٨م، دار المغني الرياض، ص٢٣٧، والدرر الكامنة لابن حجر ١٤٩/٥.

(٣) هو أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البصري ثم الدمشقي الشافعي، الإمام المفسر الحافظ، ولد في بصرى سنة ٧٠١هـ، ثم انتقل إلى دمشق، وبرع في الفقه والتفسير والنحو والحديث، ومن مصنفاته: تفسير القرآن العظيم، والبداية والنهاية، توفي سنة ٧٧٤. انظر شذرات الذهب ٢٣١/٦.

(٤) هو محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن شمس الدين أبو الخير السخاوي المصري الشافعي الإمام الحافظ المؤرخ الأديب نزيل الحرمين الشريفين، رحل إلى الآفاق طلباً للعلم، وألف كتباً كثيرة جداً منها: فتح المغيث بشرح ألفية الحديث، والقول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع.

توفي في المدينة سنة ٩٠٢هـ. انظر شذرات الذهب ١٦/٨، والأعلام ١٩٤/٦.

(٥) هو الإمام القاضي العلامة محمد بن علي الشوكاني المولود في اليمن عام ١١٧٣هـ والمتوفي عام ١٢٥٠هـ، كان من العلماء المتفننين؛ فقد كان مفسراً، ومحدثاً، وفقيهاً، وأصولياً، وأديباً وشاعراً، وناقداً، ومحققاً، ومؤرخاً.

وكان ذا خلق فاضل، ونفس عزيزة، وله مؤلفات كثيرة منها تفسيره المعروف بـ: فتح القدير، ومنها البدر الطالع، وإرشاد الفحول، وأدب الطلب. انظر ترجمته في مقدمة أدب الطلب تحقيق ودراسة الأستاذ عبدالله السريحي.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «كان الشيخ محمد السكاكيني يعرف مذهب الرافضة والشيعة[1] جيداً، وكانت له أسئلة على مذهب أهل الجبر، ونظم في ذلك قصيدة أجابه فيها شيخنا الإمام العلامة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله»[2].

وقال الحافظ ابن حجر في ترجمة السكاكيني: «ونسب إليه عماد الدين بن كثير الأبيات التي أولها:

يا معشر الإسلام ذمي دينكم ..... الأبيات»[3].

وقال الإمام الشوكاني رحمه الله: «وحكي عنه -أي شيخ الإسلام- أنه لما وصل إليه السؤال الذي وضعه السكاكيني على لسان يهودي، وهو -فذكر البيتين من

---

(١) تعريف الشيعة مرتبط أساساً بأطوار نشأتهم ومراحل التطور العقدي لهم، ذلك أن الملحوظ أن عقائد الشيعة وأفكارها في تغير وتطور مستمر؛ فالتشيع في العصر الأول غير التشيع فيما بعده، ولهذا كان في الصدر الأول لا يسمى شيعياً إلا من قدم علياً على عثمان، ولذلك قيل شيعي؛ وعثماني فالشيعي من قدم علياً على عثمان، والعثماني من قدم عثمان على علي.

فعلى هذا يكون التعريف للشيعة في الصدر الأول أنهم الذين يقدمون علياً على عثمان فقط.

إلا أن التشيع لم يستمر على هذا النقاء والصفاء والسلامة والسمو بل إن مبدأ التشيع تغير فأصبحت الشيعة شيعاً، وصار التشيع قناعاً يستتر به كل من أراد الكيد للإسلام والمسلمين من الأعداء الموتورين الحاسدين، وأصبحت الشيعة هي القسيم لأهل السنة حين انفردت بعقائدها وآرائها المخالفة للحق.

وأخيراً استوعبت الشيعة الإمامية الاثنا عشرية معظم آراء الشيعة واعتقاداتها وصار التشيع علماً عليها.

انظر أصول مذهب الشيعة د. ناصر القفاري ١/٣١-٥٣ و٥٥، ومسألة التقريب للقفاري ١/١٢٠.

(٢) البداية والنهاية ١٤/٢١١.

(٣) الدرر الكامنة ٤/٣١، وانظر التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، للسخاوي، ط١، ١٩٩٣م، دار الكتب العلمية بيروت، ٣/٥٤٥.

مطلع أبيات السؤال»[١].

القول الثاني: أن الناظم لأبيات السؤال هو ابن البققي[٢]: وهذا القول ذكره السبكي[٣] في طبقاته[٤] حيث قال: «ويقال: إن الناظم هو ابن البققي، الذي ثبت عليه أقوال تدل على الزندقة[٥] وقتل بسيف الشرع الشريف في ولاية الشيخ

---

(١) البدر الطالع ٧١/١.

(٢) هو فتح الدين أحمد بن محمد البققي المصري ولد سنة ٦٦٠ تقريباً، وتفقه كثيراً، واشتغل، وتأدب، وناظر حتى مهر في كل فن، وقطع الخصوم في المناظرة، وفاق الأقران في المحاضرة، وبدت منه أمور تنبئ أنه مستهزئ بأمور الديانة، فادُّعي عليه عند القاضي المالكي زين الدين بن مخلوف بما يقتضي الانحلال، واستحلال المحرمات، والاستهزاء بالدين، فحكم المالكي بقتله، فضربت رقبته بمصر على الزندقة، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٧٠١.

قال عنه الذهبي رحمه الله: «كان عالماً مفنناً مناظراً، وكان من الأذكياء ممن لم ينفعه علمه، كان يشطح ويتفوه بعظائم، وينعق بمسعدة النبوة، ويتجهرم بتحليل المحرمات».

انظر ترجمته في البداية والنهاية ٦/١٨ـ٧ والدرر الكامنة ٣٦٥/١ـ٣٦٦، وشذرات الذهب لابن العماد ٢/٦، وفيه ابن الثقفي وهو تصحيف.

(٣) هو أبو نصر عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي السبكي القاضي المؤرخ المتكلم الشافعي، من مصنفاته طبقات الشافعية الكبرى، ومعيد النِّعم ومبيد النِّقَم مات سنة ٧٧١هـ. انظر الأعلام ١٨٤/٤.

(٤) ٣٥٣/١٠.

(٥) الزندقة: لفظ الزندقة، والزنادقة، والزنديق ـ يرد كثيراً في كتب العقائد.

والحديث عنه سيكون حول المسائل التالية:

أولاً: منشأ كلمة الزندقة: الزندقة اسم اشتقه العرب من كلمة (زندو) بالفارسية، الدالة على كتاب الفرس المقدَّس الذي يقال له بالفارسية: (الزندوفستا).

وهو كتاب ماني بن فاتك الحكيم الذي ظهر في زمان سابور بن أردشير، وقتله بهرام بن هرمز ابن سابور، وذلك بعد عيسى ـعليه السلامـ. =

تقي الدين دقيق العيد القشيري».

القول الثالث: أن السائل هو بعض المعتزلة، وكتم اسمه، وجعله على لسان بعض أهل الذمة، أو على لسان بعض اليهود:

=وقد أحدث ديناً بين المجوسية والنصرانية، وكان يقول بنبوة المسيح، ولا يقول بنبوة موسى ـعليهما السلام ـ.

ويقال لأتباعه: المانوية، ويقال لهم: الثنوية؛ لأنهم يثبتون إلهين.

فيقال: تزندق إذا اعتقد اعتقاد المجوس الفرس، أي انتسب للزندو، ثم اشتقوا منه (زندقة) للاعتقاد، و(زنديق) للمعتقد.

ثانياً: على من يطلق لفظ (الزندقة) و(الزنديق): يطلق على من يُسِرُّ اعتقاد المجوس؛ فلا يسمى المجوسي المتظاهر بالمجوسية زنديقاً.

ثم صار اسماً علماً في الفقه يدل على من يظهر الإسلام، ويبطن الكفر، سواء كان كفره باعتقاد المجوسية الفارسية، أم بالدهرية، أم بغير ذلك.

ولذلك قالوا: الزنديق يرادف المنافق، وخصوا المنافق بمبطن الكفر في زمن الرسول ﷺ والزنديق بمبطن الكفر بعد ذلك الزمن.

ثالثاً: ظهور الرمي بالزندقة: كان الرمي بالزندقة قد طلع قرنه في أثناء القرن الأول الإسلامي، ثم بلغ أشده في القرن الثاني؛ بسبب ما عظم من المخالفات الاعتقادية، والتعصبات المذهبية، وقضاء الأوطار السياسية.

رابعاً: ما يصير به المرء معرضاً إلى تهمة الزندقة: يصير إذا كان فارسي الأصل، وأُثِر عنه بُغض العرب، وكان من أهل الخلاعة والمجون، أو المزح في الأمور الراجعة إلى العبادات، أو أن يكون لا يحفظ من القرآن شيئاً؛ فقد أخذ بذلك محمد بن أبي عبيدالله وزير المهدي ـ حسبما ذكره ابن الأثير في حوادث سنة ١٦١هـ.

هذا والمهدي لم يكن له من أصالة الرأي ما كان للمنصور والسفاح؛ فأغرق في تقصي أحوال الناس، والرمي بالزندقة. انظر كلام الشيخ العلامة محمد الطاهر بن عاشور في مقدمة تحقيقه لديوان بشار بن برد، تقديم، وشرح، وتكميل، العلامة محمد الطاهر بن عاشور، مطبعة لجنة التأليف ١٣٦٩هـ ـ١٩٥٠م، علق عليه ووقف على طبعه محمد رفعت فتح الله، ومحمد شوقي أمين، ص١٦ـ٢٠. وانظر الملل والنحل، للشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة بيروت لبنان، ١/٢٤٤.

وهذا القول جزم به السبكي في طبقاته[١] حيث قال: «ولما ظهر السؤال الذي أظهره بعض المعتزلة، وكتم اسمه، وجعله على لسان بعض أهل الذمة...».

ولعل هذا القول هو الذي يعنيه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بقوله: «وكما رأينا كثيراً منهم - أي المعتزلة - يضع كتاباً، أو قصيدة على لسان بعض اليهود، أو غيرهم، ومقصودهم بذلك الردُّ على المثبتين للقدر»[٢].

القول الرابع: أن السائل رجل يهودي، أو من أهل الذمة:

وهذا القول ذكره الحافظ البزار فيما أخبره به ابن الدوري، وقال به الصفدي - كما تقدم -.

وذكر السبكي في الطبقات الوسطى[٣] أنه بعض يهود الشام.

وجاء عنوان القصيدة في مجموع الفتاوى لابن تيمية: «سؤال عن القدر أورده أحد علماء الذميين»[٤].

وقال الطوفي رحمه الله في مقدمة شرحه للقصيدة التائية: «... عن مسألة سأله عنها بعض أهل الذمة»[٥].

هذا هو مجمل ما قيل في شأن صاحب السؤال.

---

(١) ١٠/٣٥٢.

(٢) مجموع الفتاوى ٨/١١٥.

(١) انظر حاشية طبقات الشافعية الكبرى ١/٣٥٣.

(٢) مجموع الفتاوى ٨/٢٤٥.

(٥) شرح جواب ابن تيمية (مخطوط) ص٢، وسيأتي تمام الكلام على المقدمة في المبحث الثالث عند الحديث عن شروح القصيدة التائية.

والناظر في تلك الأقوال يكاد يرجعها إلى القولين الأولين؛ حيث إن الخلاف واقع في السائل: أهو السكاكيني، أم ابن البققي، وذلك لما يلي:

١ـ أن عدداً من الحفاظ كابن كثير، وابن حجر، والسخاوي، والشوكاني ـ صرحوا بأنه السكاكيني.

والذين لم يصرحوا كالسبكي وغيره قالوا: إنه بعض المعتزلة، وكتم اسمه، أو هو شاعر رافضي وجعله على لسان أهل الذمة أو اليهود.

٢ـ أن الذين ترجموا للسكاكيني ذكروا أنه كان شيعياً فيه اعتزال، وأنه كان يناظر على القدر، وينكر الجبر.

قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وهو ممن يتسنَّن به الشيعي، ويتشيع به السني»[1].

وقال عنه الذهبي رحمه الله: «كان حلو المجالسة، ذكياً عالماً، فيه اعتزال، وينطوي على دين وإسلام وتعبد، سمعنا منه، وكان صديقاً لأبي، وكان ينكر الجبر، ويناظر على القدر»[2].

وأما ما ذكر من أن السائل يهودي، وأنه من أهل الشام فهذا لا ينافي كون السؤال وضع على لسان اليهود، أو أهل الذمة؛ لأن اليهود هم أهل الذمة في ذلك الوقت.

ولما كان السؤال قد وضع على لسان أهل الذمة من اليهود، وظهر بين الناس واشتهر في البلاد صار الكلام كأنه لهم؛ فلذلك نسبه بعض العلماء إلى بعض

---

(٢) انظر الدرر الكامنة ٤/٣٠.

(٢) ذيل تاريخ الإسلام ص٢٣٧، والدرر الكامنة ٤/٣٠.

اليهود؛ فيطلق عليه: مسألة اليهودي.

ولعل الأقرب ما ذهب إليه ابن كثير، وابن حجر، والسخاوي، والشوكاني وهو أن السائل هو السكاكيني الشيعي المعتزلي.

وأما ما يقال من أن الناظم هو ابن البققي فضعيف؛ لأن الذي ذكر هذا القول -وهو السبكي- قاله بصيغة التمريض، مما يدل على أنه لا يجزم به.

ومع هذا فإنه لا يستبعد أن يصدر من ابن البققي وأمثاله ممن ثبت عليهم أمور تدل على الزندقة، والانحلال، واستحلال المحرمات، والاستهزاء بالدين - مثل هذا السؤال[1].

المطلب الثاني: عدد أبيات السؤال، وعدد أبيات الجواب: أما عدد أبيات السؤال فقد اتفقت جميع النسخ التي وقفت عليها على أنها ثمانية أبيات.

وأما جواب شيخ الإسلام ابن تيمية فقد اختلف في عدد أبياته على أقوال؛ حيث ذكر البزار أنها تقرب من مائة وأربعة وثمانين بيتاً[2].

وقال ابن عبد الهادي رحمه الله: «بل هي مائة وخمسة أبيات»[3].

---

(١) انظر طبقات الشافعية الكبرى ١٠/٣٥٣، والدرر الكامنة ١/٣٢٩، والمنظومة التائية ص٣٤٢-٣٤٣.

(٢) الأعلام العلية ص٢٩.

(٣) العقود الدرية، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي، دراسة وتحقيق أبي مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، الناشر الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ط٢، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م، ص٣٠٦.

وذكر الحافظ ابن حجر أن عدد أبياتها مائة وتسعة عشر بيتاً[1].

وأما النسخ الخطية والمطبوعة فمختلفة في عددها ـ على ما سيأتي تفصيله عند الحديث عنها ـ.

والذي تبين بعد مقابلة النسخ أن عدد الأبيات مائة وخمسة وعشرون بيتاً.

---

(١) الدرر الكامنة ١/١٦٦.

المبحث الثالث

شروح القصيدة التائية

لا أعلم أحداً تعرض لشرح تلك القصيدة إلا اثنين:

أحدهما: العلامة سليمان بن عبدالقوي الطوفي الحنبلي(١) المعروف بالطوفي رحمه الله وشرحه مخطوط لم يَخْرُجْ إلى الآن، ويقوم على تحقيقه ودراسته الأخ الشيخ محمد نور في رسالة علمية في قسم العقيدة بالجامعة الإسلامية.

وشرح الطوفي موجود لدي؛ حيث أمدني به الأخ الشيخ محمد نور -حفظه الله- وقد اطلعت على ذلك الكتاب بعد شرح هذه القصيدة، ورغبت في الاستفادة منه، وزيادة ما يُحتاج إليه.

وهذا الشرح -أعني شرح الطوفي- يتميز بتحليل الألفاظ، وشرحها شرحاً لغوياً وأصولياً.

كما أنه شرح موافق لما عليه عقيدة السلف في الجملة، وإن كان عليه بعض

---

(١) هو الشيخ العلامة أبو الربيع نجم الدين سليمان بن عبدالقوي بن عبدالكريم بن سعيد الطوفي الصرصري البغدادي الحنبلي ولد سنة ٦٧٣هـ وقيل ٦٧٥هـ في قريته طوفى أو طوف من أعمال صرصر من سواد بغداد، وقد أوتي قوة الحافظة، وشدة الذكاء، وكان يتردد على العلماء ويحرص على الطلب، وكان حسن الخلق، ذا قناعة، وقصد، وتدين، وزهد.

توفي سنة ٧١٦هـ، وترك آثاراً كثيرة في التفسير وعلومه، والحديث، والعقيدة والأصول، والعربية، وتصل مؤلفاته إلى سبع وخمسين كتاباً، منها الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية، وعَلَمُ الجذل في عِلْم الجدل، والصعقة الغضبية في الرد على منكري العربية. انظر ذيل طبقات الحنابلة ٣٦٧/٢، والدر الكامنة ٢٤٩/٢.

المآخذ؛ حيث يوافق أهل الكلام، والأشاعرة على وجه الخصوص في بعض المسائل، كحديثه عن إثبات النبوة بالمعجزات فحسب، ومسألة التحسين والتقبيح، ومسألة الكسب[1] عند الأشاعرة، كما أنه يورد بعض الأحاديث الضعيفة.

---

(١) نظرية الكسب عند الأشاعرة ترد كثيراً في كتبهم، وفي كتب من يخالفونهم إذا أرادوا الرد عليهم.

وهي ترد في باب القدر على وجه الخصوص؛ فجمهور الأشاعرة ومتأخروهم يرون أن الله -عز وجل- خالق أفعال العباد فيثبتون مرتبتي المشيئة والخلق، ولكنهم يقولون: «إن أفعال العباد الاختيارية واقعة بقدرة الله -تعالى- وحدها، وليس لقدرتهم تأثير فيها، بل الله -سبحانه- أجرى عادته بأن يوجد في العبد قدرة واختياراً؛ فإذا لم يكن هناك مانع أوجد فيه فعله المقدور مقارناً لهما؛ فيكون الفعل مخلوقاً لله إبداعاً وإحداثاً، ومكسوباً للعبد.

والمراد بكسبه إياه: مقارنته لقدرته وإرادته من غير أن يكون هناك من تأثير أو مدخل في وجوده سوى كونه محلاً له» انظر شرح المواقف للزنجاني - الموقف الخامس - تحقيق د.أحمد المهدي، مكتبة الأزهر، ١٣٩٦هـ، ص٢٣٧.

فهم -إذاً- يرون أن أفعال العباد كلها مخلوقة لله -تعالى- وهي كسب للعباد.

وعلى ذلك يترتب الثواب والعقاب، ولا تأثير لقدرة العبد في الفعل.

وهذا قول جمهور الأشاعرة، وهو القول الذي شنع بسببه المعتزلة على الأشاعرة؛ لأنهم لما لم يثبتوا للعبد قدرة مؤثرة لم يكونوا بعيدين من قول الجبرية الجهمية؛ فهم أرادوا أن يوفقوا بين الجبرية والقدرية؛ **فجاؤوا بنظرية الكسب**، وهي في مآلها جبرية خالصة؛ لأنها -كما مر- تنفي أي قدرة للعبد أو تأثير. انظر الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم، للإمام محمد بن إبراهيم الوزير اليماني، طبع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٤٠٣هـ، ٢١/٢، والروضة البهية فيما بين الأشاعرة والماتريدية لأبي عذبة، حققه د. عبدالرحمن عميرة، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٩هـ، ص٤٢، ولوامع الأنوار ٢٩١/١-٢٩٢، ومنهج الأشاعرة في العقيدة، للشيخ د. سفر الحوالي، الدار السلفية، الكويت، ط١، ١٤٠٧هـ، ص٤٣، والقضاء والقدر د.عبدالرحمن المحمود ص٣١١-٣١٦، والرد الأثري المفيد على البيجوري في شرح جوهرة التوحيد، عمر ابن محمود أبو عمر، دار الكتب الأثرية للتحقيق والنشر، ودار الراية للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٩هـ، ص١٠٣-١٠٨.

ولهذا اشتهر المذهب الأشعري - بناءً على مقالتهم تلك- بنظرية الكسب التي صارت علماً عليهم، فما معنى الكسب عندهم؟ =

=للكسب عندهم تعريفات أهمها:

١ـ أنه ما يقع به المقدور من غير صحة انفراد القادر به. انظر الإنسان هل هو مسير أم مخير، د.فؤاد العقلي، ط١، ١٩٨٠م، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص١١.

٢ـ أنه ما يقع به المقدور في محل قدرته. انظر شرح جوهرة التوحيد، للشيخ إبراهيم الباجوري، نسَّقه وخرج أحاديثه محمد أديب الكيلاني، وعبدالكريم تتان، راجعه وقدم له عبدالكريم الرفاعي، ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م، ص٢١٩.

٣ـ أنه ما وجد بالقادر، وله عليه قدرة محدثة. انظر المعتمد في أصول الدين، لأبي يعلى الفراء، المطبعة الكاثوليكية بيروت، ط١، ص١٢٨.

ويضرب بعضهم للكسب مثلاً «في الحجر الكبير قد يعجز عن حمله رجل، ويقدر آخر على حمله منفرداً به، إذا اجتمعا جميعاً على حمله كان حصول الحمل بأقواهما، ولا خرج أضعفهما بذلك من كونه حاملاً.

كذلك العبد لا يقدر على الانفراد بفعله، ولو أراد الله الانفراد بإحداث ما هو كسب للعبد قدر عليه، وَوُجِدَ مقدوره؛ فوجوده على الحقيقة بقدرة الله ـتعالىـ ولا يخرج ـ مع ذلك ـ المُكْتَسِبُ من كونه فاعلاً، وإن وجد الفعل بقدرة الله ـتعالىـ». انظر أصول الدين للبغدادي ص١٣٣ـ١٣٤، وانظر القضاء والقدر للمحمود ص٣١٣.

وهكذا تؤوْل هذه النظرية جبرية خالصة ـكما مرـ ويبقى الخلاف بينهم وبين الجبرية خلافاً لفظياً بل طريقتهم أكثر غموضاً.

أما حقيقتها النظرية الفلسفية فقد عجز الأشاعرة عن فهمها فضلاً عن إفهامها غيرهم، ولهذا قيل:

مما يقال ولا حقيقة تحته ... معقولة تدنو إلى الأفهام

الكسب عند الأشعري والحال عنـ ... ـد البهشمي وطفرة النظام

وقد دار حول الكسب جدال طويل، ولم ينته الأشاعرة فيه إلى قول مستقيم. انظر القضاء والقدر للمحمود ص٣١٣، ومنهج الأشاعرة في العقيدة د. سفر الحوالي ص٤٣٦، وباعث النهضة الإسلامية ابن تيمية السلفي نقده لمسالك المتكلمين والفلاسفة في الإلهيات، د. محمد خليل هراس، مكتبة الصحابة، طنطا، ١٤٠٥هـ، ط٢، ص١٨٣ـ١٨٧.

ومن الأشاعرة من يرى أن الفعل واقع بقدرة العبد، وأن العبد له كسب، وليس مجبوراً، وهذا هو قول الباقلاني.

يقول رحمه الله: «ويجب أن يعلم أن العبد له كسب، وليس مجبوراً، بل مكتسب لأفعاله من طاعة =

كما أنه رحمه الله لم يشرح إلا مائة وأربعة أبيات، بينما عدد أبيات القصيدة مائة وخمسة وعشرون بيتاً ـ كما هو موضح عند الحديث عن وصف النسخ ـ.

وقد يتوقف رحمه الله أحياناً نادرة في شرح بعض الأبيات كما في شرح البيت الثامن والتسعين؛ حيث توقف في قول ابن تيمية: «كاحتجاج مريضة».

وبالجملة فإنه شرح نفيس رائع يدل على قوة الطوفي، وعمقه، وطول نفسه، وغوصه في المسائل الدقيقة، خصوصاً المسائل اللغوية والأصولية.

واسم هذا الشرح ـ كما هو موجود على غلاف المخطوط ـ شرح جواب ابن تيمية.

يقول رحمه الله في مقدمة شرحه مبيناً سبب ذلك: «أما بعد فإن بعض أصحابنا ـوفقهم الله تعالى لإدراك الحقائق، ووقاهم دون ذلك شغل الشواغل وعوق العوائقـ سألني إملاء جملة أشرح فيها ما أجاب به الإمام العلامة، والعضب

=ومعصية؛ لأنه ـتعالىـ قال: ﴿لَهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة:٢٨٦) يعني من ثواب طاعةٍ، ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة: ٢٨٦) يعني من عقاب معصية.

وقوله: ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ (الروم:٤١) وقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (الشورى: ٣٠) وقوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾ (فاطر: ٤٥).

ويدل على صحة هذا أن العاقل منا يفرق بين تحرك يده جبراً، وسائر بدنه عند وقوع الهم به، أو الارتعاش وبين أن يحرك هو عضواً من أعضائه قاصداً إلى ذلك باختياره؛ فأفعال العباد هي كسب لهم، وهي خلق الله ـتعالىـ فما يتصف به الحق لا يتصف به الخلق، وما يتصف به الخلق لا يتصف به الحق، وكما لا يُقال لله ـتعالىـ إنه مكتسب، كذلك لا يُقال للعبد: إنه خالق». انظر الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، للقاضي أبي بكر الطيب الباقلاني، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، ص٧٠ـ٧١.

الصمصامة[١] زينة محافل المناظرة والجدال، وفارس غياطل[٢] المكافحة والنزال، شهاب مردة المبتدعين، وعقاب[٣] أغربة[٤] الضالين المضلين، عماد الملة والحق والدين، حجة الله على العالمين، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، ابن تيمية الحراني، رأب الله به ثأي[٥] الإسلام، وألصق أنوف عداه خاضعة له بالرغام، وجعله ـوقد فعلـ مجدد دين نبي الأميين على رأس السابعة من المئين عن مسألة سأله عنها بعض أهل الذمة نظماً؛ فأجبته إلى ذلك على حسب الإمكان، ومساعدة الزمان والمكان، وعُنيت فيها أولاً بحل ألفاظها ومبانيها، ثم بالكشف عن حقائق مقاصدها ومعانيها.

إذ رأيت السائل يستشكل منها أشياء، ويودُّ لو كانت نقيةً بيضاء، سائلاً من الله ـتعالىـ التوفيق لتصحيح النية، راغباً إليه في بلوغ الأمنية، عايذاً به، متوكلاً عليه، مفوضاً ما يتعلق بي من أمور الدنيا والآخرة إليه، داعياً له بالعصمة، وهو

---

(١) العضب الصمصامة: من أسماء السيف. انظر لسان العرب ٣٤٧/١٢.

(٢) غياطل: جمع غيطلة، وتطلق على الظلمة، والسواد، والتباس الظلام، واجتماع الشجر، والصوت، والجلبة، وازدحام الناس، وكثرة أصوات الحرب. انظر لسان العرب ٤٩٧/١١.

ويريد بذلك أن شيخ الإسلام رحمه الله هو مُقَدَّمُ الناس في الحروب إذا ازدحمت الصفوف، وتعالت الأصوات واختلطت؛ لشجاعته وإقدامه.

(٣) العقاب مفرد عقبان، وهي عتاق الطير. انظر لسان العرب ٦٢١/١.

(٤) أغربة: جمع قلة لغراب، يريد أن شيخ الإسلام رحمه الله هو بمثابة الطائر الكاسر الذي ينقض على فريسته؛ فلا تفلت منه؛ فخصومه ومناظروه لا يقوم لهم شأن أمامه.

(٥) رأب به الثأي: أي أصلح به الفساد. انظر لسان العرب ١٠٦/١٤ـ١٠٧.

سميع قريب، لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه أنيب»[1].

الثاني: الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي المتوفى سنة ١٣٧٦هـ رحمه الله.

وشرحه مطبوع متداول في رسالة سماها:

(الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية).

حيث شرحها شرحاً لطيفاً مختصراً كشف من خلاله عن معانيها، وأتى على مقاصدها بأسلوب سلس يسير واضح دون تعرض للتفصيل، أو شرح الألفاظ وتحليلها.

وهذه الرسالة موجودة ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن السعدي التي نشرها مركز صالح بن صالح الثقافي في عنيزة عام ١٤١١هـ، وذلك ضمن المجلد الثالث الخاص بالعقيدة من ص١٤٤ـ١٨٨.

كما أنها طبعت مفردة قبل ذلك، وبعده عدة مرات.

---

(١) شرح جواب ابن تيمية في القدر للطوفي (مخطوط) ص٢ـ٣.

المبحث الرابع

مجمل ما احتوت عليه القصيدة التائية

هذه القصيدة احتوت على مباحث عديدة دقيقة في باب القدر، فيما يلي إجمالٌ لما احتوت عليه:

١ـ الرد على السائل الذمي، وبيانُ ضلاله، وأن سؤاله سؤال مخاصم معاند ـكما يظهر من لحن قولهـ.

٢ـ بيان المنهج الحق في القدر، وأنه وسط بين ضلالتي الجبريةِ، والقدريةِ.

٣ـ الرد على الطوائف التي ضلت في باب القدر كالقدرية النفاة، والقدرية الجبرية، والقدرية الإبليسية، والفلاسفة، وغيرهم.

٤ـ بيان أسباب الضلال في البشر، وأن الخوض في القدر من أعظم تلك الأسباب.

٥ـ التطرق لمسألة الحكمة، والتعليل في أفعال الله، وأقداره، وشرعه؛ حيث أبدى وأعاد كثيراً في هذه المسألة.

٦ـ التطرق للحكمة من خلق بعض الأشياء التي يقع اللبس في فهمها عند بعض الطوائف كالحكمة من خلق الآلام والمصائب، والحكمة من خلق الذنوب ونحو ذلك.

٧ـ الحديث عن العدل في قضاء الله، وقدره.

٨ـ بيانُ ارتباط الأسباب بالمسببات، وأنه لا تَنَافِيَ بين الإيمان بالقدر، وفعل الأسباب، وبيانُ ضلالِ مَنْ عطَّل الأسباب.

٩- حديث عن بعض موانع إنفاذ الوعيد كالتوبة، والاستغفار، والحسنات الماحية، والشفاعة.

١٠- تفصيل القول في مسألة الرضا بقضاء الله -عز وجل-.

١١- كشف كثير من الشبه والشكوك التي طالما حيرت كثيراً من العلماء والفضلاء.

١٢- إيرادُ كثيرٍ من الحجج والبراهين، والإلزامات التي تفحم الخصوم الذين ضلوا في باب القدر؛ حيث لا يسعهم إلا السكوت والتسليم.

١٣- تكرار المعاني السابقة أو أكثرها، وإيرادها في صور متعددة، وسياقات مختلفة، وعبارات متنوعة.

١٤- إسداء النصائح الغالية المنجية من الضلال في القدر وغيره.

فهذا هو مجمل ما ورد في تلك القصيدة، وأما التفصيل فسيرد في تضاعيف القصيدة وشرحها -بإذن الله-.

المبحث الخامس

وصف النسخ

تم تحقيق هذه القصيدة، ومقابلة نصها من عشر نسخ: سبع منها مخطوطة، وثلاث مطبوعة.

المطلب الأول: النسخ المخطوطة:

١ـ **النسخة الأولى**: نسخة الطوفي رحمه الله التي اعتمد عليها في شرحه هذه القصيدةَ، وهذه النسخة مصورة من المخطوطة الموجودة في جامعة برنستون في أمريكا رقم (٢٥٠٦).

وعدد أبياتها المشروحة ١٠٤ أبيات.

وهذه النسخة قرئت على شيخ الإسلام رحمه الله كما ذكر الطوفي أثناء شرحه لمعنى كلمة (خيبة) الواقعة في البيت ذي الرقم (٩٥) من شرح الطوفي حيث قال: «خيبة»: رأيناها في الأصل الذي نقلناها منه، وقد قرىء على الشيخ ـ أي شيخ الإسلام ـ بحاء مهملة مكسورة، ثم ياء مثناة من أسفل، ثم باء موحدة.

وهي مأخوذة من الحوب وهو الإثم» اـ هـ.

وهذه النسخة جيدة، وخطها واضح جميل، وتقع في ٧٨ لوحة وقد كتبت ـ كما هو مبين في آخرها ـ: «نهار الثلاثاء خامس عشر شهر رمضان المبارك سنة ١١٣٧».

واسم هذا الشرح ـ كما هو موضح في الصفحة الأولى من المخطوط: (شرح جواب ابن تيمية).

وقد رمزت لهذه النسخة بالحرف (ط) رمزاً للطوفي.

٢ـ **النسخة الثانية**: وهي النسخة المصورة من المخطوطة الموجودة بدار الكتب القومية بمصر، ضمن عقائد تيمور برقم (٣٧٤).

وهي نسخة جيدة، كتبت بخط النسخ، وتقع في ١٠ صفحات، وفي كل صفحة ١٦ سطراً إلى ١٧ سطراً، وعدد أبياتها ١٢٣ بيتاً، مع بيت مكرر، وهو البيت الثاني والعشرون من المخطوطة حيث تكرر مرة أخرى بعد البيت الثالث والعشرين، والبيت هو:

وكل كفورٍ مشرك بإلهه وآخرَ طاغٍ كافرٍ بنبوةِ

وهذه النسخة قليلة الأخطاء والسقط، بحيث لم يسقط منها إلا ثلاثة أبيات.

وهذه النسخة مجهولة التاريخ واسمِ الناسخ، وقد كتب في عنوانها: «مسألة القدري لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية رضي الله عنه».

وكتب في نهايتها: «تمت والحمد لله رب العالمين».

وإليها رمزت بـ: أ

٣ـ **النسخة الثالثة**: النسخة المصورة من المخطوطة الموجودة بدار الكتب القومية بمصر ضمن عقائد تيمور برقم (٢٨٤).

وتحتوي هذه النسخة على ثلاث رسائل:

الأولى: حكم مسألة القدر، وهي القصيدة التائية.

والثانية: قصيدة بائية في مدح شيخ الإسلام ابن تيمية، لنجم الدين إسحاق بن أبي بكر بن ألمى التركي.

والثالثة: كتاب الإمام النووي الذي كتبه للظاهر بيبرس ينهاه فيه عن بعض المظالم.

وقد كُتِبَتْ كلها بخط النسخ، وتقع في ٥ لوحات = ١٠ صفحات.

وفي كل صفحة ١٤ سطراً إلا الصفحة الأخيرة ففيها ١٧ سطراً، وعدد أبياتها ١٠٢.

وكتب في غلافها: «حكم مسألة القدري للشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية ـ نفع الله به ـ».

ولا يعرف تاريخ نسخها، وأما ناسخها فهو محمد بن سليمان بن داود.

وقد رمزت لهذه النسخة بـ: ب

٤ـ٥ النسخة الرابعة والخامسة: وهما النسختان المصورتان من مكتبة برلين مكروفيلم رقم (٢٤٨١ و ٢٤٨٢).

والنسخة رقم (٢٤٨٢) موجودة ضمن كتاب لم يذكر عليه مؤلفه، وهي مجهولة التاريخ والناسخ، وهي نسخة جيدة كتبت بخط النسخ الجميل الواضح وتقع في خمس صفحات، وفي كل صفحة خمسة وعشرون سطراً، وعدد أبياتها مائة وبيتان.

والأبيات ذكرها صاحب الكتاب في معرض جواب له عن شبهة، وهي الرضا بالقضاء والقدر، وبعد أن ساق كلاماً قال: «وقد سأل بعض أهل الذمة سؤالاً نظماً، فأحببت أن أورد السؤال والجواب».

ثم ذكر أبيات الذمي، ثم قال: «فأجاب عن ذلك نظماً مرتجلاً شيخ الإسلام

تقي الدين أبو العباس أحمد الشهير بابن تيمية -رحمه الله تعالى-».

ثم ذكر أبيات الشيخ.

وأما النسخة رقم (٢٤٨١) فكتبت -أيضاً- بخط النسخ الواضح الجميل كسابقتها، وهي تقع في ٣ لوحات = ٦ صفحات.

وفي كل صفحة ١٩ سطراً وعدد أبياتها ١٠٢.

وكلا النسختين مجهولتا التاريخ واسم الناسخ.

والذي يبدو أن هذه النسخة منقولة عن النسخة السابقة، وأن ناسخها واحد؛ لأنهما لا يختلفان في الخط والشكل والعدد والترتيب.

ولعل الناسخ بعد انتهائه من نسخ الكتاب المتقدم أراد أن يفرد المنظومة في صحيفة مستقلة، فنسخها مرة أخرى، وكتب في بدايتها: «هذا سؤال من بعض أهل الذمة من اليهود في القضاء والقدر، وهو قوله: -فذكر أبيات الذمي-».

ثم قال: «فأجاب عن ذلك ارتجالاً شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية -رحمه الله تعالى- فقال: -ثم ذكر أبيات الشيخ-».

وكتب في آخرها «تمت المنظومة التائية الشريفة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه، والحمد لله».

وعلى هذا فالنسختان نسخة واحدة.

وقد رمزت للنسخة رقم (٢٤٨١) بـ: ج، ورمزت للنسخة رقم (٢٤٨٢) بـ: د.

٦- النسخة السادسة: النسخة المصورة من قسم المخطوطات بجامعة الملك سعود بالرياض برقم (١٣/١٦١٣٨) ضمن مجموع يتضمن ٢٥ رسالة، أولها

منظومة لابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ.

وتقع هذه النسخة في ٣ لوحات = ٦ صفحات، وهي في الصفحة ٢٦٧ إلى ٢٧٢ من صفحات ذلك المجموع.

وفي كل صفحة ٢٢ سطراً، وعدد أبياتها ١٠١.

وهي نسخة جيدة كتبت بخط النسخ المعتاد، ويوجد في بعض الهوامش بعض التقييدات، وكتبها عبدالله بن إبراهيم الربيعي سنة ١٣٤٥هـ وكتب في بدايتها بعد البسملة: «مسألة في القدر، سؤال أورده أحد علماء الذميين، والجواب عليه للإمام شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ـرحمه الله تعالى ـ.

سأل أحد علماء الذميين عن مسألة القدر قائلاً: فذكر الأبيات».

ثم قال: «فأجاب الشيخ الإمام شيخ الإسلام تقي الدين أحمد ابن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية الحراني ـرحمه الله تعالى ـ مرتجلاً ثم ذكر الأبيات».

وقد رمزت لهذه النسخة بـ: هـ.

وقد أمدني بالنسخ السابقة ووصفها الشيخ محمد نور ـحفظه الله وجزاه خير الجزاء ـ.

٧ـ **النسخة السابعة**: نسخة أمدني بها فضيلة الشيخ الدكتور علي الشبل ـحفظه الله ـ وهي من صفحتين فقط، وقد اخْتُصِرت كثيراً، إذ عدد أبياتها ٤٤ بيتاً.

وهي نسخة جيدة، وقد كتبت بخط واضح، وقد كتبها عبدالعزيز بن عثمان ابن حمد آل مضيان عام ١٣٣٩هـ.

ولم يُورَدْ في هذه النسخة نص السؤال.

وإنما بدأت بقوله: «جواب الشيخ تقي الدين شيخ الإسلام والمسلمين أحمد ابن تيمية -أسكنه الله في الغرف العلية- لسؤال أورده بعض المعتزلة، ويقال: إنه ابن الثقفي».

وجاء في آخرها: «آخره، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على أشرف المرسلين، وآله وصحبه.

على يد الفقير المعترف بالخطأ والتقصير عبده، وابن عبده، وابن أمته عبدالعزيز بن عثمان بن حمد آل مضيان، ولله الحمد والمنة. حرر سنة ١٣٣٩هـ».

وقد رَمَزْتُ لهذه النسخة بـ: و.

المطلب الثاني: النسخ المطبوعة: أما النسخ المطبوعة التي اطلعت عليها فثلاث، وهي:

الأولى: الموجودة في كتاب العقود الدرية لابن عبدالهادي.

الثانية: الموجودة بشرح الشيخ عبدالرحمن السعدي - الدرة البهية.

الثالثة: الموجودة ضمن مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام، جمع الشيخ عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد -رحمهما الله-.

وفيما يلي وصف هذه النسخ.

الأولى: نسخة العقود الدرية: جاءت القصيدة التائية في كتاب العقود الدرية للإمام أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عبدالهادي الدمشقي الصالحي ٧٠٥-٧٤٤هـ رحمه الله.

دراسة وتحقيق أبي مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني.

وقد جاءت القصيدة في سبع صفحات من ص٣٠٠-٣٠٦.

قال ابن عبدالهادي - في مقدمتها: «صورة فتيا قدمت في مجلس الشيخ تقي

الدين ﷺ فأجاب في المجلس بهذا الجواب، وهو تقدير القدر»[١].

ثم أورد السؤال والجواب.

وقال في آخرها: «تمت بحمد الله وعونه، وهي مائة وأربعة وثمانون بيتاً، بل هي مائة وخمسة أبيات»[٢].

والحقيقة أن الأبيات التي أوردها ابن عبدالهادي رحمه الله ليس مائة وخمسة أبيات، بل هي مائة وثلاثة أبيات؛ ذلك أن فيها تكراراً لبيتين؛ حيث تكرر البيت الثامن مع البيت الرابع والعشرين إلا في كلمة واحدة، وهي كلمة «قدسية» في البيت الثامن، وحيث جاءت في البيت الرابع والعشرين: بلفظ «ميمونة» ونص البيت الثامن:

وإن مبادي الشر في كل أمة ... ذوي ملة قدسية نبوية

ونص البيت الرابع والعشرين:

وإن مبادي الشر من كل أمة ... ذوي ملة ميمونة نبوية

وكذلك تكرر البيت التاسع مع البيت الخامس والعشرين ونصه:

بخوضهمُ في ذاكمُ صار شركهم ... وجاء دروس البينات بفترة

وعلى هذا يكون عدد الأبيات في العقود الدرية مائة وثلاثة أبيات.

وبذلك يكون قد حُذِف من محصِّل مجموع الأبيات اثنان وعشرون بيتاً.

وهذه النسخة فيها بعض الأغلاط، وقد نبهت عليها في مواطنها، ورمزت

---

(١) العقود الدرية ص٣٠٠.

(٢) العقود الدرية ص٣٠٦.

لهذه النسخة بـ: عقود.

النسخة الثانية: (الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية) للشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي.

وقد سبق الحديث عنها عند الحديث عن شروح القصيدة.

وقد جاء عدد أبيات القصيدة في هذا الشرح في مائة وثلاثة وعشرين بيتاً، وقد رمزت لها بـ: الدرة.

وسيأتي الكلام عليها بعد قليل.

النسخة الثالثة: وهي التي وردت ضمن المجلد الثامن من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله جمع الشيخ عبدالرحمن ابن قاسم وابنه محمد -رحمهما الله- وذلك من ص٢٤٥-٢٥٥.

وقد جاء في مقدمتها: «سؤال عن القدر أورده أحد علماء الذميين فقال» ثم ذكر أبيات السؤال، وأتبعها بجواب شيخ الإسلام.

وعدد الأبيات التي وردت في مجموع الفتاوى مائة وأربعة وعشرون بيتاً.

وهي أتم النسخ من حيث عدد الأبيات، وقد رمزت لها بـ: مجموع الفتاوى، وسيأتي الكلام عليها في الفقرة التالية.

المطلب الثالث: النسخ المعتمدة في هذا الشرح:

أما النسخ المعتمدة في هذا الشرح فهما نسخة مجموع الفتاوى، ونسخة الدرة البهية، مع مقابلة باقي النسخ على هاتين النسختين وبيان الفروق بينها.

والسبب في اختيار هاتين النسختين يعود إلى ما يلي:

أـ أنهما أتم النسخ؛ فالأبيات في مجموع الفتاوى مائة وأربعة وعشرون، وفي الدرة البهية مائة وثلاثة وعشرون.

ب ـ أنهما مقاربتان لنسخة الطوفي، وابن عبدالهادي في العقود الدرية، وهما ممن عاصر شيخ الإسلام ابن تيمية.

ج ـ أن ترتيب الأبيات فيهما ومناسبة كل بيت لما قبله متقارب إلى حد كبير، وما بينهما من الفروق سيأتي بيانه، بخلاف باقي النسخ؛ فإن الترتيب ليس كترتيب مجموع الفتاوى، والدرة البهية.

د ـ أن بعض النسخ فيها حذف، وبعضها فيه اختصار، وبعضها فيه تكرار، أما النسختان المذكورتان فهما أتم من هذه الناحية.

وعلى هذا فإن شرح هذه القصيدة سيكون على ترتيب تلك النسختين، وعلى وجه الخصوص نسخة مجموع الفتاوى.

وأما الفروق بينهما فسيتبين في المطلب الآتي.

كما أن التصحيح سيكون من باقي النسخ الأخرى مع ترجيح الأنسب، والإشارة إلى الفروق في هوامش الصفحات.

المطلب الرابع: ملحوظات وتنبيهات حول نسختي مجموع الفتاوى والدرة البهية.

مما يحسن التنبيهُ عليه قبل الشروع في شرح هذه القصيدة ـ إيضاحُ بعض الفروق الموجودة في متن القصيدة، وذلك في نسخة مجموع الفتاوى، أو في نسخة الشيخ عبدالرحمن السعدي المسماة بـ: (الدرة البهية) ومن تلك الفروق ما يلي:

١ ـ هناك فروق في عدد الأبيات؛ فعددُها في مجموع الفتاوى مائة وأربعة وعشرون بيتاً بينما هي في شرح الشيخ السعدي مائةٌ وثلاثة وعشرون بيتاً.

والسبب في ذلك سقوط بعض الأبيات في إحدى النسختين؛ فقد يوجد بعض الأبيات في نسخة، ولا يوجد في الأخرى، وهذا قليل؛ حيث لم يوجد ذلك إلا في الأبيات التالية:

أ ـ في البيت السابع من مجموع الفتاوى، ونصه:

فإنهموا لم يفهموا حكمةً له ... فصاروا على نوعٍ من الجاهلية

وهو غير موجود في الدرة البهية.

ب ـ في البيت الأول بعد المائة من مجموع الفتاوى جاء نصه:

فأما الأفاعيل التي كُرهت لنا ... فلا تُرتضى مسخوطة لمشيئةِ

بينما هو في الدرة البهية:

فأما الأفاعيل التي كُرهت لنا ... فلا نص يأتي في رضاها بطاعةِ

وهذا أنسب مما قبله.

ثم إنه ورد في البيت الثاني بعد المائة في الدرة البهية ما نصه:

فإن إله الخلق لم يرضَها لنا ... فلا نرتضي مسخوطةً لمشيئةِ

والشطر الأول من هذا البيت غير موجود في مجموع الفتاوى.

أما الشطر الثاني فهو موجود في البيت الأول بعد المائة كما مر مع اختلاف يسير، وهو أنه جاء في مجموع الفتاوى بنص: «فلا تُرتضى».

وفي الدرة البهية بنص: «فلا نرتضي».

ومن هنا تحصَّل لنا بيتٌ زائد في الدرة البهية؛ حيث تكَّون من شطرين غير موجودين في مجموع الفتاوى.

ومن هنا صار عدد أبيات القصيدة مائة وخمسة وعشرين بيتاً.

ج- البيت الأخير من مجموع الفتاوى وهو قوله:

وصلى إلهُ الخلقِ جل جلاله　　على المصطفى المختار خير البريةِ

هو غير موجود في الدرة البهية.

٢- هناك فروق في ترتيب بعض الأبيات، ومن ذلك ما جاء في البيت الحادي والثمانين والثاني والثمانين من مجموع الفتاوى وهما قوله:

وقولُ حليفِ الشرِّ: إني مقدر　　عليَّ كقول الذئب: هذي طبيعتي

وتقديره للفعل يجلب نقمة　　كتقديره الأشياء طُرًّا بعلةِ

وفي الدرة البهية تقديم للأخير على الأول.

وفي البيت السابع والثمانين والثامن والثمانين والتاسع والثمانين من مجموع الفتاوى ما نَصُّهُ:

وذلِّلْ قيادَ النفسِ للحق واسمعن　　ولا تُعْرِضَنْ عن فكرة مستقيمةِ

وما بان من حقٍّ فلا تتركنه　　ولا تعصِ من يدعو لأقوم شرعةِ

ودع دين ذي العادات لا تتبعنَّه　　وعج عن سبيل الأمة الغضبيةِ

وفي الدرة البهية تقديم وتأخير؛ حيث قُدِّمَ الثامن والثمانون على التاسع والثمانين.

كذلك تغير ترتيب الأشطر، حيث جاء في الدرة البهية:

وذلِّلْ قياد النفس للحق واسمعن ولا تعص من يدعو لأقوم شرعةِ

وما بان من حق فلا تتركنه ولا تعرضن عن فكرةٍ مستقيمةِ

٣ـ هناك اختلاف في بعض ألفاظ الأبيات؛ حيث ورد بعضها في مجموع الفتاوى بلفظ، وفي الدرة البهية بلفظ آخر.

وهذا كثير، وقد نبهت عليه في محله، واجتهدت قدر المستطاع في اختيار اللفظ المناسب للمعنى، ووزن البيت.

صور المخطوطات



Date: 9/26/79

Arabic Manuscript (volume no. 1299) from the Yahuda Section of the Garrett Collection of Arabic Manuscripts in the Princeton University Library. This volume contains the following titles and catalogue numbers:

* Mach Catalogue No.	Author & Title
2506	Anon: Sharh jawāb Ibn Taymīyah

أرقام جامعة برنستون ٢٥٠٦ رقم

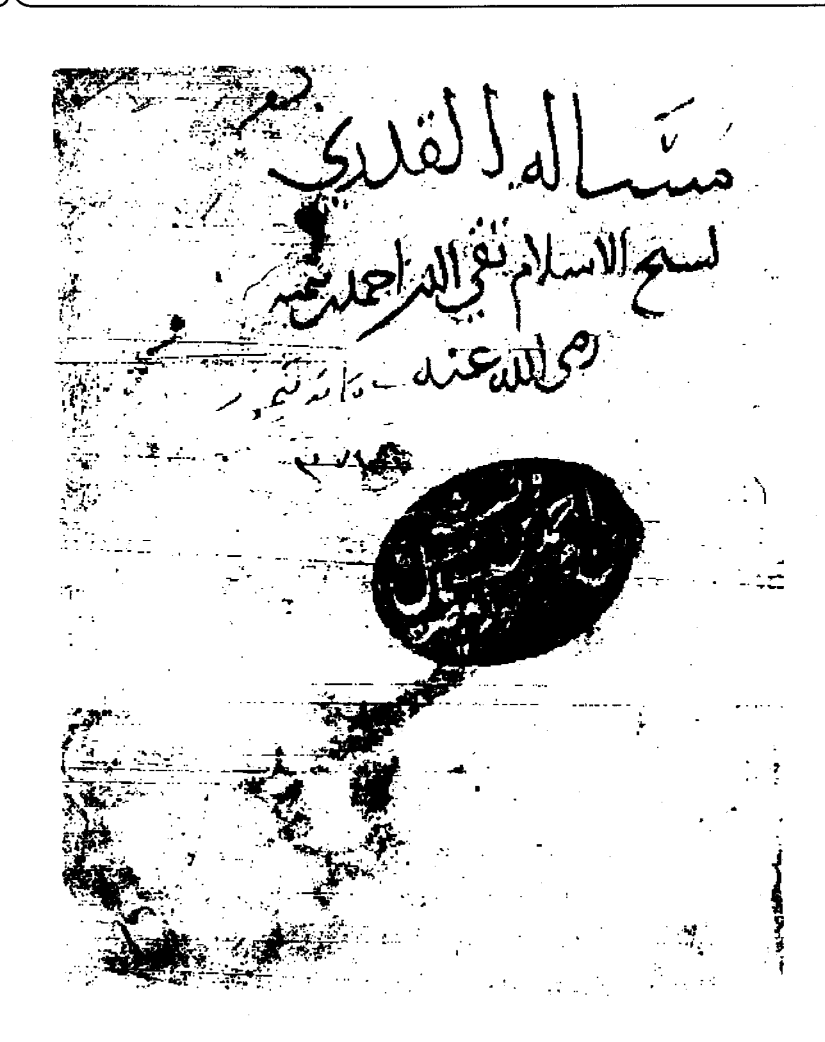
للعلامة سليمان بن عبد القوي الطوفي الحنبلي الصرصري (ت ٧١٦ هـ).

شرح الجواب التيمية

*Rudolf Mach, Catalogue of Arabic Manuscripts (Yahuda Section) in the Garrett Collection, Princeton University Library (Princeton: Princeton University Press, 1977)

صورة لغلاف النسخة (ط)

صورة للصفحة الأولى والأخيرة من نسخة (ط)

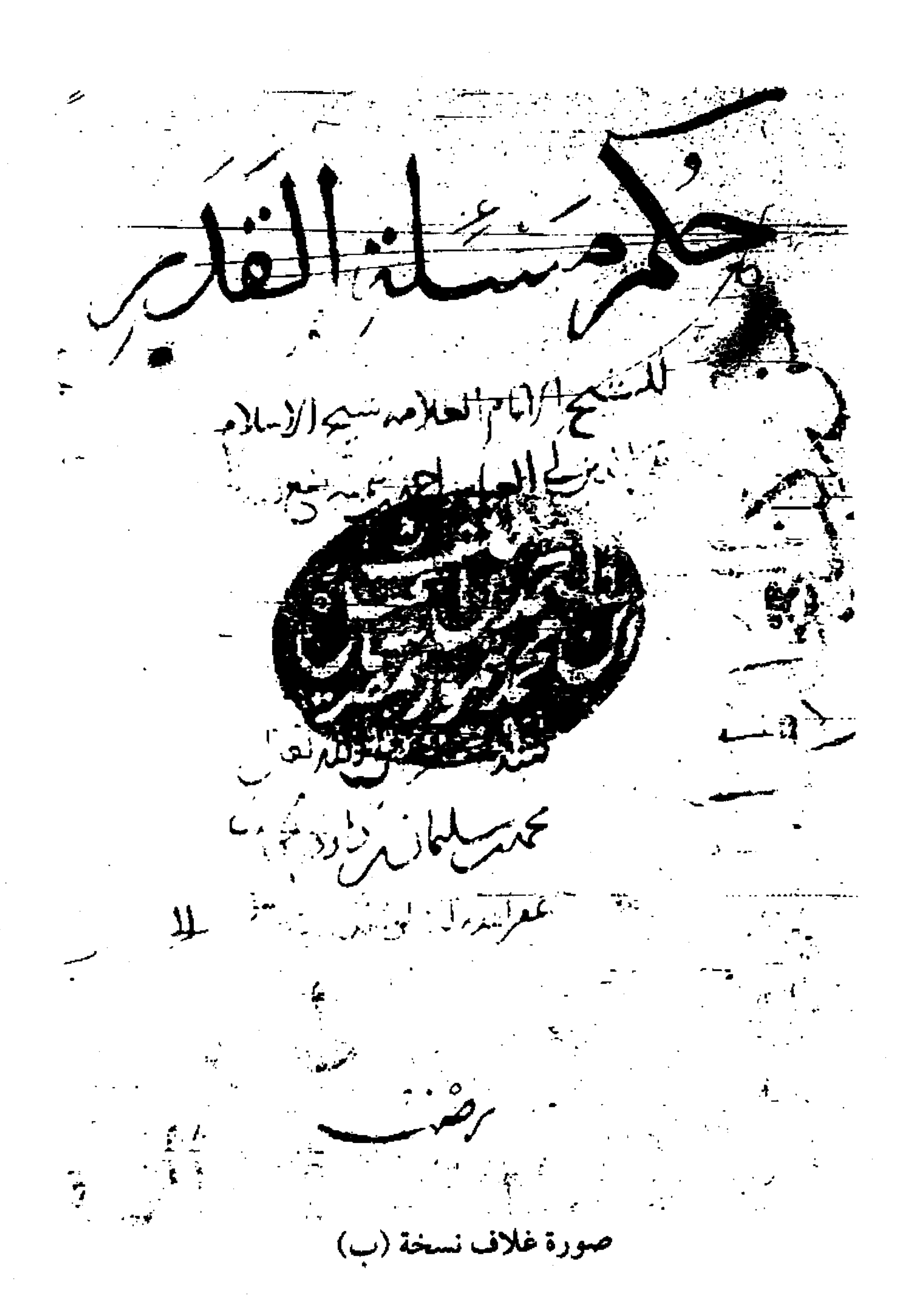


مسألة القدر
لشيخ الاسلام تقي الدين احمد بن تيمية
رضي الله عنه

صورة غلاف نسخة (أ)

صورة للصفحة الأولى من نسخة (أ)

صورة للصفحة الأخير من نسخة (أ)


حكم مسألة القدر
للشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام

صورة غلاف نسخة (ب)

صورة للصفحة الأولى من نسخة (ب)

صورة للصفحة الأخيرة من نسخة (ب)

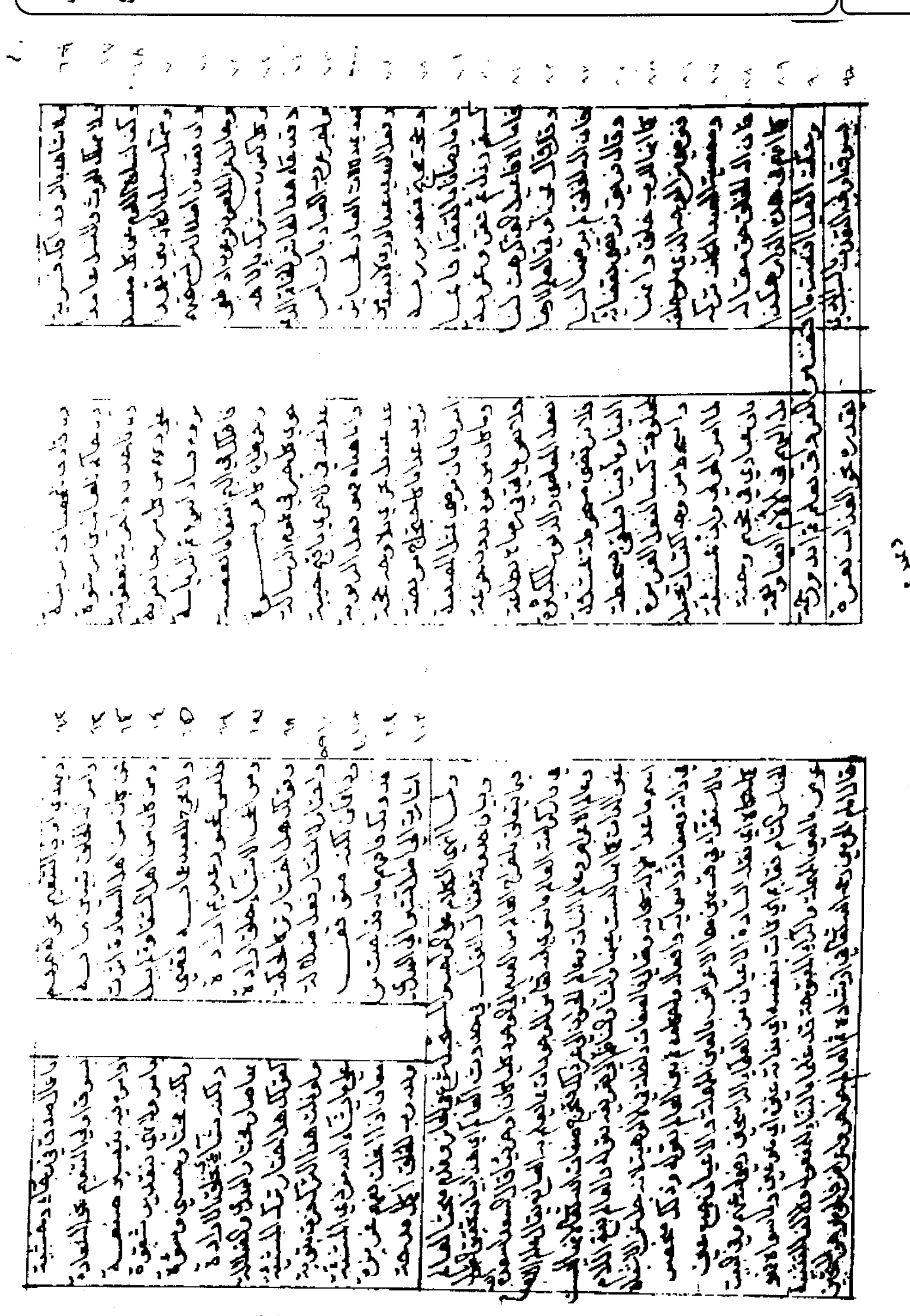
STAATSBIBLIOTHEK ZU BERLIN
PREUSSISCHER KULTURBESITZ
ORIENTABTEILUNG

ج.

Für die Auswertung und Herausgabe dieser Handschrift oder einzelner Teile daraus ist die Genehmigung der Orientabteilung einzuholen.

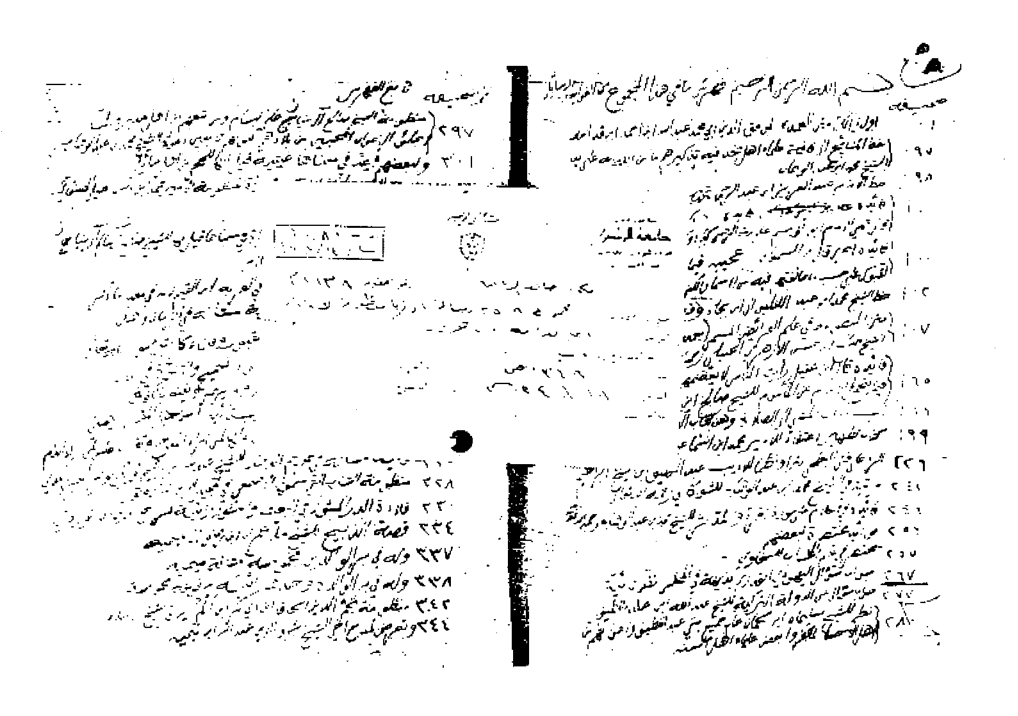
Mikroverfilmt am: 9.12.99

صورة غلاف نسخة (ج)



صورة للصفحة الأخيرة من نسخة (د)

صورة للصفحة الأولى والأخيرة من نسخة (ج)



صورة لغلاف نسخة (هـ) والصفحة الأولى

صورة لغلاف نسخة (د)

صورة للصفحة الأخيرة من نسخة (هـ)

جواب الشيخ تقي الدين شيخ الإسلام والمسلمين أحمد بن تيمية رضي الله عنه

العلية لسؤال أورده بعض المعتزلة ويقال إنه من الشيعي سنة

(و)

١ سؤالك يا هذا سؤال معاند … يخاصم رب العرش باري البرية

٢ وهذا سؤال خاصم الملأ العلى … قديما به إبليس أصل البلية

٣ وأصل ضلال الخلق من كل فرقة … هو الخوض في فعل الإله لعلة

٤ فإن جميع الكون أوجب فعله … مشيئة رب العرش باري البرية

٥ وذات إله الخلق واجبة بما … لها من صفات واجبات قديمة

٦ فقولك لم قد شاء مثل سؤال من … يقول فلم قد كان في الأزلية

٧ وذاك سؤال يبطل العقل وجهه … وتحريمه قد جاء في كل شرعة

٨ وفي الكون تخصيص كثير يدل من … له نوع عقل أنه بإرادة

٩ وإصداره عن واحد بعد واحد … أو القول بالتجويز رمية حيرة

١٠ ولا ريب في تعليق كل مسبب … بما قبله من علة موجبية

١١ بل الشأن في الأسباب أسباب ما ترى … وإصدارها عن حكم محض المشيئة

١٢ فقولك لم شاء الإله هو الذي … أزل عقول الخلق في قعر حفرة

١٣ فإن المجوس القائلين بخالق … لنفع ورب مبدع للمضرة

١٤ سؤالهم عن علة السر أوقعت … أوائلهم في شبهة الثنوية

١٥ وإن ملاحيد الفلاسفة الألى … يقولون بالفعل القديم لعلة

١٦ بغوا علة للكون بعد انعدامه … فلم يجدوا ذاكم فضلوا بضلة

١٧ وإن مبادي الشر في كل أمة … ذوي ملة ميمونة نبوية

١٨ بخوضهم في ذاكم صار شركهم … وجاء دروس البينات بفترة

١٩ ويكفيك نقضا أن ما قد سألته … من العذر مردود لدى كل فطرة

٢٠ وهتك كف اللوم عن كل كافر … وكل غوي خارج عن محجة

٢١ فيلزمك الإعراض عن كل ظالم … على الناس في نفس ومال وحرمة

٢٢ ولا تغضبن يوما على سافك دما … ولا سارق مالا لصاحب فاقة

٢٣ ولا شاتم عرضا مصونا وإن علا … ولا ناكح فرجا على وجه زنية

صورة للصفحة الأولى من نسخة (و)

ولا قاطع للناس منهج سبيلهم ... ولا مفسد في الأرض من كل وجهة

٢٥ ولا شاهد بالزور إفكاً وفرية ... ولا قاذف للمحصنات بريبة

٢٦ ولا مهلك للحرث والنسل عامداً ... ولا حاكم للعالمين برشوة

٢٧ وكف لسان اللوم عن كل مفسد ... ولا تأخذن ذا جرمة بعقوبة

٢٨ وسهل سبيل الكاذبين تعمداً ... على ربهم من كل جاء بفرية

وهل في عقول الناس أو في طباعهم ... قبول لقول النذل ما وجه حيلة

٢٩ كآكل سم أوجب الموت أكله ... وكل بتقدير لرب المشيئة

٣٠ فكفرك يا هذا كسم أكلته ... وتعذيب نار بعد جرعة [illegible]

٣١ ألست ترى في هذه الدار من جنى ... يعاقب إما بالقضاء أو بشرعة

٣٢ ولا عذر للجاني بتقدير خالق ... كذلك في الأخرى بلا مثنوية

٣٣ فإن كنت ترجو أن تجاب بما عسى ... ينجيك فاسمع [illegible] الأدلة العظيمة

٣٤ فذلك رب الخلق قد جاء بما ... من الرسل يهديك نحو الحقيقة

٣٥ وخذ لانقياد النفس للحق واسمعن ... ولا تعص من يدعو لأقوم فرقة

٣٦ وما بان من حق فلا تتركنه ... ولا تعرضن عن فكر مستقيمة

٣٧ وأما رضانا بالقضاء فإنما ... أمرنا بأن نرضى بمثل المصيبة

٣٨ كسقم وفقر ثم ذل وغربة ... وما كان من مؤذ بغير جريمة

٣٩ وأما الأفاعيل التي كرهت لنا ... فلا نرض ما يأتي رضاها بطاعة

٤٠ وقد قال قوم من أولي العلم لا رضا ... بفعل المعاصي والذنوب الكريهة

٤١ وقال فريق نرتضي بقضائه ... ولا نرتضي المقضي لأقبح خلة

٤٢ وقال فريق نرتضي بإضافة ... إليه وما فينا فنلقى بسخطة

٤٣ فنرضى من الوجه الذي هو خلقه ... ونسخط من وجه اكتساب بحيلة

آخره والحمد لله رب العالمين وصلى الله على أشرف المرسلين وآله وصحبه
على يد الفقير المعترف بالخطأ والتقصير [illegible] عبد العزيز
بن عثمان بن حمد آل [illegible] ولله الحمد والمنة

١٣٣٩ جا م ٢

صورة للصفحة الأخيرة من نسخة (و)

القسم الثاني

تحقيق وشرح القصيدة التائية في القدر



نص السؤال الذي أُورد على شيخ الإسلام ابن تيمية في القدر

قال السائل:

١- أيا علماءَ الدين ذميٌّ دينكم تحيرَّ دلوه بأوضح حجة

٢- إذا ما قضى ربي بكفري بزعمكم ولم يرضه مني فما وجه حيلتي

٣- دعاني وسدَّ البابَ عنيْ فهل إلى دخوليْ سبيلٌ بينوا لي قضيتي

٤- قضى بضلالي ثم قال: ارضَ فما أنا راضٍ[١] بالذي فيه شقوتي

٥- فإن كنت بالمقضي -ياقومُ- راضياً فَرَبِيَ لا يرضى بشؤم بليتي[٢]

٦- وهل[٣] ليْ رضا ما ليس يرضاه فقد حرت دلوني على كشف حيرتي

٧- إذا شاء ربيْ الكفرَ مني مشيئةً فهل أنا عاصٍ في[٤] اتباع المشيئة[٥]

٨- وهل ليْ اختيارٌ أن أخالف حُكْمه فبالله فاشفوا بالبراهين غُلتي[٦] [٧]

---

(١) في ط: فما أنا أرضى.

(٢) في عقود: شكيَّتي.

(٣) في ط و ب و ج: فهل.

(٤) في ط وهـ: باتباع.

(٥) في ب و ج: مشيئتي.

(٦) في ط: علتي.

(٧) في أ: تقديم البيت الثامن على السابع.

نص جواب شيخ الإسلام ابن تيمية على السؤال الذي أُورد في القدر

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

١- سؤالك يا هذا سؤال معاند ... مخاصم[١] ربِّ العرش باري البريةِ

٢- فهذا[٢] سؤالٌ خَاصم الملأَ العُلى ... قديماً به إبليسُ أصلُ البليةِ

٣- ومن يك خصماً للمهيمن يرجعن ... على أم رأس هاوياً في الحُفيرةِ

٤- ويدعى[٣] خصومُ اللهِ يومَ معادهم ... إلى النار طُرَّاً معشرَ[٤] القدريةِ

٥- سواءٌ نفوه أو سعوا ليخاصموا ... به اللهَ أو ماروا به للشريعةِ

٦- وأصلُ ضلالِ الخلقِ من كل فرقةٍ ... هو الخوض في فعل الإله بعِلَّةِ

٧- فإنهموا لم يفهموا حكمةً له ... فصاروا على نوع من الجاهليةِ

٨- فإن جميعَ الكونِ أوجب فِعْلَه ... مشيئةُ ربِّ الخلق باري الخليقةِ[٥]

٩- وذات إله الخلق واجبة بما ... لها من صفات واجبات قديمةِ

١٠- مشيئتُه مَعْ عِلمِه ثم قدرة ... لوازم ذات الله قاضي القضيةِ

١١- وإبداعُه ما شاء من مُبدَعاته ... بها حِكْمَةٌ فيه وأنواعُ رحمةِ

١٢- ولسنا وإن قلنا جَرَتْ بمشيئة[٦] ... من المنكري آياتِه المستقيمةِ

١٣- بل الحقُّ أن الحكمَ لله وحده ... له الخلقُ والأمرُ الذي في الشريعةِ

---

(١) في أ و و: (يخاصم)، وفي عقود: (تخاصم).

(٢) في ط: وهذا.

(٣) في ب و هـ و ج: وتدعى.

(٤) في أ و ط و ب و ج و هـ: فرقة.

(٥) في و: رب العرش باري البرية.

(٦) في أ: لمشيئة.

١٤- هو المَلِكُ المحمودُ في كلِّ حالةٍ ... له المُلْكُ من غير انتقاص بِشِركةِ

١٥- فما شاء مولانا الإلهُ فإنه ... يكون وما لا لا يكون بحيلةِ

١٦- وقدرتُه لا نقص فيها وحكمه[1] ... يَعُمُّ فلا تخصيصَ في ذي القضيةِ

١٧- أُرِيْدُ بذا أن الحوادثَ كلَّها ... بقدرته كانت ومحض المشيئةِ

١٨- ومالكُنا في كلِّ ما قد أراده ... له الحمدُ حمداً يعتلي كلَّ مِدْحةِ

١٩- فإن له في الخلق من نِعَمٍ[2] سرت ... ومن حكم فوق العقول الحكيمةِ

٢٠- أموراً يحار العقل فيها إذا رأى ... من الحكم العليا وكل عجيبةِ

٢١- فنؤمنُ أن الله عزَّ بقدرةٍ ... وخلقٍ وإبرامٍ لحكم المشيئةِ

٢٢- فنثبت هذا كلَّه لإلهنا ... ونثبت ما في ذاك من كل حكمةِ

٢٣- وهذا مقام طالما عجز الأُلى ... نفوه[3] وكروا راجعين بحيرةِ

٢٤- وتحقيقُ ما فيه بتبيين غوره ... وتحرير حقِّ الحق في ذي الحقيقة

٢٥- هو المطلب الأقصى لِوُرَّاد[4] بحره ... وذا عسِرٌ في نظم هذي القصيدةِ

٢٦- لحاجته تبيينَ علمٍ مُحقَّقٍ ... لأوصاف مولانا الإلهِ الكريمةِ[5]

٢٧- وأسمائه الحسنى وأحكام دينه ... وأفعاله في كل هذي[6] الخليقة

---

(١) في أ: وخلقه.

(٢) في مجموع الفتاوى والدرة: (رحمته سرت)، والمثبت في الأعلى من: أ.

(٣) في أ: بغوه.

(٤) في الدرة البهية: (لروّاد بحره)، والورّاد أولى.

(٥) في مجموع الفتاوى: (لحاجته إلى بيان محقق).

(٦) في أ: هذا.

٢٨- وهذا - بحمد الله - قد بان ظاهراً وإلهامُه للخلق أفضلُ نعمة

٢٩- وقد قيل في هذا وخُطَّ[(١)] كتابُه بيانٌ[(٢)] شفاءٌ للنفوس المريضةِ[(٣)]

٣٠- فقولك: "لِمْ قد شاء؟" مثل سؤالِ يقول: فَلِمْ قد كان في الأزليةِ

٣١- وذاك سؤال يبطل العقلُ وَجْهَهُ وتحريمُه قد جاء في كل شرعةِ

٣٢- وفي الكون تخصيصٌ كثيرٌ يدلُّ له نوعُ عقلٍ أنه بإرادةِ

٣٣- وإصدارُه عن واحد بعد واحد أو[(٤)] القولُ بالتجويز رميةُ حيرةِ

٣٤- ولا ريبَ في تعليق كلِّ مُسَبَّبٍ بما قبله من[(٥)] علة مُوجِبيَّةِ

٣٥- بل الشأنُ في الأسبابِ أسبابِ ما ترى وإصدارها[(٦)] عن حكم محض المشيئة

٣٦- وقولك: لِمْ شاء الإلهُ هو الذي أزلَّ[(٧)] عقول الخلق في قَعْر حُفْرةِ

٣٧- فإن المجوسَ القائلين بخالق لنفعٍ وربٍّ مُبدعٍ للمَضرةِ

٣٨- سؤالُهم عن علة السرِّ[(٨)] أوقعت أوائلَهم[(٩)] في شبهة الثَّنويةِ[(١٠)]

---

(١) في أ: وخُصَّ.

(٢) في الدرة البهية: (بان) بدل: (بيان).

(٣) في أ: السقيمة.

(٤) في و: أرى.

(٥) في و: في.

(٦) في ط و أ: (وإصداره)، وفي عقود و ب و هـ: (ومصدرها).

(٧) في أ: أضل.

(٨) في ط و عقود و هـ: الشَّر.

(٩) في ط و عقود و ب و ج: رؤوسهم.

(١٠) في عقود و ب و ج: (المثنوية)، وفي و: (وثنية).

٣٩- وأن ملاحيدَ الفلاسفةِ الأُلى يقولون بالفعل[١] القديمِ بعلةِ[٢]

٤٠- بغوا علة في الكون[٣] بعد انعدامه فلم يجدوا ذاكم فضلوا بضلةِ

٤١- وإن مبادي الشر في كل أمة ذوي[٤] ملة ميمونة نبويةِ

٤٢- بخوضهموا في ذاكُمُ صار وجاء دروس البينات بفترةِ[٥]

٤٣- ويكفيك نقضاً أن ما قد سألتَهُ من العذر[٦] مردودٌ لدى كل فطرةِ

٤٤- فأنت تعيب الطاعنين[٧] جميعهم عليك وترميهم بكل مذمةِ

٤٥- وتَنْحل من والاك صَفْوَ مودةٍ وتبغض من ناواك[٨] من كل فرقة

٤٦- وحالهم في كل قول وفعلة كحالك - يا هذا - بأرجح حجة

٤٧- وهَبْك كففتَ اللومَ عن كل كافرٍ وكلِّ غويٍّ خارجٍ عن محجة

---

(١) في أ: بالعقل.

(٢) في ط و أ و ب وَ و: لعلة.

(٣) في أ و ب و هـ وَ و: للكون.

(٤) في أ: أمة، وفي ج:

فإن مبادي الشر في كل فرقة ذوي ملة مخذولة ثنوية

وفي هـ: ...... **دوى من رضوخ لاتباع لشبهةِ**

(٥) في الدرة البهية: **وجاء رؤوس البينات بقترة.**

وكذا في ج، و د.

(٦) في ج: من الهذر.

(٧) في هـ: الطائعين.

(٨) في الدرة البهية: (من ناداك)، وفي ب و ج: (عاداك).

٤٨- فيلزمك الإعراضُ عن كل ظالمٍ — على[١] الناس في[٢] نفس ومالٍ وحرمة

٤٩- فلا تغضبن[٣] يوماً على سافك دماً — ولا سارقٍ مالاً لصاحب فاقة

٥٠- ولا شاتمٍ عِرْضاً مصوناً وإن علا — ولا ناكح فرجاً على وجه غية[٤]

٥١- ولا قاطع للناس نهجَ سبيلِهم — ولا مفسد في الأرض من كل وجهة

٥٢- ولا شاهدٍ بالزور إفكاً وفريةً — ولا قاذف للمحصنات بزنية[٥]

٥٣- ولا مهلك للحرث والنسل عامداً — ولا حاكمٍ للعالمين برشوةِ

٥٤- وكُفَّ لسان اللوم عن كل مفسدٍ — ولا تأخذنْ ذا جرمةٍ[٦] بعقوبةِ

٥٥- وسهِّل سبيل الكاذبين تعَمُّداً — على ربهم مِنْ كلِّ جاءٍ[٧] بفريةِ

٥٦- وإن قصدوا إضلال من[٨] — بروم فسادِ النوع ثم الرياسةِ

٥٧- وجادل عن الملعونِ فرعونَ إذ طغى — فأُغْرِق[٩] في اليم انتقاماً بغضبةِ[١٠]

٥٨- وكلِّ كفورٍ مشركٍ بإلهه — وآخرَ طاغٍ كافرٍ بنبوةِ

---

(١) في و: من.

(٢) في ج و و: من.

(٣) في مجموع الفتاوى وعقود و و: ولا تغضبن.

(٤) في ج: متعة، وفي و: زنيةِ.

(٥) في عقود و و: بريبة.

(٦) في ط و أ و ب و هـ: (خربة)، وفي ج: (خزية).

(٧) في ج: من كل من جا بفرية.

(٨) في ج: تستحبهم.

(٩) في أ: (فغرِّق)، وفي ب و ج، و هـ: (فأهلك).

(١٠) في الدرة البهية: (بغُصِّة)، وفي العقود: (بعصية).

٥٩ـ كعادٍ ونمروذ[١] وقومٍ لصالح ... وقوم لنوح ثم أصحاب الآيكةِ

٦٠ـ وخاصم لموسى ثم سائر من أتى ... من الأنبياء محيياً للشريعة[٢]

٦١ـ على كونهم قد جاهدوا الناس إذ بغوا[٣] ... ونالوا من العاصي[٤] بليغ[٥] العقوبة

٦٢ـ وإلا فكلُّ الخلقِ في كلِّ لفظةٍ ... ولحظةِ عينٍ أو تحرك شعرةِ[٦]

٦٣ـ وبطشة كفٍّ أو تخطي قُديمةٍ ... وكلِّ حراكٍ بل وكل[٧] سكينةِ

٦٤ـ هم تحت أقدار الإلهِ وحكمهِ ... فما[٨] أنت فيما قد أتيت بحجةِ

٦٥ـ وَهَبْكَ رفعت اللومَ عن كل فاعلٍ ... فعالَ[٩] ردىً طرداً[١٠] لهذي المقيسةِ

٦٦ـ فهل يُمْكِنْنْ[١١] رفعُ الملامِ جميعِهِ ... عن الناس طُرًّا عند كلِّ قبيحةِ

٦٧ـ وتركُ عقوبات الذين قد اعتدوا ... وتركُ الورى الإنصافَ بين الرعيةِ

---

(١) في ط: نمرود.

(٢) في أ: من الأنبيا أو محيياً للشريعة.

(٣) في أ: على كونهم إذ جاهدوا الناس أن بغوا.

(٤) في مجموع الفتاوى: من المعاصي.

(٥) في عقود: بلوغ.

(٦) في هـ: وإلا فكل الخلق في لفظة ولحظ عين وتحريكٍ لشعرة

(٧) في عقود: بل بكل.

(٨) في ط وعقود و أ و ج، و هـ: كما.

(٩) في ط: بغاك.

(١٠) في هـ: طراً.

(١١) في مجموع الفتاوى: (يمكن)، وفي عقود: (تمكنن)، وج: (ممكناً).

٦٨- فلا تُضمنَنْ[١] نفسٌ ومالٌ بمثلهِ ... ولا يعقبن[٢] عادٍ بمثل الجريمةِ

٦٩- وهل في عقول الناس أو في طباعهم ... قبولٌ لقول النذل: ما وجه حيلتي

٧٠- ويكفيك نقضاً ما بجسمِ ابنِ آدمٍ ... صبيٍّ ومجنون وكلٍّ بهيمةِ

٧١- من الألم المقضيِّ من[٣] غير حيلةٍ ... وفيما يشاء الله أكملُ حكمةِ

٧٢- إذا كان في هذا له حكمةٌ فما ... يُظن[٤] بخلق الفعل ثم العقوبة

٧٣- فكيف[٥] ومِنْ هذا عذاب مُولَّدٌ ... عن الفعلِ فِعل العبد عند[٦] الطبيعة

٧٤- كآكلِ سمٍّ أوجب الموتَ أكلُه ... وكلٌّ بتقديرٍ لرب البرية[٧]

٧٥- فَكُفْرُك يا هذا كسمٍّ أكلْتَهُ ... وتعذيبُ نارٍ مثل[٨] جرعةِ غصةِ

٧٦- ألست ترى في هذه الدار مَنْ جنى ... يعاقب إما بالقضا أو بشرعة

٧٧- ولا عُذْرَ للجاني بتقدير خالقٍ ... كذلك[٩] في الأخرى بلا مَثْنَويَّةِ

٧٨- وتقدير ربِّ الخلق للذنب موجِبٌ ... لتقدير[١٠] عقبى الذنب إلا بتوبةِ

---

(١) في ب و ج و هـ: (فلا يضمنن)، وفي ط: (ولا يضمنن).

(٢) في عقود و ب: تعقبن.

(٣) في عقود: في.

(٤) في عقود: ظن.

(٥) في ط و ب: وكيف.

(٦) في عقود: عبد.

(٧) في الدرة البهية: (لرب المشيئة)، وفي ط و و: (المشيئة)، وفي ب و ج و هـ: (المنية).

(٨) في و: بعد.

(٩) في ط: لذلك.

(١٠) في أ: كتقدير.

٧٩ـ وما كان من جنس المتاب لرفعه ... عواقبَ أفعالِ العبادِ الخبيثةِ

٨٠ـ كخيرٍ[١] به تُمحى[٢] الذنوبُ ودعوةٍ ... تُجاب من الجاني ورُبَّ شفاعة[٣]

٨١ـ وقولُ حليف الشرِّ[٤]: إني مقدرٌ ... عليَّ كقول الذئب[٥]: هذي طبيعتي

٨٢ـ وتقديره للفعل يجلب نقمةً[٦] ... كتقديره الأشياءَ[٧] طراً بعلةِ

٨٣ـ فهل[٨] ينفعن عُذْرُ[٩] الملوم بأنه[١٠] ... كذا طبعه أم هل يقال لعثرةِ

٨٤ـ أم الذمُّ والتعذيب أوكد للذي ... طبيعته فعل الشرور الشنيعة

٨٥ـ فإن كنتَ ترجو أن تجاب بما عسى ... ينجِّيك من نار الإله العظيمةِ

٨٦ـ فدونك ربَّ الخلقِ فاقْصُدْه ضارعاً ... مريداً لأن يهديْك نحو الحقيقةِ

٨٧ـ وذلّل قيادَ النفسِ للحق واسمعن[١١] ... ولا تعرضن عن فكرة مستقيمةِ[١٢]

---

(١) في ط و ج: (كخيريَّة)، وفي عقود: (كجبرية).

(٢) في ط و عقود: تمحي.

(٣) في الدرة البهية: ورَبِّ الشفاعة.

(٤) في عقود: الشعر.

(٥) في ب و عقود: الذيب.

(٦) في الدرة: نعمة.

(٧) في ط و ب و ج، و هـ: الآثار.

(٨) في ط: وهل.

(٩) في الدرة البهية: (فهل يرفعن ذم الملوم)، وفي أ: (فهل يرفعن ذنب)، وفي ج: (فلم ينفعن عذر الملوم لأنه).

(١٠) في عقود: لأنه.

(١١) في ط: فاسمعن.

(١٢) في ط: (ولا تعص من يدعو لأقوم ريَعة)، وفي أ: (ولا تعص من يدعو لأقوم شرعة).

٨٨- ومـا بـان مـن حـق فـلا تتركنَّـه ولا تعـصِ مـن يـدعو لأقـوم شـرعةِ[(١)]

٨٩- ودَعْ دِيـنَ ذي العـاداتِ لا تتبَعَنَّـه وعُـجْ عـن سـبيل الأمـةِ الغـضبيَّة

٩٠- ومـن ضـل عـن حـقٍّ فـلا تقفونَّـه[(٢)] وزنْ مـا عليـه النـاس بالمَعْدِليـةِ

٩١- هنالـك تبـدو طالعـاتٌ مـن الهـدى بتبـشير[(٣)] مـن قـد جـاء بالحنفيـة

٩٢- بملـة إبـراهيم ذاك إمامنـا وديـن رسـول الله خـير البريـةِ[(٤)]

٩٣- فلا يقبل الرحمنُ ديناً سوى الذي بـه جـاءت الرُّسْـلُ الكـرامُ الـسجيةِ

٩٤- وقد جاء هذا الحاشرُ الخاتَم الذي حوى كلَّ خير في[(٥)] عموم الرسالةِ

٩٥- وأخـبر عـن رب العبـاد بـأنَّ مَـنْ غدا[(٦)] عنه في الأخرى بأقبحِ خيبةِ[(٧)]

٩٦- فهـذي دلالاتُ العبـادِ لحـائر وأمـا هـداه فهـو فعـلُ الربوبـةِ[(٨)]

٩٧- وفَقْدُ الهدى عند الورى لا يفيد[(٩)] مَنْ غـدا[(١٠)] عنـه بـل يجـري[(١١)] بـلا وجـه

---

(١) في ج: (رفعة)، وفي عقود: (رَيْعة).

(٢) في الدرة البهية: (فلا تعفونه).

(٣) في ط و أ: تبشِّر.

(٤) في أ: الخليقة.

(٥) في أ: من.

(٦) في ط و أ و ج: عدا.

(٧) في عقود: جَنْية.

(٨) في عقود: الربوبية.

(٩) في عقود: لا يقيل.

(١٠) في ط وعقود و أ و ب و ج و هـ: عدا.

(١١) في مجموع الفتاوى: (يُجْزى)، وفي ط وعقود و ب: (يخزى).

٩٨- وحجـةُ محـتجٍّ بتقـدير ربِّـه ... تزيـد[١] عـذاباً كاحتجـاج مريضةِ

٩٩- وأمـا رضـانا بالقـضاء فإنمـا ... أمرنـا بـأن نرضـى بمثـل المصيبةِ

١٠٠- كـسقمٍ وفقـرٍ ثـم ذلٍّ وغُربـةٍ ... وما كان من مؤذٍ[٢] بدون[٣] جريمةِ

١٠١- فأمـا الأفاعيلُ التي كرهت لنا ... فـلا نـصَّ يـأتي في رضـاها بطاعـةِ

١٠٢- وقد قال قومٌ[٤] من أولي العلم: لا رضاً ... بفعـلِ المعاصـيْ والـذنوبِ الكـبيرةِ[٥]

١٠٣- فـإن إلـهَ الخلـق لم يرضَـها لنـا ... فـلا نرتـضي مـسخوطةً لمـشيئةِ[٦]

١٠٤- وقـال فريـقٌ: نرتـضي بقـضائه[٧] ... ولا نرتـضي المقـضيَّ أقبحَ[٨] خـصلةِ

١٠٥- وقـال فريـقٌ: نرتـضي بإضـافةٍ ... إليـه[٩] ومـا فينـا فنلقـى[١٠] بـسخطةِ

١٠٦- كمـا أنهـا للـرب خلـقٌ وأنهـا ... لمخلوقه كسبٌ كفعل[١١] الغريـزة[١٢]

---

(١) في عقود والدرة البهية: (يزيد) وفي ط: (مزيد).

(٢) في عقود: سوء.

(٣) في و: بغير.

(٤) في ج: وقد قال ممن أوتي...

(٥) في عقود و و: الكريهة.

(٦) في أ و ج و هـ: بمشيئة.

(٧) في عقود: ترتضى لقضائه.

(٨) في ط: (خلة)، وفي و: (لأقبح خلة).

(٩) في ج: إلينا.

(١٠) في أ: فيلقى.

(١١) في ج: لفعل.

(١٢) في مجموع الفتاوى: (لمخلوقةٍ ليست كفعل الغريزةِ).

١٠٧ـ فنرضى[١] من الوجه الذي هو خلقه[٢] ونسخط[٣] من وجه اكتساب الخطيئةِ[٤]

١٠٨ـ ومعصيةُ العبدِ المكلفِ تركُه لما أمر المولى وإن بمشيئةِ

١٠٩ـ فإن إله الخلقِ حقٌّ مقالُه بأن عبادي[٥] في جحيم وجنةِ[٦]

١١٠ـ كما أنهم في هذه الدار هكذا بل البهم في الآلام ـ أيضاً ـ ونعمة

١١١ـ وحكمتُه العليا اقتضت ما اقتضت من الـ ـفروق بعلمٍ ثم أيدٍ ورحمةِ

١١٢ـ يسوق أولي التعذيب بالسبب يقدّره نحو العذاب[٧] بعزةِ

١١٣ـ ويهدي أولي[٨] التنعيم نحو نعيمهم بأعمال صدق في رجاءٍ وخشيةِ

١١٤ـ وأمرُ إله الخلق بيَّن[٩] ما به يسوق أولي التنعيم نحو السعادةِ

١١٥ـ فمن كان من أهل السعادة أثَّرت أوامرُه فيه بتيسير[١٠] صنعةِ

(١) في عقود: (فترضى)، وفي ط: (فيرضى).

(٢) في و: حقه.

(٣) في ط: (ويسخط)، وفي ج: (وأسخط).

(٤) في الدرة البهية (ونسخط من وجه اكتساب بحيلة) وكذا في ط، وعقود، و ج و و.

(٥) في عقود ومجموع الفتاوى: (بأن العباد...) وفي أ: (بأن البرايا).

(٦) في هـ: في نعيم وجنة.

(٧) في هـ: العتاب.

(٨) في ط: إلى.

(٩) في ط و أ و هـ: تبيين.

(١٠) في هـ: بتدبير.

١١٦- ومن كان من أهل الشقاوة لم يُبَلْ[١] ... بأمر ولا نهي بتيسير[٢] شقوةِ

١١٧- ولا مخرجٌ للعبد عما به قضى ... ولكنه مختارُ حُسْنٍ وسوأة

١١٨- فليس بمجبورٍ عديمِ إرادةٍ[٣] ... ولكنه شاءٍ بخلق الإرادة[٤]

١١٩- ومن أعجبِ الأشياءِ خلقُ مشيئةٍ ... بها صار مختارَ الهدى والضلالة[٥]

١٢٠- فقولك: هل أختار تركاً لحكمه ... كقولك: هل أختار ترك المشيئة[٦]

١٢١- وأختار[٧] لا أختار فعل ضلالة ... ولو نلت هذا الترك فزت بتوبةِ

١٢٢- وذا ممكن لكنه متوقف ... على ما يشاء الله من ذي المشيئة[٨]

١٢٣- فدونك فافهم ما به قد أُجبْتَ مِنْ ... معانٍ إذا انحلت بفهم غريزة

١٢٤- أشارت إلى أصل يشير إلى الهدى ... ولله رب الخلق أكمل[٩] مدحةِ

١٢٥- وصلى إله الخلق جل جلاله ... على المصطفى المختار خير البرية[١٠]

---

(١) في عقود و هـ ومجموع الفتاوى: لم ينل.

(٢) في ط و أ: بتقدير.

(٣) في مجموع الفتاوى (عديم الإرادة) وفي أ: (أراده).

(٤) في ط: إرادة.

(٥) في مجموع الفتاوى بالضلالة...

(٦) في مجموع الفتاوى: ...كقولك: هل أختار ترك المشيئة.

وفي الدرة البهية: ... (لحكمه كقولك: هل أختار ترك مشيئتي)، وفي ط: (مشيئةِ).

(٧) في ط وعقود: واختار أن لا آختار.

(٨) في أ: المشيَّة.

(٩) في هـ: أدوم.

(١٠) هذا البيت ساقط في جميع النسخ إلا في مجموع الفتاوى والعقود.

شرح السؤال الذي أُورد على شيخ الإسلام ابن تيمية في القدر

شرح السؤال الذي أُورد على شيخ الإسلام ابن تيمية في القدر

قال السائل:

١ـ أيا علماءَ الدين ذميٌّ دينكم تحيرَّ دلوه بأوضح حجة

قوله: «**علماء**»: العلم نقيض الجهل، وعلماء: جمع عالم كعاقل وعقلاء، أو جمع عليم كحكيم وحكماء، وحليم وحلماء[١].

وقوله: «**الدين**»: يطلق على عدة معان منها: الجزاء، والدأب، والعادة، والطاعة، والعبادة، والذل، والسلطان، والملك، والملة، وطريقة كل نبي مع أمته، وغير ذلك.

والمقصود بالدين ههنا هو الإسلام، يريد يا علماء الإسلام[٢].

وقوله: «**تحير**»: من الحيرة، وهي التبلد في الأمر، والتردد فيه، والشك من غير رجحان أحد طرفيه عن الآخر[٣].

وقوله: «**الذمي**»: هو ـكما يقول الطوفيـ: «الكتابي المعقود له عقد الذمة»[٤].

---

(١) انظر جواب ابن تيمية للطوفي مخطوط ص ٧، ولسان العرب ١٢/٤١٦ـ٤١٧.

(٢) انظر المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ١٨٢، والقاموس المحيط ص ١٥٤٦، وشرح جواب ابن تيمية ص ٧.

(٣) انظر شرح جواب ابن تيمية ص ٧.

(٤) انظر شرح جواب ابن تيمية ص ٧.

وقوله: «**الحجة**»: هي الدلالة المبيِّنة القاطعة الموصلة إلى المدلول جزماً[1].

ومعنى البيت: ياعلماء دين الإسلام: أجيبوا عن سؤال هذا الذمي، وأرشدوه بالحجج القاطعة، والبراهين الساطعة.

(١) انظر المفردات في غريب القرآن ص ١١٢-١١٣، وانظر شرح جواب ابن تيمية ص٨.

٢ـ إذا ما قضى ربي بكفري بزعمكم ولم يرضه مني فما وجه حيلتي

قوله: «قضى»: أي حكم.

قوله: «بكفري»: الكفر في اللغة هو الستر، والتغطية، ومنه الليل يسمى كافراً؛ لتغطيته القرى، والثغور، ومنه قول ثعلب بن صيعرة المازني يصف الظليم، والنعامة، ورواحهما إلى بيضهما عند غروب الشمس:

فتذكّرا ثَقَلاً وئيداً بعدما ألقت ذكاءُ يمينها في كافر

وذُكاء: اسم للشمس، وقوله ألقت ذُكاء يمينها في كافر: أي بدأت في المغيب.

ومنه قول لبيد بن أبي ربيعة ﷺ يصف الشمس:

حتى إذا ألقت يداً في كافر وَأجَنَّ عوراتِ الثُّغورِ ظلامُها

ومن ذلك: الكفارةُ؛ لتغطيتها الإثم، والكفار: وهم الزّراع؛ لتغطيتهم الحب في الأرض.

ومن ذلك سمي الكافر كافراً؛ لأنه ستر آيات الله، وغطّى دلائل التوحيد والإيمان بجحده وعناده[1].

وقوله: «بزَعمكم»: الزعم بفتح الزاي وضمها: الحسبان، ولفظه مشعر بالضعف والوهاء[2].

وقوله: «حيلتي»: قال الطوفي رحمه الله: «الحيلة في الاصطلاح والعرف عبارة عن سبب لطيف يتوصل به إلى أمر لا يأتي إدراكه بالقهر والغلبة.

---

(١) انظر شرح جواب ابن تيمية ص ٧، ولسان العرب ٥/١٤٤ـ١٤٧.

(٢) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٨.

وهي والمكر متقاربان عُرْفاً، ومع ذلك لا تخرج عن معنى القوة؛ لأنها إنما تأتي عن قوة في النفس، وذكاء في الحس»[١].

ويرى أبو هلال العسكري رحمه الله أن الفرق بين الحيلة والمكر هو: «أن من الحيلة ما ليس بمكر، وهو أن يقدِّر نفع الغير لا من وجهه؛ فيسمي ذلك حيلة مع كونه نفعاً، والمكر لا يكون نفعاً.

وفرق آخر وهو أن المكر تقديرُ ضُرِّ الغيرِ من غير أن يعلم به، وسواء كان مِنْ وجهه أو لا، والحيلة لا تكون إلا من غير وجهه»[٢].

ومعنى البيت أنه: إذا حكم ربي بكفري -كما تزعمون- وقدره لي، وهو -في الوقت نفسه- لا يرضى لعباده الكفر فما وجه الخلاص من ذلك؟

وفي هذا مبالغة في العناد في صورة سؤال واسترشاد، وموضع عناده -كما يقول الطوفي- هو في قوله: **«بكفري بزعمكم»** حيث لم ينسب الكفر إليه مطلقاً، ويعترف بالخطأ، بل على زعم الخصم، وذلك ظاهر في أنه يعتقد أنه على الحق وخصمه على الباطل، وإنما أورد أبياته على سبيل الإلزام[٣].

---

(١) شرح جواب ابن تيمية ص ٨.

(٢) الفروق في اللغة ص٢٦٢-٢٦٣.

(٣) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٨.

٣ـ دعـاني وسـدَّ البـابَ عـنيْ فهـل إلى دخـوليْ سـبيلٌ بينـوا لـي قـضيتي

قوله: «**قضيتي**»: القضية: هي كل قول مقطوع به.

ومن هذا يقال: قضية صادقه، وقضية كاذبه[1].

يقول: إذا كان ربي قد دعاني إلى الهدى، ولم يقدِّره لي فما طريق الوصول إلى حل تلك المسألة؟

بيِّنوا لي ذلك، ولا تدعوني في حيرة من أمري.

---

(١) انظر المفردات في غريب القرآن ص ٤٢٤.

٤ـ قضى بضلالي ثم قال: ارضَ بالقضا فما أنا راضٍ[1] بالذي فيه شقوتي

قوله: «**شقوتي**»: الشِّقوة، ويقال: الشقاوة: خلاف السعادة[2].

يقول: لقد حكم ربي عليَّ بالضلالة؛ إذ لم أكن مسلماً، وأمرني -مع ذلك- بالرضا بالقضا؛ فكيف أرضى بما فيه شقاوتي وهلاكي؟

---

(١) في ط: فما أنا أرضى.

(٢) انظر المفردات ص ٢٧٤.

٥ـ فإن كنت بالمقضي ـ ياقومُ ـ راضياً   فَرَبِّيَ لا يرضى بشؤم بليتي[١]

قوله: «**بشؤم**»: الشؤم: خلاف اليُمن، والتشاؤم هو عَدُّ الشيء مشؤوماً، أي يكون وجوده سبباً في وجود ما يحزن ويضر[٢].

يقول: إذا رضيت بما قضاه الله عليَّ فهل يرضى ربي بما ابتلاني به من الكفر؟ فإن كان كفري من قضائه فقد رضيت به؛ فما وجه الحجة علي؟

فإذاً أنا طائع لا عاصٍ، ومؤمن لا كافر[٣].

---

(١) في عقود: شكيَّتي.

(٢) انظر لسان العرب ٣١٤/١٢، و تفسير التحرير والتنوير، تأليف العلامة محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ٦٦/٥.

(٣) انظر شرح جواب ابن تيمية ص ٩.

٦ـ وهل[1] ليْ رضا ما ليس يرضاه سيدي فقد حرت دلوني على كشف حيرتي

٧ـ إذا شاء ربيْ الكفرَ مني مشيئةً فهل أنا عاصٍ في[2]اتباع المشيئة[3]

٨ـ وهل ليْ اختيارٌ أن أخالف حُكْمه فبالله فاشفوا بالبراهين غُلتي[4][5]

قوله: «**سيدي**»: السيد يعني به ههنا: الرب؛ لأن الرب يطلق على السيد[6].

وقوله: «**البراهين**»: جمع برهان، وهو بيان الحجة، وهو أوكد الأدلة، وهو الذي يقتضي الصدق أبداً لا محالة[7].

وقوله: «**غلتي**»: الغُلة والغليل ـكما يقول الراغبـ: «ما يتدرعه الإنسان من داخله من العطش، ومن شدة الوجد والغيظ، يقال: شفا فلانٌ غليلَه أي غيظه»[8].

يقول هذا السائل: هل بالإمكان أن أرضى شيئاً لا يرضاه ربي؟

وإذا شاء أن أكون كافراً، واتبعته في مشيئته فهل يعد ذلك عصياناً مني؟

وهل لي بعد ذلك أن أختار سوى ما حكم به علي؟

---

(١) في ط و ب و ج: فهل.

(٢) في ط وهـ: باتباع.

(٣) في ب و ج: مشيئتي.

(٤) في ط: علتي.

(٥) في أ: تقديم البيت الثامن على السابع.

(٦) انظر لسان العرب ١/٣٩٩ـ٤٠٠.

(٧) انظر المفردات ص ٥٠.

(٨) المفردات ص٣٧٨.

وكيف أكون مؤمناً وقد حكم بكفري؛ فذلك مستحيل، وحينئذٍ يكون لومي وتعذيبي على تركي المحال جوراً وتكليفاً بما لا يطاق؛ فإذا حكم بكفري فتكليفه لي بالإيمان مع ذلك تكليف بأن أخالف حُكْمَهُ، ومخالفةُ حُكْمِهِ محالٌ؛ فالتكليف به محال!

هذا ملخص السؤال، وفحوى تلك الشُّبه الشيطانية؛ فحاصل السؤال -إذاً- أنه إيراد على مذهب الجبرية الذين غلوا في إثبات القدر، وأنكروا أن يكون للعبد فعل حقيقة -كما سيأتي عند الحديث عنهم-.

وخلاصة ما أورد السائل أنه يقول: إذا كان الله قد قضى عليَّ بالكفر، وقدَّر لي أن لا أكون مسلماً، أو قدر علي المعاصي وألا أكون طائعاً - فكيف لي أن أتخلص من الكفر والمعاصي؟ وكيف أتمكن من الإيمان والطاعة؟

وهل أكون معذوراً إذا تجرَّأت على الكفر والفسوق والعصيان؟

وكيف أجمع بين الرضا بالقضاء من الله، وبين الرضا بالمقضيِّ من الكفر والمعاصي الصادرة مني؟

كيف يكون ذلك والله لا يرضى بالكفر والفسوق والعصيان؟

هذا هو حاصل السؤال، وخلاصتُه.

الجواب المجمل عن السؤال:

والجواب عن ذلك يسير -بحمد الله- وهو أن يقال: إن للعباد مشيئةً يختارون بها، وقدرةً يفعلون بها، ومشيئتهم، وقدرتهم واقعتان بمشيئة الله وقدرتِهِ، تابعتان لهما.

وتوضيح ذلك أن العبد إذا صلى، وصام، وعمل الخير، أو سرق، وشرب الخمر أو عمل شيئاً من المعاصي - كان هو الفاعلَ لذلك العمل الصالح، أو العمل السيئ.

وفعله المذكور -بلا ريب- واقع باختياره، وهو يشعر -ضرورة- أنه غير مجبور على الفعل أو الترك، وأنه لو شاء ألا يفعل لم يفعل.

وكما أن هذا هو الواقع فهو الذي دلت عليه نصوص الشرع؛ حيث أضافت الأعمال صالحها وسيئها إلى العباد، وبينت أنهم هم الفاعلون لها، وأنهم محمودون عليها ومثابون إذا كانت صالحة، ومذمومون ومعاقبون عليها إذا كانت سيئة.

فقد تبين بهذا أنها واقعةٌ باختيارهم، وأنهم إن شاؤوا فعلوا، وإن شاؤوا تركوا، وأن هذا الأمر ثابت عقلاً وحساً وشرعاً ومشاهدة.

وإذا أردت أن تعرف أنها -وإن كانت واقعة منهم وباختيارهم- كيف تكون داخلة في القدر؟ وكيف تشملها المشيئة؟

يقال: بأي شيء وقعت هذه الأعمال الصادرة من العباد خيرها وشرها؟

والجواب: أنها واقعة بقدرتهم وإرادتهم.

فيقال - حينئذٍ -: إن الذي خلق ما تقوم به الأفعال هو الذي خلق الأفعال ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات: ٩٦).

فهذا هو الذي يحل الإشكال، ويتمكن به الإنسان أن يعقل اجتماع القدر، والاختيار.

ومع ذلك فإن الله -تعالى- يمد المؤمنين بأسباب، وألطاف وإعانات متنوعة، ويصرف عنهم الآفات والموانع.

وهو - كذلك - يخذل الفاسقين المعرضين ويكلهم إلى أنفسهم؛ وأنهم لم يؤمنوا به، ولم يذلوا له، ولم يتوكلوا عليه؛ فولاهم ما تولوه لأنفسهم، كما قال النبي ﷺ: «**وأما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة**» الحديث[1].

فهذا هو الجواب المجمل[2] وأما الجواب المفصل فكما سيأتي من جواب شيخ الإسلام رحمه الله؛ فإلى ذلك الجواب المسدد، وشرحه.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٤٧).

(٢) انظر التنبيهات اللطيفة للشيخ عبدالرحمن السعدي ص٨٢-٨٣، وانظر التبيان في أقسام القرآن لابن القيم، تحقيق محمد شريف سكر، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ، ص٤٥ و١٦٦-١٦٩، والقضاء والقدر، للشيخ محمد بن صالح العثيمين، مؤسسة أسام، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، ص١٥-١٧، وانظر صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان، للشيخ محمد بشير السهسواني الهندي، الناشر مكتبة ابن تيمية، ط٤، ١٤١٠هـ، ص٢٣٩-٢٤٣.



شرح جواب شيخ الإسلام ابن تيمية عن السؤال الذي أُورد عليه في القدر



شرح جواب شيخ الإسلام ابن تيمية عن السؤال الذي أُورد عليه في القدر

شرح البيت الأول

١ـ سؤالك يا هذا سؤال معاند   مخاصم[١] ربِّ العرش باري البريةِ

قوله: «**معاند**»: اسم فاعل من العناد، وهو مخالفة الحق مع العلم به.

ويجوز أن يكون من الاعوجاج، والميل عن الاستقامة.

ويجوز أن يكون من قولهم: عاند فلان، إذا فارق، وعاند إذا لازم؛ من الأضداد[٢] فكأن المعاند فارق الحق، أو يلازم الباطل[٣].

وقوله: «**مُخاصم**» اسم فاعل من الخصومة، والمخاصمة، وهو اجتهاد كل واحد من الفريقين في الانتصار على صاحبه بقول أو فعل[٤].

قوله: «**العرش**»: **العرش** في اللغة: سرير الملك.

وفي الشرع: هو عرش الرحمن الذي استوى عليه استواءً يليق بجلاله، وعظمته.

---

(١) في أ وَ و: (يخاصم)، وفي عقود: (تخاصم).

(٢) الأضداد، أو التضاد، أو المتضاد أحد موضوعات فقه اللغة، وهو دلالة اللفظ الواحد على معنيين متضادين مثل الجون يُطلق على الأبيض والأسود، ومثل الحميم يُطلق على البارد والحار، وهكذا... انظر الصاحبي لابن فارس ص٦٠، والأضداد لابن الأنباري ص١ـ٢، والمزهر للسيوطي ٣٩٦/١.

(٣) انظر شرح جواب ابن تيمية ص١٢.

(٤) المرجع السابق ص١٣.

وهو عرش عظيم محيط بالمخلوقات، وهو أعلاها، وأكبرها[١].

وقوله: «**باري البرية**»: أي خالق الخلق[٢].

ومعنى البيت أن سؤالك أيها السائل سؤال مكابر معاند مخاصم، لا سؤال باحث عن الحق والهدى، وهذا بادٍ من لحن قولك؛ فإن هذا السؤال في الحقيقة موجه إلى الله -عز وجل- والسائل قد أورده على وجه الاعتراض على الله، وزعم أنه -تبارك وتعالى- ظالم له؛ حيث قدر عليه الكفر والمعاصي، ورتب على ذلك عذابَه وأليمَ عقابه؛ ولا ريب أن كلَّ من خاصم ربه - فحجته داحضة باطلة[٣].

قال الله -عز وجل-: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (الشورى:١٦).

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: «فأخبر هنا أن ﴿الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ بالحجج الباطلة، والشبه المتناقضة، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ أي من بعد ما استجاب له أولوا الألباب والعقول لما بين لهم من الآيات القاطعة، والبراهين الساطعة.

فهؤلاء المجادلون للحق من بعد ما تبين ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾: أي باطلة مدفوعة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لأنها مشتملة على رد الحق، وكل ما خالف الحق فهو باطل.

---

(١) انظر فتح رب البرية بتلخيص الحموية للشيخ محمد العثيمين ص٤١.

(٢) انظر القاموس المحيط ص٤٢، وشرح جواب ابن تيمية ص١٣.

(٣) انظر الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية، لابن تيمية، تأليف الشيخ عبدالرحمن بن سعدي، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن بن سعدي، مركز صالح ابن صالح الثقافي، عنيزة، ١٤١١هـ، ص١٤٩.

﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ لعصيانهم، وإعراضهم عن حجج الله وبيناته وتكذيبها. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ هو أثر غضب الله؛ فهذه عقوبة كل مجادل للحق بالباطل»[١].

وقال الله -عز وجل-: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام: ١٤٨).

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية: «أي بهذه الشبه ضل من ضل قبل هؤلاء، وهي حجة داحضة باطلة؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه، ودمَّر عليهم، وأدال عليهم رسله الكرام، وأذاق المشركين من أليم الانتقام»[٢].

---

(١) تفسير السعدي - تيسير الكريم الرحمن - ٦/٦٠٤-٦٠٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٢٩٩.

شرح البيت الثاني

٢ـ فهذا[١] سؤالٌ خاصم الملأَ العُلى قديماً به إبليسُ أصلُ البليةِ

قوله: «الملأ»: الملأ هم القوم الأشراف يجتمعون على رأي؛ فيملأون العيون رواءً ومنظراً، والنفوس بهاءً وجلالاً.

قال الله ـتعالىـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ البقرة: ٢٤٦.

وقال ـعز وجلـ: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ النمل: ٢٩.

وقوله: «العُلى»: العُلى: جمع عليا، نحو كبرى، وكُبَر، ومن المعتل دُنيا ودُنا.

والعلى ههنا وصف للملأ، ولفظ القرآن: ﴿لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى﴾ الصافات: ٨.

ولعل الشيخ اضطر إلى لفظة العلى، وإلا فإن الأصل الملأ الأعلى.

والمراد بالملأ العلى ههنا: الملائكة ـعليهم السلامـ[٢].

وقوله: «إبليس»: اختلف في إبليس: هل هو اسم أعجمي، أو عربي، فقال ابن جني[٣] رحمه الله: «هو اسم أعجمي؛ لأنه ورد غير منصرف، وليس فيه بعد

---

(١) في ط: وهذا.

(٢) انظر المفردات ص٤٩٤، وشرح جواب ابن تيمية ص١٣.

(٣) هو أبو الفتح عثمان بن جني كان أبوه جنيٌّ مملوكاً رومياً لسليمان بن فهد بن أحمد الأزدي الموصلي، وجِنِّي بكسر الجيم وتشديد النون مكسورة وسكون الياء مُعَرَّب كِنِّي، ولد في الموصل سنة ٣٠٠هـ وقيل ٣٢٢هـ وتوفي في بغداد سنة ٣٩٢هـ، وكان رجل جدٍّ، وامرأً صدقٍ في فعله وقوله، ولم يعرف عنه اللهو والشرب والمجون، وكان عفَّ اللسان، والقلم، وقد أخذ النحو عن الأخفش، وبعده عن أبي علي الفارسي، وأخذ عن كثير من رواة اللغة والأدب، وكان من أكابر علماء العربية، وكان محل الثناء من قبل كثير من العلماء. =

العلمية إلا العجمة»[(١)].

وقال ابن فارس رحمه الله في مادة (بلس): «الباء واللام والسين أصل واحد، وما بعد فلا معول عليه.

فالأصل اليأس، يقال: أبلس إذا يئس، قال الله -تعالى-: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ (الأنعام: ٤٤).

قالوا: ومن ذلك اشتُق اسم إبليس، كأنه يئس من رحمة الله»[(٢)].

قال الطوفي رحمه الله: «والصحيح الأول -يعني القول بعجمته-.

ويلزم هذا القائل -يعني القائل بعربيته واشتقاقه- منع اللفظ من الصرف بسبب واحد.

وليس ذلك من لغة العرب، ولا نُسلِّم أنه مشتق من الإبلاس، بل إبليس لفظ أعجمي وافق لفظ الإبلاس من لغة العرب، لا أنه عربي، كيعقوب الأعجمي مع اليعقوب الذي هو ذكر الحجل»[(٣)].

=قال عنه الثعالبي: «هو القطب في لسان العرب، وإليه انتهت الرياسة في الأدب».

وقال عنه الفيروزبادي: «الإمام الأوحد، والبارع المتقدم».

أما مذهبه الكلامي فقد كان معتزلياً، ولكنه لا يتقيد بأصولهم بل يذهب إلى ما يراه الحق.

له كتب كثيرة أشهرها: الخصائص، وسر صناعة الإعراب، وهما كتابان جليلان لم تعرف العربية لهما نظيراً في بابهما. انظر يتيمة الدهر للثعالبي ١/٨٢٤، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي ٢/٨٩ و١٠٢، وشذرات الذهب لابن العماد ٣/١٤١، والبُلغة في تاريخ أئمة اللغة للفيروزبادي، تحقيق محمد المصري، دمشق، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م، ص١٣٧.

(١) شرح جواب ابن تيمية ص١٣.

(٢) معجم مقاييس اللغة ١/٢٩٩-٣٠٠.

(٣) شرح جواب ابن تيمية ص١٣.

وقوله: «**أصل البلية**»: أي أنه أول من جادل في هذا الباب، وأثار هذه الشبه[1].

أو أنه هو مادة الفساد التي تمد كل فساد في هذه الدنيا في الأديان، والاعتقادات، والشهوات، والشبهات[2].

ومعنى البيت: أن هذا السؤال الذي أورده السائل هو من جنس سؤال إبليس الذي أخبر الله عنه أنه قال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف: ١٦).

فقال: فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ولم يقل: «فبما غويت».

وإبليس هو الذي غوى، واستكبر عن أمر ربه؛ حيث أمره -عز وجل- بالسجود لآدم فقال: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ (الإسراء: ٦١).

وقال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٦٢).

قال الطوفي رحمه الله في شرح هذا **البيت**: «معنى كون إبليس أصل البلية أي هو أول من جادل في هذا الباب، وأثار هذه الشبه، وحاج بها الملائكة.

وشُبَهُهُ سبع ذكرت في **التوراة والإنجيل**، وذكرها شُرَّاحُهما في شرحيهما، أوردها إبليس على الملائكة على هيئة المناظرة لهم، نازلاً معهم فيها على الأشد فالأشد، ونحن نذكرها بالمعنى مختصراً مع البيان.

قال إبليس -لعنه الله تعالى-: إني وإن سلمت أن الباري -تعالى- إلهي، وإله

---

(١) انظر شرح جواب ابن تيمية ص١٣، فقد ذكر الطوفي ما جاء في التوراة والإنجيل وما ذكره شراحهما من الشبه التي أوردها إبليس على الملائكة على هيئة مناظرة -كما سيأتي بعد قليل-.

(٢) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص٢٥٢-٢٥٦.

الخلق، عالم، قادر، لا يُسأل عن قدرته ومشيئته، وأنه مهما أراد شيئاً، قال له: كن فيكون ـ إلا أنه يتوجه على حكمته أسئلة:

الأول: أنه علم قبل خلقي ما يصدر مني، فلمَ خلقني؟

الثاني: إذ خلقني، فلمَ كلفني بمعرفته وطاعته؟ مع أنه لا تنفعه معرفة العارف، وطاعة الطائع، ولا يضره جهل الجاهل به، ولا معصية العاصي له.

الثالث: إذ خلقني، وكلفني، فالتزمت ذلك التكليف العام، فلم كلفني بطاعة آدم، والسجود له على الخصوص؟ مع أن ذلك لا ينفعه تركه، ولا يضره.

الرابع: إذ كلفني بذلك، فَلِمَ إذا أبيتُ لعنني وأخرجني من الجنة؟ مع أنني لم أرتكب قبيحاً غير قولي: **«لا أسجد إلا لك»**.

الخامس: إذ طردني ولعنني، فلم طرَّقني[1] إلى آدم، حتى غررته، وأزللته عن الجنة بوسوستي؟

ولو منعني من دخول الجنة لا ستراح آدم مني، وبقي خالداً في الجنة.

السادس: إذ سلطني على آدم ففعلتُ معه ما فعلتُ، فلم سلطني على بنيه؟

أراهم من حيث لا يرونني، وتؤثر فيهم وسوستي، ولا يؤثر فيَّ حولهم، ولا قدرتهم، ولا استطاعتهم، ولو عصمهم مني فعاشوا سامعين، مطيعين، طاهرين من المعاصي ـ لكان أليق بالحكمة.

السابع: إذ سلطني على بني آدم، فَلِمَ لَّما اسْتَمْهَلْتُه، واستنظرته، فقلت: ﴿أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (الأعراف: ١٤) أمهلني، وأنظرني، فقال:

---

(١) يعني جعل لي طريقاً.

﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) ﴾ الحجر.

ولو أهلكني في الحال أراح الخلق مني، ولم يبق في العالم شر، وكان ذلك أليق بالحكمة؛ إذ بقاء العالم على نظام الطاعة والخير أولى من بقائه على نظام المعصية والشر.

ثم قال: فهذه حجتي على ما ادعيته في كل مسألة.

قال شارح الإنجيل: فأوحى الله ـتعالى- إلى الملائكة ـعليهم السلام-: قولوا له: إنك في تسليمك الأول (إني إلهك وإله الخلق) غير صادق، ولا مخلص؛ إذ لو صدَّقتَ أني إله العالمين ما احتكمت عليَّ بـ: (لم) فأنا الله الذي لا إله إلا أنا، لا أسأل عما أفعل، والخلق مسؤولون»[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذه المناظرة: «هذه المناظرة بين إبليس والملائكة... ليس لها إسناد يعتمد عليه، ولو وجدناها في كتب أهل الكتاب لم يجز أن نصدقها لمجرد ذلك؛ فإن النبي ﷺ ثبت عنه في الصحيح أنه قال: «**إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم، ولا تكذبوهم، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبونه، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقونه**»[2].

ويشبه ـ والله أعلم ـ أن تكون تلك المناظرة من وضع المكذبين بالقدر، إما من أهل الكتاب، وإما من المسلمين...»[3].

---

(١) شرح جواب ابن تيمية ص١٣ـ١٤.

(٢) الحديث عند الإمام أحمد في المسند (١٧٣٥٧) بلفظ: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وكتبه ورسله؛ فإن كان حقاً تكذبوهم، وإن كان باطلاً لم تصدقوهم».

(٣) مجموع الفتاوى ٨/١١٥.

وقال ابن القيم رحمه الله **عن هذه المناظرة**: «فهذه القصة والمناظرة هي من نقل أهل الكتاب، ونحن لا نصدقها ولا نكذبها، وكأنها -والله أعلم- مناظرة وضعت على لسان إبليس.

وعلى كل حال فلا بد من الجواب عنها سواء صدرت منه، أو قيلت على لسانه؛ فلا ريب أنها من كيده، وقد أخبر الله - سبحانه -: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ النساء: ٧٦.

فهذه الأسئلة والشبهات من أضعف الأسئلة عند أهل العلم والإيمان، وإن صعب موقعها عند من أصَّل أصولاً فاسدة كانت سداً بينه وبين ردها.

وأما من لم يؤصل غير كتاب الله، وسنة رسوله فهذه الأسئلة عنده من جنس أسئلة تلامذته، وأصحابه التي يوردونها على الرسل، وما جاؤوا به.

وهي أسئلة فاسدة مبنية على أصول فاسدة، وقد افترقت طرق الناس في الأجوبة عنها أشد افتراق، وسلكوا في إبطالها كل طريق يخطر بالبال، ونحن نذكر طرقهم...».

ثم ذكر **ابن القيم** رحمه الله طريقة المنجمين، وزنادقة الطبائعيين، والفلاسفة، وطريقة الجبرية، والقدرية في الأجوبة عنها.

كما ذكر طريقة الفرقة الناجية حزب الرسول وأنصاره في الجواب عنها، ومن خلالها بَيَّنَ فساد طرق تلك الفرق، وفنَّد تلك الشبه الشيطانية، وبين بطلانها من خمسة عشر وجهاً[1].

---

(١) انظر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن قيم الجوزية، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه وقدم له د. علي بن محمد الدخيل الله ، دار العاصمة، الرياض، النشرة الأولى، ١٤٠٨هـ، ٤/١٥٤٥-١٥٧٥.

قال الطوفي رحمه الله مفنداً تلك الشبه الإبليسية: «واعلم أن الله -تعالى- له الحجة البالغة، وما أجاب به إبليس مبطل لشبهه؛ لأنها كلها مبنية على الشبهة الأولى، وهو قد التزم فيها شيئاً لم يَفِ به، وهو أنه التزم أن الله -تعالى- لا يسأل عن قدرته ومشيئته، ثم ناقض التزامه باعتراضاته، فسقطت دعواه، ثم بطل ما بناه عليها؛ فسبحان الواحد القهار الذي لا يتوجه على قدرته العجز، ولا على حكمته الإنكار.

ثم اعلم أن إبليس -لعنه الله تعالى- مع فلسفته أخطأ في كلامه بعد الخطأ الكلي من وجهين آخرين:

أحدهما: أنه أورد سبع شبه، وهي ترجع إلى ست؛ لأن السادسة مستلزمة للسابعة؛ فقد كان ذكرها مجزياً عن الأخرى، وذلك لأن تسليطه على بني آدم مستلزم لإمهاله؛ لاستحالة أن يستزلهم وهو هالك معدوم، أو يغوي آخرهم وجوداً في زمن أولهم وجوداً؛ فكأنه غفل عن الاستلزام؛ فغلط.

الوجه الثاني: أنه أخل بشبهة لم يذكرها، ولعلها أقوى الشبه، وهي أن هذا المحفل والمناظرة التي جرت بينه وبين الملائكة لم يعلم بها بنو آدم، فَلِمَ أنزلها الله في كتبه، وبثها في خلقه، وأعلمهم بها؟

ولو أنه لم ينزلها لاستراح العالم من ضررها؛ لأنهم لم يكونوا ينتبهون لها، ولو تنبهوا لكنهم كانوا يهابون الكلام فيها، بخلاف ما إذا علموا أنه قد تقدمهم فيها متقدم؛ فاجتزوا بذلك، وأقدموا على الكلام.

والجواب عن هذه الشبهة ما أجاب الله -تعالى- به عن أخواتها، وإنما ذكرنا هذه الشبه تأكيداً لجهل إبليس في خطابه؛ إذ من يعلم من نفسه الضعف لم يغالب من هو أغلب منه، ويقيم نفسه مقام النظير له في الاعتراض عليه، ولكن إبليس

ابتلاه الله -تعالى- بالإعجاب بنفسه، والتكبر، واستشعار الحكمة، والعلم، والذكاء، ثم أعجزه في ذلك كله، وقد قيل في أمثال الشعر:

هكــذا كــلُّ أخـــي حَذْلَقَـــةٍ[١]   مـــا مَـــشَى في يـــابسٍ إلا زَلَـــقْ

فنعوذ بالله -تعالى- من مَكْره؛ فإنه لا يأمن من مكر الله إلا القوم الخاسرون.

ثم إن قوله: «لمَ طردني، ولم أرتكب قبيحاً غير قولي: لا أسجد إلا لك؟» مغالطة، وتدليس على الله -تعالى- فإنه أظهر بذلك التنزيه لله -تعالى- عن السجود لغيره، وأبطن مخالفة أمره، والاستكبار عن طاعته؛ فكان ما أظهره كما قالت الخوارج: «لا حكم إلا لله».

فقال علي رضي الله عنه: «كلمة حقٍ أريد بها باطل».

والله ناقد[٢] بصير مُطلع على السرائر، عالمٌ بما تَجِنُّ الضمائر، قائم على كسب الأنفس، لا يمشي عليه تدليس المدلس، فأخذه بما أبطن، وألغى ما أظهره؛ إذ مقتضى النية هو المعتبر»[٣].

إلى أن قال الطوفي رحمه الله: «واعلم أن شبهة إبليس هذه أول شبهة وقعت في الخليقة، وكان منشؤها عن مقابلة النص بالرأي، ومعارضة الأمر باتباع الهوى، واستكباره بمادته النارية عن مادة آدم الطينية، وغفل عن أن الله -تعالى- يختص بفضله من يشاء، وأنه قادر بتقدير تسليم أفضلية المادة النارية على جبر مفضولية

---

(١) الحذلقة: هي التصرف بالظرف، والمتحذلق: المُتكيِّس، وقيل: هو المتكيس الذي يريد أن يزداد على قدره، وتحذلق الرجل: إذا أظهر الحذق، وادعى أكثر مما عنده. انظر لسان العرب ١٠/٤١.

(٢) لو قال: خبير أو لطيف لكان أولى.

(٣) شرح جواب ابن تيمية ص١٤-١٥.

المادة الطينية بتفضيل الهيئة الشكلية، والكيفية، والصورية؛ فنسأل الله -تعالى- التوفيق للانقياد والتسليم؛ فإنه المنهج القويم، والصراط المستقيم؛ إنه رؤوف رحيم»[1].

(١) شرح جواب ابن تيمية ص١٥.

شرح البيت الثالث

٣ـ ومن يك خصماً للمهيمن يرجعن   على أم رأس هاوياً في الحُفيرةِ

قوله: «**أم رأس**»: أم الرأس -كما يقول ابن فارس-: «الدماغ، تقول: أَمَمْتُ فلاناً بالسيف والعصا أمًّاً إذا ضربته ضربةً تصل إلى الدماغ»[١].

وقوله: «**هاوياً**»: من الهُوِي: وهو ذهاب في انحدار، يقال: رأيتهم يتهاوون في المهواة أي يتساقطون بعضهم في إثر بعض[٢].

وقوله: «**الحفيرة**»: تصغير الحفرة، ويعني بها النار، وشبهت بالحفيرة لعمقها، وبُعْد مداها إلى أسفل[٣].

والتصغير ههنا قد يراد به التعظيم، كقول لبيد رضي الله عنه:

وكلُّ أناسٍ سوف تدخل بينهم   دُويهيَةٌ تَصْفَرُّ منها الأناملُ[٤]

فقوله: «**دويهية**»: تصغير داهية، ويعني بها الموت.

ومعنى البيت: أن من خاصم الله خُصم، ومن غالبه غُلب.

فإبليس خاصم ربه، وباداه بالمعصية، واستكبر عن أمره.

بخلاف آدم -عليه السلام- فإنه لما أذنب بأكله من الشجرة التي نُهي عن قربانها- تاب إلى ربه، وقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾ الأعراف: ٢٣.

---

(١) معجم مقاييس اللغة ١/٢٢.

(٢) انظر المفردات ص٥٧٤.

(٣) انظر شرح جواب ابن تيمية ص١٥.

(٤) ديوان لبيد بن ربيعة العامري ص١٣٢.

ولما كان هذا شأنه اجتباه ربه، وتاب عليه، وهداه.

أما إبليس فأصر واحتج بالقدر؛ فلعنه الله وأقصاه؛ فمن تاب كان آدمياً، ومن أصر واحتج بالقدر كان إبليسياً؛ فالسعداء يتبعون أباهم، والأشقياء يتبعون عدوهم.

فكل من خاصم عن نفسه، أو عن غيره في معصية الله ـ فهو وارث لإبليس، آخذٌ عنه الخصومة.

ومن كان هذا شأنه فالنار موعده، يصلاها مذموماً مدحوراً.

وهو في الدنيا مخصوم محجوج؛ لأنه معاند للحق، منحازٌ للباطل، ومن كان كذلك فهو مغلوب لا محالة؛ ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ الإسراء: ٨١[1].

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ٨/٦٤، وطريق الهجرتين لابن القيم ص١٧٠، وشرح جواب ابن تيمية ص١٥، والدرة البهية ص١٤٩ـ١٥٠.

شرح البيت الرابع

٤ـ ويدعى[١] خصومُ اللهِ يومَ معادهم إلى النار طُرًّا معشرَ[٢] القدريةِ

قوله: «طُرًّا»: أي جميعاً، وهو منصوب على المصدر أو الحال.

وهو مأخوذ من طرَّ البيت: إذا اهتز، واجتمع، ومنه طُرَّ شاربُ الغلام إذا اجتمع وبقل.

والطُّر: الجماعة، يقال: جاءني القوم طراً[٣].

يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله في شرح هذا البيت: «يشير الشيخ إلى ما رواه ابن ماجه من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من تكلم في شيء من القدر سئل عنه يوم القيامة**»[٤].

أي سؤال تقريع وتوبيخ»[٥].

ولعل الإشارة في هذا البيت إلى ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: ألا ليقم خصماء الله، وهم القدرية**»[٦].

---

(١) في ب و هـ و ج: وتدعى.

(٢) في أ و ط و ب و ج و هـ: فرقة.

(٣) انظر شرح جواب ابن تيمية ص١٥، ولسان العرب ٤/٤٩٨ـ٥٠١.

(٤) ابن ماجه (٨٤) وقال الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، المكتب الإسلامي، بيروت، (١٦): «ضعيف».

(٥) الدرة البهية ص١٥٠.

(٦) رواه ابن أبي عاصم في السنة (٣٣٨) والطبراني في الأوسط (٦٥١٠) كلاهما عن بقية، ثنا حبيب ابن عمر الأنصاري عن أبيه عن ابن عمر عن أبيه عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً.

قال الألباني في ضعيف الجامع (٦٦٣): «ضعيف».

شرح البيت الخامس

٥ـ سواء نفوه أو سعوا ليخاصموا به اللهَ أو ماروا به للشريعة

وقوله: «ماروا»: أي جادلوا بالباطل، وحاجوا فيما فيه مرية.

قال الله ـتعالى ـ: ﴿فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلا مِرَاء ظَاهِرًا﴾ (الكهف: ٢٢)[1].

قال الطوفي رحمه الله في شرح هذا البيت: «واعلم أني لا أجزم بفهم مراده من هذا البيت، لكن يغلب على ظني شيء أذكره، وهو أن معناه: سواء نفوا القدر؛ تنزيهاً لله ـتعالى ـ عن الجور بالطعن في حكمته، أو نفوه مِراءً، أي مكابرة للشريعة ومناقضة لها.

فإن ثبت صحة ما فهمته فالقسمان الأخيران ـأعني مخاصمة الله ـتعالى ـ ومِراء الشريعة ـ متلازمان؛ لأن من خاصم الله فقد طعن في الشرع؛ لورود تنزيه الله ـتعالى ـ عن كل نقص، ومن طعن في الشرع فقد حادَّ الله وخاصمه؛ لأن الشرع قضاؤه وحكمه»[2].

والحقيقة أن الأمر ليس كما فهمه الطوفي رحمه الله على إطلاقه؛ ذلك أن كل واحد من القسمين الأخيرين مستقل بذاته، ولا يمنع أن يكونا مشتركين في الخصومة لله ـعز وجل ـ.

فيكون البيت قد اشتمل على ذكر طوائف القدرية الثلاث، وهم القدرية المعتزلة التي عناهم بقوله: «سواء نفوه».

---

(١) انظر المفردات ص٤٨٧.

(٢) شرح جواب ابن تيمية ص١٥ـ١٦.

والجبرية وهم الذين عناهم بقوله: «**أو سعوا ليخاصموا به الله**».

والقدرية الإبليسية وهم الذين أشار إليهم بقوله: «**أو ماروا به للشريعة**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مبيناً هذه الفرق وضلالها على سبيل الإيجاز: «فالقدر يُؤمن به ولا يُحتج به؛ فمن لم يؤمن بالقدر ضارع المجوس، ومن احتج به ضارع المشركين، ومن أقر بالأمر والقدر وطعن في عدل الله وحكمته كان شبيهاً بإبليس؛ فإن الله ذكر عنه أنه طعن في حكمته، وعارضه برأيه وهواه، وأنه قال: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنْ النَّاصِحِينَ﴾ (الحجر: ٣٩)»(١).

وفيما يلي تفصيلٌ لتلك الفرق:

الفرقة الأولى: القدرية المعتزلة: وهم أتباع معبد الجهني، وغيلان الدمشقي، وأتباع واصل ابن عطاء، وعمرو بن عبيد من المعتزلة، ومن وافقهم، هؤلاء هم القدرية.

وسموا قدرية ـ كما يقول ابن قتيبة رحمه الله ـ: «لأنهم أضافوا القدر إلى أنْفُسِهم، وغيرُهم يجعله له ـتعالىـ دون نفسه، ومُدَّعي الشيء لنفسه أولى بأن ينسب إليه ممن جعله لغيره»(٢).

وقولهم في القدر: هو أن العبد مستقل بعمله في الإرادة والقدرة، وليس لمشيئة اللهـتعالىـ وقدرته في ذلك أثر.

ويقولون: إن أفعال العباد ليست مخلوقةً لله، وإنما العباد هم الخالقون لها، ويقولون: إن الذنوب الواقعة من العباد ليست واقعة بمشيئة الله.

---

(١) مجموع الفتاوى ٨/١١٤.

(٢) تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ، ص٧٨.

وقالوا: «نحن نفعل ما لا يريد الله -تعالى- ونقدر على ما لا يقدر»[(١)].

وغلاتهم ينكرون أن يكون الله قد علمها، فيجحدون مشيئته الشاملة، وقدرته النافذة، ولهذا سموا مجوس هذه الأمة؛ لأنهم شابهوا المجوس الذين قالوا: إن للكون إلهين: إلهَ النور: وهو خالق الخير، وإلهَ الظلمة: وهو خالق الشر.

«وقد وردت أحاديث في السنن وغيرها عن النبي ﷺ في ذم القدرية، ووصفهم بأنَّهم مجوس هذه الأمة.

وهي -وإن كانت لا تخلو من مقال- إلا أن بعضها يصل إلى درجة الحسن، وبعضها يقوي بعضاً»[(٢)].

ومن ذلك ما جاء عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: **«لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قدر، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته، ومن مرض منهم فلا تعودوهم، وهم شيعة الدجال، وحق على الله أن يحشرهم معه»**[(٣)].

وما جاء عن جابر بن عبدالله -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن مجوس هذه الأمة المكذبون بأقدار الله، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم، وإن لقيتموهم فلا تسلموا عليهم»**[(٤)].

كما وردت آثار كثيرة من السلف في ذم القدرية، وكتب العقيدة مليئة بذلك،

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص٧٨.

(٢) القضاء والقدر للمحمود ص١٥٠.

(٣) رواه أبو داود (٤٦٩٢) وقال الألباني في ضعيف الجامع (١٩٧٥): «ضعيف».

(٤) رواه أبو داود (٤٧١٠) وقال الألباني في ضعيف الجامع (٤٧١٢): «ضعيف».

ومنها كتاب القدر للفريابي[(١)] حيث ساق آثاراً كثيرة في هذا الصدد، منها ما أخرجه بسنده عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: «ما غلا أحد في القدر إلا وخرج من الإيمان»[(٢)].

وأخرج بسنده عن أبي الزبير المكي أنه قال: «كنت أنا وطاووس نطوف بالبيت، فذكر أن معبداً الجهني تكلم في القدر، وكان أول من تكلم في القدر فعدلت إليه، فقال له طاووس: أنت المفتري على الله، فقال: إنه يُكْذَب علي، قال، فانصرفنا إلى عبدالله بن عباس، فذكر ذلك له، فقال ابن عباس: أروني منهم إنساناً، فوالله لا تُرونيه إلا جعلت يدي في رأسه فلا أفارقه حتى أدق عنقه»[(٣)].

وروى بسنده عن أرطاة بن المنذر قال: «سمعت أنه يُقال: ما فتشت قدرياً إلا وجدته ملطوماً بحمقه»[(٤)].

والقدرية جعلوا لله شريكاً، بل شركاء في خلقه، فزعموا أن العباد يخلقون أفعالهم.

ومنشأ ضلال هؤلاء في البداية أنهم أرادوا تنزيه الله -عز وجل- عن الشر، ورتبوا على نفيهم الأفعالَ القبيحةَ عن الله قَوْلَهم: إن العباد هم الخالقون

---

(١) هو جعفر بن محمد بن الحسن بن المستفاض أبو بكر الفريابي، نسبته إلى فرياب من نواحي بلخ، ولد سنة ٢٦٧هـ وارتحل لطلب العلم، وكان من أهل الحفظ والإتقان، وله مصنفات نافعة، منها أحكام العيدين، والصيام، والقدر، والرؤيا، والبكاء، والنكاح، توفي رحمه الله سنة ٣٠١هـ.

انظر تأريخ مدينة السلام (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي، حققه وضبط نصه وعلّق عليه د.بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، ١١٩٧/٧، والسير للذهبي ٩٦/١٤.

(٢) كتاب القدر للفريابي ص١٧٢.

(٣) كتاب القدر ص٢٠٥-٢٠٦.

(٤) كتاب القدر ص٢٠٠.

لأفعالهم؛ فوقعوا في نفي القدر.

وقد استدلوا على مذهبهم استدلالاً أعور ببعض الآيات، ومن ذلك ما يلي:

١- استدلالهم بالآيات الدالة على إثبات المشيئة للعباد: كقوله -تعالى-: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ التكوير:٢٨، وقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ الكهف:٢٩.

وقوله -عز وجل-: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ المدثر:٣٧.

وغيرها من الآيات الدالة على إثبات المشيئة للعباد، فقالوا: لو لم تكن أفعالهم لما علق مشيئتهم عليها.

٢- واستدلوا بالآيات التي تبين أن العباد هم الذين يؤمنون ويكفرون، ويطيعون ويعصون، كما في قوله -تعالى-: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ الإسراء:٩٤، وقوله -تعالى-: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ﴾ البقرة:٢٨، وقوله -تعالى-: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ النساء:٣٩، وقوله -تعالى-: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ آل عمران:٧١.

قالوا: كيف يكون الله خالقاً لأفعال العباد مع أن هذه الآيات تنص على أنهم هم الذين يؤمنون، ويكفرون، ويلبسون الحق بالباطل؟

فلو لم تكن أفعالهم حقيقة لما عاتبهم، وذمهم على ترك الإيمان، وفعل الكفر.

٣- وكذلك استدلوا على آيات الجزاء كما في قوله -تعالى-: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ السجدة:١٧، وقوله -تعالى-: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ التوبة:٨٢.

قالوا: ولو لم يكن العباد هم العاملين والخالقين لأفعالهم، والصانعين لها

لكان هذا الكلام كذباً، وكان الجزاء على ما يخلقه فينا ضعيفاً.

٤ـ واستدلوا بمثل قوله ـتعالى ـ: ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ النمل: ٨٨.

ووجه استدلالهم أن الله بين في هذه الآية أن أفعاله كلها متقنة، والإتقان يتضمن الإحكامَ، والحسنَ جميعاً، ومعلومٌ أن في أفعال العباد ما يشتمل على التهود، والتنصر، والتمجس، وليس شيء من ذلك متقناً؛ فلا يجوز أن يكون الله خالقاً لها[١].

ومن أقوالهم في هذا قول عبدالجبار الهمذاني[٢]: «اتفق أهل العدل على أن أفعال العباد مِنْ تصرفهم، وقيامهم، وقعودهم حادثةٌ من جهتهم، وأن الله ـجلَّ وعزَّـ أقدرهم على ذلك، ولا فاعل لها، ولا مُحدثَ سواهم، وأن من قال: إن الله ـسبحانهـ خالقها ومحدثها فقد عظم خطؤه»[٣].

---

(١) انظر شرح الأصول الخمسة، لعبدالجبار الهمذاني، تعليق أحمد بن الحسين بن أبي هاشم، تحقيق د.عبدالكريم عثمان، مكتبة وهبة، ١٣٨٤هـ ـ١٩٦٥م، ص٣٥٥ـ٣٦٢، وإيقاظ الفكرة بمراجعة الفكرة، تأليف محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه محمد صبحي بن حسن حلاق، دار ابن حزم، ط١، ١٤٠٢هـ ـ١٩٩٩م، ص٣٧٧ـ٣٩٥، والقضاء والقدر للمحمود ٣٣٧ـ٣٤١.

(٢) هو أبو الحسن عبدالجبار بن أحمد بن الخليل بن عبدالله الهمذاني الأسد أبادي، القاضي، ولد سنة ٣٢٠هـ على الأرجح، وتوفي سنة٤١٥هـ، كان أشعرياً ثم انتقل إلى الاعتزال، وهو آخر علماء المعتزلة الكبار الذين دافعوا عنهم وألفوا الكتب المطولة منها: شرح الأصول الخمسة، والمغني في أبواب التوحيد والعدل. انظر الأعلام للزركلي ٤/٤٧.

(٣) المغني في أبواب التوحيد والعدل، عبدالجبار الهمذاني، تحقيق مجموعة من المحققين، ط القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، ٢/٣٤٠، والعقد الثمين في معرفة رب العالمين، للأمير الحسن بن بدر الدين محمد بن أحمد بن يحيى، تحقيق يحيى الفضيل، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٣٩٢هـ، ص٣٧ـ٣٨.

والإنسان عند المعتزلة «يجوز أن يُفْني فعل الله -تعالى- الذي هو القدرة بفناء الحياة بأن يقتل نفسه، ويجوز أن يبطل فعل الغير للسكون بتحريك المحل»[١].

هذا هو خلاصة مذهب المعتزلة مع ملاحظة أنهم يختلفون في بعض التفصيلات حول القدر، ولكنَّ ما ذُكِرَ هو ما أجمعوا عليه.

والمتأمل في كلامهم، وأقوالهم يجد من التناقض، والتعارض، وقِصَرِ النظرِ الشيءَ الكثير[٢].

الفرقة الثانية: الجبرية أو المجبرة: وهم الذين غلوا في إثبات القدر، حتى أنكروا أن يكون للعباد قدرة، أو إرادة، أو اختيار؛ فيرون أن العباد مجبورون على أفعالهم، وأن العبد كالريشة في مهب الريح، وإنما تنسب إليه الأفعال مجازاً، فيقال: صلى، وصام، وقتل، وسرق كما يقال: طلعت الشمس، وجرت الريح؛ فأنكروا قدرة العباد، واختيارهم، واتهموا ربهم بالظلم، وتكليف العباد بما لا قدرة لهم عليه، ومجازاتهم على ما ليس من فعلهم، واتهموه بالعبث،

---

(١) المغني في أبواب التوحيد والعدل ٢٨٣/٨.

(٢) انظر القضاء والقدر للمحمود ٣٠٧-٣٠٨ و ٢٠٤-٢٠٦، والمختار في أصول السنة، تأليف أبي الحسن أحمد البنا الحنبلي، تحقيق د. عبدالرزاق العباد، مكتبة العلوم والحكم، المدينة النبوية، ط١، ١٤١٣هـ، ص٨٧، ورسالة السجزي إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت، للإمام أبي النصر عبدالله بن سعيد بن حاتم الوائلي السجزي، تحقيق ودراسة د.محمد باكريم، ط٢، ١٤٢٣هـ -٢٠٠٢م، الجامعة الإسلامية عمادة البحث العلمي، ص٣٣٢، وبغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالحلول والاتحاد، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د.موسى بن سليمان الدويش، مكتبة العلوم والحكم، ط١، ١٤٠٨هـ، ص٢٦١، والمعتزلة بين القديم والحديث، محمد العبدة، طارق عبدالحليم، دار الأرقم، برمنجهام، ط١، ١٤٠٨هـ، ص٥٧-٥٩، ومختصر التحفة الاثني عشرية، تحقيق وتعليق محب الدين الخطيب، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤٠٤هـ، ص٩٠.

وأبطلوا الحكمة من الأمر والنهي[(١)].

وأهم الفرق التي حملت لواء الجبر، حتى كاد يصير علماً عليها فرقة الجهمية أتباع الجهم بن صفوان الذي استقى تعاليمه من أستاذه الجعد ابن درهم[(٢)] الذي كان يقول بالجبر.

ولكن ذلك اشتهر عن تلميذه الجهم[(٣)].

وقد نقلت كتب المقالات أقوال الجهم في القدر، فيقول البغدادي[(٤)] عن الجهم: «وقال: لا فعل، ولا عمل لأحد غير الله ـ تعالى ـ.

وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز كما يقال: طلعت الشمس،

---

(١) انظر شرح الواسطية للهراس ص٢٣٠، والاختلاف في اللفظ لابن قتيبة ص٣٠، و البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، لأبي الفضل عباس ابن منصور التريني السكسكي الحنبلي، تحقيق د.بسام علي سلامة العموش، مكتبة المنارة، الزرقاء الأردن، ص٤٢ـ٤٣، والنبوات لابن تيمية ص١٦٦، ومجموع الفتاوى ٢٥٦/٨، وشرح القصيدة النونية، لابن القيم، لمحمد خليل هراس، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ٣٢٢/١، والدرر السنية جمع الشيخ عبدالرحمن بن قاسم ٣٥٨/١ـ٣٥٩، والمنتقى من فرائد الفوائد للشيخ ابن عثيمين، دار الوطن، ١٤١١هـ، ط١، ص١٠٢، و الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت، دار القلم، ط٣، ١٩٦٦م، ص٥٣ـ٥٤.

(٢) هو الجعد بن درهم من الموالي أصله من خراسان، أخذ بدعته عن بيان بن سمعان وأخذ بيان عن طالوت بن أخت لبيد بن أعصم زوج ابنته، وأخذه لبيد عن أعصم الساحر الذي سحر النبي ﷺ عن يهودي باليمن، والجعدُ مبتدع ضال زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما، فقُتل في ذلك بالعراق يوم النحر قتله خالد القسري نحو سنة ١١٨هـ. انظر الأعلام ١١٤/٢.

(٣) انظر القضاء والقدر للمحمود ص٢٠٢ـ٢٠٣ و٣٠٢ـ٣٠٥.

(٤) هو الأستاذ أبو منصور عبدالقاهر بن محمد البغدادي الفقيه الشافعي الأصولي، الأديب، كان ماهراً في فنون عديدة خصوصاً علم الحساب؛ فإنه كان متقناً له، وله فيه تواليف نافعة، وكان عارفاً بالفرائض، والنحو، وله أشعار، توفي سنة ٤٢٩هـ، بمدينة إسفرايين ودُفن إلى جانب شيخه أبي إسحاق الإسفراييني. انظر وفيات الأعيان ٢٠٣/٣.

ودارت الرحى من غير أن يكونا فاعلين، أو مستطيعين لما وُصِفتا به»[(١)].

ويقول الشهرستاني[(٢)] عن الجهم: «ومنها قوله في القدرة الحادثة: إن الإنسان لا يقدر على شيء، ولا يوصف بالاستطاعة، وإنما هو مجبور في أفعاله لا قدرة له، ولا إرادة، ولا اختيار.

وإنما يخلق الله -تعالى- الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجماد، وتنسب إليه الأفعال مجازاً كما تنسب إلى الجمادات، كما يقال: أثمرت الشجرة، وجرى الماء، وتحرك الشجر، وطلعت الشمس، وغربت، وتغيمت السماء، وأمطرت، واهتزت الأرض، وأنبتت إلى غير ذلك.

والثواب والعقاب جبرٌ كما أن الأفعال كلها جبر.

قال: وإذا أثبت الجبر فالتكليف -أيضاً- كان جبراً»[(٣)].

هذا هو مذهب الجهم، وواضح ما في مذهبه من جبر خالص يجعل الإنسان في أعماله كورقة الشجر التي تحركها الرياح.

لكن مع هذا فإن الأشعري[(٤)] في المقالات يذكر رأي الجهم في القدر لكن مع

---

(١) الفرق بين الفرق ص٢١١.

(٢) هو أبو فتح محمد بن أبي القاسم عبدالكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، ولد بشهرستان، تتلمذ على أبي نصر القشيري، وأبي القاسم الأنصاري، ولد سنة ٤٦٩هـ، وتوفي سنة ٥٤٨هـ.

انظر سير أعلام النبلاء ٢٨٦/٢٠، والأعلام ١٣٨/٢-١٣٩.

(٣) الملل والنحل للشهرستاني ٨٧/١.

(٤) هو علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبدالله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري الصحابي الجليل ﷺ وقد اشتهر بأبي الحسن الأشعري، ولد سنة ٢٦٠هـ، وكان على مذهب المعتزلة ثم تركه، ورد على المعتزلة فانتشر مذهبه، ونُسب إليه مذهب الأشاعرة لكنه في=

اختلاف يسير عما ذكره البغدادي والشهرستاني.

يقول الأشعري عن الجهم بأنه زعم «أنه لا فعل لأحد في الحقيقة إلا الله وحده، وأنه هو الفاعل، وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على سبيل المجاز.

كما يقال: تحركت الشجرة، ودار الفلك، وزالت الشمس.

وإنما فعل ذلك بالشجر والفلك والشمس ـ سبحانه ـ إلا أنه خلق للإنسان قوة كان بها الفعل، وخلق له إرادة للفعل، واختياراً له منفرداً بذلك كما خلق له طولاً كان به طويلاً، ولوناً كان به متلوناً»[1].

هذا هو مذهب الجهمية الجبرية ومن وافقهم.

وقد استدلوا بآيات من القرآن الكريم، وبالعقل، وأهمها[2]:

=المرحلة الأخيرة من حياته لما بلغ الأربعين رجع إلى القول الحق وإن كان قد بقي فيه آثار من مذهب المعتزلة، توفي سنة ٣٣٠هـ على أرجح الأقوال، له كتب منها: الإبانة عن أصول الديانة.

وكان رحمه الله محل ثناء العلماء عليه، خصوصاً علماء الأشاعرة، وتركز ثناؤهم على ما كان له من نسب، وما قام به من الرد على المعتزلة، والملاحدة وغيرهم، وما كان عليه من الذكاء والعلم.

ويقول عنه الذهبي رحمه الله: «ولأبي الحسن ذكاء مفرط وتبحر في العلم، وله أشياء حسنة، وتصانيف جمة، تقضي له بسعة العلم»

ويقول عنه ـ أيضاً ـ: «رأيت لأبي الحسن أربعة تواليف في الأصول يذكر فيها قواعد مذهب السلف في الصفات، وقال فيها: تُمَرُّ كما جاءت، ثم قال: وبذلك أقول وبه أدين، ولا تُؤَوَّل»

انظر سير أعلام النبلاء ١٥/٨٦ـ٨٧، وطبقات الشافعية للسبكي ٣/٣٤٧، والأعلام ٥/٦٩، وموقف ابن تيمية من الأشاعرة د.عبدالرحمن المحمود ١/٣٢٩ـ٤٣٤.

(١) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، لأبي الحسن الأشعري، دار إحياء التراث، بيروت، عني بتصحيحه هلموت ريتر، ط٣، ١/٣٣٨، وانظر القضاء والقدر للمحمود ص٣٠٣ـ٣٠٤.

(٢) انظر القضاء والقدر للمحمود ص٣٢٨ـ٣٣١.

١ـ الآيات التي تدل على أن الله خالق كل شيء: مثل قوله ـتعالىـ: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ الأنعام:١٠٢.

وقوله ـتعالىـ: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ الزمر:٦٢.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ فاطر:٣.

فهذه الآيات تدل على أن الله خالق كل شيء، وأنه لا خالق إلا هو، وأفعال العباد شيء؛ فالله خالقها وحده، ومن ثم فلا قدرة، ولا إرادة للعباد في أفعالهم؛ فهم مجبورون غير مختارين[١].

٢ـ الآيات التي تثبت المشيئة لله وحده، وأنه لا مشيئة للإنسان إلا تحت مشيئة الله: كقوله ـتعالىـ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وقوله ـتعالىـ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ الإنسان:٣٠.

وقوله ـعز وجلـ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ التكوير:٢٩.

وقوله ـتعالىـ: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ المدثر:٣١.

---

(١) انظر القضاء والقدر للمحمود ص٣٢٨.

وغيرها من الآيات في هذا السياق؛ فهم يرون أن الإنسان إذا كان مسلوب الإرادة، والله هو الذي يشاء ويريد، ويهدي ويضل - فهو الخالق لأعمال العباد، وهم مجبورون لا إرادة لهم، ولا مشيئة، ولا خلق[1].

٣ـ ويستدلون بالآيات التي تنفي الفعل عن العبد، وتثبته لله: كقوله ـتعالىـ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.

وقوله ـعز وجلـ: ﴿إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾ النساء:٧٨.

فهذه الآيات وما جرى مجراها - عندهم - نص في أنَّ الإنسان لا إرادة له ولا فعل[2].

٤ـ واستدلوا بالعقل فقالوا: إن الله عَلِمَ وأراد أزلاً وجود أفعال العباد، وتعلقت قدرته بوجودها فيما لا يزال؛ فما وقع من أفعال العباد فهو بقضاء الله وقدرته، والعباد مجبورون عليها[3].

---

(١) انظر القضاء والقدر للمحمود ص٣٣٠

(٢) انظر شرح الطحاوية ص٤٩٤.

(٣) انظر في أدلة الجبرية كتاب رد على المجبرة القدرية للإمام يحيى بن الحسين «من أئمة الزيدية ٢٤٥ـ٢٩٨هـ» ص٣٤ وما بعدها من الجزء الثاني ضمن رسائل العدل والتوحيد تحقيق محمد عمارة، وانظر ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان، لابن الوزير اليماني، دار الكتب العلمية، بيروت، توزيع دار الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص١٤٤ـ١٤٥، ومذاهب الإسلاميين، لعبدالرحمن بدوي، ط ١٩٧١م، دار العلم للملايين، ٩٨/١، وانظر القضاء والقدر للمحمود ص٢٢٨ـ٣٣١.

الفرقة الثالثة: القدرية الإبليسية: وهم الذين أشار إليهم الشيخ بقوله: «**أو ماروا به للشريعة**».

وهم الذين صدَّقوا بأن الله ـ عز وجل ـ قد صدر عنه الأمران ـ أي أنه قدَّر وقضى، وأنه أمر ونهى.

ولكنهم يرون أن ذلك تناقض، من الرب ـسبحانه وتعالىـ فطعنوا في حكمته، وعدله.

وهؤلاء هم خصماء الله ـتعالىـ وسموا إبليسية لأنهم أشبهوا إبليس بمقولته التي ذكرها الله عنه في القرآن عندما قال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف: ١٦).[1]

والرد على هؤلاء يسير ـبحمد اللهـ حيث يقال: إن الواجب على العبد في باب القدر أن يؤمن بقضاء الله وقدره، وأنه لا يقع شيء إلا وقد علمه الله، وكتبه، وشاءه.

ويؤمن ـمع ذلكـ بشرع الله وأمره، ونهيه؛ فعلى الإنسان تصديق الخبر، وطاعة الأمر؛ فإذا وفق للطاعة حمد الله، واستمر عليها، وإذا فعل المعصية تاب إلى الله، واستغفر ونزع عنها.

هذا هو خلاصة الرد على هؤلاء بإيجاز.

---

(١) انظر التدمرية، تحقيق الإثبات للأسماء والصفات، وحقيقة الجمع بين القدر والشرع، لابن تيمية، تحقيق د.محمد بن عودة السعوي، ط١، ١٤٠٥هـ، ص٢٠٨.

شرح البيت السادس

٦ـ وأصلُ ضلالِ الخلقِ من كل فرقةٍ هو الخوض في فعل الإله بعِلَّةِ

قوله: «**ضلال**»: الضلال العدول عن الطريق المستقيم، ويضاده الهداية[١].

وقوله: «**الخوض**»: هو الشروع والمرور في الماء، ونحوه من المائعات.

ويستعار في الأمور والمعاني، كقولهم: خاض في الكلام أو الفعل.

والعلاقة بينهما الملابسة، وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه نحو قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ (التوبة: ١٥)[٢].

وقوله: «**بِعِلَّة**»: قال الجرجاني رحمه الله: «والعلة لُغَةً: عبارة عما يحصل بالمحل، فيتغير به حال المحل بلا اختيار، ومنه يسمى المرض علة؛ لأنه بحلوله يتغير حال الشخص من القوة إلى الضعف»[٣].

وقال: «العلة: هي ما يتوقف عليه وجود الشيء، ويكون خارجاً مؤثراً فيه. وعلة الشيء: ما يتوقف عليه ذلك الشيء»[٤].

وقال الكفوي[٥] رحمه الله: «العلة ما يثبت الحكم بها»[٦].

---

(١) انظر المفردات ص٣٠٨.

(٢) انظر المفردات ص١٦٨، وشرح جواب ابن تيمية ص١٧.

(٣) (٤) التعريفات ص١٥٤.

(٥) هو أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي الحنفي القاضي، ولد في كفا بالقرم سنة ١٠٢٨هـ، وفيها نشأ، وأخذ العلم، ولما اشتد عوده، وتفقَّه في مذهب أبي حنيفة استدعي إلى الأستانة وعين قاضياً فيها، ثم عاد إلى كفا ثم عين قاضياً في القدس وتوفي فيها سنة ١٠٩٤هـ، له كتب منها: الكليات، وشرح بردة البوصيري. انظر الأعلام ١٨٣/١، ومقدمة كتاب الكليات ـ معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، قابله على نسخة خطية، وأعده للطبع ووضع فهارسه د. عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، ص٧ـ٨.

(٦) الكليات للكفوي ص٦٢١.

يبين الشيخ في هذا البيت أن أصل الضلال الذي وقع فيه الخلق على اختلاف فرقهم إنما هو بسبب خوضهم في تعليل أفعال الله -جل وعلا-.

قال ابن القيم رحمه الله في معرض حديث له عن مناقشة مثبتي الحكمة ونفاتها، قال: «وأصل ضلال الخلق هو طلب تعليل أفعال الرب، كما قال شيخ الإسلام في تائيته:

وأصلُ ضلالِ الخلقِ من كل فرقةٍ هو الخوض في فعل الإله بعِلَّةِ

فإنهم لما طلبوا علة أفعاله فأعجزهم العلم بها افترقوا بعد ذلك؛ فطائفة ردت الأمر إلى الطبيعة والأفلاك التزمت[1] مكابرة الحس والعقل، وقالوا: إن خلود أهل النار في النار أنفع لهم وأصلح من كونهم في الجنة، وإن إبقاء إبليس يغوي الخلق ويضلهم أنفع لهم من إماتته، وأن إماتة الأنبياء أصلح للأمم من إبقائهم بينهم، وإن تعذيب الأطفال خير لهم من رحمتهم، إلى غير ذلك من المحالات التي قادهم إليها الخوض في تعليل أفعال من لا يُسْأَل عما يفعل.

فلذلك قلنا[2]: إن الصواب القول بعدم التعليل، وتخلصنا من الحبائل والأشراك التي وقعتم فيها.

قال أهل الحكمة: ليست هذه الأسئلة والاعتراضات التي قد جئتم بها في حكمة أحكم الحاكمين بأقوى من الأسئلة والاعتراضات التي قدح بها أهل الإلحاد في وجوده -سبحانه-.

---

(١) هكذا في الأصل ولعل الصواب: والتزمت.

(٢) يعني: نفاة الحكمة.

وقد أقاموا أربعين شبهة تنفي وجوده.

وكذلك اعتراضات المكذبين لرسله، وقد حكيتم أنتم عنهم ثمانين اعتراضاً.

وكذلك الاعتراضات التي قدح بها المعطلة في إثبات صفات كماله قد علمتم شأنها وكِبَرَها.

وكذلك الاعتراضات التي نفى بها الجهمية علوه على خلقه، واستواءه على عرشه، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لعباده.

وقد علمتم الاعتراضات التي اعترض بها أهل الفلسفة على كونه خالقاً للعالم في ستة أيام، وعلى كونه يقيم الناس من قبورهم، ويبعثهم إلى دار السعادة أو الشقاء، ويبدل هذا العالم، ويأتي بغيره.

واعتراضات هؤلاء، وأسئلتهم أضعاف اعتراضات نفاةِ الحكمةِ، وغاياتِ أفعالِه المقصودة، وكذلك اعتراضات نفاة القدر وأسئلتهم، إلى غير ذلك.

وقد اقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن أقام في هذا العالم لكل حقٍّ جاحداً، ولكل صواب معانداً، كما أقام لكل نعمة حاسداً، ولكل شر رائداً.

وهذا من تمام حكمته الباهرة، وقدرته القاهرة؛ ليتم عليهم كلمته، وينفذ فيهم مشيئته، ويظهر فيهم حكمته، ويقضي بينهم بحكمه، ويفاضل بينهم بعلمه، ويظهر فيهم آثار صفاته العليا، وأسمائه الحسنى، ويتبين لأوليائه وأعدائه يوم القيامة أنه لم يخل[1] لحكمة، ولم يخلق خلقه عبثاً، ولا يتركهم سدى، وأنه لم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً، وأن له الحمد التام

---

(١) هكذا في الأصل، ولعلها: لم يخلق إلا.

الكامل على جميع ما خلقه وقدره وقضاه، وعلى ما أمر به، ونهى عنه، وعلى ثوابه وعقابه، وأنه لم يَضَعْ من ذلك شيئاً إلا في محله الذي لا يليق به سواه»[١].

ثم شرع رحمه الله في الجواب عن الأسئلة التي ساقها نفاة الحكمة والتعليل، وأورد سبعة وثلاثين وجهاً من أوجه الرد عليهم[٢].

هذا وقد مر بنا في الدراسة أن الأشاعرة ومن وافقهم من نفاة الحكمة يرون أن الله -عز وجل- قدر المقادير، وشرع الشرائع لغير علة أو حكمة، بل فعل ذلك لمحض المشيئة، وصرف الإرادة.

وحجتهم في ذلك أنهم يقولون: إننا ننزه الله -عز وجل- عن الأغراض.

وفيما يلي تفصيل في هذه اللفظة، يتبين من خلاله معناها، ومراد أهل الكلام من إطلاقها، وحجتهم في ذلك، مع بيان الرد عليهم في هذه المسألة - مسألة نفي الحكمة عن أفعال الله -عز وجل-.

أ- الأغراض في اللغة: جمع غرض، والغرض هو الهدف الذي يرمى فيه، أو هو الهدف الذي ينصب فيرمى فيه.

والغرض يطلق في **اللغة** - أيضاً - على الحاجة، والبغية، والقصد[٣].

ب- الغرض في اصطلاح علماء الكلام: قيل هو ما لأجله يصدر الفعل من الفاعل[٤].

---

(١) شفاء العليل ص٤٤١-٤٤٢.

(٢) انظر شفاء العليل ص٤٤٢-٥٣٥.

(٣) انظر لسان العرب ١٩٦/٧.

(٤) انظر شرح مطالع الأنظار على متن طوالع الأنوار، الشرح لأبي الثناء شمس الدين محمود بن عبدالرحمن الأصفهاني، والمتن للقاضي عبدالله بن عمر البيضاوي، المطبعة الخيرية، ١٣٢٣هـ، ص٩١٧.

وقيل: «الغرض هو الأمر الباعث للفاعل على الفعل، وهو المحرك الأول، وبه يصير الفاعل فاعلاً»[١].

وبذلك نرى توافق المعنى اللغوي والاصطلاحي للغرض، وأنه غاية الفاعل من فعله، وهو الباعث له على فعله[٢].

ج- ماذا يريد أهل الكلام بهذه اللفظة؟: يريدون إبطال الحكمة في أفعال الله -عز وجل- وشرعه.

د- حجتهم في ذلك: يقول المتكلمون -وعلى وجه الخصوص الأشاعرة-: إننا ننزه الله عن الأغراض، فلا يكون له غرض فيما شرعه أو خلقه؛ فأبطلوا الحكمة من ذلك، وقرروا أن الله لم يشرع إلا لمجرد مشيئته فحسب؛ فإذا شاء تحريم شيء حرَّمه، أو شاء إيجابه أوجبه.

وقالوا: لو قررنا أن له حكمة فيما شرعه لوقعنا في محذورين:

الأول: أنه إذا كان لله غرض فإنه محتاج إلى ذلك الغرض؛ ليعود عليه من ذلك منفعة، والله منزه عن ذلك.

والثاني: أننا إذا عللنا الأحكام أي أثبتنا الحكمة والعلة لزم أن نوجب على الله ما تقتضيه الحكمة؛ لأن الحكم يدور مع علته؛ فنقع فيما وقع فيه المعتزلة من إيجاب الصلاح والأصلح على الله؛ لأن الغرض عند المعتزلة بمعنى الغاية التي

---

(١) شرح العقائد العضدية، للأيجي، شرح جلال الدين الدواني، وعليها حاشية إسماعيل الكلنوبي، وحاشية المرجاني، وحاشية الخلخال، المطبعة العثمانية، استانبول، ١٣١٦ هـ، ٢/٢٠٤.

(٢) انظر الحكمة والتعليل في أفعال الله، تأليف: د. محمد بن ربيع المدخلي، ط١، ١٤٠٩هـ، مكتبة لينة للنشر والتوزيع، دمنهور، ص٢٦-٤٧.

فَعَل لها، وهم يوجبون أن يكون فعله معللاً بالأغراض[١].

هـ ـ الرد عليهم:

١ـ أن هذا اللفظ الأغراض أو الغرض بِدْعِيٌّ لم يرد في حق الله لا في الكتاب ولا في السنة، ولا أطلقه أحد من أئمة الإسلام وأتباعهم؛ لأن هذه الكلمة قد توهم النقص، ونفيها قد يفهم منه نفي الحكمة؛ فلابد ـإذاًـ من التفصيل، والأولى أن يعبر بلفظ: الحكمة، والرحمة، والإرادة، ونحو ذلك مما ورد به النص.[٢]

٢ـ أن الغرض الذي ينزه الله عنه ما كان لدفع ضرر، أو جلب مصلحة له؛ فالله ـ سبحانه ـ لم يخلق، ولم يشرع لأن مصلحة الخلق والأمر تعود إليه، وإنما ذلك لمصلحة الخلق.[٣]

ولا ريب أن ذلك كمال محض، قال ـتعالىـ: ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً﴾ (آل عمران:١٧٦).

وقال: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ (الزمر:٧).

وفي الحديث القدسي يقول الله ـعز وجلـ: «**يا عبادي إنكم لن تبلغوا نفعي، فتنفعوني ولن تبلغوا ضري، فتضروني**»[٤].

وهذا أمر مستقر في الفطر.

---

(١) انظر آراء المعتزلة الأصولية دراسة وتقويماً، د. علي بن سعد الضويحي، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م، ص١٠٦ـ١١٥.

(٢) انظر مفتاح دار السعادة، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت (ب ت) ٦٦/١..

(٣) انظر الحكمة والتعليل في أفعال الله ص٤٢ـ٤٣.

(٤) رواه مسلم (٢٥٧٧).

٣ـ أن إيجاب حصول الأشياء على الله متى وجدت الحكمة حق صحيح.

لكنه مخالف لما يراه المعتزلة من جهة أن الله -عز وجل- هو الذي أوجب هذا على نفسه ولم يوجبه عليه أحد، كما قال -تبارك وتعالى-: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام: ٥٤).

وكما قال: ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم: ٤٧).

وكما في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «**يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟**» قال: الله ورسوله أعلم.

قال: «**أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً**».

«**أتدري ما حقهم عليه؟**».

قال: الله ورسوله أعلم.

قال: «**ألا يعذبهم**» الحديث[١].

فهذا حق أوجبه الله على نفسه، ولله أن يوجب على نفسه ما يشاء.

ثم إن مقياس الصلاح والأصلح ليس راجعاً إلى عقول البشر، ومقاييسهم، بل إن ذلك راجع إلى ما تقتضيه حكمة الله -تعالى- فقد تكون على خلاف ما يراه الخلق بادئ الرأي في عقولهم القاصرة؛ فانقطاع المطر قد يبدو لكثير من الناس أنه ليس الأصلح بينما قد يكون هو الأصلح لكنه مراد لغيره لقوله -تعالى-: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١).

وكذلك استدراج الكفار بالنعم، وابتلاء المسلمين بالمصائب كل ذلك يحمل

---

(١) رواه البخاري (٧٣٧٣) ومسلم(٢٨٥٦).

في طياته ضروباً من الحكم التي لا تحيط عقول البشر إلا بأقل القليل منها.

بل إن خلق إبليس، وتقدير المعاصي، وتقدير الآلام يتضمن حكماً تبهر العقول، وتُبين عن عظيم حكمة أحكم الحاكمين[١].

هذا وسيأتي مزيد بيان لهذه المسألة ـ مسألة الحكمة والتعليل ـ حيث إن شيخ الإسلام في هذه القصيدة أبدى وأعاد فيها كثيراً.

(١) انظر أصول الدين للبغدادي ص١٥٠ـ١٥١، ومجموع الفتاوى ٣٥/٨ـ٣٦، وبيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لابن تيمية ١٩٧/١ـ٢٠٣، وشرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية ص٢٦١ـ٢٦٣، والقضاء والقدر د.عبدالرحمن المحمود ٢٤٢ـ٢٤٨، وموقف ابن تيمية من الأشاعرة د. عبدالرحمن المحمود ١٣١٠/٣ـ١٣١٢.

شرح البيت السابع

٧ـ فإنهموا لم يفهموا حكمةً له فصاروا على نوع من الجاهليةِ

قوله: «**حكمة**»: قال ابن فارس رحمه الله في مادة (حكم): «الحاء والكاف والميم أصل واحد، وهو المنع.

وأول ذلك الحُكْمُ، وهو المنع من الظلم، وسميت حَكَمَةُ الدابة لأنها تمنعها، يقال: حَكَمْتُ الدابة، وأحكمتها، ويقال: حكمت السفيه، وأحكمته إذا أخذت على يديه، قال جرير:

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم إني أخاف عليكم أن أغضبا

والحكمةُ هذا قياسها؛ لأنها تمنع من الجهل»[1].

وقال الكفوي رحمه الله: «الحكمة هي العدل، والعلم، والحكم، والنبوة، والقرآن، والإنجيل، ووضع الشيء في موضعه، وصواب الأمر، وسداده.

وأفعال الله كذلك؛ لأنه يتصرف بمقتضى الملك، فيفعل ما يشاء، وافق غرض العباد أم لا»[2].

وهذا البيت مرتبط بما قبله، ويدخل فيما مضى الكلام عليه؛ فالشيخ رحمه الله يبين أن الذين خاضوا في الحكمة والتعليل بالباطل إنما هم مشابهون لأهل الجاهلية الذين استمتعوا بخلاقهم، وخاضوا بما خاضوا فيه.

وإلا فإن أهل العلم والإيمان من سلف هذه الأمة ومن تبعهم بإحسان يثبتون

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٢/٩١.

(٢) الكليات ص٣٨٢.

حكمة الله ـ جل وعلا ـ في شرعه وخلقه على وفق ما جاءت به النصوص.

وقد استدلوا على ذلك بأدلة كثيرة منها ما يلي:

أولاً: أن المسلمين مجمعون على أن الله ـ تعالى ـ حكيم: ولا يجوز أن يخلو فعل الحكيم من الحكمة، ولا تكون الحكمة إلا من فاعل مختار، يكون قاصداً بفعله تلك الحكمة.

أما إذا كان لا يقصد بفعله حكمةً ما ـ فلا يُسمى ما ترتب على فعله حكمةً، ولا يسمى الفاعل حكيماً، بل يكون ذلك من باب الاتفاق.

ثانياً: ما يشهد به العقل من إحكام الله لخلقه، وبديع صنعه:

والفاعل المتقن لأفعاله لا تكون أفعاله عبثاً بلا غاية، بل لابد أن تكون لغاية باهرة، وحكمة ظاهرة تقرها العقول القويمة، والفطر السليمة، وتنكرها العقول السقيمة، والفطر الزائغة.

ثالثاً: أن النصوص الواردة في القرآن الكريم التي تدل على ثبوت الحكمة والتعليل ـ قد تظاهرت، وتكاثرت، وتنوعت دلالتها؛ فتارة تصرح بالحكمة كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ القمر: ٥.

وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ البقرة: ٢٦٩.

ولا شك أن معطي الحكمة ـ وهي كمال ـ أولى بها.

وتارة يخبر الله ـ جل شأنه ـ أنه فعل كذا لكذا، وأنه أمر بكذا لكذا كما في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (١٢) ﴾ الطلاق.

وقوله -عز وجل-: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لأَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ النساء:١٦٥.

وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ النساء: ١٠٥.

فاللام في الآيات المذكورة هي لامُ التعليل، وليست لامَ العاقبة كما يدعي نفاة التعليل؛ لأن لام العاقبة لا تكون إلا في حق من هو جاهل بالعاقبة، كما في قوله -تعالى-: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾ القصص:٨[1].

وأما من هو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير فيستحيل في حقه دخول هذه اللام، بل اللام الواردة في أفعاله وأحكامه لام الحكمة، والغاية المطلوبة[2].

وقد جاء هذا التعليل في القرآن الكريم بأدوات أخرى، منها: التعليل بالأداة الصريحة في التعليل وهي: «كي» كما في قوله -تعالى-: ﴿كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ (الحشر:٧).

---

(١) لام العاقبة تسمى -أيضاً- لام الصيرورة، ولام المآل. انظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م، ٤٨٨/١.

(٢) بل إن من النحاة من أنكر لام العاقبة، وجعلها لام العلة.

قال ابن هشام رحمه الله: «وأنكر البصريون ومن تابعهم لام العاقبة.

قال الزمخشري: والتحقيق أنها لام العلة، وأن التعليل فيها وارد على طريق المجاز دون الحقيقة، وبيانه أن لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدواً وحزناً، بل المحبة والتبني غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له، وثمرته - شبِّه بالداعي يُفعل الفعل لأجله؛ فاللام مستعارة لما يشبه التعليل كما استعير الأسد لمن شبه بالأسد». مغني اللبيب ٤٨٨/١-٤٨٩.

وبلفظ «من أجل» كما في قوله -تعالى-: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (المائدة: ٣٢).

كما جاء التعليل بـ: «لعل» كما في قوله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)﴾ البقرة[1].

رابعاً: أن الله -عز وجل- امتن على عباده بما خلق لهم، وأنعم عليهم به؛ حيث سخر لهم هذا الكون، وما فيه من ضروب المنافع، وأخبر عن الحكم والغايات التي خلق تلك الأشياء لأجلها.

ومن ذلك قوله -تعالى-: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)﴾ النبأ.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ٨/٤٤، وشفاء العليل ص٣٨٥-٤٠٢، والحكمة والتعليل ص٤٤-٤٩.

وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨) ﴾ النحل.

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في هذا المعنى؛ فكيف يصح بعد هذا أن يُنْكِر مُنْكِرٌ أن تكون هذه المخلوقات لحكم مقصود، وغايات حميدة؟

وكيف يزعم أنها إنما وجدت بمحض المشيئة والإرادة؟

خامساً: إنكاره -عز وجل- على من أنكر أن يكون الخلق خلقوا لحكمة، وغاية: كقوله -عز وجل-: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ المؤمنون.

وقوله -تعالى-: ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) ﴾ القيامة.

فقد أنكر الله -عز وجل- على من زعم أن يكون الله خلق الخلق هملاً، لا يؤمرون، ولا ينهون، ولا يحاسبون، ولا يجزون على أعمالهم؛ فدل ذلك على أنه -تعالى- خلقهم لحكمة عظيمة محبوبة له -تعالى- ومطلوبة، وهي عبادته، وتوحيده، وذكره، وشكره، والثناء عليه، وتمجيده.

سادساً: إنكاره -عز وجل- على من زعم أنه يسوي بين المختلفين، أو يفرق بين المتماثلين، وبيانه -عز وجل- أن حكمته وعدله يأبيان ذلك: ومن هذا القبيل قوله -عز وجل-: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) ﴾ القلم.

وقوله: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) ﴾ الجاثية.

وهذا في إنكار التسوية بين المختلفين.

وأما عدم التفريق بين المتماثلين فكقوله ـتعالىـ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ التوبة: ٧١.

وقوله: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ التوبة: ٦٧.

هذه بعض الأدلة على إثبات الحكمة والتعليل-وهي أدلة نقلية وعقلية في غاية الوضوح والقوة[1].

(١) انظر شفاء العليل ص٤١٦ـ٤١٨، والحكمة والتعليل في أفعال الله ص٤٦ـ٤٩.

شرح البيت الثامن

٨ـ فإن جميعَ الكونِ أوجب فِعْلَه مشيئةُ ربِّ الخلق باري الخليقةِ[١]

قوله: «الكون»: مصدر الفعل كان يكون كوناً.

قال ابن فارس رحمه الله: «الكاف والواو والنون أصل يدل على الإخبار عن حدوث شيء إما في زمان ماض، أو زمان راهن، يقولون: كان الشيء يكون كوناً إذا وقع وحضر»[٢].

وقال الكفوي رحمه الله: «الكون والفساد يطلق بالاشتراك على معنيين: على صورة وزوال الأخرى، وعلى وجود بعد عدم، وعدم بعد وجود»[٣].

وقال الطوفي رحمه الله: «الكون في الاصطلاح الكلامي: هو الحال التي يكون عليها الشيء كالقيام للقائم، والقعود للقاعد.

والمراد به ههنا: العالم، وهو في الأصح مَنْ سوى الله ـتعالىـ واشتقاقه من العلامة لكونه علامة على وجود صانعه»[٤].

ومعنى البيت: أن جميع الكون العلوي والسفلي، وما فيه من المخلوقات ـ إنما خلقها الله، وأوجدها بمشيئته، وقدرته[٥].

---

(١) في و: رب العرش باري البرية.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٥/١٤٨.

(٣) الكليات ص١٤٩.

(٤) شرح جواب ابن تيمية ص٢٢.

(٥) انظر الدرة البهية ص١٥٩.

شرح البيت التاسع

٩ـ وذات إلــه الخلــق واجبــة بمــا لهــا مــن صــفات واجبــات قديمــةِ

قوله: «وذات»: ذات الشيء ما يخصه، ويميزه عن جميع ما عداه.

وذات الشيء ـ كذلك ـ نفسه وعينه، وحقيقته(١).

وقوله: «واجبة»: أي واجبة الوجود لذاتها، ولا شيء واجب الوجود لذاته إلا الله ـعز وجلـ.

قال الجرجاني رحمه الله: «الواجب لذاته: هو الموجود الذي يمتنع عدمه امتناعاً ليس الوجود له من غيره، بل من نفس ذاته، فإن كان وجوب الوجود لذاته سمي واجباً لذاته، وإن كان لغيره سمي واجباً لغيره»(٢).

وقال: «واجب الوجود الذي يكون وجوده من ذاته، ولا يحتاج إلى غيره أصلاً»(٣).

وقوله: «قديمة»: القديم ـكما قال الجرجانيـ: «عبارة ليس قبله زماناً شيء»(٤).

وقال: «القديم المطلق: ألا يكون مسبوقاً بعدم»(٥).

---

(١) انظر التعريفات ص١٠٧.

(٢) (٣) المرجع السابق ص٤٩.

(٤) المرجع السابق ص٧٢٧.

(٥) المرجع السابق ص٤٠١.

ومعنى البيت: أنه -تعالى- هو واجب الوجود بأسمائه وصفاته القديمة التي لا أول لها؛ لأنه هو الأول الذي ليس قبله شيء، ولم يزل بأسمائه وصفاته كذلك؛ فهو واجب الوجود لذاته.

شرح البيت العاشر

١٠ـ مشيئتُه مَعْ عِلْمِه ثم قدرة لوازم ذات الله قاضي القضيةِ

قوله: «علمه»: «العلم صفة توجب لمن قامت به التمييز بين حقائق الأشياء على وجه لا يحتمل النقيض»[١].

وقوله: «القدرة»: «صفة تصح ممن قامت به فعل جميع الممكنات»[٢].

قوله: «لوازم»: جمع لازم، واللازم ما يمتنع انفكاكه عن الشيء[٣].

ومعنى البيت أن من لوازم صفات الله -عز وجل- اللازمة لذاته عِلْمَهُ المحيط بكل شيء، وقدرته الشاملة لكل شيء، ومشيئته العامة لكل موجود؛ فهو -عز وجل- لم يزل شائياً، عليماً، قديراً[٤].

(١) شرح جواب ابن تيمية ص٢٣.

(٢) المرجع السابق ص٢٣.

(٣) التعريفات ص١٩٠.

(٤) انظر الدرة البهية ص١٥٩.

شرح البيت الحادي عشر

١١- وإبداعُه ما شاء من مُبدَعاته   بها حِكْمَةٌ فيه وأنواعُ رحمةِ

قوله: «**وإبداعه**»: قال ابن فارس رحمه الله في مادة (بدع): «الباء والدال والعين أصلان: أحدهما: ابتداء الشيء، وصنعه لا عن مثال، والآخر: الانقطاع والكلال.

فالأول: قولهم: أبدعت الشيء قولاً أو فعلاً إذا ابتدأته لا عن مثال سابق.

والله بديع السموات والأرض، والعرب تقول: ابتدع فلان الرَّكيَّ إذا استنبطه، وفلان بدع في هذا الأمر، قال الله -تعالى-: ﴿مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف: ٩).

أي ما كنت أول»[١].

ومعنى البيت أن أفعال الله -عز وجل- وإبداعه لمبدعاته تابعة لحكمته التي هي وضع الأشياء في مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها؛ فلم ولن يخلق شيئاً عبثاً، بل خلق المخلوقات، وأبدع المبدعات بالحق، وللحق؛ فهي صدرت عن الحق، واشتملت على الحق، وكانت غاياتُها المقصودةُ الحقَّ.

والله -عز وجل- لا يقضي قضاءً إلا وفيه تمام العدل، والحكمة، والرحمة.

قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون ١١٥).

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٢٠٩/١.

وقال -عز وجل-: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ﴾ (ص: ٢٧).

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم مشيئته لكل موجود، وشمول حكمته للأمر والنهي[١].

(١) انظر الدرة البهية ص١٥٩.

شرح البيتين [١٢-١٣]

١٢- ولسنا وإن قلنا جَرَتْ بمشيئة[١] مـــن المنكـــري آياتِـــه المـــستقيمةِ

١٣- بـل الحـقُّ أن الحكـمَ لله وحـده لـه الخلـقُ والأمـرُ الـذي في الـشريعةِ

قوله: «آياته»: جمع آية، واشتقاق الآية - كما يقول الراغب -: «إما من أيٍّ؛ فإنها هي التي تبين أيّاً من أي.

والصحيح أنها مشتقة من التأيِّي الذي هو التثبت والإقامة على الشيء، يقال: تَأيَّ: أي ارفق.

أو من قولهم: أوي إليه، وقيل للبناء العالي آية ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ (الشعراء: ١٢٨)»[٢].

إلى أن قال رَحِمَهُ اللهُ: «ولكل جملةٍ من القرآن دالة على حكمٍ آيةٌ سورةً كانت، أو فصولاً.

وقد يقال لكل كلام منه منفصل بفصل لفظي آيةٌ، وعلى اعتبار آيات السور التي تُعدُّ بها السورة»[٣].

ومعنى البيت أنه إذا كانت الأمور والمقادير، والمخلوقات بمشيئة الله - فلا يعني ذلك أننا ننكر آياتِه الشرعيةَ المشتملةَ على الأمر والنهي.

بل الحق أننا نجمع بين القدر والشرع؛ لأنه -تعالى- هو الحَكَم وحده ﴿أَلَا لَهُ

---

(١) في أ: لمشيئة.

(٢) المفردات ص٣٧-٣٨.

(٣) المرجع السابق.

الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ (الأعراف: ٥٤).

أي له -وصفاً وفعلاً- الخلق الشامل لكل مخلوق، والأمر الشامل لجميع الأحكام الشرعية؛ فكما أنه لا خالق سواه فكذلك لا حاكم سواه.

وكما أن مخلوقاته مشتملة على الحكمة والرحمة - فشرعه العظيم كذلك بل أعظم وأجل؛ إذ إنه كلّه حكمةٌ ورحمةٌ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة: ٥٠).

وبالمراعاة الصحيحة لقدر الله وشرعه تتحقق العبودية الحقة لله، ويكون القائم بذلك من الذين أنعم الله عليهم، وكفى بذلك غبطة وسعادة[1].

---

(١) انظر الدرة البهية ص١٦١-١٦٢، والتدمرية ص٢١٨ و ٢٢٨-٢٢٩، و التحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية، للشيخ فالح بن مهدي آل مهدي، ط٢، ١٤٠٦هـ، ٢/١٤٠، وتقريب التدمرية للشيخ محمد بن عثيمين ص١١٩.

شرح البيت الرابع عشر

١٤ـ هو المَلِكُ المحمودُ في كلِّ حالةٍ لـه المُلْكُ مـن غـير انتقـاص بـشِرْكةِ

قوله: «بشركة»: قال ابن فارس رحمه الله في مادة (شرك): «الشين والراء والكاف أصلان أحدهما: يدل على مقارنة وخلاف انفراد، والآخر على امتداد واستقامة.

فالأول: الشِّركة، وهو أن يكون الشيء بين اثنين لا ينفرد به أحدهما.

ويقال: شاركت فلاناً في الشيء أي إذا صرت شريكه، وأشركت فلاناً إذا جعلته شريكاً لك.

قال الله ـ جل ثناؤه ـ في قصة موسى: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ (طه:٣٢)»[1].

وفي هذا البيت مزيد تقرير لما مضى، أي أن الله ـعز وجلـ له الملك كله، وله الحمد كله، لا شريك له في ملكه، ولا في حمده؛ فهو المحمود على ما له من الأسماء الحسنى، وعلى ما له من الصفات الكاملة العليا، وهو المحمود على فضله الشامل، ورحمته الواسعة، وعلى عدله، وحكمته[2].

ولقد قرر الشيخ هذا المقام وكرره؛ لأن المقام مهم جداً؛ فقال مقرراً مكرراً للمعاني السابقة بعبارات مختلفة[3]:

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٢٦٥/٣.

(٢) انظر الدرة البهية ص١٦١ـ١٦٢، والتدمرية لابن تيمية ص٢١٨ و ٢٢٨ـ٢٢٩، والتحفة المهدية في شرح الرسالة التدمرية للشيخ فالح بن مهدي ١٤٠/٢، وتقريب التدمرية للشيخ محمد ابن عثيمين ص١١٩.

(٣) انظر الدرة البهية ص١٦٢.

شرح البيت الخامس عشر

١٥ـ فما شاء مولانا الإلهُ فإنه يكون وما لا لا يكون بحيلةِ

قوله: «**الإله**» هو المألوه المعبود، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «الإله الحق هو الذي يستحق أن يعبد؛ فهو إله بمعنى مألوه»[١].

وقال: «وليس المراد بـ: «الإله» هو القادر على الاختراع كما ظنه من ظن من أئمة المتكلمين؛ حيث ظن أن الإلهية هي القدرة على الاختراع، وأن من أقر بأن الله هو القادر على الاختراع فقد شهد أنه لا إله إلا هو؛ فإن المشركين كانوا يقرون بهذا وهم مشركون»[٢].

قوله: «**حيلة**»: الحيلة: ما يتوصل به إلى حالةٍ ما في خفية.

وأكثر استعمالها فيما في تعاطيه خبث، وقد تستعمل فيما فيه حكمة[٣].

هذا وقد مرَّ الحديث عن الحيلة، وعن الفرق بينها وبين المكر عند شرح البيت الثاني من السؤال.

ومعنى البيت أن ما شاء الله كان، وما لم يشأه لم يكن، وأنه لا حركة ولا سكون، ولا هداية، ولا إضلال إلا بمشيئته ـعز وجلـ.

وقد دل على ذلك إجماع الرسل، وجميع الكتب المنزلة، والفطر التي فطر الله عليها خلقه، وأدلة العقل والبيان[٤].

---

(١) التدمرية ص١٨٦.

(٢) المرجع السابق ص١٨٥ـ١٨٦.

(٣) انظر المفردات ص١٤٣.

(٤) انظر شفاء العليل ص٩٢.

والنصوص الدالة على ذلك كثيرة جداً.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ (القصص: ٦٨).

وللإمام الشافعي رحمه الله أبيات جميلة تقرر هذا المعنى، قال عنها الإمام ابن عبدالبر في (الانتقاء): «إنها من شعره الذي لا يختلف فيه، وهو أصح شيء عنه»[(١)].

وقال: «وهذه الأبيات من أثبت شيء في الإيمان بالقدر»[(٢)].

والأبيات هي:

ومـا شـئتَ كـان وإن لم أشـأْ ... ومـا شـئتُ إن لم تـشأْ لم يكـنْ

خلقـتَ العبـاد علـى مـا علمـتَ ... وفي العلـم يجـري الفتـى والمُسِنْ

علـى ذا مننـتَ وهـذا خـذلتَ ... وهـذا أعنـت وذا لم تُعِـنْ

فمـنهم شـقيٌّ ومـنهم سـعيد ... ومـنهم قبـيح ومـنهم حـسنْ[(٣)]

يقول: «وما شئت» أي أنت يا رب «كان» أي بأمرك لا محالة؛ لأن مشيئتك نافذة، و«إن لم أشأ» أنا أيها العبد، و «ما شئتُ» أنا «إن لم تشأ» يا رب «لم يكن»؛ لأنه لا يكون شيء إلا بمشيئتك.

---

(١) الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، تأليف الإمام الحافظ أبي عمر يوسف بن عبدالبر القرطبي النميري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص٨٠.

(٢) المصدر السابق ص٨١.

(٣) الانتقاء ص٨٠، وانظر الاعتقاد للبيهقي ص٨٨، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٧٠٢/٤، و ديوان الإمام الشافعي، جمعه وعلق عليه محمد عفيف الزعبي، دار المطبوعات الحديثة، ط٥، ص١٣١ـ١٣٢، تحقيق د. محمد عبدالمنعم خفاجي.

«خلقت العباد على ما علمت» : أي حسب ما سبق من علمك الأزلي ، «وفي العلم يجري الفتى والمسن» : أي بمقتضى هذا العلم السابق يجري ويعمل الصغير والكبير، ولا يخرج أحد عن ذلك.

«على ذا مننت» رحمةً وتفضلاً «وهذا خذلت» حكمةً وعدلاً «وهذا أعنت» بمنك وفضلك «وذا لم تعن» بحكمتك وعدلك «فمنهم شقي» ممن سبقت له الشقاوة «ومنهم سعيد» ممن سبقت له الحسنى والسعادة «ومنهم قبيح ومنهم حسن» فالله ـعز وجلـ هو الذي يصورهم في الأرحام كيف يشاء.

شرح البيتين [١٦ ـ ١٧]

١٦ـ وقدرتُـه لا نقـص فيهـا وحكمـه[١] يَعُـمُّ فـلا تخـصيصَ في ذي القـضيةِ

١٧ـ أُرِيـدُ بـذا أن الحـوادثَ كلَّهـا بقدرتـه كانـت ومحـض المـشيئةِ

قوله: «**الحوادث**»: جمع حادث، وهو الشيء المخلوق المسبوق بالعدم، ويسمى حدوثاً زمانياً.

وقد يعبر عن الحدوث بالحاجة إلى الغير، ويسمى حدوثاً ذاتياً.

والحدوث الذاتي: هو كون الشيء مفتقراً في وجوده إلى الغير.

والحدوث الزماني: هو كون الشيء مسبوقاً بالعدم سبقاً زمانياً [٢].

وقوله: «**محض**»: قال ابن فارس رحمه الله في مادة (محض): «الميم، والحاء، والضاد كلمة تدل على خلوص الشيء.

منه اللبن المحض: الخالص، وعربي محض» [٣].

ومعنى البيتين: أن قدرة الباري ـجل وعلاـ كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه، وأن حكمه شامل لكل شيء؛ فالمخلوقات جميعها إنما كانت بقدرته الشاملة الكاملة، ومشيئته النافذة.

ومما يحسن التنبيه عليه ههنا أن المشيئة النافذة والقدرة الشاملة يجتمعان فيما كان وما سيكون، ويفترقان فيما لم يكن ولا هو كائن؛ فما شاء الله كونه فهو

---

(١) في أ: وخلقه.

(٢) انظر التعريفات ص٨٥ـ٨٦.

(٣) معجم مقاييس اللغة ٥/٣٠٠.

كائن بقدرته لا محالة، وما لم يشأ كونَه فإنه لا يكون؛ لعدم مشيئته له، لا لعدم قدرته عليه.

قال الله -تعالى-: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (البقرة: ٢٥٣).

فعدم اقتتالهم لعدم مشيئة الله، لا لعدم قدرته.

ومثل ذلك قوله -تعالى-: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ (الأنعام: ٣٥).

وغير ذلك كثير.

شرح البيتين [١٨ـ ١٩]

١٨ـ ومالكُنا في كلِّ ما قد أراده ... له الحمدُ حمداً يعتلي كلَّ مِدْحةِ

١٩ـ فإن له في الخلق من نعم[1] سرت ... ومن حكم فوق العقول الحكيمةِ

قوله: «**الحمد**»: «هو الثناء على الجميل من جهة التعظيم من نعمة وغيرها»[2].

وقوله: «**مدحة**»: «المدح: هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري قصداً»[3].

يقول الشيخ رحمه الله: إن لربنا ـتبارك وتعالىـ في كل ما يريده شرعاً وكوناً ـ حمداً مطلقاً، وثناءً كاملاً يفوق كل حمد، وثناء، ومدح.

والبيت الثاني تعليل لما مضى من كونه ـعز وجلـ يستحق الحمد، والمدح، وتكرار لما قرر؛ فهو يبين أن له رحمةً تجري على كل ما خلق، وتسري في كل ما قُدِّر، وله حكمة بالغة لا تحيط بها العقول الراجحة على وجه التفصيل.

---

(١) في مجموع الفتاوى والدرة: (رحمته سرت)، والمثبت في الأعلى من: أ.

(٢) التعريفات ص٩٣.

(٣) المرجع السابق ص١٠٧.

شرح البيت العشرين

٢٠ـ أموراً يحار العقل فيها إذا رأى من الحكم العليا وكل عجيبةِ

قوله: «**أموراً**»: منصوب على أنه اسم إنَّ متأخر عن خبرها.

وقوله: «**العقل**»: العقل في الأصل مصدر عقلت البعير أعقله عقلاً إذا منعته من الشرود بحبل يُشد في ركبته.

وأما في الاصطلاح فقيل فيه أقوال، ومن أجمع تلك الأقوال ما عرفه به الفيروزبادي[1] رحمه الله حيث قال: «هو نور روحاني، به تدرك النفس العلوم الضرورية، والنظرية»[2].

وقال الطوفي رحمه الله: «قوة غريزية يُتهيأ بها لإدراك المعلومات التصويرية، والتصديقية.

وقيل: علم من العلوم الضرورية.

وقيل: جوهر شفاف تُدرك به المطالب العلمية»[3].

---

(١) هو أبو طاهر مجد الدين الفيروزبادي محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيرازي اللغوي. ولد بكارزين قرب شيراز، ويبدو أنه نسب إلى فيروز أباد لأنها كانت تطلق على إقليم شيراز في ذلك الوقت، ولد سنة ٧٢٩ بعد وفاة ابن منظور بثمانية عشر عاماً، وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين؛ فقد عرف بقوة الحافظة، وتوقد الذهن، وكان يقول: ما كنت أنام حتى أحفظ مائة سطر.

توفي عام ٨١٧هـ وله مؤلفات عديدة، منها: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، وتحبير الموشين فيما يقال بالسين والشين، والقاموس المحيط وهو أشهر كتبه. انظر الأعلام ١٩/٨، ودراسات في المعاجم العربية د. أمين فاخر ص٧٤ـ٧٩.

(٢) القاموس المحيط ص ١٣٣٦.

(٣) شرح جواب ابن تيمية ص٢٤.

ويبتدأ وجود العقل عند اجتنان الولد، ثم لا يزال ينمو إلى أن يكمل عند البلوغ.

وسمي العقل بهذا الاسم؛ لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك، ويحجزه عما لا ينبغي.

والعاقل هو الجامع لأمره، الذي يحبس نفسه عن هواها[1].

وفي هذا البيت يشير الشيخ رحمه الله إلى أن حكمة الله -عز وجل- تبهر العقول، وتأخذ بالألباب، لما اشتملت عليه من العجب العجاب؛ فالعقول تحار في إدراك ذلك، ولكنها لا تحِيْلُه، فالشرع قد يأتي بمحارات العقول، ولكنه لا يأتي بمُحالاتها.

فيجب على العبد أن يعتقد أن أفعال الرب وأوامره مشتملة على الحكم الباهرة العظيمة التي تحير العقول، وإن كان لا يعلمها على وجه التفصيل؛ فعدم العلم بالشيء ليس دليلاً على عدمه، ولا يلزم من أثبت تعليل أفعال الله بالحِكَم والمصالح أن يعلم علة كل فعل وأمر، بل عليه أن يعتقد أن لله في جميع أفعاله وأوامره حكماً جليلة سواء ظهرت لنا أو خفيت علينا؛ فالله -عز وجل- لم يطلع خلقه على جميع حكمه، بل أعلمهم بما شاء، وما خفي عليهم أو على أكثرهم أعظم مما ظهر؛ إذ لا حاجة لهم بذلك في الغالب.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وليس اطّلاع كثير من الناس -بل أكثرهم- على حِكم الله في كل شيء نافعاً لهم، بل قد يكون ضاراً.

---

(١) انظر لسان العرب ٨/٢٧، والقاموس ص١٣٣٦.

قال -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ المائدة: ١٠١.

وهذه المسألة ـ مسألة غايات أفعال الله، ونهاية حكمته ـ مسألة عظيمة، لعلها أجل المسائل الإلهية»[١].

يقول ابن القيم رحمه الله: «ولو ذهبنا نذكر ما يطَّلع عليه أمثالُنا من حكمة الله في خلقه وأمره لزاد ذلك على عشرة آلاف موضع مع قصور أذهاننا، ونقص عقولنا ومعارفنا، وتلاشيها، وتلاشي علوم الخلائق جميعهم في علم الله كتلاشي ضوء السراج في عين الشمس، وهذا تقريب وإلا فالأمر فوق ذلك»[٢].

---

(١) منهاج السنة ٣/٣٩.

(٢) شفاء العليل ص٤١٩.

شرح الأبيات من [٢١ ـ ٢٣]

٢١ـ فنـــؤمنُ أن الله عـــزَّ بقـــدرةٍ	وخلــقٍ وإبـــرامٍ لحكـــم المـــشيئةِ
٢٢ـ فنثبـــت هـــذا كلَّـــه لإلهنـــا	ونثبـت مـا في ذاك مـن كـل حكمـةِ
٢٣ـ وهـذا مقـام طالمـا عجـز الأُلى	نفـوه[١] وكــروا راجعــين بحــيرةِ

قوله: «عزَّ»: قال ابن فارس رحمه الله في مادة (عز): «العين والزاي أصل صحيح واحد يدل على شدة، وقوة، وما ضاهاهما من غلبة وقهر»[٢].

قوله: «وإبرام»: الإبرام هو الإحكام، تقول: أبرمت الأمر: أحكمته[٣].

وفي هذه الأبيات كرر الشيخ رحمه الله هذه المعاني بهذه العبارات، وبين ـكما سلفـ أننا نؤمن أن الله ـعز وجلـ له القدرة، والخلق، والأمر، والإحكام، وأن له المشيئةَ النافذةَ المقرونةَ بالحكمة البالغة.

وأوضح رحمه الله أن هذا المقام مقام عظيم، وأن الذين نفوه لم يرجعوا إلا بالخيبة، وصِفْر العَيْبَةِ[٤].

قال ابن القيم رحمه الله: «وكيف يتوهم ذو فطرة صحيحة خلاف ذلك وهذا الوجود شاهد بحكمته، وعنايته بخلقه أتم عناية، وما في مخلوقاته من الحكم والمصالح، والمنافع والغايات المطلوبة، والعواقب الحميدة أعظم من أن يحيط به وصف، أو يحصره عقل؟!»[٥].

---

(١) في أ: بغوه.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٣٨/٤.

(٣) انظر معجم مقاييس اللغة ٢٣١/١.

(٤) العيبة: هي ما يوضع فيها الثياب وغيرها. انظر معجم مقاييس اللغة ١٨٩/٤.

(٥) شفاء العليل ص٤١٨.

شرح الأبيات من [٢٤ ـ ٢٩]

٢٤ـ وتحقيقُ ما فيه بتبيين غوره	وتحرير حقِّ الحق في ذي الحقيقة
٢٥ـ هو المطلب الأقصى لِوُرَّاد[1] بحره	وذا عسِرٌ في نظم هذي القصيدةِ
٢٦ـ لحاجته تبيينَ علمٍ مُحقَّقٍ[2]	لأوصاف مولانا الإلهِ الكريمةِ
٢٧ـ وأسمائه الحسنى وأحكام دينه	وأفعاله في كل هذي[3] الخليقة
٢٨ـ وهذا ـ بحمد الله ـ قد بان ظاهراً	وإلهامُه للخلق أفضلُ نعمة
٢٩ـ وقد قيل في هذا وخُطَّ[4] كتابُه	بيانٌ[5] شفاءٌ للنفوس المريضةِ[6]

قوله: «غوره» قال ابن فارس رحمه الله في مادة (غور): «الغين والواو والراء أصلان صحيحان أحدهما: خفوض في الشيء، وانحطاط، وتطامن.

والآخر: إقدام على أخذ مال قهراً أو حرباً.

فالأول قولهم لِقَعْر الشيء: غوره، ويقال: غار الماء غوراً، وغارت عينه غؤوراً...»[7].

وقوله: «وتحرير حق الحق..»: أي تخليصه من شوائب الباطل، وبيان

(١) في الدرة البهية: (لروَّاد بحره)، والورَّاد أولى.

(٢) في مجموع الفتاوى: (لحاجته إلى بيان محقق).

(٣) في أ: هذا.

(٤) في أ: وخُصَّ.

(٥) في الدرة البهية: (بان) بدل: (بيان).

(٦) في أ: السقيمة.

(٧) معجم مقاييس اللغة ٤٠١/٤.

الصواب فيه.[(١)]

وقوله: «**حق الحق .. الحقيقة**»: قال ابن فارس رحمه الله في مادة (حق): «الحاء والقاف أصل واحد، وهو يدل على إحكام الشيء، وصحته؛ فالحق نقيض الباطل، ثم يرجع كل فرع إليه بجودة الاستخراج وحسن التلفيق.

ويقال: حَقَّ الشيء: وجب»[(٢)].

وقال: «ويقال: حَقَقْتُ الأمر وأحققته: أي كنت على يقين منه»[(٣)].

قوله: «**عسر**»: قال ابن فارس رحمه الله في مادة (عسر): «العين والسين والراء أصل صحيح واحد يدل على صعوبة وشدة؛ فالعسر ضد اليسر»[(٤)].

قوله: «**الإلهام**»: هو التلقين، والإلقاء في الرُّوع[(٥)].

يبين الشيخ رحمه الله في هذه الأبيات أن تحقيق هذا المقام ـ وهو الإيمان بخلق الله وشرعه وتمام الحكمة في ذلك ـ إنما يكون بإيضاح هذه المسألة وكشفها، وتحرير القول فيها، والغوص في قعرها.

ويبين ـأيضاًـ أن هذا المقام هو الغاية التي شمر لها المشمرون، وسعى لإدراكها وُرَّاد الشريعة، ورواد الحقيقة، وأن تفصيل ذلك لا يمكن الإحاطة به، والإتيان عليه في هذه الأبيات؛ لأنه يحتاج إلى تفصيل، ومزيد إيضاح.

---

(١) انظر لسان العرب ١٨٤/٤.

(٢) معجم مقاييس اللغة ١٥/٢.

(٣) المرجع السابق ١٩/٢.

(٤) المرجع السابق ٣١٩/٤.

(٥) لسان العرب ٥٥٥/١٢.

ويبين رحمه الله أن هذه المسائل العظيمة مستمدة من أسماء الله، وأوصافه، وأفعاله، ومعرفة دينه، والتدبر لكتابه.

فمن تفقه في الأسماء الحسنى، وآمن بما لله من الصفات العليا، وعلم أن أفعاله مشتملة على الحق، وأن الحق غايتها ومقصودها، وتدبر كتاب الله الذي فيه الهدى والشفاء ـ جزم جزماً لا تردد فيه أن الله ـتعالىـ خلق المخلوقات، ودبرها بمشيئة نافذة، وحكمة شاملة، ورحمة واسعة.

ولا سبيل إلى تحقيق هذه المقامات العالية إلا بتوفيق الله، واستمداد المعونة منه، والإقبال على كلامه، وكلام رسوله ﷺ والاستنارة بهداية الأئمة المهتدين.

ولا ريب أن معرفة ذلك وإدراكه، وتيسيره للعباد ـ يعدُّ من أجلِّ النعم، وأشرف المواهب.

وهذا ما جاء به القرآن الكريم الذي اشتمل على الهدى والنور، وشفاء ما في الصدور من أمراض الشكوك، والشبهات والشهوات.

قال ابن القيم رحمه الله: «وجماع ذلك أن كمال الرب ـتعالىـ وجلاله، وحكمته، وعدله، ورحمته، وإحسانه، وحمده، ومجده، وحقائق أسمائه الحسنى تمنع كون أفعاله صادرةً منه لا لحكمة، ولا لغاية مطلوبة، وجميعُ أسمائه الحسنى تنفي ذلك، وتشهد ببطلانه، وإنما نبهنا على بعض طرق القرآن، وإلا فالأدلة التي تضمَّنها إثبات ذلك أضعاف أضعاف ما ذكرنا وبالله التوفيق»[1].

---

(١) شفاء العليل ص٤١٨.

شرح البيتين [٣٠ ـ ٣١]

٣٠ـ فقولك: "لِمْ قد شاء؟" مثل سؤالِ يقول: فَلِمْ قد كان في الأزليةِ

٣١ـ وذاك سؤال يبطل العقلُ وَجْهَهُ وتحريمُه قد جاء في كل شرعةِ

قوله: «**الأزلية**» : الأزل هو القِدم الذي لا بداية له، أو هو استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب الماضي.

ويقابل الأزلَ الأبدُ، والأبدُ هو المستقبل الذي لا نهاية له، أو هو استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب المستقبل(١).

قوله: «**شرعة**» : الشرعة يحتمل أنها مأخوذة من الشارع، وهو الطريق؛ لسلوك الناس له كسلوك الطريق.

ويحتمل أنها مأخوذة من مشرعة الماء؛ لورود الناس عليه ـأي الشرعـ كورودهم عليها ـأي المشرعةـ وخلاصهم به من هلاك الآخرة، كخلاصهم بورود المشرعة من هلاك الدنيا بالعطش(٢).

وفي هذين البيتين يبين الشيخ رحمه الله خطأ هذا المعترض وضلاله بقوله: «**لِم قد شاء**».

فقول المعترض: كيف شاء الله كفر الكافرين، ووقوع العصيان من العاصين، ونحو ذلك من الأسئلة المشابهة لذلك ـ كلها محظورة ممنوعة؛ لأن الله ـعز وجلـ هو الحاكم وليس المحكوم عليه، ولا يلزم أن يبدي لعباده كل حكمة اشتملت

---

(١) انظر التعريفات ص١٦.

(٢) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٢٤.

عليها مراداته وأفعاله؛ ذلك أنه -عز وجل- قد أخبر عباده بالأمر العام، وهو أنه حكيم في خلقه وشرعه.

وهذا -بحد ذاته- كافٍ شافٍ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وأما دقائق الخلق، وأسرار التشريع على وجه التفصيل فعلمها عنده -عز وجل- ولا يلزم أن يُطْلع عباده إلا على ما شاء من ذلك، كما لا يلزم أن يطلع جميع عباده على ذلك.

وسؤال هذا المعترض الذي يقول: «لم شاء» مثل سؤال من يقول: لماذا قدر الله كذا وكذا في الأزل حين كتب مقادير الخلائق؟!

ومثل هذا السؤال يبطله العقل، وتحرمه جميع الشرائع السماوية؛ إذ هو اعتراض من العبد الحقير على الرب العظيم الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

قال الإمام ابن قتيبة رحمه الله: «وعَدْلُ القولِ في القدر أن تعلم أن الله عدلٌ؛ لا يجوز: كيف خلق؟ وكيف قدَّر؟ وكيف أعطى؟ وكيف منع؟ وأنه لا يخرج من قدرته شيء، ولا يكون في ملكوته من السموات والأرض إلا ما أراد، وأنه لا دين لأحد عليه، ولا حق لأحد قبله، فإن أعطى فبفضل، وإن منع فبعدل»[1].

وبالجملة فإن هذه المسألة مسألة عظيمة، وهي ترد كثيراً في الأذهان، وربما ظهر على بعض الألسنة أحياناً أسئلة في شأنها، وذلك ناتج عن خلل في فهم باب القدر؛ فتجد الخوض في مسألة الهداية والإضلال، فيقال -على سبيل المثال-:

لم شاء الله من الإنسان المعصية، ولم لم يشأ منه الطاعة؟ ولماذا يحاسِبْه على ما

---

(١) الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة لابن قتيبة ص٣٥.

يشاؤه منه، ولماذا هدى الله فلاناً، وأضل فلاناً؟

إلى غير ذلك من الأسئلة.

والجواب عن ذلك قدْ مرَّ، ولمزيد من الإيضاح فإنه يقال:

إن **الهداية والإضلال** والطاعة والمعصية بمشيئة الله، والإنسان سبب في وقوعها، ومسؤول عنها؛ فذلك من الأصول القطعية عند أهل السنةِ، والقاعدةُ التي يتفق عليها العقلاء أن القطعيات لا تتناقض في نفسها وإن بدت لنا متناقضة؛ لقصور إدراكنا؛ فحسبنا أن نقف عند هذه القطعيات، ونؤمن بها جميعاً، ولا نرد منها شيئاً ولو لم نحط بها علماً؛ لأن مسألة القضاء والقدر لها تعلق بصفات الله؛ فالقدر قدرة الله، وقدرة الله كعلمه وحكمته وإرادته وسائر صفاته من جهة كونها معلومة المعنى مجهولة الكيفية؛ فكما أننا نعجز عن الإحاطة بصفات الله فكذلك نعجز عن الإحاطة بسر القدر الإلهي، ومن أسراره أن أضل الله وهدى، وأسعد وأشقى، وأمات وأحيا، وغير ذلك؛ لحكمة يعلمها ولا نعلمها، وهو العليم الحكيم.

ولا يضير المرء في إيمانه عجزه عن معنى الإحاطة بسر القدر؛ لأن ذلك ليس بمستطاع، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

ولكن الذي يضيره أن يبني على عجزه أحكاماً، ويتصرف على غير هدى، ويرد بعض الأصول القطعية، ويضرب النصوص بعضها ببعض.

ومما لا نزاع فيه بين العقلاء أن للمالك أن يتصرف في ملكه كيف يشاء، ولا يلزم ليكون تصرفه سليماً أن يُدرك غيرُه الحكمة في تصرفاته، وليس لأحد حق

الاعتراض عليه في تصرفه إذا لم يعلم السر في أفعاله.

ولا نزاع بينهم أن البارع في علم من العلوم، أو فن من الفنون، أو صنعة من الصنائع أنه قد يعمل أعمالاً لا تدركها عقول الذين لم يقفوا على أسرار ذلك العلم، أو الفن، أو الصنعة، كما هي الحال في عالم الطب، والهندسة، ونحو ذلك.

ولا يعني عدمُ إدراكهم لذلك القدحَ في ذلك العلم، أو الفن، أو الصنعة.

هذا بالنسبة للبشر القاصرين في علمهم وحكمتهم، فكيف بأحكم الحاكمين، وبمن وسع كل شيء رحمة وعلماً؟!

فإن حاولنا كشف ما طُوي عنا من أسرار القدر مما استأثر الله بعلمه كان ذلك تكلفاً بلا نتيجة، ومن حاول إدراك غير المستطاع فنتيجة محاولته أن يكون[1]:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنَه الوعلُ[2]

هذا وسيأتي مزيد إيضاح لهذه المسألة وما شاكلها.

---

(١) انظر العقل والنقل عند ابن رشد، د.محمد أمان الجامي، ط٣، ١٤٠٤هـ، الجامعة الإسلامية، ص٥٦ـ٥٧.

(٢) ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، شرح وتعليق د.محمد محمد حسين، الناشر مكتبة الآداب بالجماميز، ص٦١.

شرح البيت الثاني والثلاثين

٣٢- وفي الكون تخصيصٌ كثيرٌ يدلُّ   له نوعُ عقلٍ أنه بإرادةِ

يبين الشيخ رحمه الله في هذا البيت أن ما في الكون من التخصيصات المتنوعة من كل وجه دلالةٌ واضحة على نفوذ مشيئة الله، وأن ذلك كائن بإرادته -عز وجل-.

ومن تلك التخصيصات ما يُرى من الحِكم والانتظام، والحسن والالتئام، والخلق الغريب، والإبداع العجيب.

ومن ذلك جَعْل بعضها عالياً وبعضها سافلاً، وبعضها كبيراً وبعضها صغيراً، وبعضها متصلاً بغيره، وبعضها منفصلاً، وبعضها على صفة، وبعضها على صفة أخرى مثل قوله -تعالى-: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (النور: ٤٥).

ومن ذلك ما في الكون من الخيرات الكثيرة، والمنافع الغزيرة؛ فكل ذلك ينطق بأنها صادرة عن إرادة تامة، ومشيئة نافذة.

وهذا أمر يدركه من عنده أدنى مُسْكةٍ من عقل[1].

وسيأتي مزيد إيضاح لهذا البيت في شرح البيت الآتي.

(١) انظر الدرة البهية ص١٦٦-١٦٧.

شرح البيت الثالث والثلاثين

٣٣- وإصدارُه عن واحد بعد واحد أو[1] القولُ بالتجويز رميةُ حيرةِ

قوله: «**القول بالتجويز..**»: يشير بذلك إلى قول القدرية القائلين بالتجويز، وهو قولهم: لو عذبنا الله على ما خلقه فينا لكان جائزاً، وإنما يعذبنا على ما نخلقه نحن.

وكقولهم: يجوز على الله تعذيب ملائكته، وأنبيائه، وأهل طاعته، وإكرام إبليس وجنوده، وجعلهم فوق أوليائه في النعيم المقيم.

ولا ريب أن هذا قول باطل صادر عن نفي الحكمة والتعليل؛ وذلك أن حكمة الله -عز وجل- تأبى ذلك، قال -تبارك وتعالى-: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(٣٦)﴾ (القلم).

وقد قدَّمتُ شرح الشطر الثاني على الأول؛ لأن الكلام على الأول سيطول.

وقوله: «**وإصداره عن واحد بعد واحد...**»: هذه المقولة مقولة تعسفية دقيقة متكلفة ذهنية لا عينية يطلقها الفلاسفة، ومن يوافقهم من المتفلسفة المنتسبين إلى الإسلام ممن يقولون بالعقول العشرة، وأن الله واحد لا يصدر عنه - عندهم - إلا واحد وهو العقل الأول على ما سيأتي بيانه.

كما أنها ترد في كتب العقائد خصوصاً في باب القدر، وارتباطه بفعل الأسباب؛ حيث يبين العلماء أن الأسباب لا تستقل بالتأثير، وأنه ما من سبب إلا وهو مفتقر إلى سبب آخر في حصول مسببه، ولا بد له من مانع يمنع مقتضاه وأثره إذا لم يدفعه

---

(١) في و: أرى.

الله عنه؛ فليس في الوجود شيء واحد يستقل بفعل شيء إلا الله وحده.

قال الله -تعالى-: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات: ٤٩).

أي فتعلمون أن خالق الأزواج واحد.

وأما بالنسبة للمخلوق فليس هناك مخلوق يصدر عنه شيء استقلالاً، بل لا بد له من سبب أو أسباب أخرى تعينه في حصول مسببه، ولا بد له من زوال الموانع التي تمنع تأثيره -كما مر- [(١)].

قال الشهرستاني رحمه الله مقرراً مقولة الفلاسفة الآنفة الذكر: «المسألة السادسة: في أنه لا يصدر عن الواحد إلا واحد.

قال[(٢)]: الصادر الأول هو العقل الفعال، لأن جميع الحركات إذا كانت كثيرة، ولكل متحرك محركٌ فيجب أن يكون عدد المحركات بحسب عدد المتحركات؛ فلو كانت المحركات والمتحركات تنسب إليه لا على ترتيب أول وثان، بل جملة واحدة لتكثَّرت جهاتُ ذاته بالنسبة إلى محرك محرك، ومتحرك متحرك؛ فتكثر ذاتُه.

وقد أقمنا البرهان على أنه واحد من كل وجه؛ فلن يصدر عن الواحد من كل وجه إلا واحد وهو العقل الفعال.

وله في ذاته وباعتبار ذاته إمكان الوجود، وباعتبار علته وجوب الوجود؛ فتكثر ذاته لا من جهة علته؛ فيصدر عنه شيئان، ثم يزيد التكثُّر في الأسباب،

---

(١) انظر التدمرية ص٢١١.

(٢) يقصد بالقائل: ابن سينا، أو جمهور الفلاسفة.

فتكثر المسببات، والكل ينسب إليه»[١].

ولا ريب أن هذه المقولة باطلة، كما سيأتي بيان ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ولهذا من قال: إنه لا يصدر عنه إلا واحد؛ لأن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد ـ كان جاهلاً؛ فإنه ليس في الوجود واحد صدر عنه وحده شيء لا واحد ولا اثنان إلا الله الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون؛ فالنار التي جعل الله فيها حرارة لا يحصل الإحراق إلا بها وبمحلٍّ يقبل الاحتراق؛ فإذا وقعت على السَّمَنْدل[٢] والياقوت[٣] ونحوهما لم تحرقهما.

وقد يطلى الجسم بما يمنع إحراقه، والشمس التي يكون عنها الشعاع لا بد من جسم يقبل انعكاس الشعاع عليه، وإذا حصل حاجز من سحاب، أو سقف لم يحصل الشعاع تحته»[٤].

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ١٢٤/٢.

(٢) السمندل: يقال: إنه دابة دون الثعلب يكثر في الهند، ويتلذذ بالنار، ومكثه فيها.

وزعم آخرون أنه طائر ببلاد الهند يُفَرِّخ في النار، ويدخلها، ولا يحترق ريشه. انظر حياة الحيوان الكبرى لمحمد بن موسى الدميري، ط٤، ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م، ٥٧٣/١ـ٥٧٤، والحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، ١١١/٢ و ٣٠٩/٥، و ٤٣٤/٦.

(٣) الياقوت: قال القزويني في كتابه (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) المكتبة الأموية، عمان، الأردن (ب ت) ص٢١٢: «حجر صلب شديد اليبس رزين شفاف صافٍ مختلف الألوان، ذكروا أنه لا تذوبه النار؛ لقلة دهنيته، ولا يفتت؛ لغلظ رطوبته، بل يزداد لونه حسناً».

(٤) التدمرية ص٢١١ـ٢١٢.

وقال رحمه الله في موضع آخر: «وكذا لفظ التأثير فيه إجمال؛ فإن القدرة مع مقدورها كالسبب مع المسبب، والعلة مع المعلول، والشرط مع المشروط.

فإن أريد بالقدرةِ القدرةُ الشرعية المصححة للفعل المتقدمة عليه ـ فتلك شرط للفعل، وإن أريد بالقدرة القدرةُ المُقَارِنَةُ للفعل المستلزمة له فتلك علة للفعل، وسبب تام.

ومعلوم أنه ليس في المخلوقات شيء هو وحده علة تامة، وسبب تام للحوادث بمعنى أن وجوده مستلزم لوجود الحوادث، بل ليس هذا إلا مشيئة الله ـتعالىـ خاصة؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

وأما الأسباب المخلوقة كالنار في الإحراق، والشمس في الإشراق، والطعام والشراب في الإشباع والإرواء، ونحو ذلك ـ فجميع هذه الأمور سبب لا يكون الحادث به وحده، بل لا بد من أن ينضم إليه سبب آخر.

ومع هذا فلها موانع تمنعها من الأثر؛ فكل سبب فهو موقوف على وجود الشروط، وانتفاء الموانع، وليس في المخلوقات واحد يصدر عنه وحده شيء.

وهذا مما يبين لك خطأ المتفلسفة الذي قالوا: الواحد لا يصدر عنه إلا واحد، واعتبروا ذلك بالآثار الطبيعية كالمسخن، والمبرد، ونحو ذلك؛ فإن هذا غلط؛ فإن التسخين لا يكون إلا بشيئين: أحدهما: فاعل، كالنار، والثاني: قابل، كالجسم القابل للسخونة والاحتراق، وإلا فالنار إذا وقعت على السمندل والياقوت لم تحرقه.

وكذلك الشمس فإن شعاعها مشروط بالجسم المقابل للشمس الذي ينعكس

عليه الشعاع، وله موانع من السحاب، والسقوف، وغير ذلك.

فهذا الواحد الذي قدَّروه في أنفسهم لا وجود له في الخارج، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع.

فإن الواحد العقلي الذي يثبته الفلاسفة، كالوجود المجرد من الصفات، وكالعقول المجردة، وكالكليات[١] التي يدعون تركب الأنواع منها، وكالمادة[٢] والصورة[٣] العقليين، وأمثال ذلك لا وجود لها في الخارج، بل إنما توجد في الأذهان لا في الأعيان، وهي أشد بعداً عن الوجود من الجوهر الفرد[٤] الذي

---

(١) الكليات: جمع كلي: وهو الذي لا يمنع نفسُ تصور معناه في وقوع الشركة فيه. انظر التعريفات ص١٨٦، والكليات للجرجاني ص٧٤٥.

(٢) المادة: أصل الشيء. انظر التعريفات للكفوي ص٧٩، والكليات ص٣٤٤ـ٣٤٧.

(٣) الصورة: قال الجرجاني رحمه الله: «صورة الشيء ما به يحصل الشيء بالفعل» انظر التعريفات ص١٤١.

وقال: «الصورة الجسمية: الجوهر الممتد في الأبعاد كلها، المدرك في بادي النظر بالحس» انظر التعريفات ص١٤١.

وقال: «الصورة النوعية: جوهر بسيط لا يتم وجوده بالفعل دون وجود ما حل فيه» انظر التعريفات ص١٤١.

وقال الكفوي: «الصُّورة بالضم: الشكل، وتستعمل بمعنى النوع والصفة» انظر الكليات ص٥٥٩.

وقال: «الصورة: ما تنتقش به الأعيان، وتميزها عن غيرها» انظر الكليات ص٥٥٩.

والصورة: وضع الشيء بعد تركيبه، أي هيئته، وشكله، وتناسب بعض أجزائه.

(٤) الجوهر الفرد: الجوهر: هو الذات هو والذات والماهية والحقيقة كلها ألفاظ مترادفة.

والجوهر الفرد قيل فيه:

ـ إنه هو القائم بالنفس الذي يكون متحيزاً لا قابلاً للقسمة.

ـ وقيل: هو الجزء الصغير الذي لا يمكن تقسيمه. =

يثبته من يثبته من أهل الكلام؛ فإن هذا الواحد لا حقيقة له في الخارج، وكذلك الجوهر كما قد بسط في موضعه.

والمقصود هنا أن التأثير إذا فسر بوجود شرط الحادث، أو سبب يتوقف حدوث الحادث به على سبب آخر، وانتفاء الموانع ـ وكل ذلك بخلق الله تعالى ـ فهذا حق، وتأثير قدرة العبد في مقدورها ثابت بهذا الاعتبار.

وإن فسر التأثير بأن المؤثر مستقل بالأثر من غير مشارك معاون، ولا معاوق مانع فليس شيء من المخلوقات مؤثراً، بل الله وحده خالق كل شيء، لا شريك له، ولا ند له؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ (فاطر: ٢).

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السموات وَلا

=ـ ويقال له: الجزء الذي لا يتجزأ ـ أي لا ينحل ـ.

والجواهر المفردة هي التي لا تقبل انقساماً لا في الخارج ولا في الفرض العقلي ـ كما مر عند الحديث عن الجسم ـ.

والجوهر خلاف العرض؛ الجوهر ما كان قائماً بنفسه كالجسم مثلاً، والعرض ما كان قائماً بغيره كاللون كبياض الثلج، وسواد القار؛ فهي قائمة بغيرها لا بنفسها.

ولهذا يقول بعضهم: الجسم: ما كان مركباً من المادة والصورة.

والمادة: أصل الشيء أو الهيولى، والصورة وضع الشيء بعد تركيبه أي هيئته وشكله، وتناسب بعض أجزائه مع بعض.

فالمادة أو الهيولى ههنا: جوهر، والصورة: عرض.

هذه نبذة موجزة ليس الغرض منها التفصيل بقدر ما هو إعطاء صورة مجملة لهذه المصطلحات. انظر التعريفات ص٧٩ والكليات ص٣٤٤ـ٣٤٧.

فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ(٢٢) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ (سبأ: ٢٢-٢٣).

﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (الزمر: ٣٨).

ونظائر هذا في القرآن كثيرة»[1].

وقال الطوفي رحمه الله في شرح البيتين السابقين: «وقد تضمن البيتان المذكوران الإشارة إلى ثلاثة مذاهب.

أحدها: مذهب القائلين بأن صانع العالم يفعل بالطبع والإيجاب كإحراق النار، وتبريد الماء، وهبوط الحجر الثقيل في الهواء لا بالقدرة والاختيار: وشبهتهم على ذلك دقيقة تعسُّفية، ولا أصل لها.

وقد رد الله -تعالى- عليهم بقوله: ﴿ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾ (الرعد: ٤).

ورد عليهم الأصوليون بأن الفاعل بالطبع لا يتمادى زمنُ فعله، ولا يتخصص بعد وجود فاعله ببعض الأزمنة والأمكنة دون بعض.

وأفعال الله -تعالى- تتمادى، ويتأخر بعضها عن بعض، ويختص ببعض ظروف الزمان والمكان دون بعض.

وما ذاك إلا لصدوره عن قدرة واختيار، لا عن طبع وإيجاب.

---

(١) مجموع الفتاوى ٨/١٣٣-١٣٥.

وإلى هذا أشار الشيخ ـ يعني ابن تيمية ـ بقوله: وفي الكون تخصيص كثير... البيت.

فإن وجود زيد ـمثلاًـ اليوم دون أمس وغدٍ، أو غداً دون أمس واليوم، أو أمس دون اليوم وغدٍ، وموتُه في مكة دون بغداد أو في مصر دون مكة ـ دليلٌ على أن مُخصِّصاً ذا إرادة تامة خَصَّص هذه الأحداثَ ببعض هذه الظروف دون بعض، ولعل في قوله ـتعالىـ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ لقمان: ٣٤ إشارة إلى هذا الدليل.

وإذا ثبت أن الموجودات واقعة بإرادة الله ـتعالىـ فالأفعال من طاعة ومعصية منها؛ فهي ـ إذاً ـ واقعة بإرادة الله ـتعالىـ فقول القائل: معصيتي خَلْقي لا خلق الله خطأ والله أعلم.

المذهب الثاني: قول القائلين بأن واجب الوجود واحد، الواحد لا يصدر عنه إلا واحد؛ لأنه لو صدر عنه أكثر من واحد لكان من حين صدور هذا عنه مغايراً لنفسه من حيث صدورُ الآخر عنه، والمغايرة تقتضي التعدد، والتكثُّر؛ فيلزم أن يكون واحداً كثيراً، وهو محال.

قالوا: فوجب القول بأن الصادر عنه واحد، وهو الفلك الذي دونه، وعن ذلك الفلك ما دونه إلى أن انتهى التدريج إلى فلك القمر، وهو الذي يلي العالم السفلي، وهو عالم الكون، والفساد؛ فأثَّر فلك القمر في العناصر الأربعة: النار، والهوى، والماء، والأرض، ثم دبَّرت هذه العناصر ما تركَّب منها، وهو هذا العالم.

وهذا ونحوه تقرير مذهب الحكماء -يعني الفلاسفة- على ما ذكره بعضهم.

وهو فاسد؛ لأنه يوجب أن لا يوجد شيئان إلا وأحدهما علة للآخر».

إلى أن قال رحمه الله: «وإلى هذا أشار الشيخ - يعني ابن تيمية - بقوله:

وإصداره عن واحد بعد واحد.

وأجاب عنه بأنه رمية حَيْرة، أي أنه دعوى لا برهان عليها، وإنما هو رأي صدر عن عقولٍ حارَتْ، وعن طريق الحق جارَتْ، وما لا برهان عليه لا يسمع».

ثم انتقل بعد ذلك إلى المذهب الثالث فقال:

«**المذهب الثالث**: مذهب القائلين بالتجويز، وهم القدرية، الذين يقولون: لو عذبنا الله على خلقه فينا لكان جائزاً، وإنما يعذبنا على ما نخلقه نحن.

وأجاب عنه -يعني ابن تيمية- بما أجاب عن الذي قبله من أنه رمية حيرة، والتقريرُ التقريرُ.

وقوله: «**أو القول**» أي والقول؛ فهي -يعني أو- بمعنى الواو، وليست لأحد الشيئين، والله أعلم»[1].

---

(١) انظر شرح جواب ابن تيمية للطوفي ص٢٤-٢٦.

شرح البيتين [٣٤ ـ ٣٥]

٣٤ـ ولا ريبَ في تعليق كلِّ مُسَبَّبٍ　　بما قبله من[1] علة مُوجِبيَّةِ

٣٥ـ بل الشأنُ في الأسبابِ أسبابِ ما ترى　　وإصدارها[2] عن حكم محض المشيئة

« المسبَّب » : هو ما يوصل إليه بالسبب.

والسبب في اللغة : الحبل ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ (الحج : ١٥).

وفي الاصطلاح : سبب الشيء ما تُوصِّل به إلى تحصُّله لا على سبيل اللزوم[3].

والعلة : هي ما يتوقف عليه وجود الشيء ، ويكون خارجاً مؤثراً فيه ، والموجب : بالكسر السبب ، وبالفتح : المُسبَّب.

يقول الشيخ رحمه الله : إن الأمر الذي لا ريب فيه أن كل مُسَبَّبٍ لابد له من سبب ، وكل معلول لابد له من علة موجبة ، وكل شيء لابد له من مادة قد خُلِق منها.

ولكن جميع الأسباب تنتظم في قضاء الله وقدره ، وهي من القضاء والقدر ، وتنتهي إلى قضائه وقدره.

قال الطوفي رحمه الله : «ومثال تعلق الأسباب بمسبباتها أن سبب وجود الحر حرارة الهواء المتصل بالأجسام ، وسبب حرارة الهواء علو الشمس في الفلك ، وسبب علو الشمس اختلاف حركات فلكها وانتقالاته ، وسبب حركات فلكها حركة الفلك الأعلى المسمى بفلك الأفلاك ، وسبب حركة الفلك الأعلى إرادة الله ـ تعالى ـ.

---

(١) في و : في.

(٢) في ط و أ : (وإصداره) ، وفي عقود و ب و هـ : (ومصدرها).

(٣) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٢٦.

وهكذا الكلام في كل مسبَّب تعلق بسبب، أو علة تعلقت بعلة»[١].

ثم إن فعل الأسباب لا ينافي الإيمان بالقدر، بل إن ذلك من تمام الإيمان بالقدر.

قال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي رحمه الله: «ويظن كثير من الناس أن إثبات الأسباب ينافي الإيمان بالقضاء والقدر.

وهذا غلط فاحش جداً، وهو عائد على القدر بالإبطال، وهو -أيضاً- إبطال للحكمة.

وكأن هذا الظانَّ يقول ويعتقد: أن الإيمان بالقدر هو اعتقادُ وجود الأشياء بدون أسبابها الشرعية والقدرية، وهذا نفي للوجود لها؛ فإنها -كما ذكرنا- أن الله ربط الكونَ بعضَه ببعض، ونظم بعضه ببعض، وأوجد بعضه ببعض؛ فهل تقول أيها الظانُّ جهلاً: إن الأوْلى إيجادُ البناء من دون بنيان؟ وإيجاد الحبوب والثمار والزروع من دون حرث وسقي؟ وإيجاد الأولاد والنسل من دون نكاح؟ وإدخال الجنة من دون إيمان وعمل صالح؟ وإدخال النار من دون كفر ومعصية؟!

بهذا الظن أبطلت القدر، وأبطلت معه الحكمة.

أما علمتَ أن الله بحكمته، وكمال قدرته جعل للمسبِّبات أسباباً؟ وللمقاصد طرقاً ووسائل تحصل بها؟ وقرر ذلك في الفطر والعقول، كما قرره في الشرع، وكما نفَّذه في الواقع؟ فإنه أعطى كل شيء خلقه اللائق به، ثم هدى كلَّ مخلوق إلى ما خلق له من أصناف السعي، والحركة، والتصرفات المتنوعة، وبنى أمور الدنيا والآخرة على ذلك النظام البديع العجيب الذي شهد - أولاً - لله بكمال القدرة،

---

(١) المرجع السابق ص٢٦.

وكمال الحكمة، وأشهد العباد -ثانياً- أنه بهذا التنظيم والتصريف وجَّه العاملين إلى أعمالهم، ونشَّطهم على أشغالهم؛ فطالب الآخرة إذا علم أنها لا تنال إلا بالإيمان والعمل الصالح وترك ضدِّها - جد واجتهد في تحقيق الإيمان، وكثرت تفاصيله النافعة، واجتهد في كل عمل صالح يوصله إلى الآخرة، واجتنب في مقابل ذلك الكفرَ والعصيان، وبادر للتوبة النصوح من كل ما وقع منه من ذلك.

وصاحب الحرث إذا علم أنه لا ينال إلا بحرث وسقي وملاحظة تامة - جدَّ واجتهد في كل وسيلة تنمي حراثته، وتكمِّلها، وتدفع عنها الآفات.

وصاحب الصناعة إذا علم أن المصنوعات على اختلاف أنواعها، ومنافعها لا تحصل إلا بتعلم الصناعة وإتقانها ثم العمل بها - جد في ذلك.

ومن أراد حصول الأولاد، أو تنمية مواشيه عمل وسعى في ذلك، وهكذا في جميع الأمور»[١].

وقال رحمه الله: «وثبت في الصحيحين أن الصحابة -رضي الله عنهم- حين ذكر لهم النبي ﷺ القدر السابق - قالوا: «يا رسول الله: أفلا نَتَّكل على كتابنا الأول وندع العمل؟».

فقال: «**اعملوا فكلٌّ ميسرٌ لما خلق له؛ أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة**».

---

(١) الرياض الناضرة ص١٢٥-١٢٦، وانظر شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، للشيخ عبدالله بن محمد الغنيمان، مكتبة لينة، ط١، ١٤٠٩هـ، ٦٢٩/٢، وانظر السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، د. عبدالكريم زيدان، ط١، ١٤١٣هـ، مؤسسة الرسالة، ص٢١-٣٣.

ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠)﴾ (الليل)[1].

ومشيئته -تعالى- لا تنافي ما جعله من الأسباب الدنيوية والأخروية؛ فقد أخبر في عدة آيات: أنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وفي آيات أخر أخبر بالأسباب التي تنال بها هدايةُ الله، أو يستحق بها العبد أن يبقى على ضلاله، كقوله في الهداية: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ (المائدة: ١٦).

وكقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت: ٦٩).

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾ (الأنفال: ٢٩).

وقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ (التغابن: ١١) ونحوها.

وقوله في الضلال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (الصف: ٥).

وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً﴾ (البقرة: ١٠).

وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (الأنعام: ١١٠).

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (الزخرف: ٣٦).

وهذه الآيات فيها من أسرار القدر - في هداية من يهديه، وضلال من يضله -

---

(١) رواه البخاري (١٣٦٢) و (٤٩٤٥) ومسلم (٢٦٤٧).

ما شهد لله بكمال الحكمة والحمد.

وكذلك أخبر في عدة آيات أنه يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، وفي آيات أخر أخبر عن الأسباب التي تُنال بها مغفرة الله، مثل قوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (طه: ٨٢).

والأسباب التي يُستحق بها العذاب مثل قوله: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (طه: ٤٨).

وكذلك أخبر في آيات كثيرة أنه يرزق من يشاء، ويوسع الرزق على من يشاء، ويقبضه عمن يشاء.

وفي آيات أخر ذكر فيها الأسباب التي ينال بها رزقه، مثل قوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق: ٢ـ٣).

وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ (الطلاق: ٤).

كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أجله فليصل رحمه**»[(١)].

وكذلك الأسباب المادية مثل قوله ـتعالى ـ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك: ١٥).

وجميع المطالب الدنيوية والأخروية جعل لها أسباباً متى سلكها الإنسان حصل على مطلوبه.

---

(١) رواه البخاري (٥٩٥٨) ومسلم (٢٥٥٧).

وقد جمع النبي ﷺ ذلك في كلمة واحدة فقال: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله**»[(١)].

فقوله: «**احرص على ما ينفعك**».

أي في دينك ودنياك، واسلك كل طريق يوصلك إلى هذه المنفعة، ولكن لا تتكل على حولك وقوتك، بل توكل على الله، واستعن به؛ فمن فعل ذلك فهو عنوان سعادته ونجاحه، وإلا فلا يلمِ العبد إلا نفسه»[(٢)].

يقول الطوفي رحمه الله في شرح البيتين السابقين: «ومعنى البيتين أنَّا لا ننازع في أن أسباب العالم وعلله متعلق بعضها ببعض؛ فإنا نقول بذلك، لكنها ـ وإن تعلق بعضها ببعض وتسلسلت ـ فإنها تنتهي إلى قدرة الله، وإرادته.

وهو المراد بمحض المشيئة، أي هو مستقل بالمشيئة لا يحتاج مشيئة في وجود مراده إلى مشيئة كمشيئة المخلوقين»[(٣)].

ويقول ابن القيم رحمه الله مقرراً لكثير مما مضى: «أنه ـ سبحانه ـ ربط الأسباب

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) الدرة البهية ص١٦٨-١٧١، وتيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، لابن سعدي، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ، مكتبة الأقصى عنيزة، ص١٢، والقضاء والقدر، أبو الوفاء محمد درويش، المكتبة الإسلامية، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، ص٥٣-٦١، والأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة للشيخ عبدالرحمن بن محمد الدوسري، مكتبة الرشد، ط٢، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ص١١٨-١٢٤، و التوكل على الله وعلاقته بالأسباب، د. عبدالله بن عمر الدميجي، دار الوطن، ط٢، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م، ص١٦٣-١٩٤.

(٣) شرح جواب ابن تيمية ص٢٦، و تنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمر ونقصانه من الدلائل، للإمام الشوكاني، علق عليها وخرَّجها الشيخ مشهور بن حسن سلمان، ط١، ١٤١٠هـ، دار ابن حزم، بيروت، ص٣٢، ومنهج القرآن في القضاء والقدر، محمود غريب، مكتبة الثقافة الإسلامية، المكتبة السلفية، ط٥، ١٤٠٥هـ، ص٤٢-٤٤.

بمسبباتها شرعاً وقدراً، وجعل الأسباب محل حكمته في أمره الديني الشرعي، وأمره الكوني القدري، ومحل ملكه وتصرفه؛ فإنكار الأسباب، والقوى، والطبائع جحد للضروريات، وقدح في العقول والفطر، ومكابرة للحس، وجحد للشرع والجزاء؛ فقد جعل ـسبحانهـ مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، والثواب، والعقاب، والحدود، والكفارات، والأوامر، والنواهي، والحل، والحرمة كل ذلك مرتبطاً بالأسباب قائماً بها.

بل العبد نفسه، وصفاته، وأفعاله سبب لما يصدر عنه.

بل الموجودات كلها أسباب ومسببات، والشرع كله أسباب ومسببات، والمقادير أسباب ومسببات، والقدر جارٍ فيها؛ فالأسباب محل الشرع والقدرِ، والقرآنُ مملوء في إثبات الأسباب، كقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:١٠٥).

﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٣٩).

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ (الحج: ١٠).

﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (الشورى: ٣٠)»[1].

---

(١) شفاء العليل ص٣٨٠ـ٣٨١.

شرح الأبيات [٣٦ ـ ٣٨]

٣٦ـ وقولـك: لِـمْ شـاء الإلـهُ هـو الـذي أزلَّ[١] عقـول الخلـق في قَعْـر حُفْـرةِ

٣٧ـ فـإن المجـوسَ القـائلين بخـالق لنفـع وربٌّ مبـدعٍ للمَـضرةِ

٣٨ـ سـؤالُهم عـن علـة السـرِّ[٢] أوقعـت أوائلَهـم[٣] في شـبهة الثَّنويـةِ[٤]

معنى الأبيات: أن قولك أيها السائل المعترض «لم شاء الله الشر» : ونحو ذلك من الأسئلة الاعتراضية التي مضمونها الدخول فيما ليس للعقل سبيل إليه ـ هو الذي أضل العقول، وألقاها في الهلاك، وطوَّح بها عن سواء الصراط[٥].

وهذا هو الذي ألقى المجوس في بدعة الثنوية؛ حيث قالوا:

« كيف يخلق الله الشر؟ ».

وبناءً على ذلك قالوا: علينا أن ننزه الله عن خلق الشر؛ فقادهم ذلك السؤال الباطل إلى تلك الطامة الكبرى؛ حيث قالوا بالأصلين: النور، والظلمة، فزعموا أن للكون إلهين: إله النور وهو خالق الخير، وإله الظلمة وهو خالق الشر.

---

(١) في أ: أضل.

(٢) في ط و عقود و هـ: الشَّر.

(٣) في ط و عقود و ب وج: رؤوسهم.

(٤) في عقود و ب و ج: (المثنوية)، وفي و: (وثنية).

(٥) هذه الأسئلة الاعتراضية مما لا يجوز، وقد نص الحديث على ذلك عند الكلام على حكم الحديث عن القدر.

ولقد أحسن القاضي أبو يعلى فيما نقله عنه ابنه أبو الحسين؛ حيث قال: «ومعتقدنا ومعتقد الوالد السعيد ومَنْ تقدمه من أئمتنا مبني على حرفين: السكوت عن (لِمَ) في أفعاله ـعز وجلـ وعن (كيف) في أوصافه ـ تبارك وتعالى ـ» طبقات الحنابلة، للقاضي أبي يعلى، ط دار المعرفة (ب ت) ٢/٢٢٦.

فالذين يقولون: كيف يقدر الله علينا الكفر والمعاصي ويعذبنا على ذلك؟ قد تابعوا في اعتراضهم المجوس، ولذا سمي القدرية مجوس هذه الأمة.

ولو كان أولئك يعقلون لاهتدوا بهدي المرسلين، ولعلموا أن الله -عز وجل- منزه عن الشر، وأنه لا يفعل إلا الخير؛ فالقدر من حيث نسبته إلى الله -عز وجل- لا شر فيه بوجه من الوجوه؛ فإنه علم الله، وكتابته، ومشيئته، وخلقه.

وذلك خيرٌ محض، وكمال من كل وجه؛ فالشر ليس إلى الرب بوجه من الوجوه، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

ولو فعل الشر -سبحانه- لاشتُق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى، ولعاد إليه من الشر حكم -تعالى وتقدس-.

وإنما الشر يدخل في مخلوقاته ومفعولاته؛ فالشر في المقضي لا في القضاء، ويكون شراً بالنسبة إلى محلٍّ، وخيراً بالنسبة إلى محلٍّ آخر، وقد يكون خيراً بالنسبة إلى المحل القائم به من وجه كما هو شر من وجه آخر، بل هو الغالب، وذلك كالقصاص، وإقامة الحدود، وقتل الكفار؛ فإنه شر بالنسبة إليهم لا من كل وجه، بل من وجه دون وجه، وخيرٌ بالنسبة إلى غيرهم؛ لما في ذلك من مصلحة الزجر، والنكال، ودفع الناس بعضهم ببعض.

وكذلك الأمراض فهي - وإن كانت شروراً من وجه - هي خير من وجوه عديدة - كما سيأتي بيانه عند الحديث عن الحكمة من خلق الآلام والمصائب -.

والحاصل أن الشر لا ينسب إلى الله -تعالى- ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ كان يثني على ربه بتنزيهه عن الشر بدعاء الاستفتاح بقوله: «لبيك

وسعديك، والخيرُ كلُّه في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت»[(١)].

قال ابن القيم رحمه الله تعليقاً على هذا الحديث: «فتبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه، بل كلُّ ما نسب إليه فهو خير، والشر إنما صار شراً لانقطاع نسبته وإضافته إليه؛ فلو أضيف إليه لم يكن شراً، وهو -سبحانه- خالق الخير والشر؛ فالشر في بعض مخلوقاته لا في خلقِه وفِعْلِه.

وخلقُه وفعلُه، وقضاؤه وقدره خير كله؛ ولهذا تنزه -سبحانه- عن الظلم الذي حقيقته وضع الشيء في غير موضعه؛ فلا يضع الشيء في غير محلّه؛ فإذا وُضِع في محله لم يكن شراً؛ فعُلِم أن الشر ليس إليه، وأسماؤه الحسنى تشهد بذلك»[(٢)].

وقال -أيضاً-: «فأسماؤه الحسنى تمنع نسبة الشر والسوء والظلم إليه، مع أنه -سبحانه- الخالق لكل شيء، فهو الخالق للعباد، وأفعالهم، وحركاتهم، وأقوالهم.

والعبد إذا فعل القبيحَ المنهي عنه كان قد فعل الشرَّ والسوء.

والرب -سبحانه- هو الذي جعله فاعلاً لذلك، وهذا الجعلُ منه عدل، وحكمةٌ، وصواب؛ فجعلُه فاعلاً خيرٌ، والمفعول شرٌّ قبيح؛ فهو -سبحانه- بهذا الجعل قد وضع الشيء في موضعه؛ لما له في ذلك من الحكمة البالغة التي يحمد

---

(١) (٧٧١).

(٢) شفاء العليل ص٣٦٤-٣٦٥، وانظر بدائع الفوائد لابن القيم، مكتبة الرياض الحديثة (ب ت) ٢/٢١٤-٢١٥، و التفسير القيم، لابن القيم، دار الفكر، تحقيق محمد حامد الفقي ١٤٠٨هـ، ص٥٥٠-٥٥٦.

عليها؛ فهو خير وحكمة ومصلحة، وإن كان وقوعه من العبد عيباً ونقصاً وشراً»[(١)].

وبالجملة فإن الله -تعالى- لا ينسب إليه الشر؛ لأنه إذا أريد بالشر وضع الشيء في غير موضعه - فهو الظلم، ومقابله العدل، والله منزه عن الظلم.

وإن أريد به الأذى اللاحق بالمحل بسبب ذنب ارتكبه - فإيجاد الله للعقوبة على ذنب لا يعد شراً له؛ بل ذلك عدلٌ منه -تعالى-.

وإن أريد به عدم الخير، وأسبابه الموصلة إليه فالعدم ليس فعلاً حتى ينسب إلى الله، وليس للعبد على الله أن يوفقه؛ فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، ومنع الفضل ليس بظلم ولا شر[(٢)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والله -تعالى- غني عن العباد، وإنما أمرهم بما ينفعهم، ونهاهم عما يضرهم؛ فهو محسن إلى عباده بالأمر لهم، محسن لهم بإعانتهم على الطاعة.

ولو قدِّر أن عالماً صالحاً أمر الناس بما ينفعهم، ثم أعان بعض الناس على فعل ما أمرهم به، ولم يعن آخرين لكان محسناً إلى هؤلاء إحساناً تاماً، ولم يكن ظالماً لمن لم يحسن إليه.

وإذا قدِّر أنه عاقب المذنب العقوبة التي يقتضيها عدله وحكمته - لكان أيضاً محموداً على هذا وهذا.

---

(١) شفاء العليل ص٣٦٦، وانظر الحسنة والسيئة، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ، ص٥٢-٥٣.

(٢) انظر الحكمة والتعليل د. محمد بن ربيع ص٢٠٢.

وأين هذا من حكمة أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين؟!

فأمره لهم إرشادٌ وتعليم، وتعريف بالخير، فإن أعانهم على فعل المأمور كان قد أتم النعمة على المأمور، وهو مشكور على هذا وهذا.

وإن لم يُعِنْه وخذله حتى فعل الذنب كان له في ذلك حكمة أخرى»[1].

(مسألة)

هذه المسألة داخلة فيما مضى ذِكْره في المسألة الماضية.

وهي عبارة عن تساؤل مفاده:

إذا قيل: كيف يريد الله أمراً، وفي الوقت نفسه لا يرضاه ولا يحبه؟

وكيف يُجمع بين إرادته له وبغضه وكراهته؟

فالجواب أن يقال: إن المراد نوعان: مراد لنفسه، ومراد لغيره؛ فالمراد لنفسه محبوب لذاته وما فيه من الخير؛ فهو مرادٌ إرادةَ الغاياتِ والمقاصد.

والمراد لغيره قد لا يكون مقصوداً لما يريد، ولا فيه مصلحة بالنظر إلى ذاته - أي المراد - وإن كان وسيلةً إلى مقصوده؛ فهو مكروهٌ له من حيث نفسُه وذاته، مراد محبوب له من حيث قضاؤه إيصاله إلى مراده؛ فيجتمع الأمران: بغضه وإرادته ولا يتنافيان، فيُبْغَض من وجه، ويحب من وجه آخر.

وهذا أمر معلوم عند الخلق؛ فهذا الدواء الكريه الطعم والرائحة إذا علم الإنسان أن فيه شفاءه أبغضه من وجه، وأحبه من وجه آخر؛ فيكرهه من جهة تألمه به، ويحبه من جهة إفضائه إلى ما يحب.

---

(١) منهاج السنة ٣٨/٣.

وقُلْ مثل ذلك في العضو المتآكل إذا عُلِم أن في قطعه بقاءً لحياته، وكقطع المسافة الطويلة الشاقة إذا علم أنها توصله إلى مراده ومحبوبه كالذي يقطع المفاوز والفيافي قاصداً البيت العتيق.

وهكذا يتبين لنا أن الشيء يجتمع فيه الأمران: بغض من وجه، وحبٌّ من وجه آخر، وأنهما لا يتنافيان، هذا في شأن المخلوق؛ فكيف بالخالق الذي لا تخفى عليه خافية، والذي له الحكمة البالغة؟

فهو -سبحانه- يكره الشيء، ولا يتنافى ذلك مع إرادته له لأجل غيره، وكونه سبباً إلى أمر محبوب(١).

وإليك هذا المثال الذي يوضح هذه المسألة، ألا وهو:

خلق إبليس والحكمة من ذلك:

الله -عز وجل- خلق إبليس الذي هو مادة الفساد التي تمد كل فساد في هذه الدنيا، في الأديان، والاعتقادات، والشهوات، والشبهات، وهو سبب لشقاوة العباد، وعَمَلِهم ما يغضب الله -عز وجل- وهو مع ذلك كله وسيلة إلى محابَّ كثيرةٍ، وحكم عظيمة.

إذا تقرر ذلك فهذه بعض الحكم التي تلمسها العلماء من خلق إبليس:

١- أن يَظهر للعباد قدرةُ الرب -تعالى- على خلق المتضادات والمتقابلات:

---

(١) انظرتفصيل ذلك في شفاء العليل ص٣٦٤-٤١٢ و ٤٤٥-٤٦٠، وطريق الهجرتين ص١٨١-١٨٣، والفوائد ص١٣٦-١٤٠، ومقدمة مفتاح دار السعادة ص٣ ومابعدها من المقدمة، ومدارج السالكين١/٢٦٤-٢٦٩، و٢/١٩٠-١٩٨، شرح العقيدة الطحاوية ص٢٥٢-٢٥٦، والحكمة والتعليل في أفعال الله ص٢٠٥-٢١٠، ولوامع الأنوار البهية ١/٣٣٩-٣٤٣.

فخلق هذه الذات -إبليس- التي هي أخبث الذوات، وهي سبب كل شر، وخَلَق في مقابلها ذات جبريل التي هي من أشرف الذوات وأزكاها، والتي هي مادة كل خير، فتبارك من خلق هذا وهذا، كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار، والحر والبرد، والماء والنار، والداء والدواء، والموت والحياة، والحسن والقبيح، فالضد يظهر حسنه الضد، وهذا أدلُّ دليل على كمال قدرته، وعزته، وملكه، وسلطانه؛ فإنه خلق هذه المتضادات، وقابل بعضها ببعض، وسلط بعضها على بعض، وجعلها محل تصرفه، وتدبيره، وحكمته، فخلوُّ الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته، وكمال تصرفه، وتدبير مملكته[(١)].

٢- **أن يُكَمِّلَ الله لأوليائه مراتب العبودية:** وذلك بمجاهدة إبليس وحزبه، وإغاظته بالطاعة لله، والاستعاذة بالله منه، واللجوء إلى الله أن يعيذهم منه ومن كيده، فيترتب لهم على ذلك من المصالح الدنيوية، والأخروية ما لا يحصل بدونه.

ثم إن المحبة، والإنابة، والتوكل، والصبر، والرضا، ونحوها أحب أنواع العبودية لله، وهذه إنما تتحقق بالجهاد، وبذل النفس، وتقديم محبته -عز وجل- على كل من سواه، فكان خلق إبليس سبباً لوجود هذه الأمور[(٢)].

٣- **حصول الابتلاء:** ذلك أن إبليس خُلق ليكون محكّاً يمتحن به الخلق؛ ليتبين به الخبيث من الطيب؛ فإن الله - سبحانه - خلق النوع الإنساني من الأرض،

---

(١) انظر مدارج السالكين ٢/١٩٠-١٩١.

(٢) انظر الحكمة والتعليل في أفعال الله ص٢٠٥.

وفيها الطيب والخبيث؛ فلا بد أن يظهر فيهم ما هو من مادتهم[١].

٤ـ ظهور آثار أسمائه ـتعالى ـ ومقتضياتها، ومتعلقاتها: فمن أسمائه: الرافع، الخافض، المعز، المذل، الحكم، العدل[٢].

وهذه الأسماء تستدعي متعلقاتٍ يظهر فيها أحكامُها، فكان خلق إبليس سبباً لظهور آثار هذه الأسماء، فلو كان الخلق كلهم مطيعين، ومؤمنين لم تظهر آثار هذه الأسماء.

٥ـ استخراج ما في طبائع البشر من الخير والشر: فالطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر، والطيب والخبيث، وذلك كامن فيها كمون النار في الزناد، فَخُلق الشيطان مستخرجاً لما في طبائع أهل الشر من القوة إلى الفعل، وأرسلت الرسل تستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوة إلى الفعل؛ فاستخرج أحكم الحاكمين ما في هؤلاء من الخير الكامن فيها؛ ليترتب عليه آثاره، وما في أولئك من الشر؛ ليترتب عليه آثاره وتظهر حكمته في الفريقين، وينفذ حكمه فيهما، ويظهر ما كان معلوماً له، مطابقاً لعلمه السابق[٣].

٦ـ ظهور كثير من آيات الله وعجائب صنعه: فلقد حصل بسبب وقوع الكفر والشر من النفوس الكفَّارة الظالمة ظهور كثير من الآيات والعجائب، كآية الطوفان، وآية الريح، وآية إهلاك ثمود وقوم لوط، وآية انقلاب النار على

---

(١) انظر الحكمة والتعليل ص٢٠٥، وعالم الجن والشياطين، د. عمر الأشقر، دار النفائس، الأردن، ط١٥، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م، ص١٩٠.

(٢) انظر مدارج السالكين ٢/١٩١، وعالم الجن والشياطين ص١٩١.

(٣) انظر شفاء العليل ص٤٩٤ـ٤٩٥، ومدارج السالكين ٢/١٩٢ـ١٩٣.

إبراهيم برداً وسلاماً، والآيات التي أجراها الله على يد موسى، وغير ذلك من الآيات؛ فلولا تقدير كفر الكافرين وجحد الجاحدين لما ظهرت هذه الآيات الباهرة التي يتحدث بها الناس جيلاً بعد جيل إلى الأبد.

أما كونه -سبحانه وتعالى- أنظر إبليس إلى يوم القيامة - فليس ذلك إكراماً له بل إهانة له ليزداد إثماً، فتعظم عقوبته، ويتضاعف عذابه، إضافة إلى ذلك فالله جعله محكّاً ليميز به الخبيث من الطيب -كما سبق- وما دام أن الخلق مستمر إلى يوم القيامة - فإن هذا يقتضي بقاءه ببقاء خلق البشر، والله أعلم[1].

---

(١) انظر مدارج السالكين ٢/١٩٣.

شرح البيتين [٣٩ ـ ٤٠]

٣٩ـ وأن ملاحيـدَ الفلاسـفةِ الأُلى يقولـون بالفعـل[١] القـديمِ بعلـةِ[٢]

٤٠ـ بغوا علة في الكون[٣] بعد انعدامه فلـم يجـدوا ذاكـم فـضلوا بـضلةِ

قوله: «**ملاحيد**»: قال الطوفي رحمه الله: «جمع ملحد جمع تكسير.

وقياس جمعه: ملاحد بلا ياء، ولكن الياء قد تزاد لإقامة الوزن، أو للتعويض عن غاية، ويجوز أن تكون الغاية هنا جمع التصحيح؛ فتكون الياء عوضاً عنه»[٤].

وقال: «ولم أعرف جمع ملحد على ملاحيد، أو ملحد في اللغة إلا أن يكون شيئاً لم أظفر به، أو يكون مولداً، أو اصطلاحياً عرفياً»[٥].

قال ابن منظور[٦] رحمه الله: «اللَّحد واللُّحد: الشق الذي يكون في جانب القبر موضع الميت؛ لأنه قد أميل عن وسطه إلى جانبه، وقيل: الذي يحفر في عرضه»[٧].

---

(١) في أ: بالعقل.

(٢) في ط و أ و ب وَ و: لعلة.

(٣) في أ و ب و هـ وَ و: للكون.

(٤) (٥) شرح جواب ابن تيمية ص٢٨.

(٦) هو أبو الفضل جمال الدين: محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن أبي القاسم بن حقبة ابن منظور الأنصاري الخزرجي الإفريقي المصري المعروف بابن منظور.

ولد سنة ٦٣٠هـ وكان محدثاً فقيهاً عالماً بالنحو، واللغة، والتاريخ.

ويقال: إنه ترك كتباً من تأليفه أو اختصاره بلغت خمسمائة مجلد عدا ما ينسخه من كتب الأقدمين.

توفي عام ٧١١هـ. انظر الأعلام ٣٢٩/٧.

(٧) لسان العرب ٣٨٨/٣.

وقال: «والجمع ألحاد، ولحود»[١].

والملحد: العادل عن الحق، والمدخل فيه ما ليس منه.

والإلحاد: هو الميل عن القصد، والعدول عن الشيء[٢].

والإلحاد في الاصطلاح: هو الميل عما يجب اعتقاده أو عمله[٣].

قوله: «**الفلاسفة**»: جمع فيلسوف، من الفلسفة، وهي كلمة يونانية معربة.

والفلسفة في أصلها الوضعي مركبة من كلمتين: فيلا، أو فيلو، ومعناها: المحبة أو الإيثار.

والأخرى: سوفيس، أو سوفيا، ومعناها: الحكمة؛ فيكون معنى كلمة الفلسفة في الأصل الوضعي: محبة الحكمة، أو إيثار الحكمة، ويعرف الفيلسوف بأنه: محب الحكمة، أو المُؤْثِر للحكمة.[٤]

---

(١) انظر لسان العرب ٣/٣٨٨ـ٣٨٩.

(٢) المرجع السابق.

(٣) انظر فتح رب البرية بتلخيص الحموية للشيخ محمد بن عثيمين ص١٨.

(٤) هذا وقد مرت الفلسفة بأطوار، وعلى هذا فإنَّ تعريفها يختلف باختلاف الفلاسفة الذين وضعوا لها حدوداً منها:

أـ البحث عن الحقيقة. بـ حب المعرفة.

جـ ـ وعرفها الكندي بقوله: هي علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان.

دـ وعرفها الفارابي بقوله: هي العلم الوحيد الجامع الذي يضع أمامنا صورة شاملة للكون.

هـ ـ وعرفها ابن سينا بقوله: الحكمة استكمال النفس الإنسانية بتصور الأمور، والتصديق بالحقائق النظرية والعلمية على قدر الطاقة الإنسية. اهـ

أما الفلسفة عند الإطلاق العام فيمكن أن يُقال: هي النظر العقلي المتحرر من كل قيدٍ أو سلطةٍ=

وقوله: «**فضلوا بضلة**»: يحتمل ثلاثة أوجه:

الأول: أن المعنى ضلوا ضَلَّةً، والمراد بها الضلال، وهو المصدر، لكن عبَّر عنه بفرد من أفراده؛ إذ الضَّلة هي المرة الواحدة من الضلال كالضربة، والركضة؛

=تُفرض عليه من الخارج؛ بحيث يكون العقل حاكماً على الوحي والعرف ونحو ذلك.

وقد دخلت الفلسفة ديارَ الإسلام في القرن الثالث الهجري في عهد المأمون.

أما أشهر فلاسفة اليونان فهما أفلاطون، وأرسطو، وأشهر الفلاسفة المنتسبين للإسلام: الكندي، والفارابي، وابن سينا.

وتنقسم الفلسفة باعتبار موضوعاتها إلى ثلاثة أقسام:

أـ الفلسفة الحسية: وهي التي تتصل بالحواس، وموضوعها عالم الطبيعة.

بـ الفلسفة النظرية العقلية: وهي التي تتم بالاستدلال البرهاني، والنظر الاستنباطي وتُسمى بـ: المشائية؛ نسبةً إلى رائدها أرسطو الذي كان يُعلِّم أتباعَه وهو يمشي.

جـ - الفلسفة الإشراقية: وهي التي تُنال بالحدس، والإلهام، وما يفيض على النفوس، وموضوعها: العلوم الإلهية.

- من ضلالات الفلاسفة:

أـ قولهم بقدم العالم.

ب - يقولون بحشر الأرواح دون الأجساد.

ج - يرون الجنة والنار أمثلة مضروبة؛ لضبط العامة.

انظر نقض المنطق، لشيخ الإسلام ابن تيمية، حققه الشيخ محمد ابن عبدالرزاق حمزة والشيخ سليمان الصنيع، وصححه الشيخ محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية، ص٢٤ـ٢٥، وباعث النهضة الإسلامية ابن تيمية السلفي نقده لمسالك المتكلمين والفلاسفة في الإلهيات د. محمد خليل هراس ص٤٩ـ٥٠، المدرسة الفلسفية في الإسلام بين المشائية والإشراقية أ.د. محمد إبراهيم الفيومي ضمن أبحاث ندوة (نحو فلسفة إسلامية معاصرة) ص٧٥ و٨٤ـ٨٥ .

فعلى هذا تكون الباء زائدة.

الوجه الثاني: أنه نبه بقوله: «فضلوا بضلة» على أنهم ضلوا بضلال اكتسبوه، واستحدثوه، لا أنهم ضالون لذاتهم؛ فعلى هذا تكون الباء سببية.

الوجه الثالث: أن المراد فضلوا فقط؛ وإنما أتى بقوله: «بضلة» زيادة يتم بها الشعر.

وهذا أضعف الوجوه؛ لأنه متى أمكن حمل اللفظ على محمل صحيح مفيد تعين، وامتنع أن يترك هملاً[(١)].

وفي هذا البيت يشير شيخ الإسلام رحمه الله إلى ضلال الفلاسفة في تعليل أفعال الله -عز وجل-.

وقبل الدخول في شرح البيت يحسن الوقوف على قول الفلاسفة في القدر عموماً؛ فعامة الفلاسفة يقولون: إنَّ الله فاعل العالم، وصانعه، والمشهور عنهم قولهم إنَّ الله يعلم الأشياء على وجه كلي ثابت لا يدخل تحت الزمان، وإنه لا يعلم الجزئيات التي تُوجب تجدد الإحاطة بها تغيراً في ذات العالم كما قال ذلك ابن سينا[(٢)].

---

(١) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٢٩.

(٢) هو أبو علي الحسين بن عبدالله بن علي بن سينا، الفيلسوف المشهور، المعروف بابن سينا، الملقب بـ: الشيخ الرئيس، كانت حياته غريبة صاخبة مليئة بالمتناقضات؛ فقد كان مكباً على التحصيل والاطلاع، والتصنيف، والتأليف، وكان معايشاً للحياة السياسية في عصره، وكان من أكابر أطباء عصره، وكان ذا لهو وشراب، وطرب، وكان من الأذكياء، وكان والده إسماعيلياً. =

وإثبات العلم له على هذا الوجه يدل على الإيمان بسبق علمه -تعالى- للحوادث، لإحاطة علمه بها.

ومع ذلك أنكروا علم الله -تعالى- بالجزئيات.

وحقيقة قولهم أنه لا يعلم شيئاً؛ فإن كل ما في الخارج هو جزئي[١].

ويكفي في بطلان ذلك قوله -تعالى-: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ الأنعام: ٥٩.

أما بالنسبة للجبر والاختيار فيختلف ذلك من فيلسوف إلى فيلسوف، فهذا أفلاطون[٢] - على سبيل المثال - يرى أنَّ نسبة الشر تكون إلى الجهل وقلة المعرفة، ويرى أن الإنسان لا يختار الشر وهو يعرف، بل يُساق إليه بجهله، أو بعوارض المرض والفساد فيه.

ولكنه لا يُساق بتقدير الآلهة؛ لأنَّ الآلهة - كما يرى - خيرٌ لا يصدر عنها إلا

=ولابن سيناء مؤلفات كثيرة تبلغ العشرات في شتى الفنون منها المجموع، والإنسان، والبر والإثم، والقانون، والشفاء، وغيرها، توفي سنة ٤٢٨. انظر سير أعلام النبلاء ١٧/٥٣١، والمدرسة الفلسفية في الإسلام ص١٠١-١١٠.

(١) انظر الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ابن تيمية، طبع ونشر إدارة ترجمان السنة، لاهور باكستان، ط٢، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م، ونقض المنطق لابن تيمية، ودرء تعارض العقل والنقل ٩/٣٩٧، وكتاب الصفدية ١/٧-٨، وشرح الواسطية للهراس ص٩٤، وباعث النهضة الإسلامية ابن تيمية السلفي ص١٨٣-١٨٧، والقضاء والقدر للمحمود ص٧٤-٧٦.

(٢) أفلاطون بن أرسطن من كبار فلاسفة اليونان من أهل ملطية، كان تلميذاً للفيلسوف طاليس وهو أستاذ أرسطو، له كتاب الجمهورية. انظر الملل والنحل ٢/٦٤.

الخير؛ فالشر موجود في هذا العالم ولكنه ليس من تقدير الآلهة.

أما أرسطو(١) فيرى أنْ لا قدر، ولا تقدير؛ فكلٌّ إنسان حرٌّ فيما يختاره لنفسه؛ فإن لم يستطع أن يفعل فهو - في الأقل - مستطيع أن يمتنع.

وبالجملة فلفلاسفة اليونان غير أفلاطون وأرسطو مذاهب في القدر تتراوح بين مذهب الجبر ومذهب الحرية، وتتوسط بينهما في القول بالاضطرار، أو القول بالاختيار(٢).

هذا هو خلاصة مذهب الفلاسفة في القدر.

أما البيتان السابقان فيبين فيهما شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بطلان قول الفلاسفة في تعليل أفعال الله -عز وجل-.

فهم ينفون تعليل أفعال الله بالأغراض والغايات؛ لأنهم ينفون عن الباري -تعالى- أن يكون مختاراً في أفعاله، ويقولون: هو موجب بالذات؛ فهم يسمون الباري -تعالى- عِلَّةً تامة، وقد صدر عنها معلولها من غير اختيار ولا إرادة كصدور شعاع الشمس عنها.

أما الحوادث الكونية، وما نشاهده من تعدد الآثار من وجود وعدم، وموت

---

(١) أرسطو، أو أرسطو طاليس: من أكابر فلاسفة اليونان ومتأخريهم، وهو المقدم المشهور، والمعلِّم الأول عندهم، ولد سنة ٣٨٤ ق.م، وسُمِّي المعلِّم الأول لأنه واضع التعاليم المنطقية، ومخرجها من القوة إلى الفعل، وقد تتلمذ على أفلاطون نيفاً وعشرين سنة، وإليه تُنسب الفلسفة المشائية؛ لأنه كان يعلِّم أتباعه وهو يمشي وهم يمشون معه، فلُقِّبت فلسفته بالمشائية، وأتباعه بالمشائين. انظر الملل والنحل ١١٩/٢.

(٢) انظر المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، ط: دار الكتاب اللبناني (ب ت) ١٣٥/٧-١٣٦، ومقدمة السايح والجميلي ص١٣-١٤.

وحياة، وعلم وجهل، وصحة ومرض وغير ذلك فهي بواسطة العقل الفعال الذي هو العقل العاشر.

وقالوا: إن واجب الوجود بذاته واحد من جميع جهاته؛ فلا يجوز أن يصدر عنه إلا واحد، وهو العقل الأول الذي هو المعلول الأول للعلة التامة، وهو ممكن الوجود بالنظر إلى ذاته، وواجب الوجود بالنظر إلى الأول، أي واجب الوجود بالذات ـكما مر ذلك في شرح البيت الثالث والثلاثين ـ.

وبهذا يعلم أن الفلاسفة ينسبون مباشرة تدبير العالم إلى العقل الفعال الذي هو العقل العاشر.

كما أنهم ينفون أن يكون واجب الوجود مختاراً.

وبناءً على هذا يستحيل أن يكون فعله لغرض، أو غاية.(١)

ويعلل ابن سينا كونه ـتعالىـ لا يفعل لغاية بقوله: «فما أقبح ما يقال من أن الأمور العالية تحاول أن تفعل شيئاً لما تحتها؛ لأن ذلك أحسن بها، ولتكون فعَّالة للجميل، وأن ذلك من المحاسن، والأمور اللائقة بالأشياء الشريفة، وأن الأول الحق يفعل شيئاً لأجل شيء»(٢).

ويقول ابن سينا في موضع آخر لبيان منع الغرض عن فعل الله: «والعالي لا يكون طالباً أمراً لأجل السافل حتى يكون ذلك جارياً منه مجرى الغرض؛ فإن ما

---

(١) انظر الملل والنحل ١٢٤/٢، والحكمة والتعليل في أفعال الله ص٥٩ـ٦٠.

(٢) الإشارات والتنبيهات، لابن سينا، تعليق الأستاذ سليمان دنيا، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٦٦هـ، ١٥٠/٣، وانظر الحكمة والتعليل ص٦٠.

هو غرض قد يتميز عند الاختيار من نقيضه، ويكون عند المختار أنه أولى وأوجب حتى إنه لو صح أن يقال فيه: إنه أولى في نفسه وأحسن، ثم لم يكن عند الفاعل أنَّ طلبه وإرادته أولى به وأحسن لم يكن غرضاً.

فإذاً الجواد والملك لا غرض له، والعالي لا غرض له في السافل»[(١)].

ومما تقدم يتضح أن الفلاسفة ينفون أن يكون للباري -تعالى- غاية وغرض في أفعاله؛ لأنه -تعالى- كامل بذاته، ومن يفعل لغاية فهو غير كامل بذاته، بل يكون مستكملاً بوجود تلك الغاية.

كما أن الفلاسفة ينفون أن يكون -تعالى- مختاراً في أفعاله، بل هو فاعل بالذات، أي تصدر عنه أفعاله على سبيل الإيجاب -كما مر تقرير ذلك في شرح البيت الثالث والثلاثين-.

ولا يخفى وجه الفساد في هذا؛ فقد أجمع المسلمون على أن الله -تعالى- يفعل بالاختيار والإرادة، وأن ذلك من كماله -تعالى-.[(٢)]

هذا وقد مر تقرير ذلك فيما مضى من شرح كثير من الأبيات.

ولما كان هذا شأن الفلاسفة حاروا، وتحيروا، واختلفوا...

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي ﷺ في شرح البيتين السابقين: «يعني أن ملاحدة الفلاسفة -المعطلين لله ولكتبه، ورسله، المكذبين لهم- أوقعتهم عقولهم الفاسدة في الهلاك، حيث حكّموها في البحث عن علة إيجاد هذا الكون؛ فلم

(١) الإشارات والتنبيهات ٣/١٥٤-١٥٥، وانظر الحكمة والتعليل ص٦١.

(٢) مجموع الفتاوى ٨/٣٧٧، وانظر الحكمة والتعليل في أفعال الله ص٦١.

تهتدِ لذلك؛ لقصورها وتقصيرها.

فزعم كثير منهم أن هذا العالم قديم، وأنه لم يزل ولا يزال.

وبذلك أنكروا وجود الرب العظيم، ومن باب أولى أنكروا رسله وكتبه، وتضاربت نظرياتهم الفاسدة؛ فضلوا، وأضلوا.

ولقد صدق عليهم قوله -تعالى-: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون﴾ (غافر: ٨٣).

ثم إن هؤلاء الفلاسفة الملاحدة - في هذه الأوقات - أبطلوا نظرية أسلافهم، وأحدثوا لهم نظريات متعددة متضاربة، مبنية على الخرص، والجهل المركب، ولم يزالوا في اضطراب.

وهذه حالة كل من ترك الحق، واستكبر عنه، وتاه بعقله.

قال -تعالى-: ﴿بَلْ كَذَّبوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ ق: ٥ »[١].

---

(١) الدرة البهية ص١٧٢-١٧٣.

شرح البيتين [٤١ـ٤٢]

٤١ـ وإن مبادي الشر في كل أمة ذوي ملة ميمونة نبويةِ[١]

٤٢ـ بخوضهموا في ذاكُمُ صار وجاء دروس البينات بفترةِ[٢]

قوله: «مبادي»: المبادي: جمع مبدا، وهو أول كل شيء، كالواحد مبدأ العدد. وأصل جمعه الهمز (مبادئ) ولكنه قد يترك تخفيفاً[٣].

وأصلها أن يقال: وإن مباديَ بالنصب، لكنْ سُكِّنَت الياء للضرورة.

وقوله: «الشر»: الشر: ضد الخير، وهو المكروه الذي يُرغبُ عنه كما أن الخير هو الذي يُرغب فيه.

وقوله: «أمة»: الأمة: تستعمل في اللغة على عدة وجوه:

أحدها: الجماعة من الناس، وهذا هو المقصود في البيت الماضي، ومنه قوله ـتعالىـ: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ القصص: ٢٣.

الثاني: الشرعة، والدين، والطريقة، ومنه قوله ـتعالىـ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ الزخرف: ٢٢.

الثالث: المدة الزمنية، ومنه قوله ـتعالىـ: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ يوسف: ٤٥.

---

(١) في أ: أمة، وفي ج:

فإن مبادي الشر في كل فرقة ذوي ملة مخذولة ثنوية

وفي هـ: ...... دوى من رضوخ لاتباع لشبهةِ

(٢) في الدرة البهية: وجاء رؤوس البينات بقترة.

وكذا في ج، و د.

(٣) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٣٠.

الرابع: الرجل الإمام الذي يكون فريد عصره، ونسيج وحده، ومنه قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ النحل: ١٢٠.

الخامس: القرن من الناس، يقال: قد مضت أمم: أي قرون.

السادس: الجيل، والجنس من كل حي، ومنه قوله -تعالى-: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ الأنعام: ٣٨.

السابع: القامة، ومنه قول الأعشى:

وإن معاويـــــة الأكرميـــــن بـيـض الوجـوه طـوال الأُمـم

أي طوال القامات.

الثامن: بمعنى الأم، ومن ذلك قول الشاعر:

تَقَبَّلْتها عــن أُمــة لــك طالمــا تنــزع بالأســواق عنهــا خمارهــا

يريد عن أم لك، فألحقها هاءً، ومنه قول قصي:

عِنْـــدَ تنـــاديهم بهـــالٍ وَهَـــبي أمَّهـــتي خِنـــدفٌ وإليـــاس أبـــي[1]

قوله: «**ملة**»: قال الراغب: «الملة كالدين، وهو اسم لما شرع الله -تعالى- لعباده على لسان الأنبياء؛ ليتوصَّلوا به إلى جوار الله»[2].

قوله: «**ميمونة**»: أي مباركة من اليُمن: وهو البركة[3].

قوله: «**نبوية**»: أي منسوبة إلى الأنبياء، والنبي إما من النَّبْوة، وهو الارتفاع

(١) انظر لسان العرب ١٢/٢٢-٣٤، وشرح جواب ابن تيمية ص٣٠.

(٢) المفردات ص٤٩٢.

(٣) انظر لسان العرب ١٣/٤٥٨.

كأنه مفضل على سائر الناس برفع منزلته، أو الطريق فالنبي: الطريق؛ فكأنه هو الطريق الموصل إلى رضوان الله -عز وجل- أو من النبأ وهو الخبر الذي له خطب وشأن[١].

وقوله: «دروس»: من قولك: درس الشيء إذا انمحى، وعفا، وزال أثره.

قال ابن فارس رحمه الله: «الدال، والراء، والسين أصل واحد يدل على خفاء، وخفض، وعفاء؛ فالدَّرْس: الطريق الخفي، يقال: درس المنزل: عفا»[٢].

وقوله: «الفترة»: الفترة -كما يقول الراغب-: «سكون بعد حدة، ولين بعد شدة، وضعف بعد قوة، قال -تعالى-: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ المائدة: ١٩.

أي سكون حالٍ عن مجيء رسول الله»[٣].

وتطلق الفترة على المدة التي بين نبيين، وتطلق على المدة التي شاع فيها الجهل، واضمحلت فيها آثار الرسالة[٤].

ومعنى البيتين: أن ما تقدم من أن أصل الشر، وأوائله في كل أمة من الأمم السابقة المنتسبة إلى الأنبياء كاليهود والنصارى - إنما كان بسبب تعنتهم، وخوضهم بالباطل، وكثرة اختلافهم على أنبيائهم، وسؤالهم عما لا طائل تحته، ولا عمل وراءه.

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة ٥/٣٨٤-٣٨٥، وشرح جواب ابن تيمية ص٣٠.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٢/٢٦٧.

(٣) المفردات ص٣٨٦.

(٤) انظر لسان العرب ٥/٤٤.

ومن أعظم ذلك خوضهم في أفعال الرب ـ جل وعلا ـ بالتعليل؛ فانحرفوا بذلك عن أديان الأنبياء، واتبعوا كل شيطان مريد، خصوصاً إذا وافق ذلك أزمنة تشبه الجاهلية من جهة انقطاع أنوار الرسالة، وانمحاء آثارها؛ فأفضى بهم ذلك إلى الشرك؛ لاتباعهم الأهواء، وقلة من يرشدهم إلى الصواب؛ فكل من أعرض عن الهدى ابتلي بالهوى، ووقع في الردى.

وكل من ترك الأمور النافعة وقع في الأمور الضارة، وكل من زهد بالحق وقع في الباطل، وهذا مطرد في كل زمان، ومكان، وأمة[1].

---

(١) انظر الدرة البهية ص١٧٣.

شرح البيت الثالث والأربعين

٤٣- ويكفيك نقضاً أن ما قد سألتَهُ ... من العذر[١] مردودٌ لدى كل فطرةِ

قوله: «**نقضاً**»: النقض إبداء العلة بدون المعلول.

و «**العذر**»: دَفْعُ العاقلِ اللائمةَ عن نفسه بأمرٍ ما.

و «**الفِطْرة**»: الخلقة، والمراد بها ههنا البديهة، وهي قوة يُدرك بها التصور، أو التصديق من غير نظر وكسب.

والبديهي يكفي في الجزم به مجرد تصور طرفيه، كاكتفائنا في الجزم بأن الكل أعظم من الجزء بتصور الكل، والجزء فقط[٢].

ومعنى البيت: أنه يكفي نقضاً لمذهبك - أيها السائل - أن ما قد اعترضت به من الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي - مردود باطل، وأن بطلانه مستقر في فطرة كل عاقل، وأنه يُدْرَكُ في البديهة دون نظر أو تأمل.

وههنا شروع في تسفيه رأي السائل، وتسخيف عقّله، وتبيين وجوه المطاعن عليه، ومن أين دُهي هو ومن قال بمقالته.

---

(١) في ج: من الهذر.

(٢) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٣١، والكليات للكفوي ص٢٤٨ و ٥٧٦.

شرح البيت الرابع والأربعين

٤٤ـ فأنت تعيب الطاعنين[١] جميعهم عليك وترميهم بكل مذمة

قوله: «**تعيب**»: أي تقع في الناس، وتقدح فيهم[٢].

وقوله: «**الطاعنين**»: أصل المادة طعن، قال ابن فارس رحمه الله: «الطاء والعين أصل صحيح مطرد، وهو النّخْس في الشيء بما يُنْفِذُه، ثم يحمل عليه ويستعار.

ومن ذلك: الطعن بالرمح، ويقال: تطاعن القوم، وأطعنوا، وهم مطاعين في الحرب، ورجل طعان في أعراض الناس»[٣].

فقوله: «**تعيب الطاعنين**»: أي تضيف إليهم العيب، والنقص.

والطاعنون في الشخص: العائبون له، والقادحون فيه[٤].

وقوله: «**مذمة**»: من الذم، وهو نقيض المدح، وهو اللوم في الإساءة[٥].

ومعنى البيت: أن مما يُرَدُّ به عليك أيها السائل، وينقض مذهبك أنك لا تعذر الذي يذمك ويظلمك، ويعيبك.

بل إنك تقابله بما يقابلك به من الذم، والظلم، والعيب حسب قدرتك؛ فكيف تعذر نفسك إذا عصيت، وتحتج بالقدر، ولا تعذر مَنْ ذَمَّك وظلمك، وعابك مع أن هذه الأمور واقعة بقدر الله؟

---

(١) في هـ: الطائعين.

(٢) انظر معجم مقاييس اللغة ١٨٩/٤.

(٣) المرجع السابق ٤١٢/٣.

(٤) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٣١.

(٥) انظر لسان العرب ٢٢٠/١٢.

شرح البيت الخامس والأربعين

٤٥ـ وتَنْحل من والاك صَفْوَ مودةٍ وتبغض من ناواك[١] من كل فرقة

قوله: «**تنحل**»: قال الطوفي رحمه الله: «مأخوذ من النِّحلة، وهي العطية بغير عوض، كالهبة»[٢].

وقال الراغب الأصفهاني رحمه الله: «والنِّحلة: عطية على سبيل التبرع، وهو أخص من الهبة؛ إذ كل هبة نحلة، وليس كل نحلة هبة»[٣].

قال: «واشتقاقه -فيما أرى- من النَّحل؛ نظراً منه إلى فعله؛ فكأن: نَحَلْتُه: أعطيته عطية النَّحل، وذلك ما نبه عليه قوله: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾.

وبين الحكماء أن النحل يقع على الأشياء كلها فلا يضرها بوجهٍ، وينفع أعظم نفع؛ فإنه يعطي ما فيه الشفاء ـ كما وصفه الله تعالى ـ»[٤].

قوله: «**والاك**» أي نصرك وأحبك.

وقوله: «**ناواك**»: أي عاداك[٥].

وفي هذا البيت إلزام آخر، وهو أنك أيها المحتج بالقدر على المعاصي تعطي خالص المودة لمن نصرك وأحبك، وتمنح الشنآن كل من ناصبك العداء مع أن هذه الأمور كلها واقعة بالقدر.

---

(١) في الدرة البهية: (من ناداك)، وفي ب و ج: (عاداك).

(٢) شرح جواب ابن تيمية ص٣١.

(٣) المفردات ص٥٠٧.

(٤) المرجع السابق ص٥٠٧.

(٥) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٣١.

شرح البيت السادس والأربعين

٤٦ـ وحالهم في كل قول وفعلة ... كحالك ـيا هذاـ بأرجح حجة

أي أن حال أولئك فيما يقولون ويفعلون كحالك أيها السائل سواء بسواء، وذلك من جهة أنهم إنما يقومون بما يقومون به بقدر الله ـعز وجلـ.

فهل تعذرهم، وتعاملهم معاملة واحدة بحجة أن ذلك مقضي عليهم؟ أو تُراك تعاملهم بحسب ما يصدر منهم من خير أو شر، أو كونه ملائماً لك، أو غيرَ ملائم؟

وهكذا يتضح أن المحتج بالقدر على المعاصي، مخالف للشرع، والعقل، والفطرة، وأنه مكابر، معاند، مستهزىء[1].

ثم أعاد شيخ الإسلام رحمه الله هذه المعاني بذكر أمثلة توضح المقام؛ لكونه من أهم المهمات، فقال:

---

(١) انظر الدرة البهية ص١٧٤.

شرح الأبيات [٤٧ـ ٦٤]

٤٧ـ وهَبْك كففتَ اللومَ عن كل كافرٍ وكلِّ غويٍّ خارجٍ عن محجة

٤٨ـ فيلزمك الإعراضُ عن كل ظالمٍ على[1] الناس في[2] نفس ومالٍ وحرمة

٤٩ـ فلا تَغْضَبَنْ[3] يوماً على سافكٍ ولا سارقٍ مالاً لصاحب فاقة

٥٠ـ ولا شاتمٍ عِرْضاً مصوناً وإن علا ولا ناكح فرجاً على وجه غية[4]

٥١ـ ولا قاطع للناس نهجَ سبيلِهم ولا مفسد في الأرض من كل وجهة

٥٢ـ ولا شاهدٍ بالزور إفكاً وفريةً ولا قاذف للمحصنات بزنية[5]

٥٣ـ ولا مهلك للحرث والنسل عامداً ولا حاكمٍ للعالمين برشوةِ

٥٤ـ وكُفَّ لسان اللوم عن كل مفسدٍ ولا تأخذنْ ذا جرمةٍ[6] بعقوبةِ

٥٥ـ وسهِّل سبيل الكاذبين تعَمُّداً على ربهم مِنْ كلِّ جاءٍ[7] بفريةِ

٥٦ـ وإن قصدوا إضلال من يستجيبهم[8] بروم فسادِ النوع ثم الرياسةِ

---

(١) في و: من.

(٢) في ج و و: من.

(٣) في مجموع الفتاوى وعقود و و: ولا تغضبن.

(٤) في ج: متعة، وفي و: زنيةِ.

(٥) في عقود و و: بريبة.

(٦) في ط و أ و ب و هـ: (خربة)، وفي ج: (خزية).

(٧) في ج: من كل من جا بفرية.

(٨) في ج: تستحبهم.

٥٧- وجادل عن الملعونِ فرعونَ إذ فأُغْرِق[١] في اليم انتقاماً بغضبةِ[٢]

٥٨- وكلِّ كفورٍ مشركٍ بإلهه وآخرَ طاغٍ كافرٍ بنبوةِ

٥٩- كعادٍ ونمروذ[٣] وقومٍ لصالح وقوم لنوح ثم أصحاب الآيكةِ

٦٠- وخاصم لموسى ثم سائر من أتى من الأنبياء محيياً للشريعة[٤]

٦١- على كونهم قد جاهدوا الناس[٥] ونالوا من العاصي[٦] بليغ[٧] العقوبة

٦٢- وإلا فكلُّ الخلقِ في كلِّ لفظةٍ ولحظةِ عينٍ أو تحرك شعرةِ[٨]

٦٣- وبطشة كفٍّ أو تخطي قُديمةٍ وكلِّ حراكٍ بل وكل[٩] سكينةِ

٦٤- هم تحت أقدار الإلهِ وحكمهِ فما أنت[١٠] فيما قد أتيت بحجةِ

قوله: «هبك»: أي احْسِبْ وقدِّر[١١].

وقوله: «اللوم»: اللوم: هو عذل الإنسان بنسبته إلى ما فيه لوم، يقال: لمته

---

(١) في أ: (فغرِّق)، وفي ب و ج، و هـ: (فأهلك).

(٢) في الدرة البهية: (بغُصَّة)، وفي العقود: (بعصية).

(٣) في ط: نمرود.

(٤) في أ: من الأنبيا أو محيياً للشريعة.

(٥) في أ: على كونهم إذ جاهدوا الناس أن بغوا.

(٦) في مجموع الفتاوى: من المعاصي.

(٧) في عقود: بلوغ.

(٨) في هـ: والا فكل الخلق في لفظة ولحظ عين وتحريكٍ لشعرة

(٩) في عقود: بل بكل.

(١٠) في ط وعقود و أ و ج، و هـ: كما.

(١١) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٣٢.

فهو ملوم، وفي التنزيل: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

وفيه: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾.

والتلاوم: أن يلوم بعضهم بعضاً، ويقال: رجل لُوَمَة: يلومُ الناس، ولُوْمة: يلومه الناس نحو سُخَرَه وسُخْرَه.

واللومة: الملامة، واللائمة: الأمر الذي يلام عليه الإنسان[1].

قوله: «**غوي**» من الغي، وهو ضد الرشد، والغي: جهل عن اعتقاد فاسد[2].

قال ابن فارس رحمه الله في مادة «غوى»: «الغين والواو والحرف المعتل بعدهما: أصلان: أحدهما يدل على خلاف الرشد، وإظلام الأمر، والآخر على فساد في شيء.

فالأول: الغي وهو خلاف الرشد، والجهل في الأمر، والانهماك في الباطل، يقال غوَى يغوي غيًّا قال:

فمن يلقَ خيراً يَحْمَدِ الناسُ أمره ... ومن يغوِ لا يعدم على الغي لائما

وذلك عندنا مشتق من الغياية وهي الغُبْرة والظلمة تغشيان، كأن ذا الغي قد غشيه ما لا يرى معه سبيلَ حقٍّ»[3].

وقوله: «**محجة**»: المحجة جادة الطريق مفعلة من الحج وهو القصد، والميم زائدة، وجمعها المحاجّ.[4]

---

(١) انظر المفردات ص٤٧٦.

(٢) المرجع السابق ص٣٨٥.

(٣) معجم مقاييس اللغة ٣٩٩/٤.

(٤) انظر لسان العرب ٣٦٤/٢.

وقوله: «**ظالماً**»: اسم فاعل من الظلم، وهو وضع الشيء في غير موضعه.[(١)]

وقوله: «**مال**» أصل هذه المادة «مول» قال ابن فارس رحمه الله: «الميم والواو واللام كلمة واحدة هي الرجل: اتخذ مالاً، ومال يَمَالُ: كثر مالُه»[(٢)].

والمال: ما مَلَكْتَهُ من جميع الأشياء.

وسمي مالاً ـكما يقول الراغبـ لكونه مائلاً أبداً، وزائلاً، ولذلك سمي عَرَضاً[(٣)].

أو لميله في الأيدي للتكسب به من يد إلى يد، ومن جهة إلى جهة[(٤)].

وقوله: «**حرمة**»: من الحرام، وهو الممنوع منه إما بتسخير إلهي، وإما بمنع قهري، وإما بمنع من جهة العقل، أو من جهة الشرع، أو من جهة من يُرتسم أمره[(٥)].

والحرمة ما لا يحل انتهاكه[(٦)].

وقوله «**فاقة**»: «الفاقة: الفقر والحاجة»[(٧)].

وقوله «**عِرضاً**»: العِرْض بكسر العين وسكون الراء: موضع القدح من الإنسان.

---

(١) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٣٢.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٢٨٥/٥.

(٣) المفردات ص٤٩٩، وانظر لسان العرب ٦٣٥/١١.

(٤) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٣٢.

(٥) انظر المفردات ص١٢٠.

(٦) انظر لسان العرب ١٢٢/١٢.

(٧) لسان العرب ٣١٨/١٠.

وعِرض الرجل: حَسَبُه، وقيل: نفسه، وقيل: خليقته المحمودة، وقيل: ما يمدح به ويذم، وقيل: جانبه الذي يصونه من نفسه، ويحامي عنه أن ينتقص ويثلب[١].

قوله: «**مصوناً**» من الصَّوْن، وهو الحفظ، والوقاية[٢].

قوله: «**غيَّة**»: أي زَنْية، يقال: «هو لِغَيَّة: أي لزنية، وهو نقيض لِرَشْدَة»[٣].

ومنه قول الشاعر:

ألا رب من يغتابني وكأنني أبوه الذي يدعى إليه وينسب

على رَشْدة من أمره أو لِغَيَّةٍ فيغلبها فحلٌ على النسل منجبُ[٤]

وقوله: «**نهج**»: «النهج الطريق الواضح»[٥].

وقوله: «**الزُّور**»: قال ابن فارس رحمه الله في مادة (زور): «الزاء والواو والراء أصل واحد يدل على الميل والعدول.

من ذلك: الزُّور: الكذب؛ لأنه مائل عن طريق الحق، ويقال: زوّر فلان

(١) انظر لسان العرب ٧/١٧٠ـ١٧١.

(٢) انظر لسان العرب ١٣/٢٥٠.

(٣) المرجع السابق ١٥/١٤٢.

(٤) المرجع السابق ١٥/١٤٤.

(٥) المفردات ص٥٢٩.

الشيء تزويراً»[1].

وقوله: «**إفكاً**»: قال الراغب رحمه الله: «الإفك كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه»[2].

وقال ابن فارس رحمه الله في مادة «أفك»: «الهمزة والفاء والكاف أصل واحد يدل على قلب الشيء وصرفه عن جهته، يُقال: أُفِك الشيء، وأَفَك الرجل إذا كذب، والإفك: الكذب، وأفكت الرجل عن الشيء: إذا صرفته عنه.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾.

وقال الشاعر:

إن تك عن أفضل الخليقة مأ فوكاً ففي آخرين قد أفكوا

والمؤتفكات: الرياح التي تختلف مهابُّها»[3].

قوله: «**وفرية**»: قال ابن منظور رحمه الله: «الفرية: الكذب، فرى كذباً فرياً وافتراه: اختلقه، ورجل فريٌّ، ومِفرىً، وإنه لقبيح الفِرية»[4].

قوله: «**زنية**»: «الزنا وطء المرأة من غير عقد شرعي»[5].

قوله: «**عامداً**»: احترازاً من فعل ذلك خطأً.

قوله: «**رشوة**»: الرشوة: المحاباة، والوصلة إلى الحاجة بالمصانعة.

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٣/٣٦.

(٢) المفردات ص٢٤.

(٣) معجم مقاييس اللغة ١/١١٨.

(٤) لسان العرب ١٥/١٥٤.

(٥) المفردات ص٢٢٢.

وأصله من الرِّشاء الذي يتوصل به إلى الماء.[١]

والرشوة في الشرع: «أخذ مال على الحكم بغير حق»[٢].

«وهو حرام على آخذه، والباذل له إلا إذا توصل به إلى استيفاء حقه، ولم يمكنه ذلك بدونه»[٣].

«فالراشي: من يعطي الذي يعينه على الباطل، والمرتشي الآخذ، والرائش الذي يسعى بينهما يستزيد لهذا، ويستنقص لهذا.

فأما من يعطي؛ توصلاً إلى أخذ حق، أو دفع ظلم فغير داخل فيه»[٤].

وقوله: «**جاءٍ**»: اسم فاعل من جاء يجيء، كشاءٍ مِنْ شاء.[٥]

وقوله: «**يستجيبهم بروم**»: أي يجيبهم، ويتابعهم بطلبهم الفساد، والإضلال.

قوله «**طاغٍ**»: اسم فاعل من الطغيان، وهو مجاوزة الحد في العصيان.[٦]

قال -تعالى-: ﴿ إِنَّهُ طَغَى ﴾، وقال -عز وجل-: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى ﴾.

قوله «**عاد**»: هم قوم هود -عليه السلام-.

قال الله -عز وجل-: ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً ﴾ (الأعراف: ٦٥).

وقوله «**نمرود**»: هو نمرود بن كنعان صاحب إبراهيم -عليه السلام- الذي حاجه في ربه[٧].

---

(١) انظر لسان العرب ١٤/٣٢٢.

(٢) شرح جواب ابن تيمية ص٣٥.

(٣) شرح جواب ابن تيمية ص٣٥.

(٤) لسان العرب ١٥/٣٢٢.

(٥) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٣٥.

(٦) انظر المفردات ص٣١٦.

(٧) انظر الدر المنثور للسيوطي ١/٥٨٥.

وقوله «**أصحاب الآيكة**»: هم قوم شعيب ـعليه السلام ـ.

أصلها «الأَيكة» ونقل حركة الهمزة ـالفتحـ إلى اللام الساكنة قبلها؛ للضرورة الشعرية.

وسموا أصحاب الأيكة؛ لأنهم أهل شجر وغرس؛ فالأيكة ـ إذاً ـ اسم جنس لا اسم شخص[١].

قوله: «**وخاصم لموسى**»: أي خاصم موسى، واللام زائدة للضرورة.

قوله: «**وإلا**»: أي لم تفعل ما قلناه من الإنكار على كل من ذكرناه، وتمهيد عذر مَنْ ذُكِر من العصاة.

قوله: «**فكل الخلق**»: «أي أن كل الخلق في كل زمان ومكان، ولفظة، ولحظة عين، وتحرك شعرة، وبطشة كف، وتخطي قدم، وفي كل حركة وسكون ـ هم تحت قدر الإله يجري عليهم حكمه بحيث لا يسعهم الاعتراض عليه.

وأنت ـأيضاًـ في احتجاجك وسؤالك الذي ذكرته مقدور عليك ذلك؛ إما لهدايتك إن اتبعت ما نقول، وإما لشقوتك إن استمريت على الشغب والعناد»[٢].

قوله: «**لفظة**»: اللفظ يدل على طرح الشيء، وغالب ذلك أن يكون من الفم.

تقول: لفظ بالكلام يلفظ لفظاً، ولفظت الشيء من فمي.[٣]

قوله: «**قُدَيمة**»: تصغير قدم.

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله في شرح هذه الأبيات:

---

(١) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٣٦.

(٢) المرجع السابق ص٣٦.

(٣) انظر معجم مقاييس اللغة ٥/٢٥٩.

«هذه الإلزامات التي ذكرها الشيخ -يعني شيخ الإسلام- في غاية الوضوح، يبطل كل واحد منها اعتذار المعتذرين بالأقدار.

ومثَّل بأمثلة كثيرة يعرفها كلٌّ أحد؛ لأن كثرة الأمثلة توضح المعاني، وتصور المقالات القبيحة بأشنع صورة، ولأنه لو فرض أنه تأول من أُلزِم بها بعض هذه الأمثلة باحتمالات ضعيفة - لم يكن له سبيل إلى بقيتها.

فالشيخ يقول لهؤلاء المعارضين المعترضين بأقدار الله على المعاصي: يلزمكم أن تعرضوا عن كل ظالم للناس في دمائهم، وأعراضهم، وأموالهم؛ فلا تغضبوا على من سفك الدماء، وأخذ الأموال بالغصب والسرقة، ولا من شتم الأعراض، ولا على الزناة وقطاع الطريق والمفسدين في الأرض، ولا قاذفٍ أو شاهدٍ بالزور، ولا مَنْ سعى في الأرض؛ ليهلك الحرث والنسل، ولا على من حكم بالرشوة، وجار في حكمه.

بل يجب عندهم كف اللسان عن كل مفسد معتد على الخلق، بل عليك أن تسهل سبيل الكاذبين على ربهم، وتعتذر عنهم وإن سعوا في إضلال الناس.

بل وجادل عن أئمة الكفر كفرعون، وقارون، وهامان، وكل مشرك وكافر كعاد، وثمود، ونمرود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة وما أشبههم من الكفار المعاندين.

بل على قول هؤلاء -يعني المحتجين بالقدر- عليك أن تخاصم جميع الرسل والأنبياء؛ حيث جاهدوا الناس على الإيمان، وعاقبوا أهل الجرائم؛ لأن الخلق كلهم في جميع حركاتهم وسكناتهم ولفظاتهم ولحظاتهم تحت أقدار الله.

وهذا القول الفظيع الذي يفضي إلى هذه المكابرات، والمجاهرة بتكذيب الله

ورسله وكتبه ـ حسبُ الناظرِ لهذا القول أن يتصور هذه اللوازم التي هي غاية المشاقة لله ولرسله، وفيها فساد الدين، والدنيا، والآخرة ». [١]

(١) الدرة البهية ص١٧٥ـ١٧٦.

شرح الأبيات [٦٥ - ٦٩]

٦٥ـ وَهَبْكَ رفعت اللومَ عن كل فاعلٍ فعالَ[1] ردىً طرداً[2] لهذي المقيسةِ

٦٦ـ فهل يُمْكِنَنْ[3] رفعُ الملامِ جميعِهِ عن الناس طُرًّا عند كلِّ قبيحةِ

٦٧ـ وتركُ عقوبات الذين قد اعتدوا وتركُ الورى الإنصافَ بين الرعيةِ

٦٨ـ فلا تُضمنَنْ[4] نفسٌ ومالٌ بمثلِهِ ولا يعقبن[5] عادٍ بمثل الجريمةِ

٦٩ـ وهل في عقول الناس أو في طباعهم قبولٌ لقول النذل: ما وجه حيلتي

قوله: «**ردى**»: أي هلاك، وقوله: «**طرداً**»: أي متابعة.

وقوله: «**المقيسة**»: صفة لموصوف محذوف تقديره: النكتة، أو المسألة، أو الشبهة المقيسة.

وأصل مقيسة: مقيوسة، مفعولة من قاس يقيس، وقاس يقوس.

والمراد بالمقيسة ههنا: القياس، والطرد والعكس، وهو عبارة عن وجود شيء لوجود آخر، وانتفائه لانتفائه.

وقوله: «**النذل**»: أي الخسيس[6].

بعد أن ذكر شيخ الإسلام رحمه الله جملة من الإلزامات التي لا محيد عنها انتقل

---

(١) في ط: بغاك.

(٢) في هـ: طراً.

(٣) في مجموع الفتاوى: (يمكن)، وفي عقود: (تمكنن)، وج: (ممكناً).

(٤) في ب و ج و هـ: (فلا يضمنن)، وفي ط: (ولا يضمنن).

(٥) في عقود و ب: تعقبن.

(٦) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٣٨-٣٩.

إلى إلزامات أخرى، تدعم ما مضى، وتدحض حجة من احتج بالقدر على فعل المعاصي.

فيقول رحمه الله على سبيل التنزل: لو فُرض، وقُدر أنك -أيها السائل المعترض المحتج بالقدر على فعل المعاصي- عذرت كل ذي فعل قبيح بحجة أن ذلك بقدر الله - فهل يمكنك أن تطرد هذا الأمر في جميع الشؤون والأحوال؟

وأنْ تَعْذُرَ جميع الناس إذا أساؤوا في حق الله، أو في حقوق العباد؟

هل يمكنك أن تقول بترك عقوبات المعتدين، وترك العدل بين الرعايا، وتعطيل الحدود، وإلقاء الحبل على الغارب للمجرمين يعيثون في الأرض فساداً؛ فلا يضمن القاتل نفساً، ولا الغاصب مالاً بحجة أن ذلك واقع بقدر الله؟!

وهل يقبل هذا في العقول والفطر؟ أو أنها متظاهرة متفقة على بطلانه وزيفه؟!

وهل هذا القول إلا تلاعب، وتهكم صادر عن هوى محض؟!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وليس لأحد أن يحتج بالقدر على الذنب باتفاق المسلمين، وسائر أهل الملل، وسائر العقلاء؛ فإن هذا لو كان مقبولاً لأمكن كل أحد أن يفعل ما يخطر له من قتل النفوس، وأخذ الأموال، وسائر أنواع الفساد في الأرض، ويحتج بالقدر.

ونفس المحتج بالقدر إذا اعتدي عليه، واحتج المعتدي بالقدر لم يقبل منه، بل يتناقض، وتناقضُ القولِ يدل على فساده؛ فالاحتجاج بالقدر معلوم الفساد في بداية العقول»[1].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٧٩/٨.

وبما أن هذا الأمر مما يعمّ به البلاء فهذا إيراد لبعض الأدلة الشرعية والعقلية، والواقعية التي يتضح من خلالها بطلان الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي أو ترك الطاعات[1].

١ـ قال الله ـتعالى ـ: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ الأنعام: ١٤٨، فهؤلاء المشركون احتجوا بالقدر على شركهم، ولو كان احتجاجهم مقبولاً صحيحاً ما أذاقهم الله بأسه[2].

ولهذا قال الله لهم: ﴿هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أي هل عندكم دليل صحيح، فتخرجوه لنا؛ لننظر فيه، ونتدبره.

والمقصود من هذا التبكيت لهم؛ لأنه قد عَلِم أنه لا عِلْم عندهم يصلح للحجة، ويقوم به البرهان، ثم أوضح لهم أنهم ليسوا على شيء من العلم، وأنهم إنما يتبعون الظنون، التي هي محل الخطأ، ومكان الجهل[3].

---

(١) انظر منهاج السنة النبوية، ٣/٦٥ـ٧٨، وانظر مجموع الفتاوى ٨/٢٦٢ـ٢٦٨، وإيقاظ الفكرة لمراجعة الفطرة للصنعاني ص٣٠٦، ورسائل في العقيدة ٣٨ـ٣٩، وانظر لمعة الاعتقاد بشرح الشيخ محمد ابن عثيمين ٩٣ـ٩٥.

(٢) انظر كلاماً جميلاً حول هذا المعنى في: اللباب في علوم الكتاب، للإمام المفسر أبي حفص عمر ابن علي بن عادل الحنبلي، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبدالموجود وزملائه، توزيع مكتبة عباس أحمد الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٨/٤٩٦ـ٤٩٨.

(٣) انظر فتح القدير للشوكاني ٢/٢١٦.

٢ـ قال ـتعالى ـ: ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ النساء: ١٦٥.

فلو كان الاحتجاج بالقدر على المعاصي سائغاً لما كان هناك داعٍ لإرسال الرسل؛ فلم يبق للخلق على الله حجة بعد إرساله الرسل تترى يبينون للناس أمر دينهم، ومراضي ربهم[١].

٣ـ أن الله أمر العبد ونهاه، ولم يكلِّفه إلا ما يستطيع، قال ـتعالى ـ: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ التغابن: ١٦، وقال: ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ البقرة: ٢٨٦.

ولو كان العبد مجبراً على الفعل لكان مكلَّفاً بما لا يستطيع الخلاص منه، وهذا باطل، ولذلك إذا وقعت منه المعصية بجهل، أو نسيان، أو إكراه ـ فلا إثم عليه لأنه معذور.

٤ـ أن القدر سرٌّ مكتوم، لا يعلمه أحد من الخلق إلا بعد وقوعه، وإرادة العبد لما يفعله سابقة لفعله، فتكون إرادته للفعل غير مبنية على علمٍ بقدر الله، فادعاؤه أن الله قدَّر عليه كذا وكذا ادِّعاءٌ باطل؛ لأنه ادعاءٌ لعلم الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله، فحجَّته إذاً داحضة؛ إذ لا حجة للمرء فيما لا يعلمه.

٥ـ أننا لو سلَّمنا للمحتج بالقدر على الذنوب لعطَّلنا الشرائع.

٦ـ لو كان الاحتجاج بالقدر ـعلى هذا النحوـ حجة لقُبل من إبليس الذي قال: ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الأعراف: ١٦.

---

(١) انظر تفسير السعدي ٢/٢١٨.

٧ـ ولو كان حجة هؤلاء مقبولة ـأيضاًـ لتساوى فرعون عدو الله، مع موسى كليم الله ـعليه السلامـ.

٨ـ الاحتجاج بالقدر على الذنوب والمعائب تصحيح لمذهب الكفار، وهذا لازم لهذا المحتج، لا ينفكّ عنه.

٩ـ ولو كان حجة لاحتجَّ به أهل النار، إذا عاينوها، وظنوا أنهم مواقعوها، كذلك إذا دخلوها، وبدأ توبيخهم وتقريعهم، هل يحتجون بالقدر على معاصيهم وكفرهم؟

الجواب: لا؛ بل إنهم يقولون كما قال ـعز وجلـ عنهم: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعْ الرُّسُلَ﴾ إبراهيم: ٤٤، ويقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ المؤمنون: ١٠٦، وقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ الملك: ١٠، وقالوا: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ المدثر: ٤٣، إلى غير ذلك مما يقولون.

ولو كان الاحتجاج بالقدر على المعاصي سائغاً لاحتجوا به؛ فهم بأمس الحاجة إلى ما ينقذهم من النار.

١٠ـ ومما يردُّ هذا القول ـأيضاًـ أننا نرى الإنسان يحرص على ما يلائمه في أمور دنياه حتى يدركه، ولا يعدل عنه إلى ما لا يلائمه ثم يحتج على عدوله بالقدر.

فلماذا يعدل عما ينفعه في أمور دينه إلى ما يضره ثم يحتج بالقدر؟!

وإليك مثالاً يوضح ذلك: لو أراد إنسان السفر إلى بلد، وهذا البلد له طريقان أحدهما آمن مطمئن، والآخر كله فوضى واضطراب، وقتل، وسلب، فأيهما سيسلك؟

لا شك أنه سيسلك الطريق الأول، فلماذا لا يسلك في أمر الآخرة طريق الجنة دون طريق النار؟

١١ـ ومما يمكن أن يرد به على هذا المحتج ـبناء على مذهبهـ أن يقال له: لا تتزوج؛ فإن كان الله قد قضى لك بولد فسيأتيك، وإلا فلن، ولا تأكل ولا تشرب؛ فإن قدَّر الله لك شبعاً وريَّاً فسيكون، وإلا فلن، وإذا هاجمك سَبُعٌ ضَارٍ فلا تفر منه؛ فإن قدَّر الله لك النجاة فستنجو، وإن لم يقدرها لك فلن ينفعك الفرار، وإذا مرضت فلا تتداوَ؛ فإن قدَّر الله لك شفاءً شفيت، وإلا فلن ينفعك الدواء.

فهل سيوافقنا على هذا القول أم لا؟ إن وافقنا علِمْنا فساد عقله، وإن خالفنا علمنا فساد قوله، وبطلان حجته.

١٢ـ المحتج بالقدر على المعاصي شبَّه نفسه بالمجانين، والصبيان؛ فهم غير مكلفين، ولا مؤاخذين، ولو عومل معاملتهم في أمور الدنيا لما رضي.

١٣ـ لو قبلنا هذا الاحتجاج الباطل لما كان هناك حاجة للاستغفار، والتوبة، والدعاء، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

١٤ـ لو كان القدر حجَّة على المعائب والذنوب لتعطلت مصالح الناس، ولعمَّت الفوضى، ولما كان هناك داعٍ للحدود، والتعزيرات، والجزاءات؛ لأن المسيء سيحتج بالقدر، ولما احتجنا لوضع عقوبات للظَلَمة، وقطَّاع الطرق، ولا إلى فتح المحاكم، ونصب القضاة؛ بحجة أن كل ما وقع إنما وقع بقدر الله، وهذا لا يقول به عاقل.

١٥ـ أن هذا المحتج بالقدر الذي يقول: لا نؤاخذ؛ لأن الله كتب ذلك علينا؛ فكيف نؤاخذ بما كُتِبَ علينا؟

يُقال له: إننا لا نؤاخذ على الكتابة السابقة، إنما نؤاخذ بما فعلناه، وكسبناه، فلسنا مأمورين بما قدره الله لنا، أو كتبه علينا، وإنما نحن مأمورون بالقيام بما يأمرنا به؛ فهناك فرق بين ما أريد بنا، وما أريد منا، فما أراده الله بنا طواه عنا، وما أراده منه أمرنا بالقيام به.

ومما تجدر الإشارة إليه ـ أن احتجاج كثير من هؤلاء ليس ناتجاً عن قناعة وإيمان، وإنما هو ناتج عن نوع هوى ومعاندة؛ ولهذا قال بعض العلماء فيمن هذا شأنه: «أنت عند الطاعة قدري؛ وعند المعصية جبري، أي مذهب وافق هواك تمذهبت به»[(١)].

يعني أنه إذا فعل الطاعة نسب ذلك إلى نفسه، وأنكر أن يكون الله قدر ذلك له، وإذا فعل المعصية احتج بالقدر.

١٦ـ أن يُقال لهؤلاء: إن الله ـتعالىـ أعطاكم عقولاً كاملة، وأفهاماً وافية، وآذاناً سامعة، وعيوناً باصرة، وأقدركم على الخير والشر، وأزال الأعذار والموانع بالكلية عنكم؛ فإن شئتم ذهبتم إلى الخيرات، وإن شئتم ذهبتم إلى عمل المعاصي والمنكرات.

وهذه القدرة والمُكْنة معلومة بالضرورة، وزوالُ الموانعِ والعوائق معلوم الثبوت ـأيضاًـ بالضرورة.

وإذا كان الأمر كذلك كان ادعاؤكم أنكم عاجزون عن الإيمان والطاعة دعوى

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠٧/٨.

باطلة؛ فثبت بذلك أنه ليس لكم على الله حجة، بل الحجة البالغة عليكم[١].

وبالجملة فإن الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي، أو ترك الطاعات احتجاج باطل في الشرع، والعقل، والواقع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن المحتجين بالقدر: «هؤلاء القوم إذا أصروا على هذا الاعتقاد كانوا أكفر من اليهود والنصارى»[٢].

الصورة الجائزة المسوغة للاحتجاج بالقدر:

يسوغ الاحتجاج بالقدر عند المصائب التي تحل بالإنسان كالفقر، والمرض، وفقد القريب، وتلف الزرع، وخسارة المال، وقتل الخطأ، ونحو ذلك؛ فهذا من تمام الرضا بالله ربًّا، فالاحتجاج إنما يكون على المصائب، لا المعائب، «فالسعيد يستغفر من المعائب، ويصبر على المصائب، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ غافر: ٥٥.

والشقي يجزع عند المصائب، ويحتج بالقدر على المعائب»[٣].

ويوضح ذلك المثال الآتي: لو أن رجلاً قتل آخر عن طريق الخطأ، ثم لامه من لامه، واحتج القاتل بالقدر، لكان احتجاجه مقبولاً، ولا يمنع ذلك من أن يؤاخذ.

---

(١) انظر اللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٨/٤٩٧، وانظر تفسير البحر المحيط، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دراسة وتحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبدالموجود وزملائه، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م، ٤/٢٤٧ـ٢٤٩.

(٢) مجموع الفتاوى ٨/٢٦٢.

(٣) مجموع الفتاوى ٨/٤٥٤، وانظر اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لابن تيمية، تحقيق د. ناصر العقل، مكتبة الرشد، الرياض، ط٢، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م، ٢/٨٥٧ـ٨٥٨.

ولو قَتَلَ رجلٌ رجلاً عن طريق العمد، ثم قُرِّع القاتل، ووُبِّخ على ذلك، ثم احتج بالقدر لم يكن الاحتجاج منه مقبولاً؛ ولهذا حجَّ آدم موسى - عليهما السلام - كما في قوله ﷺ في محاجتهما: «**احتج آدم موسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة؟ فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، ثم تلومني على أمر قد قدّر عليَّ قبل أن أخلق؟ فحجَّ آدم موسى**»[1].

فآدم -عليه السلام- لم يحتج بالقدر على الذنب كما يظن ذلك بعض الطوائف، وموسى -عليه السلام- لم يلُمْ آدم على الذنب؛ لأنه يعلم أن آدم استغفر ربه وتاب، فاجتباه ربه، وتاب عليه، وهداه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

ولو أن موسى لام آدم على الذنب لأجابه: إنني أذنبت فتبت، فتاب الله عليَّ، ولقال له: أنت يا موسى - أيضاً - قتلت نفساً، وألقيت الألواح إلى غير ذلك، إنما احتج موسى بالمصيبة فحجَّه آدم بالقدر[2].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٢).

(٢) انظر مجموع الفتاوى ١٧٨/٨، ومنهاج السنة ٧٨/٣-٨١، و الاحتجاج بالقدر، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ط٢، ١٣٩٩هـ، نشره قصي محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، ص١٨-٢٢، والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لابن تيمية، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٤، ١٤٠٨هـ، ص١٠٣-١٠٥، والتدمرية ص٢٣٠-٢٣١، والآداب الشرعية والمنح المرعية، لابن مفلح المقدسي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة ٢٥٨/١-٢٦٠، والبداية والنهاية لابن كثير ٨٣/١-٨٧، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي ٤٩٦/٨-٤٩٨، وإيقاظ الفكرة لمراجعة الفطرة للصنعاني ص٣٧٧-٣٩٥.

«فما قدر من المصائب يجب الاستسلام له؛ فإنه من تمام الرضا بالله ربًّا، أما الذنوب فليس لأحد أن يُذنب، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب، فيتوب من المعائب، ويصبر على المصائب»[(١)].

وممن يسوغ له الاحتجاج بالقدر التائبُ من الذنب، فلو لامه أحد على ذنب تاب منه لساغ له أن يحتج بالقدر.

فلو قيل لأحد التائبين: لم فعلت كذا وكذا؟ ثم قال: هذا بقضاء الله وقدره، وأنا تبت واستغفرت، لقُبل منه ذلك الاحتجاج[(٢)].

ثم إنه لا يسوغ لأحد أن يلوم التائب من الذنب؛ فالعبرة بكمال النهاية، لا بنقص البداية.

---

(١) شرح الطحاوية ص١٤٧، وانظر الفتاوى الكبرى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق وتعليق وتقديم محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ، ١٦٣/٥، والتدمرية ص٢٣١، وانظر المسائل التي لخصها شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب من فتاوى ابن تيمية للشيخ محمد بن عبدالوهاب، تحقيق وتعليق السيد ابن عبدالمقصود الأثري، ط١، ١٤٠٨هـ، دار عالم الكتب، ص٣٤.

(٢) انظر شفاء العليل ص٣٥، وانظر القضاء والقدر، أسعد محمد سعيد الصاغرجي، دار القبلة للثقافة الإسلامية، ١٤١٢هـ، ص٢٤، وتقريب التدمرية لابن عثيمين ص١١٥.

شرح البيتين [٧٠ - ٧١]

٧٠- ويكفيك نقضاً ما بجسمِ ابنِ آدمٍ ... صبيٍّ ومجنونٍ وكلٍّ بهيمةِ

٧١- من الألم المقضيِّ من[1] غير حيلةٍ ... وفيما يشاء الله أكملُ حكمةِ

قوله: «**صبي ومجنون**»: بدل من ابن آدم، وقوله: «**وكل بهيمة**»: معطوف على ابن آدم.

والصبي: فعيل من صبا يصبو إذا مال؛ لأنه سريع الميل إلى اللهو، ولعدم كمال عقله.

والمجنون: مفعول من جَنّهُ الليلُ وأجنه: إذا ستره، والمجنون مَنْ تستَّر عقله، فلا يدرك المعقولات.

وهذه المادة (**جن**) تدور حول الستر، ومنه ما مضى، ومنه - أيضاً - الجنين؛ لاستتاره، والجن؛ لاستتارهم عن أعين الناس، والجَنَّة؛ لاستتار أرضها بظل شجرها.

وسمي الدرع جُنة، والتُّرس مِجَنّاً؛ لحصول الاستتار بهما من السلاح[2].

قوله: «**من الألم**»: من لبيان الجنس، والألم: الوجع الشديد.

وقوله: «**المقضي**»: المقدَّر.

وقوله: «**من غير حيلة**»: أي من غير أن يكون لمن أصيب به اختيار.

ومعنى البيتين: أنه يكفي إبطالاً لقولك أن يقال: إن الله - عز وجل - يقضي

---

(١) في عقود: في.

(٢) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٣٩.

بحكمته البالغة الآلام على غير المكلفين من بني آدم كالصبيان والمجانين، أو من غير بني آدم كالبهائم؛ فهذه الآلام ملازمة؛ فلا تنفك الطبائع إلا أن تكون على هذه الصفة من حيث الصحة والمرض، والراحة والتعب، والعافية والألم بحسب ما يعرض لتلك الطبيعة من اعتدال وانحراف وقد يكون البلاء على بعضها دون بعض، وفي حال دون حال.

وقد يشتد ببعضها، وقد يخف على بعضها وهكذا؛ لما لِمُقَدِّرها -عز وجل- من الحكم التي تتقاصر الأذهان عن إدراكها على وجه التفصيل؛ ففي خلق الآلام والمصائب -عموماً- من الحكم العظيمة ما لا يخطر بالبال، تلك الحكم التي تنطق بفضل الله، وعدله، ورحمته؛ فمن وُفِّق لإدراكها - ولو على سبيل الإجمال - فهو على نور من ربه، ومن خذل ووكل إلى نفسه ولم يشهد تلك الحكم أوشك أن يكون مخاصماً لربه -عز وجل-.

قال ابن القيم رحمه الله: «فالآلام والمشاق إما إحسان ورحمة، وإما عدل وحكمة، وإما إصلاح وتهيئة لخير يحصل بعدها، وإما لدفع ألم هو أصعب منها، وإما لتولدها عن لذات ونعم يولِّدها عنها أمر لازم لتلك اللذات، وإما أن تكون من لوازم العدل، أو لوازم الفضل والإحسان؛ فتكون من لوازم الخير التي إن عُطِّلت ملزوماتها فات بتعطيلها خيرٌ أعظمُ من مفسدة تلك الآلام.

والشرع والقدر أعدلا شاهد بذلك؛ فكم في طلوع الشمس من ألم لمسافر وحاضر، وكم في نزول الغيث والثلوج من أذى كما سماه الله بقوله: ﴿ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ ﴾ النساء: ١٠٢.

وكم في هذا الحر والبرد والرياح من أذى موجب لأنواع من الآلام لصنوف الحيوانات.

وأعظم لذات الدنيا لذة الأكل والشرب والنكاح واللباس والرياسة، ومعظم آلام أهل الأرض أو كلها ناشئة عنها، ومتولدة منها.

بل الكمالات الإنسانية لا تنال إلا بالآلام والمشاق كالعلم، والشجاعة، والزهد، والعفة، والحلم، والمروءة، والصبر، والإحسان كما قال:

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يُفْقرُ والإقدام قتَّالُ

وإذا كانت الآلام أسباباً لِلَذَّاتٍ أعظم منها وأدوم ـ كان العقل يقضي باحتمالها»[1].

إلى أن قال رحمه الله: «وقد حجب الله ـ سبحانه ـ أعظم اللذات بأنواع المكاره، وجعله جسراً موصلاً إليها كما حجب أعظم الآلام بالشهوات واللذات، وجعلها جسراً موصلاً إليها.

ولهذا قالت العقلاء قاطبة: إن النعيم لا يدرك بالنعيم، وإن الراحة لا تنال بالراحة، وإن مَنْ آثر اللذات فاتته اللذات؛ فهذه الآلام والأمراض والمشاق من أعظم النعم؛ إذ هي أسباب النِّعم.

وما ينال الحيوانات غير المكلفة منها فمغمورٌ جداً بالنسبة إلى مصالحها ومنافعها كما ينالها من حر الصيف، وبرد الشتاء، وحبس المطر والثلج، وألم الحمل والولادة، والسعي في طلب أقواتها وغير ذلك.

---

(١) شفاء العليل، ص٤٩٨.

ولكن لذاتها أضعافُ أضعافِ آلامها، وما ينالها من المنافع والخيرات أضعاف ما ينالها من الشرور والآلام؛ فسُنَّته في خلقه وأمره هي التي أوجبها كمالُ علمه وحكمته وعزته.

ولو اجتمعت عقول العقلاء كلهم على أن يقترحوا أحسن منها لعجزوا عن ذلك، وقيل لكلٍّ منهم: ارجع بصر العقل فهل ترى من خلل؟

﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ الملك: ٤، فتبارك الذي من كمال حكمته وقدرته أن أخرج الأضداد من أضدادها، والأشياء من خلافها؛ فأخرج الحي من الميت، والميت من الحي، والرطب من اليابس، واليابس من الرطب؛ فكذلك أنشأ اللذاتِ من الآلامِ، والآلامَ من اللذات؛ فأعظم اللذاتِ ثمراتُ الآلام ونتائجها، وأعظم الآلامِ ثمراتُ اللذات ونتائجها.

وبعدُ؛ فاللذةُ والسرورُ، والخيرُ والنعمُ، والعافيةُ والصحةُ والرحمةُ في هذه الدار المملوءة بالمحن والبلاء - أكثرُ من أضدادها بأضعافٍ مضاعفة؛ فأين آلام الحيوان من لذته؟ وأين سقمه من صحته؟ وأين جوعه وعطشه من شبعه وريِّه وتعبه من راحته؟! »[1].

هذا وفي الآلام والمصائب حكم عظيمة غير ما ذُكِرَ، وفيما يلي ذكرٌ لبعضها على سبيل الإيجاز؛ إذ المقام لا يتسع للتفصيل:

١- استخراج عبودية الضراء وهي الصبر: قال -تعالى-: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ الأنبياء: ٣٥.

---

(١) شفاء العليل، ص٤٩٩-٥٠٠.

فالابتلاء بالسراء والخير يحتاج إلى شكر، والابتلاء بالضراء والشر يحتاج إلى صبر.

وهذا لا يتم إلا بأن يقلِّبَ الله الأحوال على العبد حتى يتبين صدق عبوديته لله ـتعالى ـ.

قال ﷺ: «**عجباً لأمر المؤمن؛ إن أمره كله له خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**»[1].

٢ـ طهارة القلب، والخلاص من الخصال القبيحة: ذلك أن الصحة قد تدعو إلى الأشر، والبطر، والإعجاب بالنفس، لما يتمتع به المرء من نشاط، وقوة، وهدوء بال، ونعيم عيش.

فإذا قُيِّد بالبلاء والمرض انكسرت نفسه، ورق قلبه، وتطهر من أدران الأخلاق الذميمة، والخصال القبيحة من كبر، وخيلاء، وعجب، وحسد، ونحوها، وحلَّ محلَّها الخضوعُ لله، والانكسار بين يديه، والتواضع لخلق الله، وترك الترفع عليهم.

قال المنبجي[2] رحمه الله: «وليعلم أهل المصائب أنه لولا محن الدنيا ومصائبها لأصاب العبد من أدواء الكبر، والعجب، والفرعنة، وقسوة القلب ما هو سبب

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).

(٢) هو محمد بن محمد بن محمد بن محمود الصالحي المنبجي، كان من فضلاء الحنابلة، سمع الحديث، وحفظ المقنع، وأفتى، ودرَّس، وكان يكتسب من حانوت له، على طريق السلف من الدين والتقشف والتعبد، وهو صاحب الجزء المشهور في الطاعون وأحكامه، ذكر فيه فوائد كثيرة وغريبة، توفي سنة ٧٧٤هـ، انظر شذرات الذهب لابن العماد ٦/٢٨٩، والسحب الوابلة على ضرائح الحنابلة، لمحمد بن عبدالله بن حميد النجدي ثم المكي، حققه وقدَّم له الشيخ د. بكر أبو زيد، ود. عبدالرحمن ابن سليمان العثيمين، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٦هـ ـ١٩٩٦م، ٣/١٠٨١

هلاكه عاجلاً وآجلاً؛ فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب؛ تكون حمية له من هذه الأدواء، وحفظاً لصحة عبوديته، واستفراغاً للمواد الفاسدة، الرديئة، المهلكة؛ فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه، كما قيل:

قد ينعم الله بالبلوى، وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

فلولا أنه ـ سبحانه وتعالى ـ يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء لطغوا، وبغوا، وعتوا، وتجبروا في الأرض، وعاثوا فيها بالفساد؛ فإن من شيم النفوس إذا حصل لها أمر، ونهي، وصحة، وفراغ، وكلمة نافذة من غير زاجر شرعي يزجرها ـ تمردت، وسعت في الأرض فساداً، مع علمهم بما فعل بمن قبلهم، فكيف لو حصل لهم مع ذلك إهمال؟

ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا أراد بعبده خيراً سقاه دواء الابتلاء والامتحان على قدر حاله، يستفرغ منه الأدوية المهلكة، حتى إذا هذبه، ونقاه، وصفَّاه أهَّلَه لأشرف مراتب الدنيا، وهي عبوديته، ورقاه أرفع ثواب الآخرة، وهي رؤيته»[1].

٣ـ تقوية المؤمن: ذلك أن في المصائب تدريباً للمؤمن، وامتحاناً لصبره، وتقوية لإيمانه.

٤ـ النظر إلى قهر الربوبية وذل العبودية: فإنه ليس لأحد مفر عن أمر الله،

---

(١) تسلية أهل المصائب للإمام محمد بن محمد المنبجي الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م، ص٢٥.

وقضائه، ولا محيد عن حكمه النافذ وابتلائه؛ فنحن عبيد الله، يتصرف فينا كما يشاؤه ويريده، ونحن إليه راجعون في جميع أمورنا، وإليه المصير يجمعنا لنشورنا.

٥ـ حصول الإخلاص في الدعاء، وصدق الإنابة في التوبة: ذلك أن المصائب تُشعر الإنسان بضعفه، وافتقاره الذاتي إلى ربه، فيبعثه ذلك إلى إخلاص الدعاء له، وشدة التضرُّع والاضطرار إليه، وصدق الإنابة في التوبة والرجوع إليه.

ولولا هذه النوازل لم يُرَ على باب اللجأ والمسكنة؛ فالله ـعز وجلـ علم من الخلق اشتغالهم عنه، فابتلاهم من خلال النعم بعوارض تدفعهم إلى بابه يستغيثون به؛ فهذا من النعم في طي البلاء، وإنما البلاء المحض ما يشغلك عن ربك.

قال سفيان بن عيينة رحمه الله: «ما يكره العبد خيرٌ له مما يحب؛ لأن ما يكرهه يهيجه للدعاء، وما يحبه يلهيه»[١].

٦ـ إيقاظ المبتلى من غفلته: فكم من مبتلى بفقد العافية حصلت له توبة شافية، وكم من مبتلى بفقد ماله انقطع إلى الله بحسن حاله، وكم من غافل عن نفسه، معرضٍ عن ربه أصابه بلاء فأيقظه من رقاده، ونبهه من غفلته، وبعثه لتفقد حاله مع ربه.

٧ـ معرفة قدر العافية: لأن الشيء لا يعرف إلا بضده، فيحصل بذلك الشكرُ الموجب للمزيد من النعم؛ لأن ما مَنَّ الله به من العافية أتم وأنعم، وأكثر وأعظم مما ابتلى وأسقم، ثم إن حصول العافية والنعمة بعد ألم ومشقة أعظم قدراً عند الإنسان.

---

(١) الفرج بعد الشدة لابن أبي الدنيا ص٢٢.

٨ـ أن من الآلام ما قد يكون سبباً للصحة: فقد يصاب المرء بمرض ويكون سبباً للشفاء من مرض آخر، وقد يبتلى ببلية فيذهب لعلاجها؛ فيجد الأطباء أن به داءً عضالاً لم يُعلم إلا بسبب هذا المرض الطارئ، قال أبو الطيب المتنبي:

لعلَّ عَتْبَك محمودٌ عواقِبُه ... وربما صحت الأبدان بالعلل[١]

قال ابن القيم رحمه الله: «وكثيراً ما تكون الآلام أسباباً للصحة لولا تلك الآلام لفاتت.

وهذا شأن أكبر أمراض البدن؛ فهذه الحمى فيها من المنافع للأبدان ما لا يعلمه إلا الله، وفيها من إذابة الفضلات، وإنضاج المواد الفَجَّة وإخراجها ما لا يصل إليه دواءٌ غيرها.

وكثير من الأمراض إذا عرض لصاحبها الحمى استبشر بها الطبيب»[٢].

٩ـ حصول رحمة أهل البلاء: فالذي يبتلى بأمر ما ـ يجد في نفسه رحمة لأهل البلاء، وهذه الرحمة موجبة لرحمة الله وجزيل العطاء؛ فمن رَحِمَ من في الأرض رَحِمَهُ من في السماء.

١٠ـ حصول الصلاة من الله والرحمة والهداية: قال ـتعالىـ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أُوْلَئِكَ

---

(١) ديوان المتنبي بشرح العكبري، ضبطه وصححه عبدالحفيظ شلبي، ومصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ٨٦/٣.

(٢) شفاء العليل، ص٤٩٩.

عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ البقرة: ١٥٥-١٥٧.

١١- حصول الأجر، وكتابة الحسنات وحط الخطيئات: قال ﷺ: «**ما من شيء يصيب المؤمن، حتى الشوكةِ تصيبه، إلا كتب الله له بها حسنة، أو حُطت عنه بها خطيئة**»[1].

قال بعض السلف: «لولا مصائب الدنيا لوردنا القيامة مفاليس»[2].

بل إن الأجر والثواب لا يختص به المبتلى فحسب، بل يتعداه إلى غيره؛ فالطبيب المسلم إذا عالج المريض واحتسب الأجر كتب له الأجر -بإذن الله- فمن نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة.

وكذلك الذي يزور المريض المبتلى يكتب له الأجر، وكذلك من يقوم على رعايته.

١٢- العلم بحقارة الدنيا وهوانها: فأدنى مصيبة تصيب الإنسان تعكر صفوه، وتنغص حياته، وتنسيه ملاذَّه، والكَيِّسُ الفَطِنُ لا يغتر بالدنيا، بل يجعلها مزرعة للآخرة.

١٣- أن اختيار الله للعبد خير من اختيار العبد لنفسه: وهذا سر بديع، يحسن بالعبد أن يتفطن له؛ ذلك أن الله -عز وجل- أرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين؛ فهو أعلم بمصالح عباده منهم، وهو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٢).

(٢) برد الأكباد عند فقد الأولاد، للحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي، قدم له عبدالقادر بن شيبة الحمد، مطابع السفراء، الرياض، ١٤٠٠هـ، ص٤٦.

وإذا أنزل بهم ما يكرهون كان خيراً لهم من ألا ينزل بهم؛ نظراً منه لهم، وإحساناً إليهم، ولطفاً بهم.

ولو مكنوا من الاختيار لأنفسهم لعجزوا عن القيام بمصالحهم، لكنه -عزوجل- تولى تدبير أمورهم بموجب علمه، وعدله، وحكمته، ورحمته أحبوا أم كرهوا.

١٤ـ أن الإنسان لا يعلم عاقبة أمره: فربما طلب ما لا تحمد عقباه، وربما كره ما ينفعه، والله -عز وجل- أعلم بعاقبة الأمر.

قال ابن القيم رحمه الله: «فقضاؤه للعبد المؤمن عطاء وإن كان في صورة المنع، ونعمة وإن كان في صورة محنة، وبلاؤه عافية وإن كان في صورة بلية.

ولكن لجهل العبد وظلمه لا يعد العطاء والنعمة والعافية إلا ما التذ به في العاجل، وكان ملائماً لطبعه.

ولو رزق من المعرفة حظّاً وافراً لعدَّ المنع نعمة، والبلاء رحمة، وتلذذ بالبلاء أكثر من لذته بالعافية، وتلذذ بالفقر أكثر من لذته بالغنى، وكان في حال القلة أعظم شكراً من حال الكثرة»[1].

١٥ـ الدخول في زمرة المحبوبين لله -عز وجل-: فالمبتلون من المؤمنين يدخلون في زمرة المحبوبين المُشَرَّفين بمحبة رب العالمين؛ فهو -سبحانه- إذا أحب قوماً ابتلاهم، وقد جاء في السنة ما يشير إلى أن الابتلاء دليل محبة الله للعبد؛ حيث قال النبي ﷺ: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم،**

(١) مدارج السالكين ٢/٢١٥ـ٢١٦.

فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»[(١)].

١٦ـ أن المكروه قد يأتي بالمحبوب والعكس: فإذا صحت معرفة العبد بربه علم يقيناً أن المكروهات التي تصيبه، والمحن التي تنزل به أنها تحمل في طياتها ضروباً من المصالح والمنافع لا يحصيها علمه، ولا تحيط بها فكرته.

بل إن مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب؛ فعامة مصالح النفوس في مكروهاتها، كما أن عامَّة مضارها وأسباب هلكتها في محبوباتها، قال ـتعالىـ: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ النساء: ١٩.

وقال: ﴿وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ٢١٦.

فإذا علم العبد أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، وأن المحبوب قد يأتي بالمكروه ـ لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة[(٢)].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦) وابن ماجة في سننه، دار الدعوة، دار سحنون، ترقيم محمد عبدالباقي، ط٢ (٤٠٣١) من حديث أنس، وحسنه الترمذي، والألباني في صحيح الترمذي ٢/٢٨٦.

(٢) انظر تفصيل الحديث عن حكم المصائب في: صيد الخاطر، لابن الجوزي، مكتبة العلم بجدة، مكتبة ابن تيمية (ب ت) ص٩١ـ٩٥ و٢١٣ـ٢١٥ و٣٢٧ـ٣٢٨، والفوائد، لابن القيم، تحقيق محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ، ص١٣٧ـ١٣٩، و١٧٨ـ١٧٩ و٢٠٠ـ٢٠٢، وبرد الأكباد ص٣٧ـ٣٩.

شرح الأبيات [٧٢ ـ ٧٥]

٧٢ـ إذا كان في هذا له حكمةٌ فما — يُظن[١] بخلق الفعل ثم العقوبة

٧٣ـ فكيف[٢] ومِنْ هذا عذاب مُولَّدٌ — عن الفعلِ فِعل العبد عند[٣] الطبيعة

٧٤ـ كآكِلِ سمٍّ أوجب الموتَ أكلُه — وكلٌّ بتقديرٍ لرب البرية[٤]

٧٥ـ فَكُفْرُك يا هذا كسمٍّ أكلْتَهُ — وتعذيبُ نارٍ مثل[٥] جرعةِ غصةِ

يقول الشيخ رحمه الله: إذا كانت الحكمة تقتضي أن أسباب الآلام إذا وجدت تولد عنها الآلام وترتب عليها الأسقام، كمن أكل سُمًّاً ترتب عليه الهلاك، أو ألقى نفسه في مهلكة ترتب عليه الموت ـ فكذلك كفرُ الكافرين، وإجرام المجرمين؛ فهي بمنزلة من أكل سماً، أو قذف نفسه في مهلكة، وذلك من جهة أنه لابد أن يترتب على العمل آثاره؛ فإذا كنت ـ أيها المعترض ـ لا تعذر من أكل سماً، أو ألقى نفسه في مهلكة، وكنتُ تنسب هلاكه إلى عمله، وتلومه عليه ـ فكفرك كذلك، بل أبلغ في اللوم، وانتفاء العذر؛ لأن آكل السم، والملقيَ نفسه بالهلكة ربما يَعْرِضُ له بعضُ العوارض المانعة من الهلاك؛ بخلاف الكفر؛ فإن آثاره مترتبة عليه قطعاً إلا إذا رفعها بتوبة نصوح.[٦]

---

(١) في عقود: ظن.

(٢) في ط و ب: وكيف.

(٣) في عقود: عبد.

(٤) في الدرة البهية: (لرب المشيئة)، وفي ط و و: (المشيئة)، وفي ب و ج و هـ: (المنية).

(٥) في و: بعد.

(٦) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٣٩.

شرح البيتين [٧٦ - ٧٧]

٧٦- ألست ترى في هذه الدار مَنْ جنى يعاقب إما بالقضا أو بشرعة

٧٧- ولا عُذْرَ للجاني بتقدير خالقٍ كذلك[1] في الأخرى بلا مَثْنَويَّةِ

قوله: «بلا مثنوية»: أي بلا إشكال، أو بلا فرق بينهما يستثنى[2].

يقول الشيخ رحمه الله ملزماً هذا السائل المعترض: إن مما يؤيد ما مرَّ سابقاً أنك تشاهد في هذه الدنيا عقوباتِ الجناة المعتدين، وهذه العقوباتُ يراها الناس.

وهي إما عقوباتٌ قدرية ينزلها الله بالمجرمين كما أهلك الأمم السابقة بالعقوبات المتنوعة، وكما يشاهده من سبر أحوال الناس، وينظر فيما يجري لهم من العقوبات سواء كانت فردية، أو عامة.

وإما عقوبات شرعية كقتل القاتل المتعمد، وقطع يد السارق، وإقامة الحد على الزاني، وجلد الشارب للخمر، ونحو ذلك.

فلا عذر -إذاً- لمن أساء، بل إنه مستوجب للعقوبة القدرية أو الشرعية، وربما يؤخرها الحلم.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «فكل ظالم معاقب في العاجل قبل الآجل على ظلمه. وكذلك كل مذنب ذنباً، وهو معنى قوله -تعالى-: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ (النساء: ١٢٣).

---

(١) في ط: لذلك.

(٢) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٤١.

وربما رأى العاصي سلامة بدنه فظن أن لا عقوبة، وغفلته عما عوقب به عقوبة»[١].

وقال رحمه الله: «قد تبغت العقوبات، وقد يؤخرها الحلم، والعاقل من إذا فعل خطيئة بادرها بالتوبة»[٢].

وهكذا الحال في الآخرة، فلابد من العقوبة ما لم يمنع من ذلك مانعٌ من موانع إنفاذ الوعيد.

فهل تقول ـ أيها المحتج بالقدر على المعاصي ـ: إن جميع هؤلاء الجناة قد ظلمهم الله؛ حيث أوقع بهم هذه العقوبات، وأحل بهم تلك المَثُلات؟ فإذا قلت هذا فقد بلغت من عداوة الله ورسله مبلغاً عظيماً.

وإذا رجعت إلى الحق، وقلت: إن هذه العقوبات القدرية الشرعية هي عدل الله بين عباده، وهي حكمته التي وضَعَها موضعها، وجعلها في محلها اللائق بها، وليس لهؤلاء الجناة المعاقبين عذر، بل ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٣٠) ـ فإنك قد رجعت إلى الحق، وهديت إلى الصواب.[٣]

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي ص١٠٤.

(٢) المرجع السابق ص٥٠٠.

(٣) انظر الدرة البهية ص١٧٨.

شرح البيت الثامن والسبعين

٧٨- وتقدير ربِّ الخلق للذنب موجِبٌ لتقـديرِ[1] عقبى الـذنب إلا بتوبـةِ

قوله: «للذنب»: الذنب في الأصل: الأخذ بذنب الشيء، يقال: أصبت ذنبه، ويستعمل في كل فعل يستوخم عقباه.

ولهذا يسمى الذنب تبعة؛ اعتباراً لما يحصل من عاقبته.

وجمع الذنب ذنوب، قال الله -تعالى-: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ (آل عمران: ١١).

وقال: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ١٣٥) إلى غير ذلك من الآيات[2].

والذنب: الإثم، والجرم، والمعصية، والجمع ذنوب، وذنوبات جمع الجمع[3].

يعني أن الله -عز وجل- قدَّر أن تكون الذنوب مُسبِّبةً لعواقبها الوخيمة، وعقوباتها الشرعية أو القدرية.

ولكن العقوبة قد تتخلف إذا وجد ثَمَّ مانع من موانع إنفاذ الوعيد؛ فالذنوب موجبة لدخول النار، وصاحبها متوعَّد بذلك إلا أن هناك أسباباً تندفع بها العقوبة، وينتفي بسببها الوعيد، ويزول موجب الذنوب.

وهذه الأسباب تسمى (موانع إنفاذ الوعيد).

---

(١) في أ: كتقدير.

(٢) انظر المفردات ص١٨٨.

(٣) انظر لسان العرب ١/٣٨٩.

وهي عشرة أسباب عرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في هذا البيت أهم تلك الموانع وأعظمها، ألا وهو التوبة.

وقد ذكر رحمه الله تلك الموانع مفصلة ومجملة في مواضع من كتبه قال رحمه الله: «وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة أسباب: أحدها: التوبة، وهذا متفق عليه بين المسلمين»[1].

ثم شرع رحمه الله في ذكر باقي الموانع بالتفصيل.

وقال في موضع آخر: «والمؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبتها تندفع عنه بعشرة أسباب:

١ـ أن يتوب فيتوب الله عليه؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

٢ـ أو يستغفر، فيغفر الله له.

٣ـ أو يعمل حسناتٍ تمحوها؛ فإن الحسنات يذهبن السيئات.

٤ـ أو يدعو له إخوانه المؤمنون، ويستغفرون له حياً وميتاً.

٥ـ أو يهدون له من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به.

٦ـ أو يشفع فيه نبيه محمدٌ ﷺ.

٧ـ أو يبتليه الله ـ تعالى ـ في الدنيا بمصائب تكفّر عنه.

٨ـ أو يبتليه في البرزخ بالصعقة، فيكفر بها عنه.

٩ـ أو يبتليه في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفّر عنه.

١٠ـ أو يرحمه أرحم الراحمين.

---

(١) مجموع الفتاوى ٤٨٧/٧.

فمن أخطأته هذه العشرة فلا يلومن إلا نفسه، كما قال ـ تعالى ـ فيما يرويه عنه رسول الله ﷺ «**يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها؛ فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**».[(١)][(٢)]

وقال في الاستقامة: «فإن الذنوب التي يُبتلى بها العبادُ يسقط عنهم عذابُها إما بتوبة تَجُبُّ ما قبلها، وإما باستغفار، وإما بحسنات ماحية يذهبن السيئات، وإما بدعاء المسلمين وشفاعتهم، أو بما يفعلونه له من البر، وإما بشفاعة النبي ﷺ وغيره فيه يوم القيامة، وإما أن يكفِّر الله عنه خطاياه بما يصيبه من المصائب»[(٣)].

ومما يحسن التنبيه عليه ههنا أن التوبة وحدها هي التي يزول بها موجب الذنوب للمؤمن والكافر، أما باقي الموانع فهي خاصة بالمؤمن.

ونظراً لما للتوبة من المزية، ولكونها أعظم موانع إنفاذ الوعيد، ولارتباطها بكثير من مباحث الموضوع فهذا تفصيل لبعض الأمور فيها، وذلك من خلال المسألتين التاليتين:

المسألة الأولى: تعريف التوبة:

أولاً ـ تعريف التوبة في اللغة: التوبة مصدر الفعل تاب، وأصل هذه المادة: التاء، والواو، والباء (توب).

وهي تدور حول معاني الرجوع، والعودة، والإنابة، والندم.

قال ابن فارس رحمه الله في مادة (توب): «التاء، والواو، والباء كلمة واحدة تدل

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) مجموع الفتاوى ١٠/٤٥ـ٤٦.

(٣) الاستقامة ٢/١٨٤ـ١٨٥.

على الرجوع».

يقال: تاب من ذنبه: أي رجع عنه، يتوب إلى الله توبةً، ومتاباً فهو تائب.

والتوب: التوبة، قال الله -تعالى-: ﴿قَابِلِ التَّوْبِ﴾ غافر: ٣»[١].

وقال ابن منظور رحمه الله: «وتاب إلى الله يتوب توباً، وتوبة، ومتاباً: أناب، ورجع عن المعصية إلى الطاعة»[٢].

والتوبة تكون من الله على العبد، ومن العبد إلى الله؛ فإذا كانت من الله عُدِّيت بعلى، وإذا كانت من العبد إلى الله عديت بإلى.

قال الله -تعالى-: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ النساء: ١٧.

وقال -عز وجل-: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ النور: ٣١.

وقال -تعالى-: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً﴾ الفرقان: ٧١.

قال ابن منظور رحمه الله: «وتاب الله عليه: وفقه لها، ورجل تواب: تائب إلى الله، والله تواب: يتوب على عبده»[٣].

وقال: «وقال أبو منصور: أصل تاب: عاد إلى الله، ورجع، وأناب، وتاب

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١/٣٥٧.

(٢) لسان العرب لابن منظور ١/٢٣٣.

(٣) لسان العرب ١/٢٣٣.

الله عليه: أي عاد عليه بالمغفرة»[١].

ثانياً- تعريف التوبة في الشرع: عرفت التوبة إلى الله في الشرع بعدة تعريفات، والمدلول الشرعي للتوبة قريب من المدلول اللغوي، فمما عرفت به التوبة في الشرع ما يلي:

١- قال أبو حامد الغزالي[٢] رحمه الله: «قيل في حد التوبة أنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ»[٣].

ثم علق على هذا الحد فقال: «فإن هذا يعرض لمجرد الألم ولذلك قيل:

٢- «هو نار في القلب تلتهب، وصدع في الكبد لا ينشعب»[٤].

٣- وقال: «وباعتبار معنى الترك قيل في حد التوبة: إنه خلع لباس الجفاء، ونشر بساط الوفاء»[٥].

٤- وقال: ومن معانيها[٦]: «ترك المعاصي في الحال، والعزم على تركها في

---

(١) المرجع السابق.

(٢) هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي من كبار متكلمي الأشاعرة، وممن سلك مناهج متعددة بدءاً بعلم الكلام، ثم الفلسفة، ثم الباطنية، ثم التصوف، لكنه في آخر عمره اقترب من مذهب السلف، واشتغل بالحديث.

ومن مصنفاته: إحياء علوم الدين، والمنقذ من الضلال.

توفي سنة ٥٠٥هـ. انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٤/٧٢، وسير أعلام النبلاء ١٩/٣٢٢.

(٣) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، دار الريان للتراث، ٤/٤.

(٤) إحياء علوم الدين ٤/٤.

(٥) إحياء علوم الدين ٤/٤.

(٦) يعني التوبة.

الاستقبال، وتدارك ما سبق من التقصير في سابق الأحوال»[١].

٥ـ وقال ابن القيم رحمه الله في تعريف التوبة: «فحقيقة التوبة هي الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على ألا يعاوده في المستقبل»[٢].

٦ـ وقال ـأيضاًـ: «حقيقة التوبة الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب، وترك ما يكره؛ فهي رجوع من مكروه إلى محبوب؛ فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر»[٣].

٧ـ وقال: «التوبة هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً»[٤].

٨ـ وقال ابن حجر رحمه الله: «والتوبة ترك الذنب على أحد الأوجه.

وفي الشرع: ترك الذنب؛ لقبحه، والندم على فعله، والعزم على عدم العود، وردُّ المظلمة إن كانت، أو طلب البراءة من صاحبها، وهي أبلغ وجوه الاعتذار»[٥].

٩ـ ويمكن أن تعرف التوبة بأنها: ترك الذنب علماً بقبحه، وندماً على فعله، وعزماً على ألا يعود إليه إذا قدر، وتداركاً لما يمكن تداركه من الأعمال، وأداءً لما

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/٥.

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ١/١٩٩.

(٣) مدارج السالكين ١/٣١٣.

(٤) مرجع سابق.

(٥) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ١١/١٠٦.

ضيع من الفرائض؛ إخلاصاً لله، ورجاءً لثوابه، وخوفاً من عقابه، وأن يكون ذلك قبل الغرغرة، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن التوبة لابد أن يجتمع فيها الأمور التالية:

١ـ الإقلاع عن الذنب.

٢ـ الندم على ما فات، والحد الأدنى من ذلك وجود أصل الندم، وأما قوة الندم وضعفه فبحسب قوة التوبة، وضعفها.

٣ـ العلم بقبح الذنب.

٤ـ العزم على ألا يعود.

٥ـ تدارك ما يمكن تداركه من رد المظالم ونحو ذلك.

٦ـ أن تكون خالصة لله ـعز وجلـ قال ـتعالىـ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ البينة: ٥.

٧ـ أن تكون قبل الغرغرة، لما جاء عن ابن عمر ـرضي الله عنهماـ عن النبي ﷺ قال: «**إن الله ـتعالىـ يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»(١).

---

(١) رواه أحمد ٢/ ١٣٢، ١٥٣/٢، والترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وأبو يعلى في مسنده، تحقيق حسين سليم أسد، ط١، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٨م، دار المأمون للتراث، دمشق، ٤٦٢/٩، ٨١/١٠، ومن طريقه ابن حبان في صحيحه (٦٢٨)، والحاكم ٤/ ٢٨٦، وصححه، ووافقه الذهبي، وعبد بن حميد في مسنده ـ كما في المنتخب من مسند عبد بن حميد (٨٤٧)ـ، وابن الجعد في مسنده، تحقيق د. عبدالمهدي بن عبدالقادر بن عبدالهادي، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، مكتبة الفلاح، الكويت (٣٤٠٤)، والطبراني في مسند الشاميين (١٩٤) والبغوي في شرح السنة، تحقيق شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش، المكتب الإسلامي (١٣٠٦) وأبو نعيم في الحلية ١٩٠/٥، كلهم من طريق عبدالرحمن بن ثابت بن ثوبان عن أبيه عن مكحول عن جبير بن نفير عن ابن عمر به. =

وتقبـل التوبـة قبـل الغرغـره كمـا أتـى في الـشرعة المطهـرة[١]

والغرغرة هي حشرجة الروح في الصدر، والمرادُ بذلك الاحتضارُ عندما يرى الملائكة، ويبدأ به السياق في الموت.

٨ـ أن تكون قبل طلوع الشمس من مغربها لما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرةﷺ قال: قال النبيﷺ: «**من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه**»[٢].

المسألة الثانية: من فضائل التوبة وأسرارها:

للتوبة فضائل جمة، وأسرار بديعة، وفوائد متعددة، فمن ذلك ما يلي[٣]:

١ـ **التوبة سبب للفلاح**: قال ـتعالىـ: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ النور: ٣١.

قال ابن كثير رحمه الله: «أي افعلوا ما آمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة؛ فإن

= وعبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان مختلف فيه، إلا أن له شاهداً عن عبادة بن الصامت بسند منقطع عند القضاعي في مسند الشهاب لمحمد سلامة القضاعي، تحقيق الشيخ حمدي بن عبدالمجيد السلفي، ط٢، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، مؤسسة الرسالة (١٠٨٥). وله شاهد آخر عند أحمد ٤٢٥/٣، ٣٦٢/٥، والحاكم ٢٨٦/٤.

(١) البيت للشيخ حافظ الحكمي رحمه الله، انظر كتابه معارج القبول ٣٠١/٢.

(٢) مسلم (٢٧٠٣).

(٣) الكلام في هذا الفصل أكثره مستفاد من مدارج السالكين ٣٠٦/١ـ٣١٢، ومفتاح دار السعادة لابن القيم ٢٨٦/١ـ٢٩٩.

الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهيا عنه»[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فالقلب لا يصلح، ولا يفلح، ولا يتلذذ، ولا يسر، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن - إلا بعبادة ربه، وحبه، والإنابة إليه.

ولو حصل له كل ما يتلذذ به من المخلوقات لم يطمئن، ولم يسكن؛ إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه، من حيث هو معبوده، ومحبوبه، ومطلوبه.

وبذلك يحصل له الفرح، والسرور، واللذة، والنعمة، والسكون، والطمأنينة»[(٢)].

٢- بالتوبة تكفر السيئات: فإذا تاب العبد توبة نصوحاً كفَّر الله بها جميع ذنوبه وخطاياه.

قال -تعالى-: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الزمر: ٥٣.

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ التحريم: ٨.

٣- بالتوبة تبدل السيئات حسنات: فإذا حسنت التوبة بدَّل الله سيئات صاحبها حسنات، وذلك فضل من الله، وتكرم.

قال -تعالى-: ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٢٧٦.

(٢) الفتاوى الكبرى ٥/١٨٨-١٨٩.

سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ الفرقان: ٧٠.

قال ابن القيم رحمه الله في هذه الآية: «وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح، وهو حقيقة التوبة.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «ما رأيت النبي ﷺ فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت، وفرحه بنزول: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ الفتح: ١ـ٢[١].

قال ابن القيم رحمه الله: «واختلفوا في صفة هذا التبديل، وهل هو في الدنيا أو في الآخرة؟ على قولين: فقال ابن عباس وأصحابه هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها، فبدلهم بالشرك إيماناً، وبالزنا عفة وإحصاناً، وبالكذب صدقاً، وبالخيانة أمانة».

فعلى هذا معنى الآية: أن صفاتِهم القبيحةَ، وأعمالَهم السيئة بُدِّلوا عوضها صفاتٍ جميلةً، وأعمالاً صالحة، كما يبدل المريض بالمرض صحة، والمبتلى ببلائه عافية.

وقال سعيد بن المسيب[٢] وغيره من التابعين: «هو تبديل الله سيئاتهم التي عملوها بحسنات يوم القيامة، فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة»[٣].

ثم قال ابن القيم رحمه الله بعد أن تكلم على القولين السابقين: «إذا علم هذا

---

(١) مدارج السالكين ١/٣١٠.

(٢) هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ المخزومي، أحد العلماء الأثبات، والفقهاء الكبار، والأئمة الأعلام، بل هو خير التابعين، أو من خيارهم. انظر التهذيب ٣٦٤/١، والأعلام ١٠٢/٣.

(٣) مدارج السالكين ١/٣١٠.

فزوال موجب الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح وهي أقوى الأسباب، وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره في النار؛ فإذا تطهر بالنار وزال أثر الوسخ والخبث عنه أعطي مكان كل سيئة حسنة، فإذا تطهر بالتوبة النصوح وزال عنه بها أثر وسخ الذنوب وخبثها كان أولى بأن يعطى مكان كل سيئة حسنة؛ لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم من إزالة النار، وأحب إلى الله.

وإزالة النار بدل منها، وهي الأصل؛ فهي أولى بالتبديل مما بعد الدخول».

وقال: «التائب قد بدل كل سيئة بندمه عليها حسنة؛ إذ هو توبة تلك السيئة، والندم توبة، والتوبة من كل ذنب حسنة؛ فصار كل ذنب عمله زائلاً بالتوبة التي حلت محله وهي حسنة؛ فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار؛ فتأمّله؛ فإنه من ألطف الوجوه.

وعلى هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية في القدر لتلك السيئة، وهذا من أسرار التوبة ولطائفها»(١).

٤ـ **التوبة سبب للمتاع الحسن**: قال ـتعالىـ: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ هود: ٣.

٥ـ **التوبة سبب لنزول الأمطار، وزيادة القوة، والإمداد بالأموال والبنين**: قال ـتعالىـ على لسان هود ـعليه السلامـ: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ هود: ٥٢.

---

(١) مدارج السالكين ١/٣١١.

وقال -عز وجل- على لسان نوح -عليه السلام-: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾ نوح: ١٠-١٢.

هذا وسيأتي مزيد بيان لذلك عند الحديث عن الحكمة من خلق الذنوب.

شرح البيت التاسع والسبعين

٧٩ـ وما كان من جنس المتاب لرفعه عواقبَ أفعالِ العبادِ الخبيثةِ

قوله: «**جنس**»: الجنس هو الضرب من كل شيء[(١)].

وقوله: «**المتاب**»: التوبة؛ فالتوبة مصدر الفعل تاب، وكذلك المتاب فهو مصدر كذلك[(٢)].

وقوله: «**عواقب**»: آثار.

وقوله: «**وأفعال العباد الخبيثة**»: يعني بها: الذنوب والآثام.

يريد شيخ الإسلام رحمه الله **في هذا البيت** أن يبين أن هناك أعمالاً أخرى هي من جنس التوبة في كونها تمنع إنفاذ الوعيد، وترفع العقوبة، وتزيل موجب الذنوب.

ثم مثَّل على ذلك ببعض موانع الوعيد التي مر ذكر لها في شرح البيت الماضي، فقال:

---

(١) انظر لسان العرب ٦/٤٣.

(٢) انظر لسان العرب ١/٢٣٣.

شرح البيت الثمانين

٨٠ـ كخيرٍ[١] به تُمحى[٢] الذنوبُ ودعوةٍ   تُجـاب مـن الجـاني ورُبَّ شـفاعة[٣]

قوله: «كخير»: أي كعمل خير، أو كفعل خير.

وقوله: «تمحى الذنوب»: أي يزول موجبها، وهو العذاب.

وقد أشار شيخ الإسلام رحمه الله في هذا البيت إلى ثلاثة من موانع إنفاذ الوعيد وهي:

١ـ **الحسنات الماحية**[٤] أو **الأعمال الصالحة المكفرة**[٥] وهي ما عناه بقوله: «**كخيرٍ به تمحى الذنوب**».

قال الله ـعز وجل ـ: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود: ١١٤).

وقال النبي ﷺ: «**إن الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**»[٦].

وجاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**»[٧].

---

(١) في ط و ج: (كخيريَّة)، وفي عقود: (كجبرية).

(٢) في ط و عقود: تمحي.

(٣) في الدرة البهية: ورَبٍّ الشفاعة.

(٤) أطلق هذه التسمية شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى ٧/٤٨٩.

(٥) أطلق هذه التسمية شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى ١٠/٦٥٥.

(٦) رواه مسلم (٢٣٣).

(٧) البخاري (١٩٠١) ومسلم (١٥٩ و ٧٦٠).

وعن أبي قتادة ﷺ قال: «سئل رسول الله ﷺ عن صوم عرفة؟ قال: «**يكفر السنة الماضية، والباقية**»[١].

وعن أبي قتادة ﷺ أن رسول الله ﷺ سئل عن صيام يوم عاشوراء، فقال: «**يكفر السنة الماضية**»[٢].

وقال النبي ﷺ: «**اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**»[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ في معرض حديث له عن موانع إنفاذ الوعيد بعد أن ذكر التوبة والاستغفار، قال:

«الثالث: الأعمال الصالحة المكفرة: إما الكفارات المقدرة، كما يكفر المجامع في رمضان، والمظاهر، والمرتكب لبعض محظورات الحج، أو تارك بعض واجباته، أو قاتل الصيد بالكفارات المقدرة، وهي أربعة أجناس: هدي، وعتق، وصدقة، وصيام.

وإما الكفارات المطلقة، كما قال حذيفة لعمر: فتنة الرجل في أهله وماله وولده يكفرها الصلاة، والصيام، والصدقة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

---

(١) رواه مسلم (١١٦٢).

(٢) رواه مسلم (١١٣٤).

(٣) رواه أحمد ١٥٣/٥، و١٥٨، و١٧٧، و٢٣٦، والترمذي (١٩٨٧) وحسنه، والدارمي ٣٢٣/٢، والحاكم ٥٤/١، وقال: صحيح على شرط الشيخين، والطبراني في الكبير ٢٠ (٢٩٥) و(٢٩٦) و (٢٩٧) و (٢٩٨) وفي الصغير (٥٣) وأبو نعيم في الحلية ٣٣٦/٤، والقضاعي في مسند الشهاب (٦٥٢) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٩٧).

وقد دل على ذلك القرآن، والأحاديث الصحاح في التكفير بالصلوات الخمس، والجمعة، والصيام، والحج، وسائر الأعمال التي يقال فيها: من قال كذا، وعمل كذا، غفر له ما تقدم من ذنبه.

وهي كثيرة لمن تلقاها من السنن خصوصاً ما صنف في فضائل الأعمال»[1].❖

---

(١) مجموع الفتاوى ٦٥٥/١٠ـ٦٥٦.

❖ مسألة: هل الحسنات والأعمال الصالحة تكفر الصغائر أو الكبائر؟

والجواب: أن هذه المسألة قد اختلف فيها على قولين:

قال ابن رجب رحمه الله: في جامع العلوم ١/ ٤٢٥ـ٤٢٦: «وقد اختلف في مسألتين: إحداهما: هل تكفر الأعمال الصالحة الكبائر والصغائر؟ أو لا تكفر سوى الصغائر؟

فمنهم قال: لا تكفِّر سوى الصغائر، وقد روي هذا عن عطاء، وغيره من السلف في الوضوء أنه يكفر الصغائر، وقال سلمان الفارسي في الوضوء: إنه يكفر الجراحات الصِّغار، والمشيء إلى المساجد يكفر أكبر من ذلك، والصلاة تكفر أكبر من ذلك، خرجه محمد بن نصر المروزي.

وأما الكبائر فلا بد لها من التوبة؛ لأن الله أمر العباد بالتوبة، وجعل من لم يتب ظالماً، واتفقت الأمة على أن التوبة فرض، والفرائض لا تؤدى إلا بنية وقصد، ولو كانت الكبائر تقع مكفرة بالوضوء، والصلاة، وأداء بقية أركان الإسلام ـ لم يحتج إلى التوبة، وهذا باطل بالإجماع».

ثم ساق رحمه الله جملة من الأقوال والآثار في تأييد هذا القول.

وانتقل بعد ذلك إلى القول الثاني في هذه المسألة، فقال ٤٢٨/١: «وذهب قوم من أهل الحديث، وغيرهم إلى أن هذه الأعمال تكفر الكبائر ومنهم ابن حزم الظاهري، وإياه عنى ابن عبد البر في كتاب «التمهيد» بالرد عليه، وقال: قد كنت أرغب بنفسي عن الكلام في مثل هذا الباب لولا قول ذلك القائل، وخشيت أن يغتر به جاهل، فينهمك في الموبقات؛ اتكالاً على أنها تكفرها الصلوات دون الندم، والاستغفار والتوبة» ا.هـ

ثم قال ابن رجب ٤٢٩/٢ رحمه الله: «والصحيح قول الجمهور: إن الكبائر لا تكفَّر بدون التوبة؛ لأن التوبة فرض على العباد».

ثم ساق جملة من الآثار التي تؤيد هذا القول. =

= ثم قال ٤٣٨/٢: «والأظهر ـ والله أعلم في هذه المسألة ـ أعني مسألة تكفير الكبائر بالأعمال ـ أنه إن أريد أن الكبائر تمحى بمجرد الإتيان بالفرائض، وتقع الكبائر مُكفَّرة بذلك كما تكفر الصغائر باجتناب الكبائر ـ فهذا باطل.

وإن أريد أنه يوازَن يوم القيامة بين الكبائر وبين بعض الأعمال، فتمحى الكبيرة بما يقابلها من العمل، ويسقط العمل؛ فلا يبقى له ثواب فهذا يقع».

إلى أن قال ٤٤٠/٢: «وظاهر هذا أنه تقع المقاصَّةُ بين الحسنات والسيئات، ثم تسقط الحسنات المقابلة للسيئات، وينظر إلى ما يَفْضُل بعد المقاصة.

وهذا يوافق قول من قال بأن من رجحت حسناته على سيئاته بحسنة واحدة أثيب بتلك الحسنة خاصة، وسقط باقي حسناته في مقابل سيئاته، كأنها لم تكن.

وهذا في الكبائر، أما الصغائر فإنها تمحى بالأعمال الصالحة مع بقاء ثوابها» ا. هـ.

هذا وقد رجح شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن الحسنات الماحية تكفر الكبائر بدون التوبة.

قال رحمه الله في مجموع الفتاوى ٤٨٩/٧ بعد أن ذكر السبب الثالث من الأسباب التي تزول بها عن العبد عقوبة الذنوب، وهو الحسنات الماحية قال: «وسؤالهم على هذا الوجه أن يقولوا: الحسنات إنما تكفر الصغائر فقط.

أما الكبائر فلا تغتفر إلا بالتوبة كما جاء في بعض الأحاديث: «ما اجتنبت الكبائر» فيجاب عن هذا بوجوه» ا. هـ.

ثم ذكر رحمه الله خمسة وجوه بيَّن من خلالها أن الحسنات تكفِّر الكبائر.

ومما قال رحمه الله من الوجوه التي أيَّد بها كلامه ما يلي:

«**أحدهما**: أن هذا الشرط ـ يعني ما اجتنبت الكبائر ـ جاء في الفرائض، كالصلوات الخمس، والجمعة، وصيام رمضان، وذلك أن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (النساء: ٣١).

فالفرائض مع ترك الكبائر مقتضية لتكفير السيئات، وأما الأعمال الزائدة من التطوعات فلابد أن يكون لها ثواب آخر؛ فإن الله ـ سبحانه ـ يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ❁ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧ ـ ٨).

الثاني: أنه قد جاء التصريح في كثير من الأحاديث بأن المغفرة قد تكون مع الكبائر، كما في قوله ﷺ: =

«**غفر له وإن كان فر من الزحف**».

٢ـ الدعاء، وسؤال الله المغفرة سواء كان من المذنب لنفسه، أو ما يبذله له إخوانه المسلمون، وهذا ما عناه بقوله: «**ودعوة تجاب من الجاني**».

قال الله ـتعالىـ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠).

= وفي السنن: «أتينا رسول الله ﷺ في صاحب لنا قد أوجب، فقال: «**أعتقوا عنه يعتقِ الله عنه بكل عضو عضواً من النار**».

وفي الصحيحين من حديث أبي ذر: «**وإن زنا وإن سرق**».

الثالث: أن قوله لأهل بدر ونحوهم: «**اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» إن حُمِل على الصغائر، أو على المغفرة مع التوبة لم يكن فرق بينهم وبين غيرهم؛ فكما لا يجوز حمل الحديث على الكفر؛ لما قد عُلِمَ أن الكفر لا يغفر إلا بالتوبة ـ لا يجوز حمله على الصغائر المُكَفَّرةِ باجتناب الكبائر».

ثم ذكر رحمه الله الوجهين الرابع، والخامس، وأطال فيهما. انظر مجموع الفتاوى ٧/٤٨٩ـ٤٩٨.

والمقام لا يتسع لإيرادهما، وإنما المقصود هو الوقوف على رأي شيخ الإسلام في هذه المسألة.

مسألة مهمة في تكفير الأعمال الصالحة للسيئات، ومنها الكبائر:

وبعد أن تبين ـ من خلال ما مضى ـ بعض أقوال أهل العلم في هذه المسألة، وأن بعضهم-ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية-يرى أن الحسنات الماحية، والأعمال الصالحة تكفر الكبائر بدون التوبة-فإنه يحسن الوقوف على مسألة مهمة في هذا الباب تتبين من خلال التساؤل الآتي:

هل الأعمال الصالحة تقوى على تكفير الكبائر بإطلاق؟

والجواب: أن الأعمال الصالحة قد لا تقوى على الكبائر؛ ذلك أن الأعمال إنما تتفاضل بحسب إحسان العمل، وبحسب ما يقوم بالقلب من حقائق الإيمان؛ فتكفير العمل للسيئات بحسب كماله، ونقصانه.

ولا ريب أن الكبائر والذنوب عموماً تضعف القلب، وتعطل سيره إلى الله والدار الآخرة، وعلى هذا فقد تكون الأعمال الصالحة ناقصة، ضعيفة لا تقاوم الكبائر؛ ولا تقوى على تكفيرها.

ولا يَردُ على هذا أن بعض النصوص صرحت بأن هناك أعمالاً غفر الله لأصحابها بسبب عمل صالح، كما في حديث البغي، وحديث صاحب البطاقة؛ ذلك أن الحالات الخاصة لا تعمم ولا تكون قاعدة مطردة بكل حال؛ فليس كل امرأة بغي تسقي كلباً يغفر لها، وليس كل من قال: «لا إله إلا الله» تنفعه كما نفعت صاحب البطاقة.

وقال النبي ﷺ: «**ينزل ربنا ـ تبارك وتعالى ـ كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**»(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في معرض حديث له عن بعض موانع إنفاذ الوعيد بعد أن ذكر التوبة: «الثاني: الاستغفار من غير توبة؛ فإن الله ـ تعالى ـ قد يغفر له؛ إجابة لدعائه وإن لم يتب؛ فإذا اجتمعت التوبة والاستغفار فهو الكمال»(٢).

ومعنى ذلك أن موجب الذنوب وهو العذاب قد يزول بالاستغفار وإن كان صاحبه مصراً بقلبه؛ فالاستغفار دعاء كغيره من الأدعية، والدعاء قد يجاب إذا توافرت أسبابه، وقد لا يجاب إذا لم تتوافر؛ فلا يلزم ـ إذاً ـ أن يقترن الاستغفار بالتوبة؛ فكل واحد منهما مانع مستقل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «بل الاستغفار بدون التوبة ممكن واقع، وبَسْط هذا له موضع آخر؛ فإن هذا الاستغفار إذا كان مع التوبة مما يحكم به ـ عامٌّ في كل تائب.

وإن لم يكن مع التوبة فيكون في حقٍّ بعض المستغفرين الذين يحصل لهم عند الاستغفار من الخشية، والإنابة ما يمحو الذنوب كما في حديث البطاقة بأن قول: لا إله إلا الله ثقلت بتلك السيئات؛ لمّا قالها بنوع من الصدق والإخلاص الذي

---

(١) أخرجه البخاري(١١٤٥) ومسلم(٧٥٨).

(٢) مجموع الفتاوى ١٠/٦٥٥.

يمحو السيئات.

وكما غفر للبغي بسقي الكلب، لِمَا حصل في قلبها إذ ذاك من الإيمان، وأمثال ذلك كثير»[1].

والأدلة على ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كثيرة، وقد مضى ذكر لشيء منها، ومن ذلك ما جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله ـ تعالى ـ: يا ابن آدم! إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم! لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم! لو أنك أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة**»[2].

قال ابن رجب رحمه الله في شرح هذا الحديث: «السبب الثاني للمغفرة: الاستغفار ولو عظمت الذنوب، وبلغت الكثرة[3] عنان السماء، وهو السحاب، وقيل: ما انتهى إليه البصر منها»[4].

وقال: «ومجرد قول القائل: «اللهم اغفر لي» طلب منه للمغفرة، ودعاء بها؛ فيكون حكمه كحكم سائر الدعاء؛ فإن شاء أجابه، وغَفَر لصاحبه لا سيما إذا خرج عن قلب منكسر بالذنب، أو صادف ساعة من ساعات الإجابة

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/٤٨٨ـ٤٨٩.

(٢) رواه الترمذي (٣٥٠) وقال: «حديث حسن».

(٣) هكذا في الأصل، ولعل الصواب: في الكثرة.

(٤) جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م، ٢/٤٠٧.

كالأسحار، وأدبار الصلوات»[١].

ومن الأدلة على ذلك ما جاء عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه -عز وجل- قال: «**أذنب عبد ذنباً فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال - تبارك وتعالى -: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أيْ ربّ اغفر لي ذنبي، فقال -تبارك وتعالى-: عبدي أذنب ذنباً، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد، فأذنب، فقال: أيْ ربّ اغفر لي ذنبي، فقال -تبارك وتعالى-: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت؛ فقد غفرت لك**»[٢].

وهكذا يتبين أن الاستغفار مانع مستقل عن التوبة[٣].

---

(١) جامع العلوم والحكم ٢/٤٠٨.

(٢) رواه مسلم (٢٧٥٨).

(٣) هناك فروق بين التوبة والاستغفار، ومن ذلك ما يلي:

١- يختلفان في أصل المادة؛ فمادة التوبة: تَوَب، ومادة الاستغفار: غفر.

٢- يختلفان في التعريف، فالتوبة مرَّ تعريفها، والاستغفار هو طلب المغفرة، وهي وقاية شر الذنوب مع سترها.

٣- الاستغفار قد يكون مع الإصرار على الذنب، أما التوبة فلا تكون إلا بالإقلاع، وترك الإصرار.

٤- التوبة تقبل، وتمحى بها الذنوب، وقد تبدل حسنات إذا كانت التوبة حسنةً نصوحاً.

أما الاستغفار فهو مجرد دعاء كسائر الأدعية قد يقبل وقد لا يقبل، قال -تعالى-: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ (غافر: ٣).

٥- الاستغفار يقوم به الإنسان عن نفسه، وعن غيره من إخوانه المسلمين، كما قال -تعالى- عن نوح -عليه السلام-: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ (نوح: ٢٨).

أما التوبة فلا يقوم بها إلا الإنسان المريد لها؛ إذ لا يصح أن يتوب أحد عن أحد. =

=٦ـ أنه جاء الأمر من الله ـعز وجل ـ بأن يستغفر المؤمن لذنبه، ويستغفر للمؤمنين والمؤمنات، كما قال ـعز وجل ـ: ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (محمد: ١٩).

ولم يجئ الأمر بأن يتوب عن أحد من الناس.

٧ـ أن المسلم يؤجر إذا استغفر للمؤمنين والمؤمنات، فيكون له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة إذا هو استغفر لهم.

قال النبي ﷺ: «من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة».

ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٢١٠/١٠، وقال: «إسناده جيد»، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٢٦).

أما التوبة فلا يتأتى فيها مثل ذلك؛ لما سبق من أنه لا يتوب أحد عن أحد.

٨ـ أن الملائكة ـ عليهم السلام ـ يستغفرون للذين آمنوا، ولم يأتِ أنهم يتوبون عنهم؛ لما تقرر آنفاً.

قال ـتعالى ـ: ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ (غافر: ٧).

٩ـ أن التوبة تنتهي بغرغرة الإنسان، أي إذا كان في سياق الموت، فلا يمكنه التوبة في ذلك الوقت، ولا بعده.

أما الاستغفار فقد يُستغفر للإنسان إذا كان حياً، أو في سياق الموت، أو بعد الموت.

١٠ـ أن الاستغفار له أوقات مطلقة، ومقيدة؛ فالمطلق أن يستغفر الإنسان في كل وقت.

والمقيد كالاستغفار في الجلوس بين السجدتين، وكالاستغفار بعد التسليم من الصلاة، وكالاستغفار بعد الإفاضة من الحج، وكالاستغفار بالأسحار.

أما التوبة فتشرع في كل وقت، بل لا يجوز تأخيرها، ولا التسويف فيها، ما دام الإنسان لم يغرغر، والشمس لم تطلع من مغربها.

١١ـ قد يقال: إنهما إذا افترقا اجتمعا، فإذا ذكر الاستغفار وحده في سياق دخلت معه التوبة، وإذا ذكرت وحدها شملت الاستغفار؛ فالتوبة تتضمن الاستغفار، والاستغفار يتضمن التوبة؛ فكل واحد منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق، أي إذا ذكر كل واحد منهما على حِدَةٍ. =

=١٢- وإذا اجتمعا افترقا؛ فعند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى كما في قوله -تعالى-: ﴿ وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ (هود:٣) يكون الاستغفار طلبَ وقاية شر ما مضى، وتكون التوبة: الرجوع، وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل.

١٣- وعند اقترانهما - أيضاً - يكون الاستغفار عبارةً عن طلب المغفرة باللسان، والتوبة عبارة عن الإقلاع عن الذنوب بالقلب، والجوارح.

١٤- الاستغفار يكون بصيغة طلب، كقولك: «رب اغفر لي» والتوبة طلب، وعزم، وندم، وفعل، وترك.

١٥- التوبة قد يترتب عليها تخلص من حقوق، وتحلل من مظالم، أما الاستغفار فهو مجرد دعاء كسائر الأدعية التي يدعو بها الإنسان لنفسه، أو لغيره.

١٦- التوبة تكون من الله، وتكون من العبد، والله -عز وجل- تواب، والعبد تواب؛ والله -عز وجل- يتوب، والعبد يتوب؛ فإذا كانت التوبة من الله عُدِّيت بـ: على، وإذا كانت من العبد إلى الله عُدِّيت بـ: إلى؛ كما قال -عز وجل-: ﴿ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ (النساء:١٧) وقال: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً ﴾ (النور:٣١).

أما الاستغفار فلا يقال فيه كذلك، بل يقال: إن الله غافر، والعبد مستغفر.

١٧- التوبة لا بد أن تكون بقصد ونية، أما الاستغفار فقد يُبذل للإنسان دون قصده، ودون نيته، بل ربما دون علمه.

١٨- أن الله -عز وجل- يفرح بتوبة التائب، كما في حديث: «لله أفرح بتوبة العبد» الحديث.

ولم يرد أنه -عز وجل- يفرح بالاستغفار بل ولا غيره من سائر العبوديات إلا التوبة.

وليس معنى ذلك أن تلك العبوديات ليست محبوبة لله، وإنما المقصود أن الفرح خاص بالتوبة.

١٩- أن التوبة تقبل، بل وتطلب من كل أحد مؤمناً كان أم كافراً، براً أم فاجراً.

أما الاستغفار فلا يقبل إلا من المؤمن، وللمؤمن؛ فلا يقبل من الكافر، ولا يجوز أن يستغفر للكافر، قال -تعالى-: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (التوبة:٨).

وقال: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى ﴾ (التوبة:١١٣). =

٣ـ الشفاعة؛ فهي من موانع إنفاذ الوعيد، وهي ما عناه بقوله: «ورُبَّ شفاعة».

والشفاعة في اللغة: من الشفع، وهو ضد الوتر؛ لأن المشفوع له صار شِفعاً بالشافع.

وتعريفها عرفاً وشرعاً هو:

أـ سؤال الشافع الخيرَ لغيره.

بـ أو: توسط الشافع لغيره بجلب نفع أو دفع ضر.

جـ أو: هي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم[1].

والناس في الشفاعة عى ثلاثة أقسام:

الأول: قسم غلا في إثباتها: وهم النصارى، والمشركون، وغلاة الصوفية، والقبوريون؛ حيث جعلوا شفاعة من يعظمونه عند الله يوم القيامة كشفاعته في الدنيا؛ حيث اعتقدوا أن هؤلاء المعظمين يشفعون استقلالاً.

=٢٠ـ أن التوبة تكون من فعل محرمٍ أو مكروهٍ، أو تركِ واجبٍ أو مستحب.

أما الاستغفار فيكون عن ذلك، وقد لا يكون عن شيء من ذلك، بل قد يقوله الإنسان كذكرٍ مجردٍ، يرجو به الدرجات والحسنات.

انظر الوصية الصغرى لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد الحمد، دار ابن خزيمة، الرياض، ط١، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م، ص١٠٩ـ١١٣، وجامع العلوم والحكم ٢/٤٠٧، ونتائج الأفكار في شرح حديث سيد الاستغفار للشيخ العلامة محمد بن أحمد السفاريني، أشرف عليه عبد العزيز بن سليمان الهبدان، وعبد العزيز بن إبراهيم الدخيل، دار الصميعي للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م، ص٢٨٥ـ٢٩٢.

(١) انظر المفردات ص٢٧٢ـ٢٧٣.

الثاني: قسم أنكر الشفاعة: كالمعتزلة، والخوارج؛ حيث أنكروا شفاعة النبي ﷺ وغيره لأهل الكبائر، وقصروا الشفاعة على التائبين من المؤمنين؛ لأن إثبات الشفاعة للفساق ينافي مبدأ الوعيد في مذهبهم الباطل؛ فهم يرون وجوب إنفاذ الوعيد لمن استحقه، ولا يرون الشفاعة له من النبي ﷺ ولا من غيره.

الثالث: قسم توسط: وهم أهل السنة والجماعة؛ فلم ينفوا كل شفاعة، ولم يثبتوا كل شفاعة.

بل أثبتوا من الشفاعة ما دلَّ عليه الدليل من الكتاب والسنة، ونفوا منها ما نفاه الدليل؛ فالشفاعة المثبتة عندهم هي التي تطلب من الله -عز وجل- وهي التي تكون للموحدين بعد إذن الله للشافع، ورضاه عن المشفوع له؛ فلا تطلب من غير الله، ولا تكون إلا بعد إذنه ورضاه.

فهذه الشفاعة يثبتها أهل السنة بأنواعها، بما في ذلك الشفاعة لأهل الكبائر.

أما الشفاعة المنفية عند أهل السنة فهي التي نفاها الشرع، وهي التي تطلب من غير الله استقلالاً، ولم تتوافر فيها شروط الشفاعة.

ومن خلال ما مضى تبين لنا أن الشفاعة نوعان:

إحداهما مثبتة: وهي التي توافرت فيها شروط الشفاعة.

والأخرى منفية: وهي التي لم تتوافر فيها تلك الشرط.

شروط الشفاعة: للشفاعة المثبتة شرطان، وهما:

١- **إذن الله للشافع**، قال الله -تعالى-: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

٢ـ **رضاه عن المشفوع له**، قال ـتعالى ـ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ (الأنبياء: ٢٨).

وبعضهم يزيد شرطين، وهما:

٣ـ **قدرة الشافع على الشفاعة**، كما قال ـتعالى ـ في حق الشافع الذي يُطلب منه: ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦)﴾ (الزخرف).

فَعُلم أن طلبها من الأموات طلب ممن لا يملكها.

٤ـ **إسلام المشفوع له**، قال ـتعالى ـ: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (غافر: ١٨).

والمراد بالظالمين هنا: الكافرون، ويستثنى منهم أبو طالب.

أنواع الشفاعة المثبتة:

قال الله ـتعالى ـ: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ (الزمر: ٤٤).

فهذه الآية تدل على أن للشفاعة أنواعاً متعددة، وفيما يلي ذكر لتلك الأنواع:

١ـ الشفاعة الكبرى التي يتأخر عنها أولو العزم من الرسل، حتى تنتهي إلى النبي ﷺ فيقول: «**أنا لها**» حين تهرع الخلائق إلى الأنبياء؛ ليشفعوا لهم عند ربهم؛ ليريحهم من مقامهم في الموقف، ويقضي بينهم.

وهذه الشفاعة خاصة بالنبي ﷺ.

٢ـ شفاعة النبي ﷺ لأهل الجنة بدخولها، وهذه ـأيضاًـ خاصة بالنبي ﷺ.

٣ـ الشفاعة لقوم من العصاة من أمة محمد ﷺ قد استوجبوا النار، فيشفع لهم

النبي ﷺ ألا يدخلوها.

وهذه للنبي ﷺ ولغيره من الملائكة، والمؤمنين.

٤ـ الشفاعة للعصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم بأن يخرجوا منها.

وهذه للنبي ﷺ وغيره.

٥ـ الشفاعة لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم، ورفع درجاتهم.

وهذه للنبي ﷺ وغيره.

٦ـ شفاعة النبي ﷺ لعمه أبي طالب بأن يخفف عنه من عذاب أهل النار، وهذه خاصة بالنبي ﷺ.

٧ـ شفاعة الأفراط لوالديهم المؤمنين.

٨ـ شفاعة الشهداء لذويهم من المؤمنين.

٩ـ شفاعة المؤمنين بعضهم لبعض[1].

---

(١) انظر في تفاصيل الحديث عن الشفاعة وأدلتها، والرد على المخالفين فيها إلى كتاب الشفاعة عند أهل السنة والجماعة والرد على المخالفين فيها، د. ناصر بن عبدالرحمن الجديع، ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م، دار أطلس، وكتاب الشفاعة، للشيخ مقبل بن هادي الوادعي، ط١، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م، مطبعة المدني، ص١٦٨ـ٢٠١.

شرح البيت الحادي والثمانين

٨١ـ وقولُ حليف الشرِّ[١]: إني مقدرٌ علـيَّ كقول الذئب[٢]: هذي طبيعتي

قوله: «**حليف الشر**»: الحليف الملازم للشيء، الذي لا يفارقه، مأخوذ من الحلف وهو اليمين، كأنه حلف ألا يفارقه.

ومنه قول العرب: فلان حليف لفلان، أي تحالفا أن يتعاضدا، ويتناصرا، ويتوارثا، ويلازم أحدهما صاحبه[٣].

وقوله: «**هذي طبيعتي**»: أي ما جبلت عليه[٤].

ومعنى البيت: أن قول المحتج بالقدر على الذنب: إني مقدر علي ذلك كقول الحيوان الشرير طبعاً كالذئب، وسائر السباع والهوام المؤذية كالحية، والعقرب: هذه طبيعتي التي جبلت عليها؛ فلا تلوموني.

فلو عُذر الحيوان المذكور بهذا لَعُذِرْتَ أنت كما قلت، لكنه لا يعذر، بل إنَّ مَنْ كان طبعه كذلك فإنه يقتل؛ اتقاءً لشره؛ فإذاً أنت لا تعذر بقولك، بل تعذب على فعلك، وإن كان مقدراً عليك[٥].

---

(١) في عقود: الشعر.

(٢) في ب و عقود: الذيب.

(٣) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٤٢.

(٤) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٤٢.

(٥) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٤١.

شرح البيت الثاني والثمانين

٨٢ـ وتقديره للفعل يجلب نقمة[١] كتقديره الأشياء[٢] طراً بعلةِ

قوله: «**نقمةً**»، جاء في الدرة البهية: «نعمة».

والنقمة: هي العقوبة[٣].

فعلى رواية: نقمة يكون معنى البيت أن تقدير الأفعال السيئة يترتب عليه شرور ومصائب وعقوبات، كسنته -عز وجل- في تقدير الأمور كلها؛ حيث يترتب عليها ما يلائمها، كما مرَّ في شرح البيت السادس والسبعين، والسابع والسبعين، والثامن والسبعين.

وعلى رواية «**نعمة**» يكون معنى البيت أن الله - عز وجل - إذا قدر شيئاً كان له في ذلك تمام الفضل والنعمة والحكمة؛ إذ هو - عز وجل - لا يقضي قضاءً إلا وله الحكمة البالغة فيه، حتى الذنوب -كما سيأتي بيان ذلك مفصلاً- بعد قليل.

---

(١) في الدرة: نعمة.

(٢) في ط و ب و ج، و هـ: الآثار.

(٣) انظر المفردات ص٥٢٧.

شرح البيت الثالث والثمانين

٨٣ـ فهل[١] ينفعن عُذْرُ[٢] الملوم بأنه[٣] كـذا طبعـه أم هـل يقـال لعثـرةِ

قوله: «**يقال لعثرة**»: معنى يقال ههنا من الإقالة: وهي الصَّفح، كما في قولهم: أقال الله فلاناً عثرته بمعنى صفح عنه[٤].

والعثرة هي الزلة والكبوة[٥] فإقالة العثرة -إذاً- هي غَفْرُ الذنب، والعفو عن الزلة[٦].

ومعنى البيت أن يقال: هل ينفع الجاني المذنب إذا قال: هذا طبعي الذي لا أنفَكُّ عنه؟ وهل يقبل عذره، ويعفى عن زللـه وجرمه؟

---

(١) في ط: وهل.

(٢) في الدرة البهية: (فهل يرفعن ذم الملوم)، وفي أ: (فهل يرفعن ذنب)، وفي ج: (فلم ينفعن عذر الملوم لأنه).

(٣) في عقود: لأنه.

(٤) انظر لسان العرب ٥٨١/١١.

(٥) انظر لسان العرب ٥٣٩/٤.

(٦) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٤٢.

شرح البيت الرابع والثمانين

٨٤ـ أم الـذمُّ والتعـذيب أوكـد للـذي طبيعتـه فعـل الـشرور الـشنيعة

قوله: «الشنيعة»: أي الفظيعة القبيحة[1].

أي أن الذم، واللوم، واستحقاق العذاب إنما هو لمن كانت طبيعته وقوته متوجهة إلى الشرور والمعاصي؛ إذ هو أغلظ جرماً، وأشد عقوبة ممن ألمَّ بجرم عارض، ولم يكن ذلك شراً متمكناً فيه؛ فاحتجاجك ـأيها السائلـ بأن طبعك كذا مؤكد لاستحقاقك اللوم.

قال الطوفي رحمه الله في شرح الأبيات السابقة: «وتقرير مضمون الأبيات أن قول القائل: أنا مُقدَّر علي ـ كقول الحيوان الشرير طبعاً كالذئب، وسائر السباع والهوام المؤذية كالحية والعقرب: هذي طبيعتي التي جبلت؛ فلو عُذر الحيوان المذكور بهذا لعذرتَ أنت ـكما قلتَـ.

لكنا اتفقنا على قتل ما هذا طبعه؛ اتقاءَ شره؛ فإذاً لا تعذر أنت بقولك، بل تعذب على فعلك وإن كان مقدوراً عليك، وأنت مجبول عليه، ولأن المطبوع على الشر أولى، وأحق بالذم والتعذيب؛ لكون شره طبيعياً جبلياً غريزياً لازماً لا مفارقاً؛ فاحتجاجك بأن طبعك كذا مؤكد لاستحقاقك اللوم.

واعلم أن هذا إلزام متين يقود ذا العقل السليم إلى الإذعان، والتسليم؛ لأن الحيوانات المؤذية لا قدرة لها على اكتساب طبيعة الشر، وإلا لألقت الحية سُمَّها، وصارت كما كانت في الجنة، بل طبعها الله على حمل السم قهراً، وأمر بقتلها،

---

(١) انظر لسان العرب ٨/١٨٦ـ١٨٧.

ولم يعذرها بقضائه عليها، وكذلك الكلام في عصاة العقلاء ولا فرق»[١].

مسألة: في الحكمة مِنْ خلق المعاصي وتقديرها:

قد مر بنا أن الله -عز وجل- له الحكمة البالغة فيما يقدره ويقضيه، كما مر ذكر لبعض الأمثلة الدالة على حكمة الله -عز وجل-.

والحديث في هذا المبحث إنما هو إتمام لما مضى ذكره، وأفرد هاهنا لكثرة الشبهات حوله، ولقلة الحديث عنه، ولكونه مرتبطاً بكثير من مباحث هذا الكتاب؛ فهل هناك من حكم لخلق المعاصي وتقديرها؟

والجواب عن هذا الإشكال أن لخلق المعاصي وتقديرها حِكَماً عظيمة، وأسراراً بديعة، باهرة، ولكن الحديث عن ذلك قليل جداً.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «وهذا باب عظيم من أبواب المعرفة قلَّ من استفتحه من الناس، وهو شهود الحكمة البالغة من قضاء السيئات وتقدير المعاصي.

وإنما استفتح الناس باب الحكم في الأوامر والنواهي، وخاضوا فيها، وأتوا بما وصلت إليه علومهم.

واستفتحوا -أيضاً- بابها في المخلوقات -كما قدمناه- وأتوا بما وصلت إليه قواهم.

وأما هذا الباب فكما رأيت كلامهم فيه، فقلَّ أن ترى لأحدهم ما يشفي، أو يلم.

وكيف يطّلع على حكمة هذا الباب من عنده أن أعمال العباد ليست مخلوقة لله ولا داخلة تحت مشيئته أصلاً؟ وكيف يتطلب لها حكمة، أو يثبتها، أم كيف

---

(١) شرح جواب ابن تيمية ص٤٢-٤٣.

يطلع من يقول: هي خلق الله، ولكن أفعاله غير معللة بالحكم؟»[١].

إلى أن قال: «والمقصود أن مشاهدة حكمة الله في أقضيته وأقداره التي يجريها على عباده باختياراتهم وإراداتهم هي ألطف ما تكلم فيه الناس، وأدقُّه، وأغمضه، وفي ذلك حِكَمٌ لا يعلمها إلا الحكيم العليم -سبحانه- ونحن نشير إلى بعضها»[٢].

ثم شرع رحمه الله في ذكر العديد من الحكم في هذا الشأن، **فمن الحكم من خلق المعاصي وتقديرها ما يلي**[٣]:

١ـ **أن الله يحب التوابين**: حتى إنه ليفرح بتوبة أحدهم أعظم من فرح الواحد براحلته التي عليها طعامه، وشرابه في الأرض الدوية المهلكة إذا فقدها وأيس منها.

وليس من أنواع الفرح أكمل وأعظم من هذا الفرح؛ فالله -عز وجل- يقضي على عبده بالذنب، ثم إن كان ممن سبقت له الحسنى قضى له بالتوبة، وإن كان ممن غلبت عليه الشقاوة أقام عليه حجة عدله، وعاقبه بذنبه.

قال ﷺ: «**لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومةً، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله.**

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/٢٨٦.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/٢٨٦.

(٣) الكلام في هذا أكثره مستفاد من مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/٢٨٦-٢٩٩، فهو رحمه الله أبرز من تكلم في هذا الموضوع الدقيق، بل لا تكاد تجد لغيره كلاماً جامعاً في هذا الباب.

قال: أرجع إلى مكاني، فرجع فنام نومةً، ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده»[1].

قال ابن القيم رحمه الله تعليقاً على هذا الحديث: «ولم يجيء هذا الفرح في شيء من الطاعات سوى التوبة، ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيراً عظيماً في حال التائب وقلبِه، ومزيدُه لا يُعبَّر عنه.

وهو من أسرار تقدير الذنوب على العباد؛ فإن العبد ينال بالتوبة درجة المحبوبية، فيصير حبيباً لله؛ فإن الله يحب التوابين، ويحب العبد المفتن التواب»[2].

٢ـ أن الله ـعز وجلـ يحب أن يتفضل على عباده: ويتم نعمه عليهم، ويريهم مواقع بره وكرمه؛ فلذلك ينوعه عليهم أعظم الأنواع في سائر الوجوه الظاهرة والباطنة.

ومن أعظم ذلك أن يحسن إلى من أساء، ويعفو عمن ظلم، ويغفر لمن أذنب، ويتوب على من تاب إليه، ويقبل عذر من اعتذر إليه.

وقد ندب عباده إلى هذه الشيم الفاضلة، والأفعال الحميدة، وهو أولى بها منهم وأحق، وكان في تقدير أسبابها من الحكم والعواقب الحميدة ما يبهر العقول.

هذا ولو شاء الله ألا يُعصى في الأرض طرفة عين لم يُعْصَ، ولكن اقتضت مشيئته ما هو موجب حكمته ـسبحانهـ[3].

٣ـ أن يعرف العبد حاجته إلى حفظ الله له، ومعونته، وصيانته: وأنه كالوليد

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٨) ومسلم (٢٧٤٤).

(٢) مدارج السالكين ١/٣٠٦، وانظر كلامًا جميلاً في المدارج ١/٢٢٦ـ٢٣٠ حول معنى فرح الله ـعز وجلـ بتوبة التائب.

(٣) انظر مدارج السالكين ١/٢٢٣.

في حاجته إلى من يحفظه؛ فإنه إن لم يحفظه مولاه، ويصونَه، ويعينه فهو هالك ولابد[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد مدَّت الشياطين أيديها إلى العبد من كل جانب، تريد تمزيق حاله كله، وإفساد شأنه كله، وأن مولاه إن وكله إلى نفسه وكله إلى ضيعة وعجز وذنب وخطيئة وتفريط؛ فهلاكه أدنى إليه من شراك نعله؛ فقد أجمع العلماء بالله على أن التوفيق ألا يكل اللهُ العبدَ إلى نفسه، وأجمعوا على أن الخذلان أن يخلي بينه وبين نفسه»[٢].

٤ـ استجلاب العبوديات المتنوعة من العبد إذا أذنب: من استعاذة، واستعانة، ودعاء، وتضرع، مما هو من أعظم أسباب سعادته وفلاحه؛ فيحصل للروح بذلك قرب خاص لم يكن يحصل بدون هذه الأسباب، ويجد العبد نفسه كأنه ملقى على باب مولاه بعد أن كان نائياً عنه؛ فهو لا يرى نفسه إلا مسيئاً، ولا يرى ربَّه إلا محسناً، قد كسر إزراؤه على نفسه قلبَه، وذلل لسانُه جوارحَه؛ فلو لم يكن من ثمرات ذلك القضاء والقدر إلا هذا لكفى به حكمة وكفى[٣].

٥ـ استخراج تمام العبودية: وذلك بتكميل مقام الذل والانقياد؛ فأكمل الخلق عبودية أكملهم ذلاً لله، وانقياداً، وطاعة[٤].

٦ـ أن يعرف العبد حقيقة نفسه: وأنها الظالمة الجهول، وأن ما صدر منها من شر

---

(١) انظر مدارج السالكين ١/٢٢٢، ومفتاح دار السعادة ١/٢٨٨.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/٢٨٨.

(٣) انظر مدارج السالكين ١/٢٢٤، ومفتاح دار السعادة ١/٢٨٨ـ٢٨٩.

(٤) انظر مدارج السالكين ١/٢٢٤، ومفتاح دار السعادة ١/٢٨٨.

فقد صدر من أهله ومعدنه؛ إذ الجهل والظلم منبع الشر كله، وأن كل ما فيها من خير، وعلم، وهدى، وإنابة، وتقوى فهو من ربها الذي زكاها به، وأعطاها إياه.

فإذا ابتلي العبد بالذنب عرف نفسه، ونَقْصَها؛ فَرُتِّبَ له على ذلك حِكَمٌ ومصالح عديدة، منها أن يأنف نقصها، ويجتهد في كمالها، ومنها أن يعلم فقرها إلى من يتولاها ويحفظها[١].

٧ـ تعريف العبد بكرم الله، وستره، وسعة حلمه: وأنه لو شاء لعاجله على الذنب، ولهتك ستره بين العباد، فلم يَطِبْ له عيشٌ معهم أبداً.

ولكنه ـعز وجلـ جلَّله بستره، وغشاه بحلمه، وقيَّض له من يحفظه وهو في حالته هذه، بل كان شاهداً عليه وهو يبارزه بالمعاصي والآثام، ومع ذلك يحرسه بعينه التي لا تنام[٢].

٨ـ تعريف العبد بكرم الله في قبول التوبة: فلا سبيل إلى النجاة إلا بعفو الله وكرمه ومغفرته، فهو الذي جاد عليه بأن وفقه للتوبة، وألهمه إياها، ثم قبلها منه، فتاب عليه أولاً وآخراً[٣].

٩ـ إقامة الحجة على العبد: فإذا أصابه ما أصابه فلا يقل: من أين أُتيت، ولا بأي ذنب أُصبت؛ فما أصاب العبد من مصيبة قط دقيقة أو جليلة إلا بما كسبت يده، وما يعفو الله أكثر[٤].

---

(١) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٩٠، ومدارج السالكين ١/٢٣٥.

(٢) انظر مدارج السالكين ١/٢٢٣، ومفتاح دار السعادة ١/٢٩٠.

(٣) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٩١.

(٤) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٩١، ومدارج السالكين ١/٢٣٢ـ٢٣٤.

١٠ـ أن يعامل العبد بني جنسه بما يحب أن يعامله الله به: فيعامل بني جنسه في زلاتهم وإساءاتهم بما يحب أن يعامله الله في إساءته، وزلاته، وذنوبه؛ فإن الجزاء من جنس العمل، فمن عفى عفى الله عنه، ومن سامح أخاه سامحه الله، ومن استقصى استقصى الله عليه، وهكذا...

ثم إذا علم أن الذنوب والإساءة لازمة للإنسان لم تعظم عنده إساءة الناس إليه؛ فليتأمل حاله مع ربه، كيف هو مع فرط إحسانه إليه، وحاجته هو إلى ربه، وهو هكذا له؛ فإذا كان العبد هكذا لربه فكيف ينكر أن يكون الناس له بتلك المنزلة؟[١]

١١ـ إقامة المعاذير للخلائق: فإذا أذنب العبد أقام المعاذير للخلائق، واتسعت رَحمته لهم، واستراح من الضيق والحصر، وأَكْلِ بعضه بعضاً، واستراح العصاة من دعائه عليهم، وقنوطه من هدايتهم؛ فإنه إذا أذنب رأى نفسه واحداً منهم، فهو يسأل الله لهم المغفرة، ويرجو لهم ما يرجوه لنفسه، ويخاف عليهم ما يخافه على نفسه.

ومع هذا فيقيم أمر الله فيهم؛ طاعةً لله، ورحمةً بهم، وإحساناً إليهم؛ إذ هو عين مصلحتهم، لا غلظة، ولا قوة، ولا فظاظة[٢].

١٢ـ أن يخلع العبد صولة الطاعة من قلبه: وينزع داء الكبر والعظمة الذي ليس له، ويلبس رداء الذل، والانكسار، والفقر والفاقة؛ فلو دامت تلك الصولة والعزة في قلبه لخيف عليه مما هو أعظم الآفات؛ فكم بين آثار العجب

(١) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٩١ـ٢٩٢.

(٢) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٩٢.

والكبر وصولة الطاعة، وبين آثار الذلة والمسكنة والانكسار؟[(١)]

قال ابن القيم رحمه الله: «وأكثر الناس من المتنزهين عن الكبائر الحسية والقاذورات - في كبائر مثلها أو أعظم منها أو دونها، ولا يخطر بقلوبهم أنها ذنوب ليتوبوا منها؛ فعندهم من الإزراء على أهل الكبائر واحتقارهم وصولة طاعتهم، ومنَّتهم على الخلق بلسان الحال، واقتضاء بواطنهم لتعظيم الخلق لهم على طاعتهم اقتضاءً لا يخفى على أحد غيرهم، وتوابع ذلك ما هو أبغض إلى الله، وأبعد لهم عن بابه من كبائر أولئك؛ فإن تدارك الله أحدهم بقاذورة أو كبيرة يوقعه فيها؛ ليكسِر بها نفسه، ويعرفه قدره، ويُذله بها، ويخرج بها صَوْلة الطاعة من قلبه - فهي رحمة في حقه، كما أنه إذا تدارك أصحاب الكبائر بتوبة نصوح، وإقبال بقلوبهم إليه - فهو رحمة في حقهم، وإلا فكلاهما على خطر»[(٢)].

ثم إن التذلل والانكسار والخضوع لب العبودية؛ إذ هذه الأعمال القلبية أحب إلى الله من كثير من الأعمال الظاهرة، وحصول ذلك للمذنب التائب أكمل له من غيره؛ فإنه قد شارك من لم يُذنب في ذل الفقر والعبودية والمحبة، وامتاز عنه بانكسار قلبه.

وقد جاء في الأثر الإسرائيلي: «يا رب أين أجدك؟

قال: عند المنكسرة قلوبهم من أجلي»[(٣)].

---

(١) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٩٢-٢٩٣.

(٢) مدارج السالكين ١/٢٠٥.

(٣) ذكره ابن القيم في مدارج السالكين ١/٣٠٦، وأورده في إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم الجوزية، تحقيق الشيخ محمد حامد الفقي (ب ت) ص٩٧ عن عمران بن موسى القصير=

ولأجل هذا كان «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»[(١)].

لأنه مقام ذل وانكسار بين يدي ربه.

ولعل هذا هو السر في استجابة دعوة المظلوم، والمسافر، والصائم؛ للكسرة في قلب كل واحد منهم؛ فإن لوعة المظلوم تُحْدِثُ عنده كسرة في قلبه، وكذلك المسافر في غربته يجد كسرة في قلبه، وكذلك الصوم، فإنه يكسر سورة النفس السَّبُعية الحيوانية.

١٣ـ هياج العبوديات القلبية وانبعاثها: ذلك أن لله على القلوب أنواعاً من العبودية، من الخوف، والخشية، والإشفاق، والوجل، وتوابعها من المحبة، والإنابة، وابتغاء الوسيلة وتوابعها.

وهذه العبوديات لها أسباب تهيجها وتبعث عليها؛ وكلما قيَّض الرب ـتعالىـ لعبده من الأسباب الباعثة على ذلك، المهيجة له فهو من أسباب رحمته، ورُبَّ ذنب قد هاج لصاحبه من الخوف، والإشفاق، والوجل، والإنابة، والمحبة، والفرار إلى الله ما لا يهيجه كثير من الطاعات، وكم من ذنب كان سبباً لاستقامة العبد، وفراره إلى الله، وبعده عن طريق الغي[(٢)].

=قال: قال موسى ـ عليه السلام ـ: «يا رب أين أبغيك؟ قال أبغني عند المنكسرة قلوبهم؛ فإني أدنو منهم كل يوم باعاً، ولولا ذلك لانهدموا».

ورواه ابن أبي الدنيا في الهم والحزن ص٥٦ بإسناده عن عبد الله بن شوذب قال: قال داود النبي: «أي ربِّ! أين ألقاك؟ قال: تلقاني عند المنكسرة قلوبهم».

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢).

(٢) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٩٣.

١٤ـ أن يعرف العبد نعمة معافاة الله وفضله، وتوفيقه له، وحفظه إياه: فإن من تربى في العافية لا يعلم ما يقاسيه المبتلى، ولا يعرف مقدار العافية؛ فلو عرف أهل الطاعة أنهم هم المنعم عليهم في الحقيقة لعلموا أن لله عليهم من الشكر أضعاف ما على غيرهم وإنْ توسَّدوا التراب، ومضغوا الحصى، فهم أهل النعمة المطلقة، وأنَّ من خلَّى الله بينه وبين معاصيه فقد سقط من عينه، وهان عليه.

فإذا طالبت العبدَ نَفْسُه بما تطالبه من الحظوظ والأقسام، وأَرَتْهُ أنه في بلية وضائقة تداركه الله برحمته، وابتلاه ببعض الذنوب، فرأى ما كان فيه من المعافاة والنعمة، وأنه لا نسبة لما كان فيه من النعم إلى ما طلبته نفسه من الحظوظ، فحينئذٍ يكون أكثر أمانيه وآماله العودَ إلى حاله، وأن يمتعه الله بعافيته[١].

١٥ـ أن التوبة توجب للتائب آثاراً عجيبة من المقامات التي لا تحصل بدونها: فتوجب له المحبة، والرقة، واللطف، وشكر الله، وحمده، والرضا عنه، فَرُتِّبَ له على ذلك أنواع من النعم لا يهتدي العبد لتفاصيلها، بل لا يزال يتقلب في بركتها، وآثارها ما لم ينقضها، أو يفسدها[٢].

١٦ـ استكثار القليل من النعم: فإذا شهد العبد ذنوبه، ومعاصيه، وتفريطه في حق ربه استكثر القليل من نعم ربه عليه ـولا قليل منهـ لعلمه أن الواصل إليه منها كثير على مسيء مثله، واستقل الكثير من عمله؛ لعلمه أن الذي ينبغي أن يغسل به أوضاره أضعافُ ما أتى به؛ فهو دائماً مستقل لعمله كائناً ما كان، مستكثر لنعمة الله عليه وإن دقَّت.

---

(١) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٩٣.

(٢) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٩٤.

قال ابن القيم رحمه الله عن هذا الوجه: «وهو من ألطف الوجوه؛ فعليك بمراعاته؛ فله تأثير عجيب، ولو لم يكن من فوائد الذنب إلا هذا لكفى؛ فأين حال هذا من حال من لا يرى لله عليه نعمة إلا ويرى أنه ينبغي أن يعطى ما هو فوقها وأجل منها»[١].

إلى أن قال عن هذا الضرب من الناس: «وهذا الضرب من الناس من أبغض الخلق إلى الله، وأشدهم مقتاً عنده، وحكمةُ الله تقتضي أنهم لا يزالون في سفال؛ فهم بين عتب على الخالق وشكوى له، وذلٍّ لخلقه وحاجة إليهم، وخدمة لهم»[٢].

١٧ـ أن الذنب يوجب لصاحبه التحرز والتيقظ من مصائد عدوه ومكائده: فيعلم من أين يدخل عليه اللصوص والقطاع ومكامنهم، ومن أين يخرجون عليه، وفي أي وقت يخرجون؛ فهو قد استعد لهم، وتأهب، وعرف بماذا يستدفع شرهم وكيدهم؛ فلو أنَّه مرَّ عليهم على غِرَّةٍ وطمأنينة لم يأمن أن يظفروا به، ويجتاحوه جملة[٣].

١٨ـ مراغمة الشيطان وإغاظته ومجاهدته: فالقلب يذهل عن عدوه، فإذا أصابه منه مكروه استجمعت له قوته، وطلب بثأره إن كان قلبه حرًّا كريماً.

كالرجل الشجاع إذا جرح فإنه لا يقوم له شيء، بل تراه بعدها هائجاً،

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/٢٩٤.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/٢٩٤.

(٣) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٩٥.

طالباً، مقداماً.

والقلب المهين كالرجل الضعيف المهين إذا جرح ولّى هارباً، والجراحات في أكتافه.

وكذلك الأسد إذا جرح فإنه لا يطاق؛ فلا خير فيمن لا مروءة له، لا يطلب أخذ ثأره من أعدى عدوٍّ له.

فما شيء أشفى للقلب من أخذه بثأره من عدوه، ولا عدوَّ أعدى له من الشيطان؛ فإن كان له قلب من قلوب الرجال المتسابقين في حلبة المجد جدَّ في أخذ الثأر، وغاظ عدوَّه كل الغيظ، وأضناه[1].

كما جاء عن بعض السلف: «إن المؤمن لَيُنْضِي شيطانه[2] كما ينضي أحدكم بعيره في سفره»[3].

١٩ـ معرفة الشر؛ حذر الوقوع فيه: فالذي يقع في الذنب يصير كالطبيب ينتفع به المرضى في علاجهم ودوائهم؛ فالطبيب الذي عرف المرض مباشرة، وعرف دواءه وعلاجه أحذق وأخبر من الطبيب الذي عرف الداء وصفاً فحسب.

هذا في أمراض الأبدان، وكذلك أمراض القلوب وأدواؤها.

ولذلك كان الصحابة ـرضي الله عنهمـ أعرف الأمة بالإسلام، وتفاصيله، وأبوابه، وطرقه، وأشد الناس رغبة فيه، ومحبةً له، وجهاداً لأعدائه؛ لعلمهم بضده.

---

(١) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٩٥.

(٢) ينضي شيطانه: أي يُهْزله، ويجعله نِضْواً. انظر لسان العرب ١٥/٣٣٠.

(٣) مفتاح دار السعادة ١/٢٩٥.

فإذا عرف العبد الضدين، وعلم مباينة الطرفين، وعرف أسباب الهلاك على التفصيل ـ كان أحرى أن تدوم له النعمة ما لم يؤثر أسباب زوالها على علم، وفي مثل هذا قال القائل:

عرفتُ الشرَّ لا للشرْ ... رِ لكنْ لتوقِّيه
ومن لا يعرف الشرَّ ... من الناس يقعْ فيه

وهذه حال المؤمن يكون فطناً حاذقاً أعرف الناس بالشر، وأبعدهم عنه؛ فإذا تكلم في الشر وأسبابه ظننته من شر الناس، فإذا خالَطْتَهُ، وعرفت طويته رأيته من أبر الناس.

والمقصود أن من بُليَ بالآفات صار أعرف الناس بطرقها، وأمكنه أن يسدها على نفسه، وعلى من استنصحه من الناس، ومن لم يستنصحه[1].

٢٠ـ ابتلاء العبد بالإعراض عنه: فالله ـعز وجلـ يذيق عبده ألم الحجاب عنه، وزوال ذلك الأنس به، والقرب منه؛ ليمتحن عبده، فإن أقام العبد على الرضا والحال، ولم يجد نفسه تطالبه بحالها الأول مع الله، بل اطمأنت وسكنت إلى غيره ـ علم أنه لا يصلح، فوضعه في مرتبته التي تليق به.

وإن استغاث استغاثة الملهوف، وتَقَلَّقَ تَقَلُّقَ المكروب، ودعاه دعاء المضطر، وعلم أنه قد فاتته حياته حقّاً، فهو يهتف بربه أن يرد عليه ما لا حياة له بدونه ـ علم أنه موضعٌ لما أُهِّلَ له، فردَّ عليه أحوج ما هو محتاج إليه، فعظمت به فرحته، وكملت به لذته، وتمت به نعمته، واتصل به سروره، وعلم حينئذٍ

(١) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٩٥ـ٢٩٦.

مقداره، فعضَّ عليه بالنواجذ، وثنَّى عليه بالخناصر؛ فالعبد إذا بُليَ بَعْدَ الأنْسِ بالوحشة، وبعد القرب بنار البعاد ـ اشتاقت نفسه إلى لذة تلك المعاملة، فحنَّتْ، وأَنَّتْ، وتصدَّعت، وتعرضت لنفحات مَنْ ليس لها عنه عوضٌ أبداً، ولاسيما إذا تذكر برَّه، ولطفه، وحنانه، وقربه[1].

٢١ـ أن الحكمة الإلهية اقتضت تركيب الشهوة والغضب في الإنسان: وهاتان القوتان فيه بمنزلة صفاته الذاتية التي لا ينفك عنهما، وبهما وقعت الفتنة والابتلاء.

وتركيب الإنسان على هذا الوجه هو غاية الحكمة، ولابد أن يقتضي كل واحد من القوتين أثره، فلابد من وقوع الذنب، والمخالفات والمعاصي.

ولو لم تُخلق في الإنسان لم يكن إنساناً، بل كان مَلَكاً، فأما من اكتنفته العصمة، وضُرِبَتْ عليه سرادقاتُ الحفظ ـ فهم أقل أفراد النوع الإنساني، بل هم خلاصته ولبه[2].

٢٢ـ أن الله إذا أراد بعبد خيراً أنساه رؤية طاعاته، ورفعها من قلبه ولسانه: فإذا ابتلي العبد بالذنب جعله نصب عينيه، وجعل همه كله بذنبه، فلا يزال ذنْبه أمامه إن قام أو قعد، أو غدا أو راح، فيكون هذا عين الرحمة في حقه، كما قال بعض السلف: «إن العبد ليعمل الخطيئةَ فلا تزال نصبَ عينيه كلما ذكرها بكى، وندم، واستغفر، وتضرع، وأناب إلى الله، وذل وانكسر، وعمل لها أعمالاً فتكون سبباً للرحمة في حقه.

---

(١) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٩٦.

(٢) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٩٧.

ويعمل الحسنة، فلا تزال نصب عينيه، يمن بها، ويراها، ويعتد بها على ربه، وعلى الخلق، ويتكبر بها، ويتعجب من الناس كيف لا يعظمونه، ويكرمونه، ويجلونه عليها، فلا تزال هذه الأمور به حتى تقوى عليه آثارها فتدخله النار»[١].

٢٣ـ لزوم التواضع وترك الترفع: فإذا شهد العبد ذنوبه وخطاياه أوجب له ذلك ألا يرى لنفسه على أحد فضلاً، ولا له على أحد حقّاً، فلا يظن أنه خير مسلم يؤمن بالله ورسوله، وإذا شهد ذلك من نفسه لم يرَ لها على الناس حقوقاً من الإكرام، فاستراح هذا في نفسه، وأراح الناس من شكايته وغضبه على الوجود وأهله؛ فما أطيب عيشه، وما أنعم باله؛ فأين هذا ممن لا يزال عاتباً على الخلق، شاكياً تركَ قيامهم بحقه، ساخطاً عليهم وهم عليه أسخط؟[٢]

٢٤ـ الاشتغال بعيوب النفس، والإمساك عن عيوب الناس: فالذنب يوجب له الإمساك عن عيوب الناس، والفكر فيها؛ فإنه في شغل بعيب نفسه، وهذا من أمارات السعادة[٣].

٢٥ـ الاستغفار للخطائين: فإذا وقع الذنب من العبد شهد نفسه مثل إخوانه الخطائين، وشهد أن المصيبة واحدة، وأنهم مشتركون في الحاجة، بل الضرورة إلى مغفرة الله، وعفوه، ورحمته؛ فكما يحب أن يستغفر له أخوه المسلم ـ كذلك

(١) مفتاح دار السعادة ص٢٩٧ـ٢٩٨، وانظر كلاماً جميلاً في هذا المعنى في مدارج السالكين ١/٣٠٧ـ٣٠٨.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/٢٩٨.

(٣) مفتاح دار السعادة ١/٢٩٨.

هو -أيضاً- يجب أن يستغفر لأخيه المسلم[(١)].

هذه بعض الحكم من خلق المعاصي، وتقدير السيئات، يتضح بها شيء من حكمة العليم الحكيم فيما يقدره ويقضيه.

وبعد أن ساق الإمام ابن القيم رحمه الله كلاماً طويلاً نفيساً في الحِكَمِ من خلق المعاصي قال في آخره: «فهذه الأثمار ونحوها متى اجتناها العبد من الذنب فهي علامة كونه رحمة في حقه، ومتى اجتنى منه أضدادها، وأوجبت له خلاف ما ذكرناه فهي -والله- علامة الشقاوة»[(٢)].

---

(١) مفتاح دار السعادة ٢٩٨/١.

(٢) مفتاح دار السعادة ٢٩٩/١.

شرح البيت الخامس والثمانين

٨٥ـ فإن كنتَ ترجو أن تجاب بما عسى ينجِّيك من نار الإله العظيمةِ

قوله: «**ترجو**»: من الرجاء: وهو ظن يقتضي حصول ما فيه مسرة.

قال ـتعالى ـ: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ (الإسراء: ٥٧).

وهو المراد هنا، ويستعمل الرجاء بمعنى الخوف، قال الله ـتعالى ـ: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾ (نوح: ١٣).

قال أبو ذؤيب الهذلي:

إذا لسعته النحل لم يرجُ لسعها وحالفها في بيت نوب عواملُ[١]

وقوله: «**ينجيك**»: «أي يخلصك، وأصله من النجوة، وهي المكان المرتفع؛ كأن من قد خلص من مكروه قد ارتفع على نجوة، بحيث لا يلحق»[٢].

وقوله: «**نار الإله**»: النار ـ كما يقول الطوفي ـ: «جسم شفاف محرق»[٣].

والمقصود بنار الإله: نار جهنم التي أعدها الله لمن عصاه.

وهذا البيت شروع بإسداء النصح للسائل بما فيه نجاته، وسعادته.

---

(١) انظر المفردات ص١٩٧ـ١٩٨.

(٢) شرح جواب ابن تيمية ص٤٣.

(٣) المرجع السابق ص٤٣.

شرح البيت السادس والثمانين

٨٦- فدونك ربَّ الخلقِ فاقْصُدْهُ ضارعاً مريـــداً لأن يهـــديْك نحـــو الحقيقـــةِ

قوله: «**فدونك**»: هذا اسم فعل أمر، ومعناه خذ، أو الزم، أو اقْصِدْ.

وهذا من باب الإغراء، وهو حض الإنسان، وحمله على الفعل بألفاظ مخصوصة.

وقوله: «**ضارعاً**»: من الضراعة، وهي الخضوع، والذلة، والمسكنة.

وقوله: «**يهديْك**»: هو في الأصل مفتوح الياء، وإنما أسكن لضرورة الشعر.

وقوله: «**نحو الحقيقة**»: أي جهة الصوابِ، والحقِّ في نفس الأمر[1].

والمعنى: إذا كنت تريد السعادة في الدنيا، والنجاة من النار في الأخرى فاطرق باب ربك -جل وعلا- وتوجه إليه بصدق، وأسأله أن يلهمك رشدك، وأن يهديك إلى الصراط المستقيم.

قال - تبارك وتعالى -: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠).

وقال في الحديث القدسي: «**يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم**»[2].

(١) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٤٣.

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

شرح البيت السابع والثمانين

٨٧ـ وذلّل قيادَ النفسِ للحق واسمعن[١] ولا تعرضــن عــن فكــرة مــستقيمةِ[٢]

قوله: «وذلل قياد» أي صيِّر نفسك ذلولاً خالية من الصعوبة والشماسة، ووطِّنْها لأن تنقاد للحق، وأن تقبله ممن قال به، وكن ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ولا تعرض عن الهدى بعد أن تراه، وتلوح لك أنوارُه، وسبلُه الواضحة.

ومن كانت هذه حاله كان جديراً بالتوفيق والسداد، ومن أعرض ونأى بجانبه فهو حري بالخذلان والخيبة.

قال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ(١٤٦) ﴾ (الأعراف).

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: «﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ﴾: أي عن الاعتبار في الآيات الأفقية، والنفسية، والفهم لآيات الكتاب.

﴿ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾: أي يتكبرون على عباد الله، وعلى الحق، وعلى من جاء به؛ فمن كان بهذه الصفة حرمه الله خيراً كثيراً، وخذله، ولم يَفْقَه من آيات الله ما ينتفع به، بل ربما انقلبت عليه الحقائق، واستحسن القبيح.

---

(١) في ط: فاسمعن.

(٢) في ط: (ولا تعص من يدعو لأقوم ريَعة)، وفي أ: (ولا تعص من يدعو لأقوم شرعة).

﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا ﴾ : لإعراضهم، واعتراضهم، ومحادتهم لله ورسوله.

﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ ﴾ : أي الهدى والاستقامة، وهو الصراط الموصل إلى الله ودار كرامته.

﴿ لاَ يَتَّخِذُوهُ ﴾ : أي لا يسلكوه، ولا يرغبوا فيه ﴿ سَبِيلاً ﴾.

﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ ﴾ : أي الغواية الموصل لصاحبه إلى دار الشقاء ﴿ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ : والسبب انحرافهم هذا الانحراف.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ : فَرَدُّهُم لآيات الله، وغفلتهم عما يراد بها، واحتقارهم لها ـ هو الذي أوجب لهم من سلوك طريق الغي وترك الرشد ما أوجب»[1].

---

(١) تفسير السعدي ـ تيسير الكريم الرحمن ـ ص٢٦٦.

شرح البيت الثامن والثمانين

٨٨ـ وما بان من حق فلا تتركنَّه   ولا تعصِ من يدعو لأقوم شرعةِ[1]

أي ما اتضح لك من هدى فلا تعدل به، ولا تبغ به بدلاً، ولا عنه حولاً، بل تمسك به، وعض عليه بالنواجذ، وإياك أن تعصي من يدعو لأحسن السبل، وخير الشرائع؛ فذلك مقتضى ما جاء في الكتاب والسنة.

قال الله ـعز وجلـ: ﴿اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ(٣)﴾ (الأعراف).

وقال: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ(٥٥)﴾ (الزمر).

---

(١) في ج: (رفعة)، وفي عقود: (ريْعة).

شرح البيت التاسع والثمانين

٨٩ـ ودَعْ دِينَ ذي العاداتِ لا تتبَعَنَّه   وعُجْ عن سبيل الأمةِ الغضبيَّة

قوله: «عج»: أي ارجع، يقال: فلان ما يعوج عن شيء، أي ما يرجع عنه.

وقوله: «**الأمة الغضبية**»: المراد بهم اليهود؛ نسبة إلى غضب الله عليهم؛ لقوله ـتعالى ـ: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (المائدة: ٦٠).

وقوله ـتعالى ـ: ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ (الفاتحة: ٧).

ومعنى البيت: اترك دين العادات الذي ما أنزل الله به من سلطان مما وجدت عليه آباءك، أو أسلافك، أو مُقَلَّديك؛ فلا تتبعه.

وارجع عن طريق المغضوب عليهم؛ فلا تجعل ذلك كله إماماً لك، كما قال ـتعالى ـ عن الأمم الخالية: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ (الزخرف: ٢٣).

بل انظر بعقلك نَظَرَ باحثٍ عن الهدى، خالٍ من اتباع العناد، والتعصب، والهوى؛ فتكون ـبذلك ـ جديراً بإصابة الحق[١].

وإنما حذره عن طريق اليهود المغضوب عليهم؛ لأنهم انحرفوا عن الطريق المستقيم عموماً، وانحرفوا في باب القدر وهو مدار الحديث في هذه القصيدة؛ فاليهود كانوا في الأصل على الدين الذي جاء به موسى ـعليه السلام ـ وهو التوحيد

---

(١) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٤٤.

والإسلام وهو دين جميع الرسل، وهو الدين الحق في شرائعه وعقائده، ومنه القدر.

وبعد موسى -عليه السلام- تفرق اليهود شيعاً وأحزاباً، وصاروا فرقاً كثيرة كما أشار إلى ذلك الرسول ﷺ في الحديث المشهور: «**تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة**»[1].

واليهود أمة جبلت على التقلب، والتفرق، والاختلاف، ولبس الحق بالباطل خاصة بعد أنبيائهم.

أما بالنسبة للكلام على القدر الإلهي فإنه قديم في الكتب الإلهية، وقد وردت الإشارة إليه من أول الأسفار المعتمدة إلى آخرها، ولكن على درجات في أساليب التقدير تختلف باختلاف الاعتقادات التي يفرضونها للإله، وباختلاف نصيبه عندهم من عظمة المشيئة، وعظمة القدرة، وعظمة الصفات.

والقدر عندهم مشيئة حاكم يأمر وينهى، ويرجع عما أمر به وقضاه، ولم يفهموا القدر على أنه نظام شامل للوجود محيط بالأكوان.

وإنما كان «يَهْوَه» إله اليهود يجري فيه على حكم، ثم يندم عليه، ويبدله تارة على حسب الحالة التي تطرأ بغير حساب.

وبالجملة فقد اشتهر عن اليهود في القدر مذهبان:

الأول: مذهب الربانيين: وهم فرقة من فرق اليهود ويسمون بـ: «الفريسيين»، ومعناها: المنعزلون، أو المنشقون.

---

(١) رواه الترمذي عن أبي هريرة (٢٦٤٠) وقال: «حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح».

وقد أطلق أعداؤهم عليهم هذه التسمية؛ لذلك فهم يكرهونها، ويسمون أنفسهم: الربانيين، أو الإخوة في الله.

وكان هؤلاء موجودين قبل الميلاد، وهؤلاء ينفون القدر

والآخر: مذهب القرَّائين: وهو من فرق اليهود.

وهؤلاء لا يعترفون إلا بالتوراة ـ العهد القديم ـ كتاباً مقدساً، وليست عندهم روايات شفوية؛ ولذلك فهم يعترفون بالتلمود.

ومذهب هؤلاء: هو القول بالجبر[1].

---

(١) انظر الملل والنحل للشهرستاني ٢١٢/١، واليهودية، د.أحمد شلبي، ط٥، ١٩٧٨م، مكتبة النهضة المصرية، ص٢٢٦-٢٢٩ و ٢٣١، والقضاء والقدر للمحمود ص١٣٧-١٣٩، والمجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد ١٤٦/٧-١٤٧، وانظر مقدمة السايح والجميلي لكتاب القدر لابن تيمية ص٢٣-٢٥.

شرح البيت التسعين

٩٠- ومن ضل عن حقٍّ فلا تقفونَّه[١]   وزنْ ما عليه الناس بالمَعْدِليةِ

قوله: «من ضل عن حق»: يعني النصارى؛ لأنهم هم الضالون؛ لقوله -تعالى-: ﴿ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾.

قوله: «فلا تقفونه» الاقتفاء: اتِّباع القفا، أي لا تتبعنه.

وقوله: «بالمعدلية» بكسر الدال مأخوذ من العدل، وهو ضد الجور.[٢]

يقول: لا تسر -كذلك- خلف من ضل عن الهدى؛ من النصارى - فتردى، واجعل ميزانك للأمور والأحوال بالعدل والقسط، وذلك باتِّباع ما جاء في الكتاب والسنة؛ فإنهما الميزان العادل، والحق الذي لا مرية فيه، ومن حكم بهما عدل، وأصاب كبد الحقيقة، وحينئذٍ يتبين لك أن اعتماد الأمر الذي سألت عنه وبناءه إنما يكون على التسليم وترك الاعتراض.

وكأن الشيخ رحمه الله في هذا البيت والذي قبله يرشد السائل بأن يدع طريق أهل الكتاب من اليهود أوالنصارى إن كان صادقاً في ادعائه أنه ذمِّي، أو أن يدع الانتساب إليهم والتشبه بهم إن لم يكن صادقاً في دعواه؛ لأن من تشبه بقوم فهو منهم.

وقد مرَّ في شرح البيت السابق انحراف اليهود، وفي هذا البيت يشير إلى ضلال النصارى الذين ضلوا في الألوهية، وقولهم بالتثليث، والصلب والفداء، وغير ذلك.

وضلوا في باب القدر؛ فللنصارى في القدر قولان؛ فالنصارى الشرقيون،

---

(١) في الدرة البهية: (فلا تعفونه).

(٢) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٤٥.

ويسمون بـ: (اليعاقبة) أو اليعقوبية وهم أتباع يعقوب البراذعي، فهؤلاء يقولون: إن الإنسان مخير.

والآخرون وهم النساطرة، أو النسطوريون؛ نسبة إلى نسطور الذي كان بَطْرِيَرْك القسطنطينية سنة ٤٣١ فهؤلاء يقولون بالجبر.

وهناك تشابه كبير بين آراء بعض النصارى كالنساطرة والشرقيين وبين آراء بعض المعتزلة؛ مما حدا بكثير من الباحثين إلى القول بأنَّ آراء المعتزلة مستقاة من النصارى السابقين.

ويؤيد هذا أن أول من أشاع القدر وهو معبد الجهني قد أخذ عن سوسن النصراني كما أشار إلى ذلك الإمام الأوزاعي ـ كما مر ـ عند الحديث عن نشأة القول بالقدر(١).

يقول المستشرق الإيطالي نيلينو: «كان بعض المتكلمين الأولين قد بدأوا تحت تأثير اللاهوت المسيحي في الشرق بطريقة غير مباشرة يبحثون هذا القَدَر، ويحاولون أن يفسروه، بمعنى يوافق اختيار الإنسان وحريته في أفعاله؛ حتى يُمْكِنَ تبريرُ وجود الثوابِ والعقاب في الدارِ الآخرة تبريراً تاماً»(٢).

---

(١) انظر الشريعة للآجري ٢٢٣، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤/٧٥٠، والملل والنحل ١/٢٢٥، ومحاضرات في النصرانية، للشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ط٣، ص١٧٣ـ١٧٥، والمسيحية لأحمد شلبي ص٨٩، وفجر الإسلام لأحمد أمين ص٢٨٥، والقضاء والقدر للمحمود ١٣٩ـ١٤١.

(٢) التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، ألَّف بينها، وترجمها عبدالرحمن بدوي، ط٤، ١٩٨٠م، وكالة المطبوعات الكويت، دار القلم بيروت، ص٢٠٢ـ٢٠٣، وانظر القضاء والقدر للمحمود ص٤.

وهناك من النصارى من يقرب مذهبه من القول بالتوسط بين الجبر والاختيار، والاعتقاد بعلم الله السابق.

ومن هؤلاء القديس (أوغسطين)[١] الذي لقي عنتاً شديداً من جراء التفكير في موضوع القدر، ولكنه اعتقد بعد هذا القلق أنه استراح من وسواسه هذا بالتوفيق بين النقائض.

وكان مدار راحته النفسية أنَّ سَبْقَ العلم بعمل الأخيار وعمل الأشرار صفةٌ لا تنفصل عن الذات الإلهية، وأنَّ الله عَلِم ما سيكون كما سيكون، ولا بد أن يعلمه العلم الصحيح، ويقدره تقديره على حسب علمه المحيط بجميع الكائنات[٢].

ويوافقه على هذا الرأي القديسُ (توماس ألاكويني)[٣] ويرى أنَّ الإنسان يقود نفسه، ولا يُقاد كما تُقاد الدواب، وأنَّ الإرادة تتبع العقل، والعقل نعمة من نعم الله على الإنسان.

وغاية التقدير عند توماس ألاكويني كفاية التقدير عند أستاذه القديم أوغسطين[٤].

---

(١) أوغسطين ٣٥٤-٤٣٠م، ولد في ناجستا بشمال أفريقيا، ويُعد من أشهر آباء الكنيسة المسيحية، وكان في فلسفته متأثراً بأفلاطون. انظر مدخل إلى الفكر الفلسفي د. زقزوق، هامش ١٩.

(٢) انظر الفلسفة القرآنية، لعباس محمود العقاد، ط. دار الكتاب اللبناني (ب ت) ص١٥٢.

(٣) هو توماس ألاكويني ١٢٢٥-١٢٧٤م من أعظم الفلاسفة واللاهوتيين المسيحيين. انظر مقدمة السايح والجميلي ص٢٨.

(٤) انظر الفلسفة القرآنية ص١٥٢، ومقدمة السايح والجميلي ص٢٨.

شرح الأبيات [٩١ـ٩٣]

٩١ـ هنالك تبدو طالعاتٌ من الهدى بتبشير[١] من قد جاء بالحنفية

٩٢ـ بملة إبراهيم ذاك إمامنا ودين رسول الله خير البريةِ[٢]

٩٣ـ فلا يقبل الرحمنُ ديناً سوى الذي به جاءت الرسْلُ الكرامُ السجيةِ

قوله: «طالعات»: أي أمور، أو خلال، أو أشياء طالعات؛ فهي صفة موصوف محذوف.

وقوله: «من الهدى»: أي من الرشاد، والصواب[٣].

قوله: «بتبشير»: التبشير ههنا هو الإخبار بما يسر، ويبسط بشرة الوجه؛ ذلك أن النفس إذا سُرَّت انتشر الدم فيها انتشار الماء في الشجر[٤].

وقوله: «الحنفية» من الحنف وهو ميل عن الضلال إلى الاستقامة بخلاف الجنف؛ فهو ميل عن الاستقامة إلى الضلال.

وتحنَّف فلان أي تحرى طريق الاستقامة، والعرب تسمي كل من حج أو اختتن حنيفاً؛ تنبيهاً أنه على دين إبراهيم[٥].

والحنيف: هو المستقيم، المتمسك بالإسلام، المقبل على الله، المعرض عما سواه.

والحنفية هي ملة إبراهيم ـعليه السلامـ.

---

(١) في ط و أ: تبشّر.

(٢) في أ: الخليقة.

(٣) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٤٥.

(٤) المفردات ص٥٣.

(٥) المفردات ص١٣٩.

وقوله: «الرُّسْل»: جمع رسول، والأصل ضم السين ولكنها أُسْكِنَتْ للضرورة.

وقوله: «السجية»: الطبيعة، والعادة، والجِبِلَّة.

والمعنى: أنك -أيها الناصح لنفسه، المريد الخير لها- إذا فعلت ما مضى ذكره، وأخذت بالنصح - أقبلت عليك الخيرات، وانهالت عليك البركات، وأشرقت عليك شموس السعادة، ونلت العلم النافع، والعمل الصالح.

وتلك البشائر جاءت في الخبر عن الصادق المصدوق الذي بشَّر بالدين الحق، وبشر من قام به بالنصر، والعز، والتمكين، والفوز بالجنة، والنجاة من النار.

وهذا الدين الحق هو دين الإسلام، وهو ملة أبينا إبراهيم -عليه السلام- وهو التوحيد الخالص الذي لا يقبل الله ديناً سواه، قال -تعالى-: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ النحل: ١٢.

وقال -عز وجل-: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ الأنعام: ١٦١.

وقال - تعالى -: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ آل عمران: ١٩.

وقال: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾ آل عمران: ٨٥.

وهذا هو دين جميع الرسل والأنبياء الذين جبلوا على حميد الخلال وكريم الخصال -عليهم صلوات الله وسلامه-.

وهو الدين الذي لا يقبل الله ديناً سواه لا من الأولين ولا من الآخرين.

ومما يحسن التنبيه عليه ههنا أن الإسلام عام وخاص.

أما العام فهو الاستسلام لله بالتوحيد، وهو دين جميع الأنبياء.

وأما الخاص فهو الذي بعث به محمد ﷺ والمتضمن لشريعة القرآن، وليس عليه إلا أمة محمد ﷺ.

والإسلام عند الإطلاق -كما يقول ابن تيمية رحمه الله- يتناول هذا.

وأما الإسلام العام المتناول لكل شريعة بعث الله بها الأنبياء فإنه يتناول إسلام كل أمة متبعة الأنبياء[1].

قال الله -عز وجل-: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ(١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(١٥٧)﴾ الأعراف.

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله في قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾: «احترازاً عن سائر الأنبياء؛ فإن المقصود بهذا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب ﷺ.

والسياق في أحوال بني إسرائيل، وأن الإيمان بالنبي محمد ﷺ شرطٌ في دخولهم الإيمان، وأن المؤمنين به المتبعين هم أهل الرحمة المطلقة التي كتبها الله لهم»[2].

---

(١) انظر التدمرية ص١٦٨-١٧٣.

(٢) تفسير السعدي - تيسير الكريم الرحمن - ص٢٦٨.

شرح البيت الرابع والتسعين

٩٤ـ وقد جاء هذا الحاشرُ الخاتَم الذي حوى كلَّ خير في[1] عموم الرسالةِ

قوله: «الحاشر الخاتم»: اسمان من أسماء النبي ﷺ.

ومعنى الحاشر: من الحشر، وهو الضم والجمع، فهو الذي يحشر الناس على قدمه، فكأنه بعث؛ ليحشر الناس[2].

ومعنى الخاتم: أي الذي ختم الله به الرسل، وختم بدينه الأديان.

ومعنى البيت: أن الأنبياء الكرام ختموا برسالة هذا النبي الخاتم محمد ﷺ الذي جمع الله به وله من المحاسن والكمالات ما لم يجمع لغيره، واشتملت رسالته على كل خير وهدى، وبركة، وفلاح، وصلاح، وكانت أمته خير أمة أخرجت للناس، ونالت من السناء والعلم ما لم تنله أمة أخرى بفضل الله ـعز وجل ـ ثم ببركة هذا النبي الأمي الخاتم ـعليه أفضل الصلاة والسلام ـ.

كل ذلك مع أنها آخر الأمم، وأقصرها أعماراً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فكل من استقرأ أحوال العالم وجد المسلمين أحدَّ وأسدَّ عقلاً؛ وأنهم ينالون في المدة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعاف ما يناله غيرهم في قرون وأجيال.

وكذلك أهل السنة والحديث تجدهم كذلك ممتعين، وذلك لأن اعتقاد الحق

---

(١) في أ: من.

(٢) انظر زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، تحقيق وتعليق شعيب الأرناؤوط وعبدالقادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط١٥، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، ٩٤/١.

الثابت يقوي الإدراك ويصححه»[١].

وقال رحمه الله في موضع آخر: «فهدى الله الناس ببركة نبوة محمد ﷺ وبما جاء به من البينات والهدى هداية جلت عن وصف الواصفين، وفاقت معرفة العارفين، حتى حصل لأمته المؤمنين عموماً، ولأهل العلم خصوصاً ـ من العلم النافع، والعمل الصالح، والأخلاق العظيمة، والسنن المستقيمة ـ ما لو جُمِعَتْ حِكْمَةُ سائر الأمم علماً، وعملاً، الخالصة من كل شوب على الحكمة التي بُعِثَ بها لتفاوتا تفاوتاً يمنع معرفة النسبة بينهما؛ فلله الحمد كما يحب ربنا ويرضى.

ودلائل هذا، وشواهده ليس هذا موضعها»[٢].

وقال ابن القيم رحمه الله: «فلو قيس جميع ما عند الأمم من معرفة، وعلم، وهدى، وبصيرة إلى ما عندهم لم يظهر له نسبة إليه بوجه ما، وإن كان غيرهم من الأمم أعلم بالحساب والهندسة، والكمِّ المتصل، والكمِّ المنفصل، والنبض، والقارورة، والبول، والقسطة، ووزن الأنهار، ونقوش الحيطان، ووضع الآلات العجيبة، وصناعة الكيمياء، وعلم الفلاحة، وعلم الهيئة، وتسيير الكواكب، وعلم الموسيقى والألحان، وغير ذلك من العلوم التي هي بين علم لا ينفع، وبين ظنون كاذبة، وبين علم نفعه في العاجلة وليس من زاد المعاد»[٣].

---

(١) نقض المنطق ص٨.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ١/٦٤.

(٣) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، لابن قيم الجوزية، دار الريان، تقديم وتحقيق د. أحمد حجازي السقا، دار المطبعة السلفية، ص٢٣٤ـ٢٣٥.

شرح البيت الخامس والتسعين

٩٥ـ وأخبر عن رب العباد بأنَّ مَنْ غدا[١] عنه في الأخرى بأقبحِ خيبةِ[٢]

قوله: «خيبة»: هي الحرمان.

أي أن هذا النبي أخبر عن ربه ـ جل وعلا ـ أن من اتبعه، ودان بدينه فهو السعيد المهتدي، وأن من كفر به، ودان بغير دينه فهو الشقي الضال الطريد.

قال الطوفي رحمه الله في كلمة خيبة: «وخيبة رأيناها في الأصل الذي نقلناها منه، وقد قرىء على الشيخ ـ يعني شيخ الإسلام ابن تيمية ـ بحاء مهملة مكسورة، ثم ياء مثناة من أسفل، ثم با موحدة ـ حيبة ـ من الحُوب، وهو الإثم، قال الله ـتعالىـ: ﴿ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً ﴾ النساء: ٢»[٣].

---

(١) في ط و أ و ج: عدا.

(٢) في عقود: جَنْية.

(٣) شرح جواب ابن تيمية ص٥٦.

شرح البيت السادس والتسعين

٩٦- فهــذي دلالاتُ العبــادِ لحــائر　　　وأمــا هــداه فهــو فعــلُ الربوبــةِ[١]

قوله: «**الربوبة**»: أي الربوبية، وهي مصدر ربب ربوبة، مثل صعب صعوبة، وحمض اللبن وخثر حموضة وخثورة.[٢]

والمعنى أن ما مضى ذكره في الأبيات من البينات، والتفاصيل التي يحصل بها الفرقان بين الحق والباطل، والحث على الانقياد، والتسليم، وترك الاعتراض - هو كل ما بأيدينا من عمل، وهو الذي يملكه العباد للحائر؛ فيرشدونه به إلى طريق السلامة.

وأما الهداية فهي بيد الله -وحده- فالذي بيد الخلق هو هداية البيان، والدلالة والإرشاد.

قال - تعالى -: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى: ٥٢).

وأما هداية التوفيق والإلهام فهي بيد الله ولا يملكها غيره، كما قال -عز وجل-: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (القصص: ٥٦).

لكن من أقبل على الله، وتذلل له، وصدق في معاملته، وأخذ بأسباب هدايته- فإن الله يقبله، ويسلك به الصراط المستقيم -كما تقدم تفصيل ذلك-.

---

(١) في عقود: الربوبية.

(٢) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٥٨.

شرح البيت السابع والتسعين

٩٧- وفَقْدُ الهدى عند الورى لا يفيد[١] مَنْ   غدا[٢] عنه بل يجري[٣] بلا وجه حجةِ

يعني أن من فقد الهدى تنكّب الصراط، وهام على وجهه، وسار على غير برهان.

قال الله -عز وجل-: ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (الملك: ٢٢).

قال ابن الجوزي رحمه الله في تفسير هذه الآية: «قال المفسرون: هذا مثل للمؤمن والكافر.

و«السوي»: المعتدل أي الذي يبصر الطريق»[٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فكل من اتبع الظن، وما تهوى الأنفس، وترك اتباع الهدى ودين الحق الذي بيَّنه الله -تعالى- وأمر به في كتبه، وعلى ألسن رسله، وفطر عليه عباده، وضرب له الأمثال المشهودة والمسموعة - فهو متبع لإبليس في هذا له نصيب من قوله: ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾»[٥].

---

(١) في عقود: لا يقيل.

(٢) في ط وعقود و أ و ب و ج و هـ: عدا.

(٣) في مجموع الفتاوى: (يُجْزى)، وفي ط وعقود و ب: (يخزى).

(٤) زاد المسير ٨/٣١٣.

(٥) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، أو نقض تأسيس الجهمية لشيخ الإسلام ابن تيمية بتصحيح وتكميل وتعليق الشيخ محمد بن عبدالرحمن بن قاسم ١/١٤٩، ط٢، دار القاسم الرياض ١٤٢١هـ.

إلى أن قال رحمه الله: «وقد قال -تعالى- لمّا أهبط آدم: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤)﴾ طه.

فأخبر أن من اتبع هداه الذي جاء من عنده فإنه لا يضل ولا يشقى، كما قال: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاة وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ -إلى قوله- ﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾ البقرة.

فإنه الهدى ضد الضلالة، والفلاح ضد الشقاء، وقد قال من قال من السلف: المفلحون الذينأدركوا ما طلبوا، ونجوا من ما منه هربوا.

ولهذا أمرنا أن نقول في كل صلاة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ (٧)﴾ فإن المغضوب عليهم هم أهل الشقاء، والضالون أهل الضلال.

وهم الذين اتبعوا هداه فلم يضلوا ولم يشقوا، بل أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون.

وقال -أيضاً-: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ﴾ والسعر: من أعظم الشقاء، وهذا باب واسع.

وإنما المقصود هنا التنبيه على هذا الأصل، وهو أن من أعرض عن هدى الله علماً وعملاً فإنه لا يحصل له مطلوب ولا ينجو من مرهوب، بل يلحقه من

المرهوب أعظم مما فر منه، ويفوته من المطلوب أعظم مما رغب فيه.

وأما المتبعون لهداه فإنهم على هدى من ربهم، وهم المفلحون الذين أدركوا المطلوب ونجوا من المرهوب»[1].

(١) تلبيس الجهمية ١/١٤٩-١٥٠.

شرح البيت الثامن والتسعين

٩٨ـ وحجـةُ محـتجٍّ بتقـدير ربِّـه تزيـد[1] عـذاباً كاحتجـاج مريـضةِ

قوله: «وحجة محتج»: أي اعتذار المذنب، واحتجاجه بكون الذنوب مقدرة عليه.

وقوله: «تزيد عذاباً»: أي تضاعفه؛ لأنه لم يبادر إلى التوبة، وتكفير الذنب، وإنما احتج بالقدر، وسوَّغ لنفسه الاستمرار على الذنوب.

وقوله: «كاحتجاج مريضة»: قال الطوفي رحمه الله في شرحه للبيت: «ولا أعلم مراده بقوله: كاحتجاج مريضة»[2].

ولعل المراد بقوله: «كاحتجاج مريضة» أحد معنيين:

الأول: أن هذا المحتج بالقدر احتج على فعل الذنوب بكونها مقدرة عليه؛ فجعلها من جنس تقدير المرض عليه؛ فجعل هذا المحتج التقديرين سواءً، حيث عدهما من باب المصائب مع أن التقديرين مختلفان؛ فالأول من باب المعائب، والثاني من باب المصائب، والاحتجاجُ بالقدر ـ كما مر ـ إنما يكون على المصائب لا المعائب.

فيكون معنى البيت: أن احتجاج هذا المحتج بالقدر على فعل الذنوب بكونها مقدرة عليه، وعدَّه ذلك من باب تقدير المرض على المريض من جهة كونه لا يَدَ لَه في ذلك، ولا قدرة له على دفعه ـ يضاعِفُ عقوبتَه، ويزيدَ في عذابه وشقائه؛

---

(١) في عقود والدرة البهية: (يزيد) وفي ط: (مزيد).

(٢) شرح جواب ابن تيمية ص ٥٨.

لأنه سوَّغ لنفسه فعل الذنوب التي يفعلها بإرادته وقدرته، وجعلها من جنس الأمراض التي تصيبه من غير إرادته؛ فسوَّى بين المعائب، والمصائب.

وقد قال المؤلف «**مريضة**» ولم يقل: مريض لمراعاة القافية والروي.

المعنى الثاني: أن حال المذنب المحتج بكون الذنوب مقدرة عليه، مع تركه الأخذَ بأسباب النجاة، وبما يزيل أثر الذنوب من الندم، والإقلاع، والتوبة، والعمل الصالح ـ هو كحال المريض الذي يدع العلاج، ولا يأخذ بأسباب الشفاء بحجة أن الله قدْ قدَّرَ عليه المرض؛ فلا داعيَ إذاً للعلاج ـبزعمهـ.

فما النتيجة إذاً؟ النتيجة زيادة علته، وتفاقم مرضه، واستبانة جهله وسفهه، واختلال عقله.

وهذا المعنى قد يكون مراداً؛ لأن بين أمراض الأبدان والقلوب تشابهاً من بعض الأوجه؛ فكما أن الأبدان تعتل بسائر الأمراض والعلل المتنوعة؛ فتضعف، وربما تهلك ـ فكذلك القلوب؛ فهي تمرض بالنفاق، والذنوب، وسائر الشبهات والشهوات.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كلام كثير عظيم حول هذا المعنى، وهو تشبيه أمراض القلوب بأمراض الأبدان، كما في رسالتيه المشهورتين (التحفة العراقية في الأعمال القلبية) و(أمراض القلوب وشفاؤها).

ومن أقواله في ذلك قوله: «مرضُ البدن خلافُ صحتِه وصلاحِه، وهو فساد يكون فيه يَفْسُد به إدراكُه وحركتُه الطبيعيةُ؛ فإدراكه إما أن يذهب كالعمى، والصمم، وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه كما يدرك الحلو مراً،

وكما يُخيَّل إليه أشياء لا حقيقة لها في الخارج.

وأما فساد حركته الطبيعية فمثل أن تضعف قوته عن الهضم، أو مثل أن يبغض الأغذية التي يحتاج إليها، ويحب الأشياء التي تضره.

ويحصل له من الآلام بحسب ذلك، ولكن مع ذلك المرض لم يمت، ولم يهلك، بل فيه نوع قوة على إدراك الحركة الإرادية في الجملة؛ فيتولد من ذلك ألم يحصل في البدن إما بسبب فساد الكمية، أو الكيفية؛ فالأول إما نقص المادة؛ فيحتاج إلى غذاء، وإما بسبب زيادتها فيحتاج إلى استفراغ.

والثاني كقوة في الحرارة والبرودة خارج عن الاعتدال؛ فيُداوى.

وكذلك مرض القلب هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره وإرادته»[(١)].

إلى أن قال: «والمرض دون الموت؛ فالقلب يموت بالجهل المطبق، ويمرض بنوع من الجهل؛ فله موت ومرض، وحياة وشفاء.

وحياتُه وموتُه، ومرضه وشفاؤه أعظم من حياة البدن وموته، ومرضه وشفائه؛ فلهذا مرضُ[(٢)] القلب إذا ورد عليه شبهة أو شهوة قَوَّت مرضه، وإن حصلت له حكمة وموعظة كانت من أسباب صلاحه وشفائه»[(٣)].

وهكذا يتبين أن البيت محتمل، وأن المراد قد يكون على المعنى الأول، وقد يكون على المعنى الثاني، ولهذا لم يتبين المراد للطوفي رحمه الله.

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/٩٢ـ٩٣.

(٢) هكذا في الأصل، ولعلها: مريض القلب ...

(٣) مجموع الفتاوى ١٠/٩٤ـ٩٥.

أما الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله فقد شرح البيت على المعنى الأول، حيث بين أن احتجاج العاصي بالقدر على معاصيه يضاعف عقوبته؛ لأنه جمع ثلاثة مخالفات:

أحدها: فعله للذنب.

ثانيها: احتجاجه عليه بالقدر، وهو كذب؛ فإن مضمون الاحتجاج بالقدر يعني أن الله اضطره وألجأه إليه وأكرهه عليه، وهو لا يريد الذنب، وهذا كذب صريح؛ فإن الله مكّنه من الترك، بل فتح له كل باب يصده عن الذنب، وقد أبت نفسُه الأمارةُ بالسوء إلا أن توقعه في الذنب؛ فالمَلامُ عليه لا على ربه.

ثالثها: أنه بهذا الاعتذار يمهد لنفسه الإصرار على الذنوب، والإقامة على ما يسخط علام الغيوب؛ فإن هذا الاعتذار يهون عليه كل ذلك كما هو مشاهد، بل ويصرفه عن التوبة والإنابة[1].

---

(١) انظر الدرة البهية ص١٨٢.

شرح الأبيات [٩٩ ـ ١٠٧]

٩٩ـ وأما رضانا بالقضاء فإنما ... أمرنا بأن نرضى بمثل المصيبةِ

١٠٠ـ كسقمٍ وفقرٍ ثم ذلٍّ وغُربةٍ ... وما كان من مؤذٍ[١] بدون[٢] جريمةِ

١٠١ـ فأما الأفاعيلُ التي كرهت لنا ... فلا نصَّ يأتي في رضاها بطاعةِ

١٠٢ـ وقد قال قومٌ[٣] من أولي العلم: لا رضاً ... بفعلِ المعاصيْ والذنوبِ الكبيرةِ[٤]

١٠٣ـ فإن إلهَ الخلقِ لم يرضَها لنا ... فلا نرتضي مسخوطةً لمشيئةِ[٥]

١٠٤ـ وقال فريقٌ: نرتضي بقضائه[٦] ... ولا نرتضي المقضيَّ أقبحَ[٧] خصلةِ

١٠٥ـ وقال فريقٌ: نرتضي بإضافةٍ ... إليه[٨] وما فينا فنلقى[٩] بسخطةِ

١٠٦ـ كما أنها للرب خلقٌ وأنها ... لمخلوقه كسبٌ كفعل[١٠] الغريزةِ[١١]

---

(١) في عقود: سوء.

(٢) في و: بغير.

(٣) في ج: وقد قال ممن أوتي...

(٤) في عقود و و: الكريهة.

(٥) في أ و ج و هـ: بمشيئة.

(٦) في عقود: ترتضى لقضائه.

(٧) في ط: (خلة)، وفي و: (لأقبح خلة).

(٨) في ج: إلينا.

(٩) في أ: فيلقى.

(١٠) في ج: لفعل.

(١١) في مجموع الفتاوى: (لمخلوقةٍ ليست كفعل الغريزةِ).

١٠٧ـفنرضى[١] من الوجه الذي هو خلقه[٢] ونسخط[٣] من وجه اكتساب الخطيئةِ[٤]

قوله: «المصيبة»: هي ما لحق الآدمي من مكروه، وهي ـكما يقول ابن تيميةـ: «كل ما يؤلم من هم، أو حزن، أو أذى في مال أو عرض، أو جسد، أو غير ذلك»[٥].

قوله: «كسقم»: السقم المرض.

قوله: «وفقر»: الفقر عدم المال، وهو مأخوذ من فقار الظهر، كأن مَنْ عدم المال انكسر فقاره.

وقوله: «الذُّل»: ضد العز.

وقوله: «الغُربة»: البعد عن الوطن.

وقوله: «الأفاعيل»: واحدها فعل[٦].

وقوله: «فلا نص»: «النص هو الدليل النقلي الذي لا يحتمل سوى مدلول واحد»[٧].

أو هو ما كانت دلالته قطعية لا تحتمل النقيض كقوله ـتعالىـ: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾.

---

(١) في عقود: (فترضى)، وفي ط: (فيرضى).

(٢) في و: حقه.

(٣) في ط: (ويسخط)، وفي ج: (وأسخط).

(٤) في الدرة البهية (ونسخط من وجه اكتساب بحيلة) وكذا في ط، وعقود، و ج و و.

(٥) مجموع الفتاوى ٦٥٨/١٠.

(٦) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٥٨.

(٧) شرح جواب ابن تيمية ص٥٨.

أو هو الذي لا يحتمل التأويل.

أو هو ما لا يحتمل غيره، فلا يتطرق للكلام احتمال أن يراد غير المعنى المفهوم.

ويراد بالنص -أيضاً- الدليل من الكتاب والسنة عموماً[١].

وقوله: «**الذنوب الكبيرة**»: الذنوب مر معناها، والكبيرة مفرد كبائر، والكبائر هي الذنوب العظيمة الموبقة المهلكة.

والذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، قال الغزالي رحمه الله: «اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد كثر اختلاف الناس فيها؛ فقال قائلون: لا صغيرة ولا كبيرة، بل كل مخالفة لله فهي كبيرة.

وهذا ضعيف؛ إذ قال -تعالى-: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ النساء: ٣١، وقال -تعالى-: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ النجم: ٣٢.

وقال ﷺ: «**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة يكفرن ما بينهن إن اجتنبت الكبائر**» وفي لفظ آخر: «**كفارات لما بينهن إلا الكبائر**»[٢].

وقد قال ﷺ فيما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما-: «**الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين**

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ١٩/٢٨٨، والمستصفى من علم الأصول، لأبي حامد الغزالي، تحقيق د. حمزة بن زهير حافظ، ١/١٥٠.

(٢) رواه مسلم (٢٣٣).

الغموس»[(١)(٢)].

وقال ابن القيم رحمه الله: «وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة على أن من الذنوب كبائرَ وصغائر»[(٣)].

وقال رحمه الله: «والذين لم يقسموها إلى كبائر وصغائر قالوا: الذنوب كلها -بالنسبة إلى الجراءة على الله سبحانه ومعصيته ومخالفة أمره- كبائر؛ فالنظر إلى من عُصي أمرُه، وانتُهك محارمه يوجب أن تكون الذنوب كلها كبائر، وهي مستوية في هذه المفسدة»[(٤)].

وقال بعد أن ساق بعض ما أورده مَنْ قال إن الذنوب كلها كبائر: «فالشرك أظلم الظلم، والتوحيد أعدل العدل؛ فما كان أشدَّ منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر، وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له، وما كان أشدَّ موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات، وأفرض الطاعات؛ فتأمل هذا الأصل حق التأمل، واعتبر تفاصيله تعرف به حكمة أحكم الحاكمين، وأعلم العالمين فيما فرضه على عباده، وحرمه عليهم، وتفاوتَ مراتب الطاعات والمعاصي»[(٥)].

وبعد أن تبين أن الذنوب منها كبائر، وصغائر يحسن الوقوف عند ماهية الصغائر

---

(١) رواه البخاري (٦٦٥٦).

(٢) إحياء علوم الدين ٤/١٧.

(٣) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، أو الداء والدواء، لابن قيم الجوزية، تحقيق وتعليق عامر بن علي ياسن، دار ابن خزيمة، الرياض، ط١، ص٣٠٦.

(٤) الجواب الكافي ص ٣٠٩.

(٥) الجواب الكافي ٣١٢.

والكبائر؛ حيث اخْتُلِفَ في تحديد الكبائر وحصرها؛ فقيل في ذلك أقوال منها:

١ـ قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: هي أربع.

٢ـ وقال عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: هي سبع.

٣ـ وقال عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ: هي تسع.

٤ـ وكان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ إذا بلغه قول ابن عمر: الكبائر سبع يقول: هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع.

٥ـ وقال آخر: هي إحدى عشرة.

٦ـ وقال أبو طالب المكي: جمعتها من أقوال الصحابة فوجدتها أربعة في القلب وهي: الإشراك بالله، والإصرار على المعصية، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله.

وأربعة في اللسان، وهي: شهادة الزور، وقذف المحصنات، واليمين الغموس، والسحر[١].

وثلاثة في البطن: شرب الخمر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا.

واثنين في الفرج: الزنا، واللواط.

واثنين في اليدين وهما القتل والسرقة.

وواحداً في الرجلين وهو الفرار من الزحف.

وواحداً يتعلق بجميع الجسد وهو عقوق الوالدين[٢].

---

(١) السحر لا يقتصر على اللسان، بل تشترك الجوارح في عمله.

(٢) انظر إحياء علوم الدين ٤/١٧ـ١٨، والجواب الكافي ٣٠٨ـ٣٠٩.

هذه أقوال الذين حصروها بعدد، وأما الذين لم يحصروها بعدد فمنهم من قال:

١ـ ما اقترن بالنهي عنه وعيد من لعن، أو غضب، أو عقوبة ـ فهو كبيرة، وما لم يقترن به شيء فهو صغيرة.

٢ـ وقيل: كل ما ترتب عليه حد في الدنيا، أو وعيد في الآخرة ـ فهو كبيرة، وما لم يرتب عليه لا هذا ولا هذا فهو صغيرة(١).

٣ـ وقيل: كل ما اتفقت الشرائع على تحريمه فهو من الكبائر، وما كان تحريمه في شريعة دون شريعة فهو صغيرة.

٤ـ وقيل: كل ما لعن الله ورسوله فاعله فهو كبيرة.

٥ـ وقيل: هي كل ما ذكر من أول سورة النساء إلى قوله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ النساء: ٣١.

وقوله: «**خصلة**»: الخصلة: هي الخَلَّة.

هذه الأبيات تدور حول الرضا بما يقضيه الله ويقدره، وتفصيل القول في هذه المسألة.

قال الشيخ ـ عبدالرحمن السعدي رحمه الله في شرح هذه الأبيات: «يعني إذا أورد المورد علينا: أنه يجب الرضا بقضاء الله، ـ يعني والمعاصي من قضاء الله ـ فقد أجاب الشيخ ـ يعني شيخ الإسلام ـ بأربعة أجوبة، كل واحد منها كافٍ

(١) وهذا ما رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى ١١/٦٥٠، وقال في ١١/٦٥٠: «إنه أمثل الأقوال في هذه المسألة»، وقال في ١١/٦٥٤: «وإنما قلنا: إن هذا الضابط أولى من سائر تلك الضوابط المذكورة لوجوه...» ثم ذكر خمسة وجوه.

شافٍ، فكيف إذا اجتمعت؟

أحدها: أن الذي أمرنا أن نرضى به: المصائب دون المعائب، فإذا أُصبنا بمرض أو فقر، أو نحوهما من حصول مكروه أو فقد محبوب فيجب علينا الصبر، واختلف في وجوب الرضا، والصحيح استحبابه؛ لأنه لم يثبت ورود الأمر به على وجه الوجوب؛ لتعذره على أكثر النفوس، لأن الصبر حبس النفس عن التسخط، واللسان عن الشكوى، والأعضاء عن عملها بمقتضى السخط؛ من نتف الشعر، وشق الجيوب، وحثو التراب على الرؤوس، ونحوها، وذلك واجب مقدور.

أما الرضا الذي هو مع ذلك طمأنينةُ القلب عند المصيبة، وأن لا يكون فيه تمني أنها ما كانت ـ فهذا صعب جدًّا على أكثر الخلق؛ فلهذا لم يوجبه الله، ولا رسوله، وإنما هو من الدرجات العالية، وهو مأمور به أمرَ استحباب.

وأما الرضا بالذنوب والمعائب، فلم نؤمر بالرضا بها، ولم يأتِ نصٌّ صحيحٌ، أو ضعيفٌ في الأمر بها، فأين هذا من ذاك؟

الجواب الثاني: ما قاله طائفة من أهل العلم: أن الله لم يرض لنا أن نَكْفُرَ، ونعصي؛ فعلينا أن نوافقَ ربَّنا في رضاه، وسخطه، قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (الزمر ٣٩).

فالدين: موافقة ربنا في كراهة الكفر، والفسوق، والعصيان، مع تركها، وموافقته في محبة الشكر والإيمان، والطاعة لنا مع فعلها.

الجواب الثالث: أن القضاء غير المقضي، فنرضى بالقضاء؛ لأنه فعله ـ تعالى ـ

وأما المقضي، الذي هو فعل العبد فينقسم إلى أقسام كثيرة: الإيمان، والطاعة علينا الرضا بها، والكفُر والمعصيةُ لا يحل لنا الرضا بها، بل علينا أن نكرهها، ونفعل الأسباب التي ترفعها من التوبة، والاستغفار والحسنات الماحية، وإقامة الحد والتعزير على من فعلها، والمباحاتُ مستويةُ الطرفين.

الجواب الرابع: أن الشر والمعاصي تختلف إضافتها، فهي من الله خلقاً وتقديراً وتدبيراً، وهي من العبد فعلاً وتركاً، فحيث أضيفت إلى الله ـ قضاء وقدراً ـ نرضى بها من هذا الوجه، وحيث أُضيفت إلى العبد ـ نسخطها، ونسعى بإزالتها بحسب مقدورنا.

فهذه الأجوبة عن الأمر بالرضا بالقضاء قد اتضح أنها لا تدل على شيء من مطلوب المعترض»[1].

---

(١) الدرة البهية ص١٨٣ـ١٨٤.

شرح البيت الثامن بعد المائة

١٠٨ـ ومعصيةُ العبدِ المكلفِ تركُه   لما أمرَ المولى وإن بمشيئةِ

قوله: «**العبد**»: من العبودية، وهي إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها؛ لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله ـ تعالى ـ.

والعبادة على ضربين: عبودية لربوبية، وعبودية لألوهية.

والعبد يقال على أربعة أضرب:

الأول: عبد بحكم الشرع، وهو الإنسان الذي يصح بيعه، وابتياعه، نحو: ﴿الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ و﴿عَبْداً مَمْلُوكاً لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾.

والثاني: عبد بالإيجاد، وذلك ليس إلا لله، وإياه قصد بقوله: ﴿إِن كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ (مريم: ٩٣).

والثالث: عبدٌ بالعبادة، والخدمة، والناسُ في هذا ضربان:

عبدٌ لله مخلصاً: وهو المقصود بقوله: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ (ص: ٤١) ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ (الإسراء: ٣) ﴿نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ (الفرقان: ١) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ (الكهف: ١) ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ (الفرقان: ٦٣) ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (الحجر: ٤٢) ونحو ذلك.

وعبدٌ لغير الله: وهو عبد للدنيا، وأغراضها، وأهلها، وهو المعتكف على خدمتها، ومراعاتها.

والناس كلهم عباد لله، بل الأشياء كلها كذلك، لكنْ بعضُها بالتسخير والإكراه، وبعضها بالاختيار والطوع.

وجمع العبد الذي هو مُسْتَرَقٌّ: عَبِيد، وقيل: عِبِدٌّ، وجمع العبد الذي هو العابد: عِبَاد.

فالعبيد إذا أضيف إلى الله أعم من العباد؛ فهو يشمل من انتسب إلى عبادته، ومن انتسب إلى غيره، كما قال ـتعالىـ: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ق:٢٩.

ويُقال: طريق معبد: أي مذلل بالوطء، وبعير معبد: مذلَّلٌ بالقطران، وعبَّدت فلاناً: إذا ذلَّلته، إذا اتخذته عبداً، قال ـتعالىـ: ﴿أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الشعراء:٢٢[1].

ومعنى البيت أن المعصية الصادرة من العبد المكلف تكون بتركه لما أمر الله به ورسوله، وقد تكون بفعله لما نهى عنه الله ورسوله؛ فهذه هي المعصية في الشرع، وهي منسوبة إلى العبد، وهو مؤاخذ بها وإن كانت داخلةً في عموم قدر الله ومشيئته التي لا يخرج عنها شيء؛ فالله ـعز وجلـ شاءها قدراً وكوناً، ولم يردها ديناً وشرعا؛ لما له ـعز وجلـ من الحكمة، ولعلمه بأن العبد يفعلها باختياره، وعصيانهِ لربه؛ فلا حجة له بذلك.

(١) انظر المفردات في غريب القرآن ص٣٣١ـ٣٣٢.

شرح البيتين [١٠٩ـ ١١٠]

١٠٩ـ فإنَّ إلهَ الخلقِ حقَّ مقالُه ... بأن عبادي[١] في جحيم وجنةِ[٢]

١١٠ـ كما أنهم في هذه الدار هكذا ... بل البهم في الآلام ـ أيضاً ـ ونعمة

أي أنه ـ عز وجل ـ أخبر في محكم تنزيله أن فريقاً من عباده في الجنة، وفريقاً في السعير، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ الانفطار.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ الشورى: ٧.

قال الإمام الصابوني[٣] رحمه الله: «سبحانه خلق الخلق بلا حاجة إليهم، فجعلهم فريقين: فريقاً للنعيم فضلاً، وفريقاً للجحيم عدلاً، وجعل منهم غوياً ورشيداً، وشقياً وسعيداً، وقريباً من رحمته وبعيداً ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾»[٤].

---

(١) في عقود ومجموع الفتاوى: (بأن العباد...) وفي أ: (بأن البرايا).

(٢) في هـ: في نعيم وجنة.

(٣) الصابوني: هو الإمام أبو عثمان إسماعيل بن عبدالرحمن الصابوني النيسابوري الحافظ المفسر المحدث الفقيه الواعظ الملقب بـ: شيخ الإسلام، عاش في الفترة ـ ٣٧٣ـ٤٤٩ ـ ولد في بوشنج، وكان ذا ذكاء وعقل، وحسن إيراد للكلام ـعربيه وفارسيهـ وكان من أكابر المحدثين في عصره، وكان ذا تأله، وعفاف، وصيانة نفس، وكان ينظم الشعر أحياناً، وله عدد كبير من التلاميذ، وخلف العديد من المؤلفات، منها: عقيدة السلف وأصحاب الحديث، والأربعون حديثاً، وكتاب الانتصار، وكتاب الدعوات وغيرها. انظر معجم الأدباء لياقوت ١٦/٧ـ١٩، والوافي بالوفيات ١٤٣/٩، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ١١٧/٣.

(٤) عقيدة السلف وأصحاب الحديث للصابوني ص٢٨٠.

وكما أن هذه حالهم في الآخرة من حيث السعادة والشقاء فكذلك هي حالهم في الدنيا، وفي البرزخ فمنهم الشقي، ومنهم السعيد.

بل إن البهائم في الدنيا منها ما هو منعَّم يرتع في المراعي، ومنها ما هو مريض، أو مصاب بأي مصيبة.

وكل ذلك جار على مقتضى الحكمة الإلهية البالغة، وله طرقه وأسبابه المتنوعة المفضية إلى مسبباتها.

قال الطوفي رحمه الله: «ووجه اتصال هذين البيتين باللذين قبلهما، وتقريره هو أن الله -تعالى- قد يأمر بالشيء، ويريد خلافه، فيقع المراد دون المأمور، ويعد العبد عاصياً؛ تحقيقاً لقوله السابق المقتضي:

﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (هود: ١١٩)»[1].

ولهذا قرر شيخ الإسلام هذا المقام بقوله:

(١) شرح جواب ابن تيمية ص٦٢.

شرح البيت الحادي عشر بعد المائة

١١١ـ وحكمتُه العليا اقتضت ما اقتضت من الـ ـفروق بعلمٍ ثم أيدٍ ورحمةِ

قوله: «أيد» الأيْد القوة الشديدة[١].

والمعنى: أن حكمة الرب العليا اقتضت وجود الفروق بين العباد؛ فهذا عالم، وذاك جاهل، وهذا قوي، وذاك ضعيف، وهذا شقي، وهذا سعيد، وهذا هُمَامٌ، وذاك كسول، وهذا منعَّم، وذاك يعيش في بؤس وهكذا...

ثم إن حكمته اقتضت الفرق بين أهل الجنة وأهل النار، وبين أهل السعادة وأهل الشقاوة؛ لِعِلمٍ عَلِمه منهم، وقوةٍ اقتدر بها على الفرق بينهم، ورحمةٍ شمل بها أهل السعادة، وحُرِمها أهل الشقاوة.

---

(١) انظر المفردات ص٣٥.

شرح الأبيات [١١٢- ١١٦]

١١٢- يسوق أولي التعذيب بالسبب الذي ... يقدّره نحو العذاب[١] بعزةِ

١١٣- ويهدي أولي[٢] التنعيم نحو نعيمهم ... بأعمال صدق في رجاءٍ وخشيةِ

١١٤- وأمرُ إله الخلق بيِّن[٣] ما به ... يسوق أولي التنعيم نحو السعادةِ

١١٥- فمن كان من أهل السعادة أثَّرت ... أوامرُه فيه بتيسير[٤] صنعةِ

١١٦- ومن كان من أهل الشقاوة لم يُبَلْ[٥] ... بأمر ولا نهي بتيسير[٦] شقوةِ

قوله: «بعزة»: قال ابن فارس رحمه الله في مادة (عز): «العين والزاء أصل صحيح واحد يدل على شدة وقوة، وما ضاهاهما من غلبة وقهر»[٧].

قوله: «وخشية»: قال الراغب رحمه الله: «الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم ما يخشى منه.

ولذلك خص العلماء بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٨].

قوله: «السعادة» قال الراغب رحمه الله: «السعادة معاونة الأمور الإلهية للإنسان

---

(١) في هـ: العتاب.

(٢) في ط: إلى.

(٣) في ط و أ و هـ: تبيين.

(٤) في هـ: بتدبير.

(٥) في عقود و هـ ومجموع الفتاوى: لم ينل.

(٦) في ط و أ: بتقدير.

(٧) معجم مقاييس اللغة ٤/٣٨.

(٨) المفردات ص١٥٥.

على نيل الخير، ويضاده الشقاوة.

يقال: سعد، وأسعده الله، ورجل سعيد، وقوم سعداء.

وأعظم السعادات: الجنة؛ فلذلك قال -تعالى-: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّة﴾ هود:١٠٨.

وقال: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ هود:١٠٥ ».[١]

وقوله: «**أثرت**»: أي تركت فيه أثراً.[٢]

قوله: «**صنعة**»: الصنعة: إجادة الفعل.

ولعل المراد بالصنعة هنا: صنع الله أي توفيقه بتيسير الهدى، قال -تعالى- في شأن موسى -عليه السلام-: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (طه: ٣٩) وقال -أيضاً- في شأنه: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ طه: ٤١.

وفي هذه الأبيات بيان لقوله: وحكمته العليا اقتضت ما اقتضت من الفروق...

والمعنى أن الله -عز وجل- دعا إلى دار السلام، وبين طرقها الموصلة إليها، ووضح أن مرجع ذلك إلى تصديق الخبر، وامتثال الأمر، واجتناب النهي؛ فمن كان من أهل السعادة يسره الله لعمل أهل السعادة، وحبَّبَ إليه الإيمان، وزينه في قلبه، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، وجعله من الراشدين؛ فسار بذلك إلى سعادته الأبدية.

ومن كان من أهل الشقاوة لم يبالِ بأمر، ولا نهي، بل كذَّب، وتولى واتبع

---

(١) المفردات ص٢٤٠.

(٢) انظر لسان العرب ٥/٤.

غير سبيل المؤمنين من بعد ما تبين له الهدى؛ فَوُكِل إلى نفسه، ويُسِّر لعمل أهل الشقاوة؛ فاستحق العذاب.

وعلى رواية (لم ينل) بدلاً من (لم يبل) يكون المعنى أنه لا ينال الخير بسبب تركه المأمور به، وفعله المنهيَّ عنه، وذلك بتقدير الشقاء السابق...

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مقرراً هذا المعنى: «فهذه حكمة الله -تعالى- ومشيئته في جميع الأسباب في الدنيا والآخرة، لكن العلم بالأعمال النافعة في الدار الآخرة، والأعمال الضارة أكثره غيب عن عقول الخلق، وكذلك مصير العباد ومنقلبهم بعد فراق هذه الدار، فبعث الله -سبحانه وتعالى- رسله وأنزل كتبه مبشرين ومنذرين؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وحكمته في ذلك تضارع حكمته في جميع خلق الأسباب والمسببات.

وما ذاك إلا أن علمه الأزلي، ومشيئته النافذة، وقدرته القاهرة اقتضت ما اقتضته، وأوجبت ما أوجبته من مصير أقوام إلى الجنة، بأعمال موجبة لذلك منهم.

وخلق أعمالهم وساقهم بتلك الأعمال إلى رضوانه، وكذلك أهل النار كما قال الصادق المصدوق ﷺ لما قيل له: «ألا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟ فقال: **لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فييسر لعمل أهل الشقاوة**»[1].

فبين ﷺ أن السعيد قد ييسر للعمل الذي يسوقه الله -تعالى- به على السعادة،

(١) رواه البخاري (١٣٦٢ و ٤٩٤٥) ومسلم (٢٦٤٧).

وكذلك الشقي، وتيسيره له هو نفس إلهامه ذلك العمل وتهيئة أسبابه، وهذا هو تفسير خلق أفعال العباد، فنفس خلق ذلك العمل هو السبب المفضي إلى السعادة أو الشقاوة، ولو شاء لفعله بلا عمل بل هو فاعله، فإنه ينشئ للجنة خلقاً لما يبقى فيها من الفضل.

يبقى أن يقال: فالحكمة الكلية التي اقتضت ما اقتضته من الأسباب الأول وحقائق ما الأمر صائر إليه في العواقب، والتخصيصات والتمييزات الواقعة في الأشخاص والأعيان، إلى غير ذلك من كليات القدر التي لا تختص بمسألة خلق أفعال العباد، وليس هذا الاستفتاء معقوداً لها، وتفسير جمل ذلك لا يليق بهذا الموضع فضلاً عن بعض تفصيله.

ويكفي العاقل أن يعلم أن الله ـعز وجلـ عليم، حكيم، رحيم، بهرت الألباب حكمته، ووسعت كل شيء رحمته، وأحاط بكل شيء علمه، وأحصاه لوحه وقلمه وأن لله ـتعالىـ في قدره سراً مصوناً، وعلماً مخزوناً احترز به دون جميع خلقه، واستأثر به على جميع بريته، وإنما يصل به أهل العلم وأرباب ولايته إلى جمل من ذلك»[1].

وكما أن الاستقامة على أمر الله، والإيمان بالقضاء والقدر على الوجه الصحيح يثمر سعادة الآخرة ـ فهو كذلك يثمر سعادة الدنيا من سكون القلب، وطمأنينة النفس، وراحة البال؛ فهذه الأمور من ثمرات الإيمان بالقدر، وهي مطلبٌ مُلِحٌ، وهدف منشود، وغاية مُبْتَغاةٌ؛ فكل من في الأرض يبتغيها،

(١) مجموع الفتاوى ٨/٣٩٨ـ٣٩٩.

ويبحث عنها، ويسعى لها سعيها، ولكن كما قيل:

كل من في الوجود يطلب صيداً ... غير أن الشباك مختلفاتُ

فلا يدرك هذه الأمور، ولا يجد حلاوتها، ولا يعلم ثمراتها ـ إلا من آمن بالله وقضائه وقدره؛ فالمؤمن بالقدر ساكن القلب، مطمئن النفس، مرتاح البال، لا يفكر كثيراً في احتمال الشر، ثم إن وقع لم يطِرْ له قلبه شَعاعاً، بل يتحمل ذلك بثبات وصبر؛ إن مرض لم يضاعف مرضه بوهمه، وإن نزل به مكروه قابله بجأش رابط فخفف حدته؛ فمن الحكمة ألا يجمع الإنسان على نفسه بين الألم بتوقع الشر، والألم بحصول الشر.

بل يسعد ما دامت أسباب الحزن بعيدة عنه، فإذا حدثت قابلها بشجاعة واعتدال.

وإنك لتجد عند خواصِّ المسلمين من العلماء العاملين، والعباد القانتين المتبعين من سكون القلب وطمأنينة النفس ما لا يخطر ببال، ولا يدور حول ما يشبهه خيال؛ فلهم في ذلك الشأن القِدْحُ المعلى، والنصيب الأوفى(١).

فهذا أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ورضي عنه ـ يقول: «أصبحت وما لي سرورٌ إلا في مواضع القضاء والقدر»(٢).

---

(١) انظر كلاماً جميلاً في هذا المعنى في كتاب الوسائل المفيدة للحياة السعيدة للشيخ عبدالرحمن السعدي ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن السعدي قسم الثقافة الإسلامية ٢/٤٨١ـ٤٩٥.

(٢) جامع العلوم والحكم ١/٢٨٧، وانظر سيرة عمر بن عبدالعزيز على ما رواه مالك بن أنس وأصحابه، تأليف أبي محمد عبدالله بن عبدالحكم، نسخها وصححها وعلق عليها أحمد عبيد، ط٦، ١٤٠٤هـ، عالم الكتب، ص٩٧.

وهذا شيخ الإسلام أبو العباس أحمد ابن تيمية رحمه الله يقول: «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة»[1].

ويقول مقولته المشهورة عندما زُجَّ به في غياهب السجن: «ما يصنع أعدائي بي؛ أنا جنتي وبستاني في صدري؛ أين رُحْت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة»[2].

بل إنك واجدٌ عند عوام المسلمين من سكون القلب وراحة البال، وبرد اليقين ما لا تجده عند كبار المفكرين والكتاب والأطباء من غير المسلمين[3] فكم من الأطباء من غير المسلمين -على سبيل المثال- من يعجب، ويذهب به العَجَبُ كل مذهب إذا أشرف على علاج مريض مسلم، وتبين له أنه مصاب بداء خطير -كالسرطان مثلاً- فترى هذا الطبيب يحتار في كيفية إخبار المريض بِعلّته، فتجده يقَدِّم رجلاً ويؤَخِّر أخرى، وتجده يمهد الطريق، ويضع المقدمات، كل ذلك خشيةً من شدة تأثر المريض بسماع هذا الخبر.

وما أن يُعْلِمُهُ بمرضه، ويصارحه بعلته - إلا ويفاجأ بأن هذا المريض يستقبل

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم ص٦٩، والشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي، تحقيق وتعليق نجم عبدالرحمن خلف، دار الفرقان، دار الرسالة، ط١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م، ص٣٤.

(٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ٤٠٢/٢، وانظر الوابل الصيب ص٦٩.

(٣) يقول ابن تيمية رحمه الله: «فأما الذي أوتيه علماء أهل الحديث وخواصهم من اليقين والمعرفة - فأمرٌ يجلُّ عن الوصف، ولكن عند عوامِّهم من اليقين، والعلم النافع ما لم يحصل منه شيء لأئمة المتفلسفة المتكلمين، وهذا ظاهر مشهود لكل أحد» نقض المنطق لابن تيمية ص٢٦.

الخبر بنفس راضية، وصدر رحب، وسكينة عجيبة.

لقد أدهش كثيراً من غير المسلمين إيمانُ المسلمين بالقضاء والقدر، فكتبوا في هذا الشأن معبرين عن دهشتهم، مسجلين شهادتهم بقوة عزائم المسلمين، وكبر نفوسهم، وحسن استقبالهم لصعوبات الحياة.

فهذه شهادة حق من قوم حرموا الإيمان بالله، وبقضائه وقدره.

ومليحـــةٍ شــهدت لهــا ضــراتها والفـضل مـا شــهدت بـه الأعـداءُ

ومن هؤلاء الذين كتبوا في هذا الشأن ذلك الكاتب المشهور (ر.ن.س.بودلي) مؤلف كتابَي: (رياح على الصحراء) و(الرسول) وأربعة عشر كتاباً آخر، والذي أورد رأيه (ديل كارنيجي)[1] في كتابه (دع القلق وابدأ الحياة) في مقالة بعنوان (عشت في جنة الله).

يقول بودلي: «في عام ١٩١٨ ولَّيت ظهري العالمَ الذي عرفته طيلة حياتي، ويممت شطر أفريقيا الشمالية الغربية، حيث عشت بين الأعراب في الصحراء، وقضيت هناك سبعة أعوام، أتقنت خلالها لغة البدو، وكنت أرتدي زيهم، وآكل من طعامهم، وأتخذ مظاهرهم في الحياة، وغدوت مثلهم أمتلك أغناماً، وأنام كما ينامون في الخيام، وقد تعمقت في دراسة الإسلام، حتى إنني ألفت كتاباً عن محمد ﷺ عنوانه (الرسول) وكانت تلك الأعوام السبعة التي قضيتها

---

(١) هو الأمريكي المؤسس لمعهد العلاقات الإنسانية بنيويورك، مؤلف كتاب «دع القلق وابدأ الحياة» وكتاب «كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس»، وقد سرت كتبه في الناس وتُرجمت إلى لغات عديدة. انظر مقدمة (دع القلق، وابدأ الحياة) ديل كارنيجي، تعريب عبدالمنعم محمد الزيادي، ١٩٨٠م، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة.

مع هؤلاء البدو الرُّحَّل من أمتع سني حياتي، وأحفلها بالسلام، والاطمئنان، والرضا بالحياة.

وقد تعلمت من عرب الصحراء كيف أتغلب على القلق؛ فهم بوصفهم مسلمين يؤمنون بالقضاء والقدر، وقد ساعدهم هذا الإيمان على العيش في أمان، وأَخْذِ الحياة مأخذاً سهلاً هَيِّناً، فهم لا يتعجلون أمراً، ولا يلقون بأنفسهم بين براثن الهم قلقاً على أمر.

إنهم يؤمنون بأن ما قُدِّر يكون، وأن الفرد منهم لن يصيبه إلا ما كتب الله له.

وليس معنى هذا أنهم يتواكلون أو يقفون في وجه الكارثة مكتوفي الأيدي، كلاَّ».

ثم أردف قائلاً: «ودعني أضرب لك مثلاً لما أعنيه: هَبَّتْ ذات يوم عاصفةٌ عاتيةٌ حملت رمال الصحراء وعبرت بها البحر الأبيض المتوسط، ورمت بها وادي (الرون) في فرنسا، وكانت العاصفة حارةً شديدةِ الحرارة، حتى أحسست كأن رأس شعري يتزعزع من منابته؛ لفرط وطأة الحر، وأحسست من فرط القيظ كأنني مدفوع إلى الجنون.

ولكنَّ العربَ لم يشْكُوا إطلاقاً، فقد هزوا أكتافهم، وقالوا كلمتهم المأثورة: «قضاء مكتوب».

لكنهم ما إن مرت العاصفة حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير، فذبحوا صغار الخراف قبل أن يودي القيظ بحياتها، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء.

فعلوا هذا كله في صمت وهدوء، دون أن تبدو من أحدهم شكوى.

قال رئيس القبيلة ـ الشيخ ـ: لم نفقد الشيء الكبير؛ فقد كنا خليقين بأن نفقد

كل شيء، ولكن حمداً لله وشكراً؛ فإن لدينا نحو أربعين في المائة من ماشيتنا، وفي استطاعتنا أن نبدأ عملنا من جديد».

ثم قال بودلي: «وثمة حادثة أخرى، فقد كنا نقطع الصحراء بالسيارة يوماً، فانفجر أحد الإطارات، وكان السائق قد نسي استحضار إطار احتياطي، وتولاني الغضب، وانتابني القلق والهم، وسألت صحبي من الأعراب: ماذا عسى أن نفعل؟

فذكروني بأن الاندفاع إلى الغضب لن يجدي فتيلاً، بل هو خليق أن يدفع الإنسان إلى الطيش والحمق.

ومن ثم درجت بنا السيارة وهي تجري على ثلاث إطارات ليس إلا، ولكنها ما لَبِثَتْ أن كفَّت عن السير، وعَلِمْتُ أن البنزين قد نفد.

وهنالك ـ أيضاً ـ لم تَثُرْ ثائرةُ أحدٍ من رفاقي الأعراب، ولا فارقهم هدوؤهم، بل مضوا يذرعون الطريق سيراً على الأقدام».

وبعد أن استعرض بودلي تجربته مع عرب الصحراء علق قائلاً: «قد أقنعتني الأعوام السبعة التي قضيتها في الصحراء بين الأعراب الرُّحل ـ أن الملتاثين، ومرضى النفوس، والسِّكِّيرين الذي تحفل بهم أمريكا وأوربا ما هم إلا ضحايا المدنية التي تتخذ السرعة أساساً لها.

إنني لم أعانِ شيئاً من القلق قط وأنا أعيش في الصحراء، بل هنالك في جنة الله وجدت السكينة، والقناعة، والرضا».

وأخيراً ختم كلامه بقوله: «وخلاصة القول: أنني بعد انقضاء سبعة عشر عاماً على مغادرتي الصحراء ـ ما زلت أتخذ موقف العرب حيال قضاء الله، فأقبل

الحوادث التي لا حيلة لي فيها بالهدوء والامتثال والسكينة.

ولقد أفلحت هذه الطباع التي اكتسبتها من العرب في تهدئة أعصابي أكثر مما تفلح آلاف المسكّنات والعقاقير الطبية»[1].

(١) دع القلق وابدأ الحياة، ديل كارنيجي ص٢٩١ـ٢٩٥، وانظر الإيمان بالقضاء والقدر، وأثره على القلق النفسي، طريفة بنت سعود الشويعر، دار البيان العربي، ط١، ١٤٠٨هـ، ص٧٤ـ٧٥.

شرح البيتين [١١٧ ـ ١١٨]

١١٧ـ ولا مخرجٌ للعبد عما به قضى ولكنه مختارُ حُسْنٍ وسوأة

١١٨ـ فليس بمجبورٍ عديمٍ إرادةً[١] ولكنه شاءٍ بخلق الإرادة[٢]

قوله «سوأة»: من السوء، وهو القبح.[٣]

وقوله «عديم»: من العدم، وهو فقدان الشيء، وذهابه[٤].

قوله: «شاءٍ» اسم فاعل من شاء يشاء.

والمعنى: أن العبد في جميع ما ييسر له لا يخرج عن قضاء الله وقدره، ولا عن كونه مختاراً مريداً؛ فليس بالمجبور الذي لا إرادة له، وإنما هو شاءٍ مريدٌ بما أودعه الله من مشيئة يختار بها، وقدرة يفعل بها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ومما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها ـ مع إيمانهم بالقضاء والقدر، وأن الله خالق كل شيء، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه يضل من يشاء، ويهدي من يشاء ـ أن العباد لهم مشيئة وقدرة، يفعلون بمشيئتهم، وقدرتهم ما أقدرهم الله عليه، مع قولهم: إن العباد لا يشاؤون إلا أن يشاء الله، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ، وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ المدثر: ٥٤ـ٥٦».[٥]

---

(١) في مجموع الفتاوى (عديم الإرادة) وفي أ: (أراده).

(٢) في ط: إرادة.

(٣) انظر معجم مقاييس اللغة ١١٣/٣.

(٤) انظر معجم مقاييس اللغة ٢٤٨/٤.

(٥) مجموع الفتاوى ٤٥٢/٨.

ومن خلال البيتين الماضيين وشرحهما يتبين لنا الجواب عن السؤال الذي يرد كثيراً في كتب الفلسفة، وعلم الكلام، وفي كتب بعض المتأخرين وهو: هل الإنسان مسير أو مخير؟

وهناك من يجيب على هذا السؤال بأن الإنسان مسير لا مخير، كما أن هناك من يجيب بأنه مخيَّر لا مُسَيَّر.

والحقيقة أن الإجابة عن هذا السؤال بهذا الإطلاق خطأ؛ ذلك أن الإجابة تحتاج إلى بعض التفصيل.

ووجه الخطأ في الإجابة بأن الإنسان مسيَّر لا مخير تكمن فيما يرد على هذه الإجابة من إشكال؛ فإذا قيل: إنه مسيَّر بإطلاق قيل: كيف يحاسب وهو مسيَّر؟ وكيف يكون مسيراً ونحن نرى أن له مشيئة وقدرة واختياراً؟ وما العمل بالنصوص التي تثبت له المشيئة، والقدرة، والاختيار؟

أما إذا أجيب بأنه مخير لا مسير فيقال: كيف يكون مخيَّراً ونحن نرى أنه قد ولد بغير اختياره؟ ويمرض بغير اختياره؟ ويموت بغير اختياره؟ إلى غير ذلك من الأمور الخارجة عن إرادته.

فإذا قيل: إنه مخير في أفعاله التي تقع بإرادته واختياره، قيل: وأفعاله الاختيارية كذلك؛ فقد يريد أمراً، ويعزم على فعله، وهو قادر على ذلك فيفعله، وقد لا يفعله؛ فقد يعوقه ما يعوقه؛ إذاً فليس كل ما أراد فِعْلَه فَعَلَهُ؛ وهذا شيء مشاهد.

ومن هنا يتبين لنا وجه الخطأ في هذا الجواب؛ فلو كان الإنسان مُسَيَّراً بإطلاق

لما كان له قدرة ومشيئة، ولو كان مخيَّراً بإطلاق لفعل كل ما شاءه؛ فمن قال بالتسيير بإطلاق فهو ألصق بمذهب الجبرية الذين قالوا: إن العبد مجبور على فعله، وأنكروا أن يكون له قدرة ومشيئة وفعل.

ومن قال بالتخيير بإطلاق فهو ألصق بمذهب القدرية النفاة الذين قالوا: بأن الأمر أنف، وأن العبد هو الخالق لفعله، وأنه مستقل بالإرادة والفعل.

فما الجواب -إذاً- عن هذا السؤال؟ وما المخرج من هذا الإشكال؟

الجواب: أن الحق وسط بين القولين، وهدى بين هاتين الضلالتين؛ فيقال -وبالله التوفيق-: إن الإنسان مخير باعتبار، ومسير باعتبار؛ فهو مخير باعتبار أن له مشيئةً يختار بها، وقدرةً يفعل بها؛ لقوله -تعالى-: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ الكهف: ٢٩، وقوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ البلد: ١٠، وقوله: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ البقرة:٢٢٣، وقوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ آل عمران:١٣٣.

ولقوله ﷺ: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز...**»(١)

وقوله: «**صلوا قبل صلاة المغرب**» قال في الثالثة: «**لمن شاء**»(٢) إلى غير ذلك من الأدلة في هذا المعنى.

وهو مسير باعتبار أنه في جميع أفعاله داخل في القدر، راجع إليه؛ لكونه لا يخرج عما قدَّره الله له؛ فلا يخرج في تخييره عن قدرة الله؛ لقوله -تعالى-: ﴿هُوَ

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) رواه البخاري (١١٨٣ و ٧٣٦٨).

الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يونس: ٢٢، وقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ القصص: ٦٨.

ولقوله ﷺ: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة**»[١].

إلى غير ذلك من الأدلة في هذا المعنى.

ولهذا جمع الله بين هذين الأمرين -كون الإنسان مخيراً باعتبار ومسيراً باعتبار- كما في قوله -تعالى-: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ، وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ التكوير: ٢٨-٢٩.

فأثبت -عز وجل- أن للعبد مشيئة، وبَيَّنَ أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله، واقعة بها.

وكذلك الرسول ﷺ كما في قوله: «**ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار**».

قالوا: يا رسول الله: فَلِمَ نعمل؟ أفلا نتكل؟ قال: «**لا، اعملوا فكلٌّ ميسر لما خلق له**»[٢].

فهذا الحديث دليل لما سبق؟ فهو يدل على أن الإنسان مخير؛ لقوله ﷺ: «اعملوا» وعلى أنه لا يخرج في تخييره عن قدر الله؛ لقوله: «فكل ميسر لما خلق له».

---

(١) رواه مسلم(٢٦٥٣).

(٢) رواه البخاري (١٣٦٢ و ٤٩٤٥) ومسلم (٢٦٤٧).

هذا مقتضى أدلة الشرع والواقع في هذه المسألة[1].

فلعل في هذا التقرير إجابة شافية، وجمعاً بين النصوص في هذه المسألة.

---

(١) انظر دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، مطابع الرياض، الطبعة الأولى، ١٣٧٥هـ، ص٢٨٦-٢٨٧، وفتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، جمع وترتيب الشيخ أحمد بن عبدالرزاق الدويش، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤١٢هـ، ٣٧٧/٣-٣٨٠، والقضاء والقدر، للشيخ محمد متولي الشعراوي، دار الندوة، ط٢، ١٤٠٨هـ، ص٩-١٢، ومسألة القضاء والقدر، تأليف: عبدالحليم قنبس وخالد العك، دار الكتاب العربي، حلب، دمشق، ص١١٥-١٥٠، والقضاء والقدر حق وعدل، هشام عبدالرزاق الحمصي، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، ص١١٧-١٢٦.

شرح البيت التاسع عشر بعد المائة

١١٩ـ ومن أعجبِ الأشياءِ خلقُ مشيئةٍ بها صار مختارَ الهدى والضلالة[1]

المعنى: أن من أعجب الأشياء أنْ خَلَق الله للعبد مشيئة يختار بها ما يريد، فيختار بها الهدى إن كان من أهل السعادة، ويختار بها الشقاوة إن كان من أهلها.

والعبد هو العامل والكاسب والفاعل، وإليه ينسب العمل والكسب والفعل من غير أن يجبره أحد، على اختيار الهدى، أو الضلالة.

ويرى الطوفي رحمه الله أن في البيت ملمحاً آخر، فيقول: «والذي ينقدح لي من هذا البيت أن معناه: أيها المعارض في القدر، والسائل عن حقيقة سره أن حكم الله ـتعالى ـ وأحكامه كلها بدائع عجائب تنقطع الأوهام دونها، وتحسر الظنون عن بلوغها.

ومن أعجبها أن الله ـتعالى ـ يخلق للعبد إرادة يختار بها هدى أو ضلالة، وهذه الإرادة المخلوقة في غاية الخفاء حتى لو أردنا تصورها في الخارج على الحقيقة لعسر ذلك علينا.

وإنما نتصورها في الذهن على خفاء فيها مع ذلك، فَمَنْ تؤثر قدرته في جليل الكائنات وحقيرها، وجليِّها وخفيِّها ـ فما لك ولمكافحته على سره؟

فأي حكم الله ـتعالى ـ فهمت على الحقيقة حتى تحاول فهم سر القدر على الحقيقة.

---

(١) في مجموع الفتاوى بالضلالة...

وإذا كنت قد عجزت عن إدراك كثير من حكم الله -تعالى- فاجعل هذا من جملة ما عجزت عن إدراكه من حكمه وأسراره، ودع الخوض فيما يضرك ولا ينفعك؛ فإن له مراده هذا فالله ثمَّ هو أعلم بما أراد»[1].

(١) شرح جواب ابن تيمية ص٦٧.

شرح البيت العشرين بعد المائة

١٢٠ـ فقولك: هل أختار تركاً لحكمه كقولك: هل أختار ترك المشيئة[١]

وفي هذا البيت يشير شيخ الإسلام رحمه الله إلى ما قاله السائل في البيت الثامن من السؤال عندما قال:

وهلْ ليْ اختيارٌ أن أخالفَ حُكْمَهُ فبالله فاشفوا بالبراهين غلتي

فشيخ الإسلام يقول لهذا السائل: إن قولك: «إذا أراد الله الكفر مني، وشاءه، وحكَم عليَّ بذلك فهل بإمكاني أن أخالف ما حكم به الله علي، وقضاه وقدره» مثل قولك: «هل بإمكاني أن أختار ترك المشيئة التي أودعها الله فيَّ، وجعلني أختار بها» فإيرادك أيها السائل كهذا سواء بسواء.

يعني أنك أنت الذي اخترت فعل المعاصي؛ فأنت تعرف من نفسك أنك لا تختار ولا تحب ترك ما تباشره من الكفر والإجرام.

بل تحب فعل ذلك بمحض إرادتك، واختيارك.

---

(١) في مجموع الفتاوى: ...كقولك: هل أختار ترك المشيئة.

وفي الدرة البهية: ... (لحكمه كقولك: هل أختار ترك مشيئتي)، وفي ط: (مشيئةِ).

شرح البيت الحادي والعشرين بعد المائة

١٢١- وأختار[1] لا أختار فعل ضلالة ولو نلت هذا الترك فزت بتوبةِ

يعني لو فرض وقدِّر أنك صادق في قولك: «إني أختار أن لا أختار الضلالة» وكان ذلك صادراً من صميم قلبك - لكان ذلك توبةً منك؛ لأن العبد إذا كانت له إرادة جازمة على فعل ما يحبه الله، وعلى ترك ما يكرهه - أقبل بهذه الإرادة إلى الخيرات، وانصرف عنه السوء، وكان ذلك توبة له من جميع الموبقات.

ولكن من وفق لذلك كان أبعد الناس عن الاحتجاج بالقدر.

---

(١) في ط وعقود: وأختار أن لا آختار.

شرح البيت الثاني والعشرين بعد المائة

١٢٢ـ وذا ممكن لكنه متوقف ... على ما يشاء الله من ذي المشيئة[١]

قوله: «**ذي المشيئة**»: المقصود به ههنا العبد.

والمعنى أن الوصول إلى هذه الدرجة العالية من ترك الضلالة والإقبال على الهدى ـ ممكن في حق كل أحد.

ولكنه ـفي الوقت نفسهـ يتوقف على مشيئة الله وإرادته، ومحض فضله، وعلى الأخذ بالأسباب التي نصبها الله ـعز وجلـ لنيل تلك الدرجة؛ فمن أناب إليه، وتضرع له هداه وشاء منه أن يفعل ما يحبه ويرضاه.

ولهذا فإن أنفع الدعاء أن تسأل الله إعانتك على عبادته، وهذا مقتضى قوله ـتعالىـ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥).

وهذا ما أوصى به النبي ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه حين قال: «**يا معاذ، والله إني لأحبك فلا تنسَ أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[٢].

وفي هذا البيت إشارة إلى فرق لطيف بقوله: «على ما يشاء الله من ذي المشيئة» وهذا الفرق هو أنه إن شاء الله أن يعين العبد على فعل ما يحبه ويرضاه، وشاء من عبده ذلك الفعل ـ حصل المطلوب، وفاز العبد بالمرغوب، واتفقت

---

(١) في أ: المشيَّة.

(٢) رواه أحمد ٥/٢٤٤ و ٢٤٥ و ٢٧٤، وأبو داود (١٥٢٢) والنسائي (١٣٠١) والحاكم ١/٢٧٣، وصححه، ووافقه الذهبي.

الإرادة الشرعية الدينية مع الإرادة الكونية القدرية في حق العبد.

وإن لم يشأ الله إعانة العبد؛ لحكمة ربانية بقي العبد على ما اختاره لنفسه من الإقامة على مساخط الله[1].

(١) انظر الدرة البهية ص١٨٧.

شرح البيت الثالث والعشرين بعد المائة

١٢٣- فدونك فافهم ما به قد أُجِبْتَ مِنْ   معانٍ إذا انحلت بفهم غريزة

قوله: «فافهم»: قال الراغب رحمه الله: «الفهم هيئة للإنسان بها يتحقق معاني ما يحسن، يقال فهمت كذا، وقوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ (الأنبياء: ٧٩).

وذلك إما بأن جعل الله له من فضل قوة الفهم ما أدرك به ذلك، وإما بأن ألقى في رُوْعه، وإما بأن أوصى إليه، وخص به»[١].

وقوله: «انحلت»: من الحل، وهو زوال العقد، وكشف الشبه[٢].

قوله: «غريزة»: الغريزة هي الطبيعة المغروزة في النفوس[٣].

ومعنى البيت: خذ -أيها السائل- هذه الأجوبة لِما سألت عنه، وافهم ما قد أجبتك به؛ فهذه المعاني تحل بغريزة عقل، وهي شفاء لك، وجواب لسؤالك إن كان سؤال استرشاد، ودحض لحجتك، وكشف لشبهتك إن كان سؤال اعتراض وعناد.

---

(١) المفردات ص٤٠٢.

(٢) انظر المفردات ص١٣٣.

(٣) انظر شرح جواب ابن تيمية ص٦٨.

شرح البيت الرابع والعشرين بعد المائة

١٢٤ـ أشارت إلى أصل يشير إلى الهدى ولله رب الخلق أكمل[1] مدحةِ

أي أن هذه الأجوبة المتنوعة تشير إلى هذا الأصل، وتوضح غامض هذه المسألة، وتحل عويصها، وتدل على الهدى في هذا الباب، وهو الانقياد، والتسليم، وترك الاعتراضِ والتنقيبِ؛ فلله المحامد والمدائح كلها على تيسيره، وإعانته؛ فكأنه أراد ختم الجواب بالحمد فهو بمنزلة قول القائل عقيب فراغه من أمر: «الحمد لله رب العالمين»

(١) في هـ: أدوم.

شرح البيت الخامس والعشرين بعد المائة

١٢٥- وصلى إله الخلق جل جلاله ... على المصطفى المختار خير البرية[١]

وهكذا ختم الشيخ رحمه الله هذه الأبيات الجليلة في تلك المسألة العظيمة بالصلاة على المبعوث رحمة للعالمين؛ فهو خير البرية، وأزكاها، والصلاةُ عليه أداءٌ لأقل القليل من شكره، ومحبته؛ إذ إن هذا التوفيق، وتلك الأجوبة بحر من بحور الأنوار التي صدرت من مشكاته ﷺ.

ومعنى صلاة الله على النبي: ثناؤه عليه، وتعظيمه عند الملائكة.

ومعنى صلاتنا عليه: طلب ذلك من الله، أي طلب الزيادة، لا طلب أصل الصلاة.

وهذا هو تفسير التابعي الجليل أبي العالية رحمه الله وهو ما رجحه الحافظ بن ابن حجر رحمه الله[٢].

ومعنى قولنا «**وسلم**»: أي اكتب لمحمد في دعوته، وأمته، وذكره السلامة من كل نقص؛ فتزداد دعوته على مر الأيام علواً، وأمته تكاثراً، وذكره ارتفاعاً.

هذا ما قاله الفيروزبادي رحمه الله في كتابه: «الصِّلات والبشر في الصَّلاة على خير البشر»[٣].

---

(١) هذا البيت ساقط في جميع النسخ إلا في مجموع الفتاوى والعقود.

(٢) انظر فتح الباري ١١/١٦٠.

(٣) انظر كتاب: الصلاة على النبي ﷺ، للشيخ عبدالمحسن بن حمد العباد، دار ابن خزيمة، الرياض، ص١٤-١٥.

وبهذا ينتهي شرح هذه القصيدة المباركة؛ فجزى الله شيخ الإسلام ابن تيمية خير الجزاء، ونفع الأمة بعلومه، ورفعه في أعلى درجات الصديقين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد:

ففي خاتمة هذا البحث هذا إجمال لأهم النتائج التي جاءت فيه؛ مع بعض التوصيات والاقتراحات.

أولاً: أهم النتائج:

١ـ الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، وموضوع من الموضوعات الكبرى التي خاض الناس فيها على اختلاف طبقاتهم وأديانهم، وله ارتباط قولي في حياة الناس اليومية.

٢ـ الإيمان بالقدر يقوم على أركان أربع تسمى مراتب القدر، هي: العلم، والكتابة، والخلق، والمشيئة.

٣ـ القدر هو علم الله، وكتابته للأشياء، ومشيئته، وخلقه لها.

٤ـ الحديث عن القدر لا يمنع بإطلاق، ولا يُفتح بإطلاق، فإن كان الحديث عنه بالمنهج العلمي المعتمد على الكتاب والسنة فذلك لا يمنع، بل قد يجب.

وإن كان خوضاً بالباطل، ولم يقم على الكتاب والسنة فذلك لا يجوز.

٥ـ دل على الإيمان بالقدرِ الكتابُ، والسنةُ، والإجماع، والفطرة، والعقل، والحس.

٦ـ أفعال العباد داخلة في عموم خلق الله ـعز وجلـ فهي من الله خلقاً وإيجاداً، ومن العباد فعلاً وكسباً.

٧ـ التقدير ينقسم إلى خمسة أقسام: التقدير العام، والتقدير الإلهي لعموم البشر، والتقدير العمري، والتقدير السنوي، والتقدير اليومي.

٨ـ الإرادة الربانية تنقسم إلى قسمين كونية قدرية، وشرعية دينية.

٩ـ لله ـعز وجل ـ الحكمة البالغة في كل ما يقدره، وهذه الحكمة تتضمن شيئين: **أحدهما**: حكمة تعود إليه ـتعالى ـ يحبها ويرضاها.

والثاني: حكمة تعود إلى العباد، فهي نعمة عليهم يفرحون بها ويتلذذون.

١٠ـ الأقوال في القدر ترجع إلى ثلاثة: قول أهل الجبر الذين يقولون: إن الإنسان مجبور على أفعاله وليس له إرادة ولا قدرة.

وقول أهل حرية الإرادة، واستقلال الإنسان في أفعاله.

والقول الوسط وهو قول الذين يثبتون القدر، وأن الله خالق كل شيء، ويثبتون ـ مع ذلك ـ أن للإنسان قدرةً يفعل بها، ومشيئةً يختار بها، ويرون أن قدرته ومشيئته واقعتان بقدرة الله ومشيئته، تابعتان لهما.

١١ـ تكاد مصادر أهل السنة تجمع على أن أول من تكلم بالقدر رجل من أهل البصرة اسمه سوسن الذي كان نصرانياً فأسلم، ثم تلقَّف مقالة القدر عنه معبد الجهني، وأخذها عن معبد غيلان الدمشقي، ثم سرت في أهل الاعتزال.

١٢ـ القول الراجح أن الذي أورد السؤال في القدر على شيخ الإسلام ابن تيمية، وجعله على لسان أحد أهل الذمة ـ هو محمد بن أبي بكر السكاكيني.

١٣ـ القصيدة التائية في القدر احتوت على بيان المنهج الحق في القدر، وتضمنت الرد على الطوائف التي ضلت في باب القدر كالقدرية النفاة، والقدرية الجبرية، والقدرية الإبليسية، والفلاسفة وغيرهم.

واشتملت على بيان أسباب الضلال في البشر، وأن الخوض في القدر من أعظم تلك الأسباب.

وتطرقت لمسألة الحكمة والتعليل في أفعال الله -عز وجل- حيث أبدى الشيخ كثيراً، وأعاد في هذه المسألة.

كما ورد في القصيدة حديث عن العدل في قضاء الله، وعن ارتباط الأسباب بالمسببات، وأنه لا تنافي بين الإيمان بالقدر وفعل الأسباب، وبيان ضلال من عطل الأسباب.

كما تضمَّنت حديثاً عن بعض موانع إنفاذ الوعيد كالتوبة والاستغفار، والحسنات الماحية والشفاعة.

كما ورد فيها تفصيل القول في مسألة الرضا بقضاء الله -عز وجل-.

كما كشفت القصيدة كثيراً من الشبه التي طالما حيَّرت العلماء.

واحتوت كثيراً من الحجج والبراهين والإلزامات التي تُفحم الخصوم الذين ضلوا في باب القدر؛ حيث لا يسعهم إلا التسليم.

كما ختمها الشيخ بإسداء النصائح الغالية المنجية من الضلال في القدر وغيره.

فهذا مجمل ما ورد في الرسالة.

ثانياً: توصيات واقتراحات:

أوصي نفسي وإخواني المسلمين عموماً، والباحثين وأهل العلم خصوصاً بوصية الله للأولين والآخرين وهي تقوى الله -عز وجل-.

قال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ (النساء: ١٣١).

ثم أقترح ما يلي:

١- زيادة الاهتمام بتعلم العقيدة، والدعوة إليها، وتيسير فهمها للناس، وربطها بحياتهم، وتعاملهم.

٢- الحرص على باب الإيمان بالقدر، وإخراج رسائل ميسرة تبين مفهومه، وتجيب عن الإشكالات الواردة فيه، والشبه التي تُثار حوله، خصوصاً وأن ذلك يرى في الحياة اليومية كالاحتجاج بالقدر على المعائب، وكترك الأخذ بالأسباب بحجة التوكل على الله والتسليم لقضائه وقدره، مما كان له الأثر السيئ على الأفراد والأمة بل إن ذلك مما لاحظه غير المسلمين كالمستشرق الألماني باول شمتز، حيث قال وهو يؤرخ لحال المسلمين في عصورهم المتأخرة: «طبيعة المسلم التسليم لإرادة الله، والرضا بقضائه وقدره، والخضوع بكل ما يملك للواحد القهار.

وكان لهذه الطاعة أثران مختلفان؛ ففي العصر الإسلامي الأول لعبت دوراً كبيراً في الحروب، وحققت نصراً متواصلاً؛ لأنها دفعت في الجندي روح الفداء.

وفي العصور المتأخرة كانت سبباً في الجمود الذي خيم على العالم الإسلامي،

فقذف به إلى الانحدار، وعزله وطواه عن تيار الأحداث العالمية»[١].

٣ـ معالجة الانحرافات الواقعة في باب القدر بأسلوب قريب للعامة.

ومن تلك الانحرافات قلة اليقين بأن العاقبة للتقوى وللمتقين، ومنها استطلاع المستقبل عند الكهان والمنجمين، وكحال من يصدقون بتأثير الأسماء والأبراج فيما يجري عليهم من قضاء الله وقدره.

كل ذلك يحتاج إلى بيان دجل هؤلاء الكهان والمنجمين، وإلى دحض باطلهم بالأدلة النقلية والعقلية؛ حتى يسلم الناس من الخرافة، وتكون حياتهم على هدى وبصيرة.

٤ـ التنبيه على ما يقع بعد وقوع القدر من التصرفات الخاطئة كالاعتراض على القدر كقول كثير من الناس إذا أصيب بمصيبة: ماذا فعلت يا رب؟ أو أنا لا أستحق ذلك، أو مسكين فلان لقد ظلمته الأقدار، وجارت في حقه، وقست عليه.

وكذلك قول لو، وليت، والقيام بما يشعر بالاعتراض كشق الجيوب، ولطم الخدود، والنياحة، وحلق الشعر، والدعاء بالويل والثبور.

وكذلك الحسد، وتمني الموت إذا وقع على الإنسان ما وقع من البلاء واللأواء، وكذلك الانتحار.

فكل ذلك داخل في الانحراف في هذا الباب، وهو مما يَحْسُن أن يكثر الطرق عليه بأساليب مقربة متنوعة؛ حتى يسلم المسلمون من الوقوع فيما يخالف هذا

---

(١) الإسلام قوة الغد العالمية، باول شمتز، نقله إلى العربية د. محمد شامة، مكتبة وهبة، ص٩٠، وانظر العلمانية، للشيخ د. سفر الحوالي، الدار السلفية، ١٤٠٨هـ، ص٥١٩.

الركن العظيم وهو الإيمان بالقدر.

٥ـ لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله منهج متميز في طرق مسائل القدر، والرد على المخالفين فيه، وله كتابات كثيرة متشعبة في أكثر كتبه حول هذا الشأن؛ فحبذا لو انتدب أحد الدارسين إلى تقديم دراسة عنوانها:

منهج ابن تيمية في مسائل القدر، والرد على المخالفين فيه.

أو: القضاء والقدر عند ابن تيمية.

أو: القضاء والقدر من خلال كتب ابن تيمية.

وأظن أن هذه الدراسة ستكون رافداً من روافد المكتبة الإسلامية، وستخدم الباحثين في هذا الباب أيما خدمة.

وفي ختام هذه التوصيات أصل إلى نهاية هذه الرسالة، سائلاً الله ـعز وجلـ أن يسلك بنا طريق الذين أنعم عليهم، وأن يجنبنا طريق المغضوب عليهم والضالين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الفهارس



فهرس الآيات القرآنية

آيات سورة آل عمران

آيات سورة النساء

آيات سورة المائدة

آيات سورة الأنعام

آيات سورة الأعراف

آيات سورة الأنفال

آيات سورة التوبة

آيات سورة يونس

آيات سورة يوسف

آيات سورة الرعد

آيات سورة إبراهيم

آيات سورة الحجر

آيات سورة النحل

آيات سورة الإسراء

آيات سورة الكهف

آيات سورة مريم

آيات سورة طه

آيات سورة الأنبياء

آيات سورة الحج

آيات سورة المؤمنون

آيات سورة الفرقان

آيات سورة النمل

آيات سورة القصص

آيات سورة الروم

آيات سورة السجدة

آيات سورة الأحزاب

آيات سورة سبأ

آيات سورة فاطر

آيات سورة يس

آيات سورة الصافات

آيات سورة ص

آيات سورة الزمر

آيات سورة غافر

آيات سورة فصلت

آيات سورة الشورى

آيات سورة الدخان

آيات سورة الجاثية

آيات سورة محمد

آيات سورة القمر

آيات سورة الرحمن

آيات سورة الواقعة

آيات سورة المجادلة

آيات سورة الحشر

آيات سورة الصف

آيات سورة الجمعة

آيات سورة التغابن

آيات سورة الطلاق

آيات سورة التحريم

آيات سورة الملك

آيات سورة المدثر

آيات سورة الإنسان

آيات سورة المرسلات

آيات سورة عبس

آيات سورة التكوير

آيات سورة الأعلى

آيات سورة الفجر

آيات سورة البلد

آيات سورة القدر

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس الأقوال المأثورة

فهرس قوافي الشعر

فهرس الأعلام المترجم لهم

فهرس الفرق والطوائف والمذاهب

فهرس المصطلحات العلمية

فهرس الكلمات الغريبة والمشروحة

فهرس الأماكن والبلدان

فهرس المصادر والمراجع

«أ»

١ـ الآداب الشرعية والمنح المرعية، لابن مفلح المقدسي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة (ب.ت).

٢ـ آراء المعتزلة الأصولية دراسة وتقويماً، د. علي بن سعد الضويحي، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٢ـ الإبانة عن أصول الديانة، لأبي حسن الأشعري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤١٠هـ.

٣ـ الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، لابن بطة العكبري، تحقيق ودراسة رضا بن نعسان معطي، ط٢، ١٤٠٩هـ.

٤ـ الأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة للشيخ عبدالرحمن بن محمد الدوسري، مكتبة الرشد، ط٢، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٥ـ الاحتجاج بالقدر، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ط٢، ١٣٩٩هـ، نشره قصي محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة.

٦ـ إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، دار الريان للتراث (ب.ت).

٨ـ أحكام القرآن، لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، ضبط نصه عبدالسلام محمد علي شاهين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت (ب.ت).

٧ـ الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة، لابن قتيبة، قدم له، وعلق عليه، وخرَّج أحاديثه عمر بن محمود أبو عمر، دار الراية للنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

٨ـ الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت، دار القلم، ط٣، ١٩٦٦م.

٩ـ الاستقامة، لابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، توزيع مكتبة السنة، القاهرة، ط٢، ١٤٠٩هـ.

١٠ـ الإسلام قوة الغد العالمية، باول شمتز، نقله إلى العربية د. محمد شامة، مكتبة وهبة (ب.ت).

١١ـ الإشارات والتنبيهات، لابن سينا، تعليق الأستاذ سليمان دنيا، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٦٦هـ.

١٢ـ الأصمعيات، لأبي سعيد عبدالملك بن قريب بن عبدالملك، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام محمد هارون، بيروت، لبنان، ط٥ (ب.ت).

١٣ـ أصول أهل السنة والجماعة، المسماة برسالة الثغر، لأبي الحسن الأشعري، تحقيق الدكتور محمد السيد الجليند، دار اللواء للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

١٤ـ أصول الدين، لعبدالقاهر البغدادي، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

١٥ـ الاعتقاد على مذهب السلف، أهل السنة والجماعة، للبيهقي، السلام العالمية للطبع والنشر والتوزيع (ب.ت).

١٦ـ الأعلام، لخير الدين الزركلي، ط٢، بدون تاريخ، ط٤، دار العلم للملايين، ١٩٧٩م.
١٧ـ الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، للحافظ عمر بن علي البزار، حققه زهير الشاويش، المكتب الإسلامي بيروت، ط٢، ١٣٩٦هـ.
١٨ـ أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة، أو ٢٠٠ سؤال في العقيدة الإسلامية، تأليف الشيخ: حافظ الحكمي، خرَّج أحاديثه وعلّق عليه مصطفى أبو النصر الشلبي، ط٣، ١٤١٠هـ، مكتبة السوادي جدة.
١٩ـ أعيان العصر، وأعوان النصر، لصلاح بن الدين بن خليل الصفدي، تحقيق د. علي أبو زيد وزملائه، ط١، ١٤١٨هـ، دار الفكر دمشق.
٢٠ـ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم الجوزية، تحقيق الشيخ محمد حامد الفقي (ب.ت).
٢١ـ الإفادات والإنشادات، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي الأندلسي تحقيق د. محمد أبو الأجفان، ط١، ١٤٠٣هـ ـ١٩٩٨م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٢٢ـ اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لابن تيمية، تحقيق د. ناصر العقل، مكتبة الرشد، الرياض، ط٢، ١٤١١هـ ـ١٩٩١م.
٢٣ـ إكمال المعلم، شرح لصحيح مسلم، لأبي عبدالله محمد ابن خليفة الوسناني الأبي المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (ب.ت).
٢٤ـ الأمالي لأبي الفداء علي القالي، منشورات المكتب الإسلامي (ب.ت).

٢٥ـ إنباه الرواة على أنباه النحاة، للوزير علي بن يوسف القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية القاهرة، ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م.

٢٦ـ الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، تأليف الإمام الحافظ أبي عمر يوسف بن عبدالبر القرطبي النميري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (ب.ت).

٢٧ـ الإنسان هل هو مسير أم مخير، د.فؤاد العقلي، ط١، ١٩٨٠م، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٢٩ـ الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، للقاضي أبي بكر الطيب الباقلاني، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٣٠ـ إيقاظ الفكرة بمراجعة الفكرة، تأليف محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه محمد صبحي بن حسن حلاق، دار ابن حزم، ط١، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٩٩م.

٣١ـ الإيمان، للإمام ابن مندة، حققه، وعلق عليه وخرج أحاديثه د. علي بن محمد الفقيهي، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م.

٣٢ـ الإيمان بالقضاء والقدر، وأثره على القلق النفسي، طريفة بنت سعود الشويعر، دار البيان العربي، ط١، ١٤٠٨هـ.

«ب»

٣٣ـ باعث النهضة الإسلامية ابن تيمية السلفي نقده لمسالك المتكلمين

والفلاسفة في الإلهيات، د. محمد خليل هراس، مكتبة الصحابة، طنطا، ١٤٠٥هـ، ط٢.

٣٤ـ بدائع الفوائد لابن القيم، مكتبة الرياض الحديثة (ب.ت).

٣٥ـ البداية والنهاية لابن كثير، تحقيق أحمد عبدالوهاب فتيح، دار زمزم، الرياض ١٤١٤هـ، وط دار الكتب العلمية، ط٣، ١٤٠٧هـ، تحقيق أحمد أبو ملحم وزملائه.

٣٦ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للشوكاني، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت (ب.ت).

٣٧ـ برد الأكباد عند فقد الأولاد، للحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي، قدم له عبدالقادر بن شيبة الحمد، مطابع السفراء، الرياض، ١٤٠٠هـ.

٣٨ـ البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، لأبي الفضل عباس ابن منصور التريني السكسكي الحنبلي، تحقيق د.بسام علي سلامة العموش، مكتبة المنارة، الزرقاء الأردن (ب.ت).

٤١ـ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروزبادي، تحقيق الأستاذ محمد علي النجار، المكتبة العلمية بيروت، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة (ب.ت).

٣٩ـ بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالحلول والإتحاد، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د.موسى ابن سليمان الدويش، مكتبة العلوم والحكم، ط١، ١٤٠٨هـ.

٤٠ـ البُلغة في تاريخ أئمة اللغة للفيروز بادي، تحقيق محمد المصري، دمشق، ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

٤١ـ بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، أو نقض تأسيس الجهمية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، بتصحيح وتكميل وتعليق الشيخ محمد ابن عبدالرحمن بن قاسم، ط٢، ١٤٢١هـ، دار القاسم.

«ت»

٤٢ـ تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، دار الثقافة العربية، بيروت، لبنان (ب.ت).

٤٣ـ تاريخ ابن خلدون، لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٠هـ.

٤٤ـ تاريخ مدينة دمشق، للحافظ علي بن الحسين المعروف بابن عساكر، ١٤١٥هـ دار الفكر ببيروت.

٤٥ـ تأريخ مدينة السلام، للخطيب البغدادي، حققه وضبط نصه وعلّق عليه د.بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

٤٦ـ تاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ١٩٨٧م.

٤٧ـ تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ.

٤٨ـ تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، شرحه ونشره السيد أحمد صقر، المكتبة

العلمية، بيروت (ب.ت).

٤٩ـ التبيان في أقسام القرآن لابن القيم، تحقيق محمد شريف سكر، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ.

٥٠ـ تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للمباركفوري، دار الفكر، الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ.

٥١ـ التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، للسخاوي، ط١، ١٩٩٣م، دار الكتب العلمية بيروت.

٥٢ـ التحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية، للشيخ فالح بن مهدي آل مهدي، ط٢، ١٤٠٦هـ.

٥٣ـ التدمرية، تحقيق الإثبات للأسماء والصفات، وحقيقة الجمع بين القدر والشرع، لابن تيمية، تحقيق د.محمد بن عودة السعوي، ط١، ١٤٠٥هـ.

٥٤ـ التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، ألَّف بينها، وترجمها عبدالرحمن بدوي، ط٤، ١٩٨٠م، وكالة المطبوعات الكويت، دار القلم بيروت.

٥٧ـ ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان، لابن الوزير اليماني، دار الكتب العلمية، بيروت، توزيع دار الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٥٥ـ تسلية أهل المصائب للإمام محمد بن محمد المنبجي الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٥٦- التعريفات، للجرجاني، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ١٤١٦هـ - ١٩٥٥م.

٥٧- التعليقات على متن لمعة الاعتقاد، للشيخ عبدالله بن عبدالرحمن ابن جبرين، دار الصميعي، ط١، ١٤١٢هـ.

٦١- تفسير البحر المحيط، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دراسة وتحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبدالموجود وزملائه، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٥٨- تفسير التحرير والتنوير، تأليف العلامة محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس (ب.ت).

٥٩- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٦٠- التفسير القيم، لابن القيم، دار الفكر، تحقيق محمد حامد الفقي ١٤٠٨هـ.

٦١- تقريب التدمرية، للشيخ محمد بن صالح العثيمين، دار الوطن، ط١، ١٤١٢هـ.

٦٢- التنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه العقيدة الواسطية من المباحث المنيفة، للعلامة عبدالرحمن ابن سعدي، مع تعليق سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز، تخريج الشيخ علي بن حسن بن عبدالحميد الحلبي، ط١، ١٤٠٩هـ، دار ابن القيم.

٦٣- تنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمر ونقصانه من الدلائل، للإمام

الشوكاني، علق عليها وخرَّجها الشيخ مشهور بن حسن سلمان، ط١، ١٤١٠هـ، دار ابن حزم، بيروت.

٦٤ـ تنبيه ذوي الألباب السليمة عن الوقوع في الألفاظ المبتدعة الوخيمة، تأليف الشيخ سليمان بن سمحان، دار العاصمة، الرياض (ب.ت).

٦٥ـ توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم الموسومة الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، لأحمد ابن إبراهيم بن عيسى، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٦هـ.

٦٦ـ التوكل على الله وعلاقته بالأسباب، د. عبدالله بن عمر الدميجي، دار الوطن، ط٢، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٦٧ـ تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، لابن سعدي، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ، مكتبة الأقصى عنيزة.

« ج »

٦٨ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت ١٤٠٥هـ.

٦٩ـ الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، عام ١٩٦٦م.

٧٠ـ جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

٧١ـ الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون، جمعه ووضع

فهارسه الشيخ محمد عزير شمس والشيخ علي بن محمد العمران إشراف وتقديم الشيخ بكر أبو زيد، دار عالم الفوائد مكة، ط٢، ١٤٢٢هـ.

٧٢ـ جمهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوت، البابي الحلبي، ط٢، ١٣٨١هـ ـ ١٩٦٢م.

٧٣ـ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، أو الداء والدواء، لابن قيم الجوزية، تحقيق وتعليق عامر بن علي ياسن، دار ابن خزيمة، الرياض، ط١.

«ح»

٧٤ـ الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه، لأبي هلال العسكري، تحقيق د.مروان قباني، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٦هـ ـ١٩٨٦م.

٧٥ـ الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، إملاء: الحافظ قوام السنة أبي القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني، تحقيق ودراسة د. محمد بن ربيع المدخلي ومحمد بن محمود أبو رحيم، ط١، ١٤١١هـ، دار الراية للنشر والتوزيع الرياض.

٧٦ـ الحسنة والسيئة، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

٧٧ـ الحكمة والتعليل في أفعال الله، تأليف: د. محمد بن ربيع المدخلي، ط١، ١٤٠٩هـ، مكتبة لينة للنشر والتوزيع، دمنهور.

٧٨ـ حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧٩ـ حياة الحيوان الكبرى لمحمد بن موسى الدميري، ط٤، ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م.

٨٠ـ الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

«خ»

٨١ـ خلاصة معتقد أهل السنة، تأليف الشيخ عبدالله بن سليمان المشعلي، تحقيق الشيخ عبدالله بن جارالله الجارالله، وخرج أحاديثه، محمد بن صالح الدحيم، مكتبة ابن خزيمة الرياض، ط٣، ١٤١٠هـ.

٨٢ـ خلق أفعال العباد أو الرد على الجهمية وأصحاب التعطيل، للإمام البخاري، ط١، ١٤٠٤هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

«د»

٨٣ـ درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، ط١، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

٨٤ـ دراسات في المعاجم العربية، د.أمين فاخر، ط١، ١٤٠٤هـ ـ١٩٨٤م، مطبعة حسان.

٨٥ـ الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية، لابن تيمية، تأليف الشيخ عبدالرحمن بن سعدي، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن بن سعدي، مركز صالح بن صالح الثقافي، عنيزة، ١٤١١هـ.

٨٦ـ الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جمع الشيخ عبدالرحمن ابن قاسم، ط٥، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

٨٧ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة (ب.ت).

٨٨ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، دار الفكر، ط١، ١٤٠٣هـ، وطبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٨٩ـ الدرة فيما يجب اعتقاده، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم، دراسة وتحقيق وتعليق د.أحمد بن ناصر الحمد، وسعيد ابن عبدالرحمن القزقي، توزيع مكتبة التراث، مكة المكرمة، مطبعة المدني، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٩٠ـ دع القلق، وابدأ الحياة، ديل كارنيجي، تعريب عبدالمنعم محمد الزيادي، ١٩٨٠م، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة.

٩١ـ دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، مطابع الرياض، الطبعة الأولى، ١٣٧٥هـ.

٩٢ـ الدين الخالص، تأليف السيد محمد صديق حسن، مكتبة دار التراث، القاهرة (ب.ت).

٩٣ـ ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، شرح وتعليق د.محمد محمد حسين، الناشر مكتبة الآداب بالجماميز (ب.ت).

٩٤ـ ديوان الإمام الشافعي، جمعه وعلق عليه محمد عفيف الزعبي، دار المطبوعات الحديثة، ط٥ (ب.ت).

٩٥ـ ديوان بشار بن برد، تقديم، وشرح، وتكميل، العلامة محمد الطاهر بن عاشور، مطبعة لجنة التأليف ١٣٦٩هـ ـ١٩٥٠م، علق عليه ووقف على طبعه محمد رفعت فتح الله، ومحمد شوقي أمين.

٩٦ـ ديوان عنترة، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٩٨هـ.

٩٧ـ ديوان لبيد بن ربيعة العامري، دار صادر، بيروت (ب.ت).

٩٨ـ ديوان المتنبي بشرح العكبري، ضبطه وصححه عبدالحفيظ شلبي، ومصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، دار المعرفة، بيروت، لبنان (ب.ت).

«ذ»

٩٩ـ ذيل تاريخ الإسلام، للذهبي، اعتنى به مازن بن سالم باوزير، ط١، ١٤١٩هـ ـ١٩٩٨م، دار المغني الرياض.

١٠٠ـ ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب الحنبلي، مطبعة السنة المحمدية، تحقيق: محمد حامد الفقي، ١٣٧٢هـ.

«ر»

١٠١ـ الرد الأثري المفيد على البيجوري في شرح جوهرة التوحيد، عمر ابن محمود أبو عمر، دار الكتب الأثرية للتحقيق والنشر، ودار الراية للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٩هـ.

١٠٢ـ الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ابن تيمية، طبع ونشر إدارة ترجمان السنة، لاهور باكستان، ط٢، ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م.

١٠٣ـ رسائل في العقيدة، للشيخ محمد بن صالح العثيمين، دار طيبة، الرياض،

ط٢، ١٤٠٦هـ.

١٠٤ـ رسالة أبي حيان في العلوم، لأبي حيان التوحيدي، مكتبة الثقافة الدينية (ب.ت).

١٠٥ـ رسالة السجزي إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت، للإمام أبي النصر عبدالله بن سعيد بن حاتم الوائلي السجزي، تحقيق ودراسة د.محمد باكريم، ط٢، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م، الجامعة الإسلامية عمادة البحث العلمي.

١٠٦ـ الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم، للإمام محمد ابن إبراهيم الوزير اليماني، طبع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٤٠٣هـ.

١٠٧ـ الروضة البهية فيما بين الأشاعرة والماتريدية لأبي عذبة، حققه د. عبدالرحمن عميرة، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٩هـ.

١٠٨ـ الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية، للشيخ زيد بن فياض، ط٢، ١٣٨٨هـ، الناشر مكتبة الرياض الحديثة.

١٠٩ـ الرياض الناضرة، والحدائق الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة، تأليف الشيخ عبدالرحمن بن سعدي، مؤسسة قرطبة، صححه واعتنى به وعلق عليه: أشرف بن عبدالمقصود بن عبدالرحيم (ب.ت).

«ز»

١١٠ـ زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، المكتب الإسلامي، ط٤،

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١١١ - زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، تحقيق وتعليق شعيب الأرناؤوط وعبدالقادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط١٥، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

«س»

١١٢ - السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة، لمحمد بن عبدالله بن حميد النجدي ثم المكي، حققه وقدَّم له الشيخ د. بكر أبو زيد، ود. عبدالرحمن بن سليمان العثيمين، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

١١٣ - سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ: محمد ناصر الدين الألباني، ط٤، ١٤٠٥هـ، المكتب الإسلامي.

١١٤ - سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ط٥، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، المكتب الإسلامي.

١١٥ - سنن ابن ماجة، دار الدعوة، دار سحنون، ترقيم محمد عبدالباقي، ط٢ (ب.ت).

١١٦ - سنن أبي داود، دار الدعوة، دار سحنون، ط٢ (ب.ت).

١١٧ - السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، د. عبدالكريم زيدان، ط١، ١٤١٣هـ، مؤسسة الرسالة.

١١٨ - سنن الترمذي، دار الدعوة، دار سحنون، ط٢ (ب.ت).

١١٩ - السنة لابن أبي عاصم، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٠هـ، تحقيق

الشيخ محمد ناصر الدين الألباني.

١٢٠ـ السنة للإمام عبدالله بن الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق ودراسة د. محمد ابن سعيد القحطاني، رمادي للنشر، والمؤتمن للتوزيع، ط٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

١٢١ـ سنن الدارمي، للإمام الدارمي، دار المغني، الرياض، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

١٢٢ـ سير أعلام النبلاء، للإمام الذهبي، مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، تحقيق شعيب الأرناؤوط.

١٢٣ـ سيرة عمر بن عبدالعزيز على ما رواه مالك بن أنس وأصحابه، تأليف أبي محمد عبدالله بن عبدالحكم، نسخها وصححها وعلق عليها أحمد عبيد، ط٦، ١٤٠٤هـ، عالم الكتب.

«ش»

١٢٤ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لعبدالحي بن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ.

١٢٥ـ شرح الأصول الخمسة، لعبدالجبار الهمذاني، تعليق أحمد ابن الحسين بن أبي هاشم، تحقيق د.عبدالكريم عثمان، مكتبة وهبة، ١٣٨٤هـ-١٩٦٥م.

١٢٦ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي، تحقيق: د.أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة، الرياض (ب.ت).

١٢٧ـ شرح جواب ابن تيمية في قصيدته التائية في القدر، للطوفي، مخطوط

(ب.ت).

١٢٨ـ شرح جوهرة التوحيد، للشيخ إبراهيم الباجوري، نسَّقه وخرج أحاديثه محمد أديب الكيلاني، وعبدالكريم تتان، راجعه وقدم له عبدالكريم الرفاعي، ط، ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

١٢٩ـ شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، المكتبة الثقافية، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.

١٣٠ـ شرح السنة للإمام أبي محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري، تحقيق: د. محمد بن سعيد القحطاني، دار ابن القيم، ط١، ١٤٠٨هـ.

١٣١ـ شرح السنة للبغوي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش، المكتب الإسلامي (ب.ت).

١٣٢ـ شرح العقيدة الأصفهانية لشيخ الإسلام ابن تيمية، حققه سعيد ابن نصر بن محمد، مكتبة الرشد الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

١٣٣ـ شرح العقيدة الطحاوية، حققها وراجعها: جماعة من العلماء، خرج أحاديثها: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٨، ١٤٠٤هـ.

١٣٤ـ شرح العقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تأليف الشيخ محمد خليل الهراس، ضبط نصه وخرج أحاديثه: الشيخ علوي السقاف، ط١، ١٤١١هـ، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، الثقبة.

١٣٥ـ شرح القصائد المشهورات، لابن النحاس، دار الكتب العالمية، بيروت،

لبنان، ط١ ، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٣٦ـ شرح القصيدة النونية ، لابن القيم ، لمحمد خليل هراس ، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر (ب.ت).

١٣٧ـ شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، للشيخ عبدالله بن محمد الغنيمان ، مكتبة لينة ، ط١ ، ١٤٠٩هـ.

١٣٨ـ شرح مطالع الأنظار على متن طوالع الأنوار، الشرح لأبي الثناء شمس الدين محمود بن عبدالرحمن الأصفهاني، والمتن للقاضي عبدالله بن عمر البيضاوي ، المطبعة الخيرية ، ١٣٢٣هـ.

١٣٩ـ شرح المعلقات العشر، للزوزني ، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت ، ١٩٨٣م.

١٤٠ـ شرح المواقف للزنجاني ـ الموقف الخامس ـ تحقيق د.أحمد المهدي ، مكتبة الأزهر، ١٣٩٦هـ.

١٤١ـ الشريعة، للآجري، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ، ١٤٠٣هـ.

١٤٢ـ شعر لبيد بن ربيعة بين جاهليته وإسلامه، د. زكريا عبدالرحمن صيام، مطابع دار الشعب بالقاهرة ، ١٣٩٦هـ.

١٤٣ـ الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، حققه وضبط نصه د.مفيد قميحه ، وراجعه الأستاذ نعيم زرزور، دار الكتب العلمية ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ ـ١٩٨٥م.

١٤٤ـ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن قيم

الجوزية، تحرير الحساني حسن عبدالله، مكتبة دار التراث، القاهرة.

١٤٥ـ الشفاعة، للشيخ مقبل بن هادي الوادعي، ط١، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م، مطبعة المدني.

١٤٦ـ الشفاعة عند أهل السنة والجماعة والرد على المخالفين فيها، د.ناصر بن عبدالرحمن الجديع، ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م، دار أطلس.

١٤٧ـ الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي، تحقيق وتعليق نجم عبدالرحمن خلف، دار الفرقان، دار الرسالة، ط١، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م.

١٤٨ـ شيخ الإسلام أحمد تقي الدين ابن تيمية ـ جهاده ـ وموته ـ عقيدته ـ للشيخ أحمد القطان، والشيخ محمد الزين، مراجعة سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، مكتبة السندس، ط٢، ١٤٠٩هـ.

١٤٩ـ الشيخ عبدالرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة، د.عبدالرزاق العباد، ط١، ١٤١١هـ، مكتبة الرشد.

١٥٠ـ الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي مفسراً، للشيخ عبدالله بن سابح الطيار، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢١هـ.

«ص»

١٥١ـ الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، لابن فارس، علق عليه ووضع حواشيه أحمد حسن بسج، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

١٥٢- صحيح البخاري، للإمام البخاري، بيت الأفكار الدولية، عناية أبي صهيب الكرمي، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

١٥٣- صحيح البخاري، للإمام البخاري، دار سحنون، دار الدعوة، ط٢ (ب.ت).

١٥٤- صحيح الجامع الصغير وزيادته للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، أشرف عليه زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٦هـ.

١٥٥- صحيح سنن الترمذي، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي، الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٥٦- صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، دار الفكر (ب.ت).

١٥٧- صحيح مسلم، عناية أبي صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

١٥٨- صحيح مسلم، للإمام مسلم، من منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، وطبعة دار الدعوة ودار سحنون، بترقيم عبدالباقي (ب.ت).

١٥٩- صفحات من حياة علامة القصيم الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، د. عبدالله بن محمد الطيار، دار ابن الجوزي، ط١، ١٩٩٢م - ١٤١٣هـ.

١٦٠- الصلاة على النبي ﷺ، للشيخ عبدالمحسن بن حمد العباد، دار ابن خزيمة، الرياض (ب.ت).

١٦١ـ الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن قيم الجوزية، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه وقدم له د. علي بن محمد الدخيل الله ، دار العاصمة، الرياض، النشرة الأولى، ١٤٠٨هـ.

١٦٢ـ صيد الخاطر، لابن الجوزي، مكتبة العلم بجدة، مكتبة ابن تيمية (ب.ت).

١٦٣ـ صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان، للشيخ محمد بشير السهسواني الهندي، الناشر مكتبة ابن تيمية، ط٤، ١٤١٠هـ.

«ض»

١٦٤ـ ضعيف سنن بن ماجه، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، المكتب الإسلامي، بيروت.

«ط»

١٦٥ـ طبقات الحنابلة، للقاضي أبي يعلى، ط دار المعرفة (ب.ت).

١٦٦ـ طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، تحقيق محمود الطناحي، عبدالفتاح الحلو، ط١، ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م، مطبعة عيسى البابي الحلبي.

١٦٧ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن قيم الجوزية، ضبط نصه وخرج أحاديثه عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، ط١، ١٤٠٩هـ.

«ع»

١٦٨ـ عالم الجن والشياطين، د. عمر الأشقر، دار النفائس، الأردن، ط١٥، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

١٦٩ـ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، لزكريا بن محمد بن محمود القزويني، المكتبة الأموية، عمان، الأردن (ب.ت).

١٧٠ـ العقائد العضدية، للأيجي، شرح جلال الدين الدواني، وعليها حاشية إسماعيل الكلنوبي، وحاشية المرجاني، وحاشية الخلخالِ، المطبعة العثمانية، استانبول، ١٣١٦ هـ.

١٧١ـ العقد الثمين في معرفة رب العالمين، للأمير الحسن بن بدر الدين محمد بن أحمد بن يحيى، تحقيق يحيى الفضيل، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٣٩٢هـ.

١٧٢ـ العقل والنقل عند ابن رشد، د.محمد أمان الجامي، ط٣، ١٤٠٤هـ، الجامعة الإسلامية.

١٧٣ـ العقود الدرية، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي، دراسة وتحقيق أبي مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، الناشر الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ط٢، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.

١٧٤ـ عقيدة السلف وأصحاب الحديث، للإمام أبي عثمان إسماعيل ابن عبدالرحمن الصابوني، دراسة وتحقيق د.ناصر بن عبدالرحمن الجديع، ط١، دار العاصمة، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٧٥ـ العقيدة الواسطية، شرح الشيخ د. صالح الفوزان، ط٥، ١٤١١هـ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

١٧٦ـ العقيدة الواسطية، وضع حواشيها وأشرف على تصحيحها الشيخ محمد ابن مانع، طبع بمطابع الإشعاع بالرياض (ب.ت).

١٧٧ـ علماء نجد خلال ثمانية قرون، تأليف الشيخ عبدالله البسام، دار العاصمة الرياض، ط٢، ١٤١٩هـ.

١٧٨ـ العلمانية، للشيخ د. سفر الحوالي، الدار السلفية، ١٤٠٨هـ.

١٧٩ـ عنوان المجد في تاريخ نجد، للعلامة عثمان بن بشر، مكتبة الرياض الحديثة (ب.ت).

«غ»

١٨٠ـ غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، دار الكتاب العربي، ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م، ط١، طبعة مصورة عن السلسلة الجديدة من مطبوعات دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد، الدكن، الهند.

«ف»

١٨١ـ فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم، جمع وترتيب الشيخ محمد ابن قاسم، ط١، مطبعة الحكومة بمكة المكرمة، ١٣٩٩هـ.

١٨٢ـ الفتاوى الكبرى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق وتعليق وتقديم محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ.

١٨٣ـ فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، جمع وترتيب الشيخ أحمد بن عبدالرزاق الدويش، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤١٢هـ.

١٨٤ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر العسقلاني، مكتبة ابن تيمية، ط١، ١٤٠٧هـ.

١٨٥ـ فتح رب البرية بتلخيص الحموية للشيخ محمد بن صالح العثيمين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط٤، ١٤١٠هـ.

١٨٦ـ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، للإمام محمد بن علي الشوكاني، عالم الكتب، وطبعة دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، تحقيق عبدالرزاق المهدي، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

١٨٧ـ الفرق بين الفرق، لعبدالقاهر البغدادي، مطبعة المدني، حقق أصوله وضبط مشكله وعلق عليه محمد محي الدين عبدالحميد (ب.ت).

١٨٨ـ الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لابن تيمية، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٤، ١٤٠٨هـ.

١٨٩ـ الفروق في اللغة، لأبي هلال العسكري، حققه وعلق على حواشيه ووضع فهارسه جمال عبدالغني مدغمش، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

١٩٠ـ الفلسفة القرآنية، لعباس محمود العقاد، ط. دار الكتاب اللبناني (ب.ت).

١٩١ـ الفوائد، لابن القيم، تحقيق محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ.

١٩٢ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، لبنان، ط٢، ١٣٩١هـ.

«ق»

١٩٣ـ القاضي أبو يعلى وكتابه مسائل الإيمان، دراسة وتحقيقاً، حققه سعود بن

عبدالعزيز الخلف، دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤١٠هـ.

١٩٤ـ القاموس المحيط، للفيروزأبادي، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٧هـ.

١٩٥ـ القضاء والقدر، لابن تيمية، ضبط وتنسيق وتعليق د.أحمد ابن عبدالرحيم السايح ود.السيد الجميلي، دار الكتاب العربي بيروت، ط٣، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

١٩٦ـ القدر لأبي بكر جعفر بن محمد الفريابي، تحقيق عمرو عبدالمنعم سليم، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

١٩٧ـ القضاء والقدر، أبو الوفاء محمد درويش، المكتبة الإسلامية، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٩٨ـ القضاء والقدر، أسعد محمد سعيد الصاغرجي، دار القبلة للثقافة الإسلامية، ١٤١٢هـ.

١٩٩ـ القضاء والقدر، د. عمر الأشقر، دار النفائس للنشر والتوزيع، الكويت، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٠هـ.

٢٠٠ـ القضاء والقدر، للشيخ محمد بن صالح العثيمين، مؤسسة أسام، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٢٠١ـ القضاء والقدر، للشيخ محمد متولي الشعراوي، دار الندوة، ط٢، ١٤٠٨هـ.

٢٠٢ـ القضاء والقدر حق وعدل، هشام عبدالرزاق الحمصي، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٢٠٣ـ القضاء والقدر في الإسلام، د. فاروق أحمد الدسوقي، المكتب الإسلامي، بيروت، مكتبة الخاني، ط٢، ١٤٠٦هـ، الرياض.

٢٠٤ـ القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة، ومذاهب الناس فيه، للشيخ د.عبدالرحمن بن صالح المحمود، دار الوطن، ط٢، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

«ك»

٢٠٥ـ كتاب الإيمان لابن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ.

٢٠٦ـ كتاب الصفدية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، ١٤٠٦هـ.

٢٠٧ـ كشف الأستار عن زوائد البزار، تأليف الحافظ نور الدين الهيثمي، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٤هـ.

٢٠٨ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى عبدالله القسطنطي المعروف بحاجي خليفة، دار الفكر، ١٤٠٢هـ.

٢٠٩ـ الكليات ـ معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، قابله على نسخة خطية، وأعده للطبع ووضع فهارسه د. عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

«ل»

٢١٠ـ لسان العرب، لابن منظور الأفريقي، دار الفكر (ب.ت).

٢١١ـ لسان الميزان، للحافظ ابن حجر، اعتنى به الشيخ عبد الفتاح أبوغدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، ط١، ١٤٢٣هـ.

٢١٢ـ اللباب في علوم الكتاب، للإمام المفسر أبي حفص عمر بن علي بن عادل الحنبلي، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبدالموجود وزملائه، توزيع مكتبة عباس أحمد الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٢١٢ـ لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد، لابن قدامة، شرح الشيخ محمد ابن عثيمين، ط٢، ١٤١٢هـ، مكتبة الإمام البخاري، الدار السلفية، حققه وخرَّج أحاديثه: أشرف بن عبدالمقصود ابن عبدالرحيم.

٢١٣ـ لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد، لابن قدامة، خرَّج أحاديثها وعلَّق عليها بدر بن عبدالله البدر، الدار السلفية، ط١، ١٤٠٦هـ.

٢١٤ـ لوامع الأنوار البهية، وسواطع الأسرار الأثرية، شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية، تأليف العلامة محمد بن أحمد السفاريني، المكتب الإسلامي، بيروت، مكتبة أسامة، الرياض، ط٢، ١٤٠٥هـ.

« م »

٢١٥ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي، ط٢، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م، دار الكتاب العربي، بيروت.

٢١٦ـ المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن بن سعدي، مركز صالح ابن صالح الثقافي، عنيزة، ١٤١١هـ.

٢١٧ـ المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، ط: دار الكتاب اللبناني (ب.ت).

٢١٨ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن

قاسم وابنه محمد (ب.ت).

٢١٩ـ محاضرات في النصرانية، للشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ط٣ (ب.ت).

٢٢٠ـ المختار في أصول السنة، تأليف أبي الحسن أحمد البنا الحنبلي، تحقيق د. عبدالرزاق العباد، مكتبة العلوم والحكم، المدينة النبوية، ط١، ١٤١٣هـ.

٢٢١ـ مختصر التحفة الاثني عشرية، تأليف شاه عبدالعزيز الإمام ولي الله أحمد عبدالرحيم الدهلوي، تعريب الشيخ علام محمد بن محيي الدين عمر الأسلمي، اختصره وهذبه السيد محمود شكري الألوسي، تحقيق وتعليق محب الدين الخطيب، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤٠٤هـ.

٢٢٢ـ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم، تحقيق وتعليق المعتصم بالله البغدادي، توزيع دار النفائس، الرياض، ط١، ١٤١٠هـ.

٢٢٣ـ المدرسة الفلسفية في الإسلام بين المشائية والإشراقية، أ.د.محمد إبراهيم الفيومي، ضمن أبحاث ندوة (نحو فلسفة إسلامية معاصرة) (ب.ت).

٢٢٤ـ مذاهب الإسلاميين، لعبدالرحمن بدوي، ط ١٩٧١م، دار العلم للملايين.

٢٢٥ـ المسائل التي لخصها شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب من فتاوى ابن تيمية للشيخ محمد بن عبدالوهاب، تحقيق وتعليق السيد ابن عبدالمقصود الأثري، ط١، ١٤٠٨هـ، دار عالم الكتب.

٢٢٦ـ المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة، جمع وتحقيق ودراسة عبدالإله الأحمدي، دار طيبة، ط١، ١٩٩١م ـ ١٤١٢هـ.
٢٢٧ـ مسألة القضاء والقدر، تأليف: عبدالحليم قنبس وخالد العك، دار الكتاب العربي، حلب، دمشق (ب.ت).
٢٢٨ـ المستدرك على الصحيحين للحاكم، الناشر مكتبة النصر الحديثة، الرياض (ب.ت).
٢٢٩ـ المستصفى من علم الأصول، لأبي حامد الغزالي، تحقيق د. حمزة بن زهير حافظ (ب.ت).
٢٣٠ـ مسند أبي يعلى الموصلي، تحقيق حسين سليم أسد، ط١، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٨م، دار المأمون للتراث، دمشق.
٢٣١ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار الدعوة، دار سحنون، ط٢ (ب.ت).
٢٣٢ـ المسند للإمام أحمد بن حنبل، شرحه وصنع فهارسه الشيخ أحمد محمد شاكر، مكتبة دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة، ط٢ (ب.ت).
٢٣٣ـ مسند الجعد، للحافظ أبي الحسين علي بن الجعد بن عبيد الجوهري، تحقيق د. عبدالمهدي بن عبدالقادر بن عبدالهادي، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، مكتبة الفلاح، الكويت.
٢٣٤ـ مسند الشهاب لمحمد سلامة القضاعي، تحقيق الشيخ حمدي بن عبدالمجيد السلفي، ط٢، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، مؤسسة الرسالة.
٢٣٥ـ معارج القبول لشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد، للشيخ

حافظ الحكمي، مكتبة ابن تيمية، ط٢، ١٤٠٤هـ.

٢٣٦ـ المعتزلة، لزهري حسين جارالله، المكتبة الأزهرية للتراث (ب.ت).

٢٣٧ـ المعتزلة بين القديم والحديث، محمد العبدة، طارق عبدالحليم، دار الأرقم، برمنجهام، ط١، ١٤٠٨هـ.

٢٣٨ـ المعتزلة وأصولهم الخمسة، وموقف أهل السنة منها، د. عواد بن عبدالله المعتق، دار العاصمة، الرياض، النشرة الأولى ١٤٠٩هـ.

٢٣٩ـ المعتمد في أصول الدين، لأبي يعلى الفراء، المطبعة الكاثوليكية بيروت، ط١ (ب.ت).

٢٤٠ـ معجم الأدباء، أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، لياقوت الحموي، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

٢٤١ـ معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، دار الشروق (ب.ت).

٢٤٢ـ معجم البلدان لياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان (ب.ت).

٢٤٣ـ المعجم الصغير للطبراني، تصحيح عبدالرحمن محمد عثمان، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م، المكتبة السلفية، المدينة.

٢٤٤ـ المعجم الفلسفي، د.جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

٢٤٥ـ معجم الطبراني الكبير، ط٢، ١٤٠٤هـ.

٢٤٦ـ معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس، بتحقيق وضبط عبدالسلام هارون، طبعة دار الجيل، ط١، ١٤١١هـ.

٢٤٧ـ معجم المناهي اللفظية، للشيخ د. بكر بن عبدالله أبو زيد، دار ابن الجوزي، ط٢، ١٤١٠هـ.

٢٤٨ـ المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، للعراقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٢٤٩ـ المغني في أبواب التوحيد والعدل، عبدالجبار الهمذاني، تحقيق مجموعة من المحققين، ط القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر.

٢٥٠ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

٢٥١ـ مفتاح دار السعادة، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت (ب.ت).

٢٥٢ـ المفضليات، للمفضل بن محمد الضبي، تحقيق أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٦ (ب.ت).

٢٥٣ـ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ضبط هيثم طعيمي، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

٢٥٤ـ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، لأبي الحسن الأشعري، دار إحياء التراث، بيروت، عني بتصحيحه هلموت ريتر، ط٣ (ب.ت).

٢٥٥ـ الملل والنحل، للشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة بيروت لبنان (ب.ت).

٢٥٦ـ المنتقى من فرائد الفوائد للشيخ ابن عثيمين، دار الوطن، ١٤١١هـ، ط١.

٢٥٧ـ منهاج السنة النبوية لابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، ط١، ١٤٠٦هـ.

٢٥٨ـ منهج الأشاعرة في العقيدة، للشيخ د. سفر الحوالي، الدار السلفية، الكويت، ط١، ١٤٠٧هـ.

٢٥٩ـ منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة، تامر محمد محمود متولي، دار ماجد عسيري، جدة، ط١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٢٦٠ـ منهج القرآن في القضاء والقدر، محمود غريب، مكتبة الثقافة الإسلامية، المكتبة السلفية، ط٥، ١٤٠٥هـ.

٢٦١ـ الموطأ للإمام مالك بن أنس، محمد عبدالباقي، دار الحديث (ب.ت).

٢٦٢ـ موقف ابن تيمية من الأشاعرة د. عبد الرحمن المحمود، مكتبة الرشد، الرياض ط٢، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٢٦٣ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال لأبي عبد الله محمد بن عثمان الذهبي، تحقيق محمد علي البجاوي، دار الفكر للطباعة والنشر، القاهرة ط٢، ١٤٠٧هـ.

«ن»

٢٦٤ـ النبوات، لشيخ الإسلام ابن تيمية، دراسة وتحقيق محمد عبدالرحمن عوض، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.، وط أضواء السلف، تحقيق د.عبدالعزيز الطويان، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

٢٦٥ـ نتائج الأفكار في شرح حديث سيد الاستغفار للشيخ العلامة محمد بن أحمد السفاريني، أشرف عليه عبد العزيز بن سليمان الهبدان، وعبد العزيز بن إبراهيم الدخيل، دار الصميعي للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٢٦٦ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد محمد المقري التلمساني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، لبنان (ب.ت).

٢٦٧ـ نقض المنطق، لشيخ الإسلام ابن تيمية، حققه الشيخ محمد ابن عبدالرزاق حمزة والشيخ سليمان الصنيع، وصححه الشيخ محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية (ب.ت).

٢٦٨ـ النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير، تحقيق: طاهر الزواوي ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت (ب.ت).

«هـ»

٢٦٩ـ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، لابن قيم الجوزية، دار الريان، تقديم وتحقيق د. أحمد حجازي السقا، دار المطبعة السلفية.

٢٧٠ـ هذه هي الصوفية، تأليف الشيخ عبدالرحمن الوكيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ١٩٨٤م.

«و»

٢٧١ـ الوابل الصيب من الكلم الطيب، للإمام ابن قيم الجوزية، دراسة وتحقيق: محمد عبدالرحمن عوض، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٢٧٢ـ الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، مطبعة دار صادر، بيروت، ١٣٩٣هـ.

٢٧٣ـ الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، دراسة وموازنة د.سليمان ابن صالح القرعاوي، مكتبة الرشد، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.
٢٧٤ـ الوصية الصغرى لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد بن إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة، الرياض، ط١، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.
٢٧٥ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، حققه إحسان عباد، دار صادر بيروت (ب.ت).

«ي»

٢٧٦ـ ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن، لأبي عُمَر محمد ابن عبدالواحد البغدادي الزاهد المعروف بغلام ثعلب، حققه وقدم له د.محمد ابن يعقوب التركستاني، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢.
٢٧٧ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، لأبي منصور عبدالملك ابن إسماعيل الثعالبي، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، دار الفكر بيروت، ط٢، ١٩٧٣مـ ١٣٩٢هـ.
٢٧٨ـ اليهودية، د.أحمد شلبي، ط٥، ١٩٧٨م، مكتبة النهضة المصرية.

فهرس الموضوعات

صدر للمؤلف

١- رسائل في العقيدة.

٢- عقيدة أهل السنة والجماعة، قراه وقدم له: سماحة الشيخ عبدالعزيز ابن باز رحمه الله.

٣- الإيمان بالقضاء والقدر، قراه وقدم له: سماحة الشيخ عبدالعزيز ابن باز رحمه الله.

٤- شرح وتحقيق القصيدة التائية في القدر لشيخ الإسلام ابن تيمية.

٥- الإيمان باليوم الآخر.

٦- مختصر الإيمان بالقضاء والقدر.

٧- مختصر عقيدة أهل السنة والجماعة؛ المفهوم والخصائص.

٨- لا إله إلا الله: معناها - أركانها - فضائلها - شروطها.

٩- توحيد الربوبية.

١٠- توحيد الألوهية.

١١- توحيد الأسماء والصفات.

١٢- الإيمان بالله، ترجم إلى الإنجليزية.

١٣- الإيمان بالكتب.

١٤- كلمات في المحبة والخوف والرجاء، ترجم إلى الإنجليزية.

١٥- الطيرة.

١٦- نبذة مختصرة عن الشفاعة، والشرك، والرقية، والتمائم، والتبرك.

١٧- الطريق إلى الإسلام، ترجم إلى الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والسنهالية، والهندية، والتاميلية، والصينية، والبشتو، والميلبارية.

١٨- الشيوعية. ١٩- البابية.

٢٠- البهائية. ٢١- القاديانية. ٢٢- الوجودية.

٢٣ـ رسائل في الأديان والمذاهب والفرق.

٢٤ـ شرح رسالة الشيخ عبدالرحمن السعدي (الأسباب والأعمال التي يضاعف بها الثواب).

٢٥ـ مصطلحات في كتب العقائد (دراسة وتحليل).

٢٦ـ السحر بين الماضي والحاضر.

٢٧ـ التقريب لتفسير (التحرير والتنوير) لابن عاشور.

٢٨ـ أغراض السور في تفسير (التحرير والتنوير) لابن عاشور.

٢٩ـ مدخل لتفسير (التحرير والتنوير) لابن عاشور.

٣٠ـ الدعاء مفهومه ـ أحكامه ـ أخطاء تقع فيه، قرأه وعلق عليه: سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله.

٣١ـ التوبة وظيفة العمر. ٣٢ـ الطريق إلى التوبة. ٣٣ـ توبة الأمة.

٣٤ـ شرح وتحقيق الوصية الصغرى لشيخ الإسلام ابن تيمية.

٣٥ـ من صور تكريم الإسلام للمرأة

٣٦ـ من أقوال الرافعي في المرأة.

٣٧ـ رمضان دروس وعبر تربية وأسرار.

٣٨ـ الحج آداب وأسرار ومشاهد.

٣٩ـ جوانب من سيرة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله.

٤٠ـ من أحوال سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز في الحج.

٤١ـ الرسائل المتبادلة بين الشيخ ابن باز والعلماء.

٤٢ـ الهجرة دروس وفوائد.

٤٣ـ معالم في التعامل مع الفتن.

٤٤ـ رسائل في التربية والأخلاق والسلوك.

٤٥ـ الأسباب المفيدة في اكتساب الأخلاق الحميدة.

٤٦ـ أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة.

٤٧- فقر المشاعر.

٤٨- سوء الخلق.. مظاهره.. أسبابه.. العلاج، قرأه سماحة الشيخ عبدالعزيز ابن باز رحمه الله.

٤٩- لطائف في تفاضل الأعمال الصالحة.

٥٠- عقوق الوالدين.. أسبابه.. مظاهره.. سبل العلاج.

٥١- قطيعة الرحم.. المظاهر.. الأسباب.. سبل العلاج.

٥٢- التقصير في تربية الأولاد.. المظاهر.. سبل الوقاية والعلاج.

٥٣- التقصير في حقوق الجار.

٥٤- الكذب.. مظاهره.. علاجه.

٥٥- العشق.. حقيقته.. خطره.. أسبابه.. علاجه.

٥٦- الجريمة الخلقية.

٥٧- الفاحشة (عمل قوم لوط) الأسباب - العلاج.

٥٨- لماذا تدخن؟.

٥٩- إلى بائع الدخان.

٦٠- رسائل في الزواج والحياة الزوجية.

٦١- أخطاء في مفهوم الزواج.

٦٢- من أخطاء الأزواج.

٦٣- من أخطاء الزوجات.

٦٤- الهمة العالية، قرأه وقدم له: سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله.

٦٥- الصداقة بين العلماء (نماذج تطبيقية معاصرة).

٦٦- مع المعلمين.

٦٧- رسالة إلى طالب نجيب، ترجم إلى الأردية.

٦٨- الإنترنت امتحان الإيمان والأخلاق والعقول.

٦٩- الجوال آداب وتنبيهات.

٧٠- رسائل في أبواب متفرقة.
٧١- محمد رسول الله: خلاصة سيرته، ومقالات نادرة فيها.
٧٢- الرحمة والعظمة في السيرة النبوية.
٧٣- تراجم - لتسعة من الأعلام
٧٤- فقه اللغة مفهومه - موضوعاته - قضاياه.
٧٥- مقدمة في فقه اللغة.
٧٦- الارتقاء بالكتابة.
٧٧- المنتقى من بطون الكتب (المجموعة الأولى).
٧٨- المنتقى من بطون الكتب (المجموعة الثانية).
٧٩- المنتقى من بطون الكتب (المجموعة الثالثة).
٨٠- المنتقى من بطون الكتب (المجموعة الرابعة).
٨١- مقالات لكبار كتاب العربية في العصر الحديث (المجموعة الأولى).
٨٢- مقالات لكبار كتاب العربية في العصر الحديث (المجموعة الثانية).
٨٣- مقالات لكبار كتاب العربية في العصر الحديث (المجموعة الثالثة).
٨٤- كلمات متنوعة في أبواب متفرقة ١.
٨٥- كلمات متنوعة في أبواب متفرقة ٢.
٨٦- كلمات متنوعة في أبواب متفرقة ٣.
٨٧- كلمات متنوعة في أبواب متفرقة ٤.
٨٨- خواطر.
٨٩- ارتسامات